

تَحْقِيقُ الْفَلَاحِ

شَرْحُ

رَأْيِ ابْنِ الصَّالِحِينَ

كَتَبَهُ الشَّيْخُ

أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ الْبَغْدَادِيُّ الرَّقْعَرِيُّ

المجلد
الثاني

تَحْفِظَةُ الْفَلَاحِيَّةِ

شَيْخُ

أَبَا خُذِّ الصَّالِحِينَ

كُنْبَةُ الشَّيْخِ

أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ زَيْدِ الْجَهْوَرِيِّ الرَّغْفَرِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَحْقِيقُ الْفَلَاحِيْنِ
شَيْخُ
مَنْبَاذِ الصَّنَائِعِيْنِ

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ

المجلد الثاني

كَتَبَهُ الشَّيْخُ
أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُجِيبِ بْنِ زَيْدٍ الْجُبُورِيُّ الرَّغَاوِيُّ

٢٧ - باب تعظيم حرّامات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [سورة الحج: ٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: ٣٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر: ٨٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة: ٣٢].

الشرح:

هذا باب عظيم، تطرق فيه المصنف إلى أمور عدة:

الأمر الأول: (تعظيم حرّامات المسلمين) وما لهم من المنزلة، فلا يجوز الكلام في أعراسهم، ولا الأذية لأبدانهم، ولا الأخذ لأموالهم.

(وبيان حقوقهم) أي: أن لهم حقوقاً قولية، وحقوقاً فعلية، وحقوقاً اعتقادية فمن الحقوق القولية: رد السلام، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن الحقوق الفعلية: الإعانة فيما هم فيه، والصدقة عليهم، ومن الحقوق الاعتقادية: حسن الظن بهم، والولاء لهم، والحب لهم، فحقوق كثيرة.

(والشفق عليهم) أي: الرحمة والشفقة، ألا يكلفوا ما لا يطيقون وما لا يحتملون، ويكون الرجل لأخيه المسلم رحيماً رقيقاً، فما أجمل هذا الأمر لو طبق بين المسلمين! لكان الحال كما قال النبي ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ** **بَعْضًا**»^(١).

(١) متفق عليه: البخاري حديث رقم: (٦٠٢٦)، ومسلم حديث رقم: (٢٦٢٧).

لو كانت عندك عدة حجرات واحدة هنا واحدة هنا واحدة هنا ماذا تستفيد منها؟ لا فائدة، لا تظل ولا تقبل ولا تُكن، لكن لو كانت حجرة بجانب حجرة تبني منها الأدوار وتكون مفيدة.

فإذا كان المجتمع المسلم قد أصيب بالحزبيات وأسباب الفرقة من البدع وغيرها فليكن مجتمع أهل السنة على صفاء ونقاء وحب وغير ذلك، فليؤد بعضنا بعضا لأخيه حقه الذي أوجبه الله عليه، سواء كان الحق بالقول أو بالفعل أو بالاعتقاد.

(وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ) والمسلم شأنه عظيم، قال ابن عمر حين نظر إلى الكعبة: ما أعظمك وأعظم حرمتك! ولسفك دم المسلم أعظم عند الله منك، أو كما قال، وسيأتي أدلة تحريم الغيبة، أدلة تحريم النيمة، أدلة تحريم القتل، أدلة تحريم أكل المال، كلها دالة على عظم هذا المسلم.

(وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) والمسلم قائم بشعائر الله، فلا بد أن يعظم بقدر استقامته.

(وَلْخِفْضُ جَنَاحِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) يعني: بعدم رفع الصوت عليهم، وبعدم الهجر لهم، وبعدم الأذى، وهو دليل على التواضع لهم، وسيأتي حديث: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا».

(مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) هذا دليل على حرمة المسلم.

٢٢٢ - وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ^(١)

الشرح:

قوله: (أبو موسى) هو عبد الله بن قيس الأشعري.
(الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ) أي: المؤمن لأخيه المؤمن كالحجرة مع أختها،
وكاللبنة مع أختها.

(يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا): يقوى بعضهم ببعض.

يأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا وإذا افترقنا تكسرت أحادا
(وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) انظر إلى الأصابع إذا تشبكت تجرّها تكون كالسلسلة
وكالحبل.

وقلت في "شرحي على صحيح مسلم": وما ترونه من ضعف المسلمين الآن
أمام الأعداء من اليهود والنصارى من إليهم سببه ضعف هذا الترابط، الذي جعله الله
عَزَّوَجَلَّ بين المؤمنين، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [سورة التوبة:
٧١]: بعضهم من بعض. اهـ

٢٢٣ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا، أَوْ أَسْوَاقِنَا،
وَمَعَهُ نَبَلٌ فَلْيُمْسِكْ، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نَصَاهَا بِكَفِّهِ؛ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا
بِشَيْءٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ^(٢)

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٧٥)، ومسلم (٢٦١٥).

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان عظم شأن المسلم، حتى أن النبي ﷺ أمر من مر في أسواق المسلمين وفي مساجدهم وأماكن تجمعهم ومعه سلاح من نصل أو سيف أو غيره فليمسك على نصلها الذي قد يؤدي إلى الأذية. وهكذا السلاح الناري الموجود الآن ينبغي أن يتفطن إلى أمانه وإلى غير ذلك؛ حتى لا يقع في قتل المسلم.

(أَوْ لِيَقْبِضَ عَلَى نِصَالِهَا بِكَفِّهِ)؛ لدفع الشر، ولسد ذريعة أذية المسلم.
(أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ) فإنه إذا أصاب أحدا من المسلمين تضرر في دينه، لا سيما إذا تعمد، وهكذا في دنياه بالأرث، أو بالدية، أو نحو ذلك.
(وَفِيهِ: تَحْرِيمُ قَتَالِ الْمُسْلِمِ وَقَتْلِهِ وَتَغْلِيظُ الْأَمْرِ فِيهِ، وَتَحْرِيمُ تَعَاطِي الْأَسْبَابِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى أَذِيَّتِهِ بِكُلِّ وَجْهِ وَفِيهِ حُجَّةٌ لِلْقَوْلِ بِسَدِ الذَّرَائِعِ). اهـ من فتح الباري (٢٧/١٣).

٢٢٤ - وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ^(١)

الشرح:

(النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أنصاري، صحابي صغير.
وهذا من أعظم الأمثلة المضروبة في بيان حال المؤمن مع أخيه المؤمن، انظر إذا أصبت بشيء في جسدك في أي موطن ربما يرتفع نومك، ويشتد ألمك، وترتفع حرارتك، فهكذا المسلم إذا أصيب أخوه المسلم بشيء لحقه الضرر، وينبغي أن يكون متعاطفا مع أخيه، متعاوناً مع أخيه، كما يكون متعاطفاً مع نفسه ومع جسمه.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ) فيه ضرب الأمثال؛ لتفهم ولتعلم.

(فِي تَوَادُّهِمْ)؛ لأنه ليس من المعقول أن يكون المسلم مثل أخيه المسلم في كل شيء، فإن الإنسان يمتاز في ماله بأشياء ليست لأخيه، يمتاز في أهله، إلى غير ذلك، لكن (فِي تَوَادُّهِمْ): في تحابهم.

(وَتَرَاحُمُهُمْ): في الرحمة التي تقع بينهم.

(وَتَعَاطُفُهُمْ) والإحسان إلى بعضهم.

(مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ) مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو حتى لو كانت الإصبع الصغيرة فإن الإنسان يتأذى، فإن بقية الجسم يتأذى. (تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ) بالألم، بسهره، (وَالْحُمَّى): برفع حرارته.

٢٢٥ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَبَّلَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ لَا يَرْحَمَ لَا يَرْحَمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ^(١)

الشرح:

قوله: (قَبَّلَ النَّبِيُّ ﷺ) فيه ما عليه النبي ﷺ من التواضع والرحمة والشفقة لأمته، وبصغارهم.

(الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ) وهو ابن فاطمة بنت النبي ﷺ، أحد المبشرين بالجنة، هو وأخوه الحسين سيذا شباب أهل الجنة، والحسن أكبر من الحسين بسنة، بل قيل: لم يكن بينهم إلا حيضة واحدة بعد سن الحمل.

(وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ) من أعراب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٣١٨).

(فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا) وهذا عادة الأعراب، ربما لا يبالون بمثل هذا الأمر.

فيه أن تقبيل الولد يعتبر رحمة، فالولد بهذه القبلة ينشرح صدره، وترتاح باله، وربما ضحك، فتقبيله من الرحمة، وتعويده على الرحمة، وبما أن هذا من الرحمة هو سبب لرحمة الله للعبد، **«ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**، فلنعود أنفسنا إدخال السرور على أبنائنا وأهاليها.

ثم أيضا الأبناء شأنهم شأن، بعض أهل العلم ذهب إلى تحريم ضربهم قبل العاشرة، ونحن قد نضربهم فيما لا يستحق، فينبغي لنا أن نكف أيدينا إلا فيما يحتاج إلى تأديب، لا سيما في هذا السن ما تضربه لأجل يحفظ البخاري، أو يحفظ القرآن، علمه لحفظ القرآن، علمه، لحفظ السنن، ما تيسر.

كذلك وهو دون السابعة ما تضربه على الصلاة، إذا كان السابعة ما يجوز الضرب فيها إلا العاشرة فكيف وعمره ثلاث سنوات أو خمس سنوات أو أربع سنوات وأنت تدفده للصلاة؟ صلى الحمد لله، ما صلى إياك أن تتعرض له بضرب أو سب أو شتم أو شيء؛ لأنه ليس بسن أمر للصلاة، فإذا وصل السابعة حثه وحضه دون ضرب، حثه وحضه، فإذا وصل العاشرة عند ذلك دونك.

لكن كثير منا قد يشد على ولده في هذا السن الصغير فإذا كبر ترك، هذا هو سبب الضياع، ثم أيضا الشدة على الابن في صغره قد يؤدي إلى نفوره في كبره، لكن لو التزمنا الآداب الشرعية لرأينا الخير والبركة العظيمة فيها.

ثم أيضا عند أن يكون ولدك يصلي بجانبك أو يصلي أمامك أو يصلي خلفك لا سيما إذا كان صغيرا تحدث منه الحركات، لا بد يلتفت، أنت تلزمه أن لا يلتفت لا بد يلتفت، ولا بد أن يركع قبل الإمام، ويرفع قبل الإمام، وربما صلى ركعة ورآها

مجزئة، وربما جلس إلى آخر المطاف وقام يركع ركعة واحدة ويسلم، طفل لا يا يدري ما الصلاة، فلا يكلف ما لا يطيق، مسكين.

والله أسأنا جدًّا، أسأنا جدًّا إلى أبنائنا، أقولها صراحة: أنا أسأت جدًّا إلى محمد بن عبد الحميد رَحْمَةُ اللَّهِ، أتيت دماج وعمرى خمسة وعشرين سنة وعمره حوالي خمس سنوات، كان قد أدخلته مدرسة الروضة تسمى الروضة في صنعاء، كان من أذكى الطلاب؛ لحفظ ما يلقي عليه، لكن لما وصل دماج أريده مثلي، أريده مثلي في الحفظ، أريده مثلي يقوم قبل الفجر ويسهر إلى بعد العشاء، أريده مثلي لا يتحرك لا يمين ولا يسار، ولا يلعب ولا يخرج، وإذا وقع منه حركة كنا نكثر من الضرب، يأتي يسمع وهو يرتقل، يغلط، أكيد سيغلط، وأنا أقول له: إذا غلطت سأسلخك، أكيد سيغلط لو هو من أكبر الحفاظ، هذا من الإساءة إلى أبنائنا أنك تقول له: إذا غلطت سأضربك.

وهكذا بعضهم قبل أيام يقول لولده: انتظر والله لا أقتلك، الولد شرد، خارج من المسجد هارب، قلنا: يا أخي لا يعقل أنك تقول: انتظري أقتلك وهو ينتظرك جالسا، مش معقول، هو بشر.

فالشاهد أننا ما انتبهنا إلى أن الإنسان يحتاج إلى الرفق بنفسه، أنت حين ترفق بابنك ترفق بنفسك؛ لأن الغضب قد يؤدي إلى مرض السكر، إلى ارتفاع الضغط، إلى عدم المراجعة، إلى عدم الحفظ، إلى أشياء كثيرة، وتدخل وأمه هناك تبكي عليه، حالتها حالة، مسكينة، وربما رفعت صوتها عليك، وربما رفعت صوتك، وربما أدى إلى طلاق.

إذا لا بد من الرفق، فنعود أنفسنا هذا الخلق، وسنرى الأثر العظيم فيه والبركة، قال النبي ﷺ: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ»^(١)، وانظروا مثل هذا الحديث لو بدأنا معهم من الصغار، صغير وتقبله وتأخذه إلى حضنك، وتؤكله إذا احتاج، وتشربه إذا احتاج، ثم بعد ذلك يبدأ يكبر، تلعب معه بلعبه، بقدر الحال، تجاريه، تفعل له بعض ما يحتاج إلى لعب.

نعم هذه الألعاب المشروعة مهمة، اشتر له سيارة صغيرة، واجعله يلعب فيها مسكين ويطلع، وأنه طلع العقبة ونزل من العقبة، ووجد مطب، هذه تفيده في الحياة المستقبلية، النبي ﷺ دخل على عائشة وهي تصنع العهن فقال: «هذه البنات»، أو نحو ذلك.

وهكذا البنت هي صغيرة تعمل لها ابنا صغيرا، تارة ترضعه وتنومه، خليه يلعب، ما دام لم يفسد الخلق الذي هو عليه خليه يلعب، أي والله، نسأل الله أن يصلحنا ويصلح أبناءنا ويصلح نساءنا، ويصلح جميع المسلمين.

والذي رَحِمَهُ اللهُ ضربني ضربات معدودات، أستطيع أن أَعِدَّهَا من أول نشأتي إلى أن فارق الحياة، والله أظن لا تجاوز خمس ضربات خمس مرات، مع أننا كنا في بادية، ولكن كل ضربة في موطن لم أنسه، خلاص بها الصلاح، أمشي، في يوم من الأيام تركته وذهبت إلى عرس من الأعراس، في أول نشأتي، وأنا قد ناهزت الاحتلام، وهو يبحث عني ما وجدني، قالوا له: في العرس، ذهب المغرب، أتى إلى ذلك المكان، أخذني، تكلم علي، وأنا أجري أمامه، وهو خلفي، يوهم أنه سيؤدبني، والله حتى دخلت البيت أجري جريا، أظن مسافة كيلو أو كيلو ونصف، وإذا طلعت في العقبة أقول: الآن سيدركني، ولو أراد يدركني سيدركني.

(١) أخرجه مسلم، حديث رقم: (٢٥٩٤).

حتى وصلت البيت، ويقوم يجعل أُمي تشفع لي: انظري ولدك، أنا سأفعل به وسأفعل، تقول أُمي: لا خلاص آخر مرة، وكانت آخر مرة، كانت آخر مرة، لو كان ضربني كان سترد بعد خمس دقائق وأقول: أيش ضربني؟ سأذهب ألعب ومرة ثانية، لكن كانت آخر مرة.

لا تركهم يذهبوا إلى أماكن الفساد، إذا رأيته في مكان فساد هذا الذي دونه خرط القتاد، أما خرج يلعب على الباب رده، لعب كرة رده، إذا كان في وقت لا يسمح له بذلك، بارك الله فيكم، نسأل الله أن يصلحهم.

٢٢٦ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: أَتَقْبَلُونَ صِبْيَانَكُمْ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالُوا: لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نَقْبَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ^(١)

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لعظيم تقبيل الأبناء، وهذا من حقوقهم على الآباء، فانظر إلى النبي ﷺ رآه الأعراب وهو يقبل فقال: أتقبلون صبيانكم؟ قال: «نعم»، أمر عادي ورأفة وشفقة ورحمة.

(قالوا: لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نَقْبَلُ): ما نفعل ذلك، ربما يروه من خوارم المروءة.
قال: (أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ) فتقبيل الابن رحمة، لا سيما أيضا البنات، البنات المجتمع يحسسنهن أنهن شيء غريب، فتحتاج، حتى أننا كنا في صغرنا يقولون: عند تقسيم اللحمه ابدأ بالبنات، قالوا: تقول في نفسها: لو كنت ولدا لقدمني أبي، فكانوا هكذا يعودون الآباء أنك تبدأ بالبنات، في الهدية، في اللحمه، في نحو ذلك؛ حتى لا تظن أنها محتقرة.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

فكذلك البنت تقبل، ويلعب معها بقدر اللعب، وتخرج في أيام قبل أن تكون ممنوعة من الخروج.

٢٢٧ - وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ^(١)

الشرح:

أين الذين يعذبون الناس بمنع أقواتهم وبسجنهم وضربهم وبقتلهم من مثل هذا الحديث العظيم؟ (مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ)، أين هم من الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ؟ والجزاء من جنس العمل، لو رحم المخلوق لرحمه رب المخلوق، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

قال ابن حجر في شرح الحديث (٤٤٠ / ١٠): "قَالَ بَطَّالٌ فِيهِ الْحَضُّ عَلَى اسْتِعْمَالِ الرَّحْمَةِ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ فَيَدْخُلُ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَهَائِمُ الْمَمْلُوكُ مِنْهَا وَغَيْرُ الْمَمْلُوكِ وَيَدْخُلُ فِي الرَّحْمَةِ التَّعَاهُدُ بِالْإِطْعَامِ وَالسَّقْيِ وَالتَّخْفِيفُ فِي الْحَمْلِ وَتَرْكُ التَّعَدِّي بِالضَّرْبِ وَقَالَ بَنُ أَبِي جَمْرَةَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مَنْ لَا يَرْحَمُ غَيْرَهُ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْإِحْسَانِ لَا يَحْصُلُ لَهُ الثَّوَابُ كَمَا قَالَ تَعَالَى هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مَنْ لَا يَكُونُ فِيهِ رَحْمَةٌ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا لَا يَرْحَمُ فِي الْآخِرَةِ أَوْ مَنْ لَا يَرْحَمُ نَفْسَهُ بِامْتِثَالِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عِنْدَهُ عَهْدٌ فَتَكُونُ الرَّحْمَةُ الْأُولَى بِمَعْنَى الْأَعْمَالِ وَالثَّانِيَةِ بِمَعْنَى الْجَزَاءِ أَيْ لَا يُثَابُ إِلَّا مَنْ عَمِلَ صَالِحًا وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْأُولَى الصَّدَقَةُ وَالثَّانِيَةُ الْبَلَاءُ أَيْ لَا يَسْلَمُ مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا مَنْ تَصَدَّقَ أَوْ مَنْ لَا يَرْحَمُ الرَّحْمَةَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَائِبَةٌ أَدَّى لَا يَرْحَمُ مُطْلَقًا أَوْ لَا

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩).

يَنْظُرُ اللَّهُ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ إِلَّا لِمَنْ جَعَلَ فِي قَلْبِهِ الرَّحْمَةَ وَلَوْ كَانَ عَمَلُهُ صَالِحًا أَهْـ
مُلَخَّصًا.

قَالَ: وَيَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَفَقَّدَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْأَوْجِهِ كُلِّهَا فَمَا قَصَرَ فِيهِ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى فِي الْإِعَانَةِ عَلَيْهِ". اهـ

٢٢٨ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ
فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا
شَاءَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ^(١)
وفي رواية: «وَذَا الْحَاجَّةِ».

الشرح:

جاء عن عدة من أصحاب النبي ﷺ.

ساق المصنف الحديث للرفق في الصّلاح، فما بالك بغيرها من الأمور؟ صل
واحسب حساب من بعدك، فصاحب الظهر الذي يؤلمه والعمود الفقري قد يتألم من
الصفحة، وكبير السن كذلك، والصغير كذلك، لكن بين ذلك، «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ
لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ» ^(٢)، وقد أمر به النبي ﷺ عثمان بن أبي العاص: «أَنْتَ إِمَامُهُمْ،
وَاقْتَدِ بِأَضْعَفِهِمْ» ^(٣).

(فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ): ضعيف البنية، ضعيف البدن، (وَالسَّقِيمَ): المريض،
(وَالْكَبِيرَ) الذي قد احدودب ظهره، ورق عظمه.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧).

(٢) متفق عليه: البخاري حديث رقم: (٧٠٣)، ومسلم حديث رقم: (٤٦٧).

(٣) أخرجه أحمد، حديث رقم: (١٥٨٣٦).

(وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ) هذا في الغالب في صلاة النافلة، وإلا فإن صلاة الجماعة كان الصحابة لا يتخلفون عنها.

(وَذَا الْحَاجَةِ) أيضا هذا من الفقه الدقيق، ذا الحاجة: واحد مستعجل، ربما يفوته الباص، أو ربما تفوته الرفقة، فيحتاج إلى التخفيف.

٢٢٩ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَدْعُ الْعَمَلَ، وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ؛ خَشْيَةً أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ^(١)

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان عظيم شفقة النبي ﷺ على أمته، حتى أنه يدع الأعمال الصالحة؛ رافة بهم، ورفق بهم، **«لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ عَلَى النَّاسِ - لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»**، ^(٢) وكذلك نهاهم عن الوصال، وكذلك ترك صلاة الليل في رمضان في المسجد؛ خشية أن يفرض عليهم، وهكذا.

وفي الحديث: أن الإنسان لا يَأْثِمُ إِلَّا بِتَرْكِ الْفَرَضِ، وأما النوافل فلا يَأْثِمُ بِتَرْكِهَا. * لكن هنا فائدة: إذا فرط الإنسان في النافلة يوشك أن يفرط في الفريضة، فالآن إذا معك مزرعة وحولها حوش يحميها إذا وقع غفلة لا تتأثر، فهكذا عندك نوافل مطلقة، مثل قيام الليل، وصلاة الضحى، وبين كل أذانين صلاة، وعندك نوافل مقيدة، قبل الظهر أربعاً، وبعد الظهر ركعتين، وبعد المغرب ركعتين، وبعد العشاء ركعتين، وقبل الفجر ركعتين.

فإذا حافظت على هذه النوافل ما ستفوتك تكبيرة الإحرام أبداً. لو أننا إذا أدنى المؤذن - هذا إذا تأخرنا - نبادر إلى الوضوء للمحافظة على ما قبل الصلاة ما سيكبر

(١) أخرجه البخاري (١١٢٨)، ومسلم (٧١٨).

(٢) متفق عليه: البخاري حديث رقم: (٨٨٧)، ومسلم حديث رقم: (٢٥٢).

الإمام تكبيرة الإحرام إلا ونحن في الصف، لكن الواقع أن كثيرا من الناس بل ومن طلاب العلم لا يبادرون إلى هذا الأمر، فلذلك تفوتهم تكبيرة الإحرام، ولو كان يصلي الوتر قبل الفجر ما فاتته ركعتا الفجر ولا فاتته الفجر، لكن الواقع أن كثيرا من الناس ينام.

إذا جعلوا حضائر على أعمالكم، اجعلوا حضائر على أعمالكم، بل إن بعض السلف يقول - وإن كان هذا القول لا يوافق عليه مطلقا - يقول: أنا لا أنتظر الأذان حتى أبادر إلى الصلاة؛ لأن هذا إنما هو العبد الذي لا يمشي إلا بأمر، وأما العبد الطائع فلا ينتظر.

٢٣٠ - وَعَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: مَهَا هُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوَصَالِ رَحْمَةً هُمْ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ^(١) مَعْنَاهُ: يَجْعَلُ فِي قُوَّةٍ مِنْ أَكْلِ وَشَرَبٍ.

الشرح:

هذه المسألة اختلفوا فيها كثيرا، فبعضهم ذهب إلى أنه يطعم حقيقة، ويسقى حقيقة، وهذا قول ضعيف جداً، إذا كان يطعم حقيقة ويأكل الحقيقة هذا ما هو صائم، هذا مفطر، ولكن كان النبي ﷺ يتلهى بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ ويتلذذ بها عن الطعام والشراب، وقد جاء في آخر الزمان: أن الناس يُحصرون في جبل الطور حتى لا يجد أحدهم ما يقوته، قيل: يا رسول الله فما طعامهم؟ قال: «التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل»، هذا طعامهم، ولا يُمنع فالله على كل شيء قدير.

ومن أحسن من تكلم على هذا الحديث ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (زاد المعاد)، في بيان معنى «يطعمني ربي ويسقيني».

(١) أخرجه: البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٥٠).

(نَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوَصَالِ) الوصال: هو إيصال يوم بيوم في الصيام، والمشروع منه ما كان إلى السَّحَر، حديث أبي سعيد في البخاري^(١): «فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ».

(رَحْمَةً لَهُمْ) هذا هو الشاهد، أن النبي ﷺ نهاهم؛ شفقة عليهم ورحمة بهم؛ حتى لا يكلفوا ما يغلبهم ويعجزهم.

(فَقَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلٌ) فيه أنهم استدلوا بفعل النبي ﷺ، وهذا دليل على وجوب التَّأْسِي بالنبي ﷺ فيما يجب التَّأْسِي به، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]، واستحباب التَّأْسِي في النبي ﷺ فيما يستحب التَّأْسِي به، فهم استدلوا بفعله، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ٣١].
(قَالَ: إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ) بين لهم أن الوصال من خصائصه.

قال الفسوي: يزيد، حدثنا أبو بكر، عن مغيرة قال: كان عبد الرحمن بن أبي نعم يواصل خمس عشرة يومًا لا يأكل شيئًا، قال: وكان يعاد كأنه مريض. وروى أبو نعيم في (الحلية): قال: كان عبد الرحمن بن أبي نعم يواصل خمسة عشر يومًا لا يأكل ولا يشرب.

وهكذا عن عبد الملك بن أبي سليمان، وكان يفطر في الشهر مرتين، قال: فطلب إليه رجل من أصحابه يفطر عنده، فقال: اجمع لي لبنا حليبًا وسمنا، قال فشربه، فلما صار في بطنه تقعقت أمعائه.

وعن ابن شبرمة قال: كان ابن أبي نعم يحرم من السنة إلى السنة، فأذاه القمل فدعا ربه عَزَّوَجَلَّ، فوقعت كبة بين يديه.

(١) حديث رقم: (١٩٦٣).

وعن مغيرة. قال: جاء ابن أبي نعم إلى الحجاج وهو يقتل في الجماجم، فقال: يا حجاج لا تسرف في القتل إنه كان منصوراً، قال: والله لقد هممت أن أروي الأرض من دمك؟ قال: يا حجاج ما في بطنها أكثر مما على ظهرها، فلم يقتله.

٢٣١ - وعن أبي قتادة الحارث بن ربعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَأُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَاتَّجَوَّزَ فِي صَلَاتِي؛ كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ». رواه البخاري. ^(١)

الشرح:

قوله: (إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ) أي: الفريضة.
(وَأُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا) أي: أقرأ بطوال المفصل، أو نحو ذلك.
(فَأَسْمَعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ)؛ لأن النساء كن يحضرن إلى المسجد وأبناؤهن معهن.
(فَاتَّجَوَّزَ فِي صَلَاتِي) أي: أختصر.
(كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ) وهذا من بديع رفقهِ ﷺ ورحمته، إذ أنه لا يلحقه أذى، ولا يلحقه ضرر، لكن الأم قد تتأذى، ومع ذلك يرفق بها.
هذا الحديث استدل به على جواز تطويل الإمام للصلاة إذا شعر بالداخل من الباب ونحو ذلك؛ حتى يدرك معه الركعة، وذهب بعض أهل العلم إلا أن ذلك يعتبر ممنوعاً ولا يجوز، بل ذهب بعضهم إلى أنه قد يبطل الصلاة.

(١) حديث رقم: (٧٠٧).

٢٣٢ - وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ فَلَا يَطْلُبُنْكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ شَيْءٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنْ ذِمَّتِهِ شَيْءٌ يُدْرِكُهُ، ثُمَّ يَكْبُهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ». رواه مسلم. ^(١)

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان عظيم شأن المسلم، وأنه لا يجوز أن يتعرض له، لا سيما إذا كان من الصالحين المنيين المختين إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا المصلي في صلاة الصبح يعتبر في ذمة الله، والتعرض له إختار لذمة الله، ومن أخفر ذمة الله يطلبه الله، فيلحقه الهلكة في الدنيا، وربما لحقته الهلكة في الآخرة.

فعلى المسلم أن يكون بعيدا عن الأذى لنفسه، والأذى لغيره من المسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فالنبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ، قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ» ^(٢)، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا يَبُوءُوا لَهُمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [سورة البروج: ١٠]، والله المستعان.

٢٣٣ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلَمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. ^(٣)

الشرح:

الحديث حوى جملا من حقوق المسلمين:

(١) حديث رقم: (٦٥٧).

(٢) أخرجه البخاري، حديث رقم: (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

الأول: قوله: (المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ) والأخ يكون في عون أخيه، وفي حاجة أخيه، ويتميز بالرفق والشفقة على أخيه، ولذلك قال الله عزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات: ١٠].

(لَا يَظْلِمُهُ) أي بنفسه، إما بإزهاق نفسه، أو بأخذ ماله، أو بالكلام في عرضه. **(وَلَا يُسْلِمُهُ)** أي لغيره يقع منه ما وقع مما تقدم. **(مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ)** أي حاجة، وكلما عظمت كان الأجر أعظم، حتى ولو كانت الحاجة شفاعاً، أو إعانة، أو نحو ذلك.

(كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ) ما أعظم هذا! يكون الله عزَّجَلَّ في حاجة العبد ما دام في حاجة أخيه المسلم، ومن كان الله في حاجته يسر عليه العسير، وقرب له البعيد، وسهل له الصعب، فإن الله لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض وهو العليم القدير. وما أشد غفلة الناس عن مثل هذا! وإلا لو استحضرنّا مثل هذا المعنى لكان المسلم مبادراً إلى قضاء حاجة أخيه ولو بكلفة؛ لأن الجزاء من جنس العمل، ولا سواء، فإن المجازي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(وَمَنْ قَرَجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا) صغيرة أو كبيرة ما دام قد كرب منها، فيسعى المسلم بتفريجها، وربما تكون الكربة من ضيق حال، أو من قلة مال، أو من كثرة أعداء وتربص، فمن أعان أخاه وسعى في ذلك **(قَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)** ولا سواء، كرب الدنيا إلى زوال، مهما عظمت، ومهما كبرت، ومهما كثرت، وأما كربة القيامة فهي شديدة، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ۖ وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ ۖ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۖ﴾ [سورة عبس: ٣٤-٣٧]، نسأل الله السلام والعافية.

ومصدق هذا الحديث ما جاء أيضاً في حديث حذيفة وأبي مسعود في الرجل الذي كان يداين الناس، فكان يتجاوز عن الموسر، وينظر المعسر، فقال الله: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عن عبدي.

(وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) سترت مسلماً في ذنب ألم به عن مجموعة من الناس عن أهل قرية أو أهل المدينة أو أهل محلة يسترك الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة التي تكون الفضيحة على الخلائق، ﴿**أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [سورة هود: ١٨]، فتكون الغدرات والمعاصي والسيئات ظاهرة للجميع، إلا لمن ستره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فعود نفسك ستر العباد؛ لأن في سترهم أولاً: إغاضة للشيطان، ثانياً: إخماد للفتنة، ثالثاً: عدم إشاعة الفاحشة، رابعاً: رفع بأخيك ومحبة له، والمسلم قد يلزم بالشيء بعد الشيء، ومع ذلك النصيحة مطلوبة، والرفق مطلوب، إلا إذا زاد شره وتعين هتك ستره، لا سيما إذا كان هو نفسه ممن لم يستر نفسه، «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَاْفَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ**»^(١).

٢٣٤ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَخُونُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ عَرَضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْفَرُوا أَخَاهُ الْمُسْلِمِ**». رواه الترمذي، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٢).

الشرح:

قوله: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ) كما تقدم أخوة إيمانية، وأخوة الدين أعظم من أخوة النسب، والأخوة الدينية شاملة لأخوة النسب ولغيرها، فقد يكون أخوك في النسب

(١) متفق عليه: البخاري حديث رقم: (٦٠٦٩)، ومسلم حديث رقم: (٢٩٩٠).

(٢) حديث رقم: (١٩٢٧)، بل رواه مسلم، إلا قوله: «**لا يخونه ولا يكذبه**»

أخوك في الدين، وربما أبوك أخوك، وزوجتك أختك في دين الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لسارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنا أخوك في الإسلام.

وَضُرِبَ به المثل؛ لأن الأخوة بعد الأبوة والبنوة من أعظم درجات الترابط.

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مِنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ

(لَا يَخُونُهُ) والخيانة هي الخديعة في موطن الائتمان، وهي من صفات المنافقين، وتوعد الله عليها باللائم العظيم: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٧١].

(وَلَا يَكْذِبُهُ) لا يكذب عليه ولا يكذب إليه، فإن الكذب خلق سيء، وقد تقدم بابه، وقوله: **(وَلَا يَكْذِبُهُ)** يدخل فيه بالبيع والشراء، والنكاح وغير ذلك.

(وَلَا يَخْذُلُهُ) أي: لا يتركه للأعداء يترصّون به، بل يكون مناصراً له، ومعيناً له بعد عون الله.

(كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ) (كل) من ألفاظ العموم، أي: جميع المسلم وما إليه من مال، أو عرض، أو نفس، **(عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ)** بل وعلى الكافر، فالمسلم معصوم الدم، **«إلا بحق الإسلام»**، لكن ذكر المسلم دون غيره؛ لأن المسلم هو الذي يعمل بحق أخيه، وهو الذي يؤدي حق أخيه.

(عَرَضُهُ) وبدأ به؛ لأنه إذا استحل العرض استحل ما يليه، والعرض يتعلق بالكلام بالدم ونحوه، فلا يجوز أن يقذف بأمر ليس فيه، ولا يجوز أن يغتاب وإن كان الأمر فيه، ولا يجوز أن ينم عليه وإن كان قد وقع منه ذلك القول أو الفعل، **«لا يدخل الجنة نمام»**، وقد حذر النبي ﷺ من هتك العرض في أعظم المواطن، **«كل المسلم على المسلم حرام»**.

(وَمَالُهُ) ذكر المال؛ لأن أكثر الناس يتعاطون هذه البلية، إما بسرقة، وإما بنهبية، وإما باغتصاب، فالمسلم على المسلم حرام، لا يجوز أن يأخذ ماله، **«لا يحل مال**

امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه»، كأن يبيعه بيعاً، أو يهبه هبة، أو يعطيه عطية، أو يتصدق به صدقة.

(وَدَمُهُ) فلا يسفك بقتل، ولا يخرج بضرب، ولا نحو ذلك.

ثم قال: (التَّقْوَى هَاهُنَا) وأشار إلى صدره كما في بعض الأحاديث، وإذا وجدت التقوى وجد العمل بها، أما من يقول: الإيمان في القلب وهو مخالف فلو كان إيمانه محققاً؛ لكان فعله موافقاً، فإن القلب إذا صلح صلح العمل، وإذا فسد فسد العمل، كما قال النبي ﷺ: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»**^(١).

(بَحَسْبَ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ) يعني يكفيه لو وقع في هذا الشر، ما بالك إذا وقع في أكثر من هذا؟

(أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ) هذا من أعظم الشرور، أن تكون محتقراً للمسلم، تحتقره لونه، أو لماله، أو لعلمه، أو لجاهه، أو لغير ذلك من أنواع الاحتقار، لا يجوز أن يحتقر المسلم، قال النبي ﷺ حين أشار إلى المسلم: **«هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»**^(٢).

فإذا كان **(بَحَسْبَ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ)** كيف بمن يأخذ ماله؟ وكيف بمن يهتك عرضه؟ وكيف بمن يسفك دمه؟ لقد وقع في شر عظيم.

(١) متفق عليه: البخاري حديث رقم: (٥٢)، ومسلم حديث رقم: (١٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري، حديث رقم: (٥٠٩١)، عن سهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٣٥ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحَاسِدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغِضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ: لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ». رواه مسلم^(١).

(النَّجَشُ): أَنْ يَزِيدَ فِي ثَمَنِ سَلْعَةٍ يُنَادِي عَلَيْهَا فِي السُّوقِ وَتَحْوَهُ، وَلَا رَغْبَةَ لَهُ فِي شِرَائِهَا بَلْ يَقْصِدُ أَنْ يَغَيِّرَ غَيْرَهُ، وَهَذَا حَرَامٌ.
و(التَّدَابُرُ): أَنْ يُعْرِضَ عَنِ الْإِنْسَانِ وَيَهْجُرَهُ وَيَجْعَلُهُ كَالشَّيْءِ الَّذِي وَرَاءَ الظَّهْرِ وَالدُّبُرِ.

الشرح:

وهذا الحديث عظيم، وأوله: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»، وسيأتي في أبواب المنهيات إن شاء الله تعالى.

قوله: (لَا تَحَاسِدُوا) نهى عن التحاسد، وهو تمني زوال النعمة عن الغير، بل تكن محبتك لأخيك في زيادة خيره، سواء كان في باب العلم أو المال أو الجاه، فإن ذلك لا يضيرك ولا ينقصك، وذلك على مقتضى قدر الله، فلا تكن معارضا لله عَزَّجَلَّ في قدره، ولا تكن متلبسا بأخلاق اليهود والنصارى الذين يحسدون المؤمنين، ﴿أَمْرٌ يُحْسِدُونَ النَّاسَ عَلَى مَاءٍ أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [سورة النساء: ٥٤].

(وَلَا تَنَاجَشُوا) والتناجش: هو الدخول في البيع لا لقصد الشراء، ولكن لرفع السلعة، فهذا حرام.

(١) حديث رقم: (٢٥٦٤).

وليس من التناجش بيع من يزيد، بيع من يزيد ليس من التناجش، فيجوز للرجل أن يدخل في السلعة ويشتريها بالثمن الزائد، لكن إذا كان البيع على بيع الأخ لا يجوز، أو كان يدخل على البيع لقصد رفع البيع بدون نية الشراء لا يجوز.

(وَلَا تَبَاغُضُوا) التباغض: ما يقع في الصدور من الحقد والبغض ونحو ذلك.

(وَلَا تَدَابَرُوا) التباغض بالقلوب والتدابير بالأبدان، لأن الإنسان إذا أبغض غيره دابره، فبدأ بالأهم فالأهم ورتبها، في رواية: **«لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا»**؛ لأن مبدأ الأمر التحسس: هذا عنده ما عنده، زاد ماله نقص ماله، ونحو ذلك، ثم بعد ذلك التحاسد يقع في القلب بسبب ما ناله أخوه من الخير، وربما وقع بسبب ذلك التناجش للحسد الذي في قلبه لا يريده أن يأخذ شيئاً بسعر أرخص، ووقع التباغض في الصدور، والتنافر في الأبدان.

(وَلَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ) هذا قريب من التناجش من حيث أنه يبيع على بيع أخيه لكن قد يكون مريداً للشراء، ومع ذلك لا يجوز له أن يبيع على بيع أخيه، وصلت وأخاك يبيع في سيارة انتظر حتى يفرغ من البيع ويقول له صاحبه: ما بعت منك، كذلك وصلت وهو يريد أن يستأجر شقة لا تدخل فيها حتى ينتهي، وفي غير ذلك.

(وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) أي كما أمركم الله، جاء في بعض الروايات.

(الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ: لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا) قد تقدم.

(بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ): وقلت في شرحي على "صحيح

مسلم": (سواء كان رجلاً أو أنثى، لا يجوز احتقار المسلمين، وقبل سنوات حصلت فتنة، وكنا نرى أن ذلك المفتون لن يقع منه الرجوع لما كان عليه من احتقار غيره، فاحتقار المسلم لا يجوز، لا سيما المسلم السلفي المستقيم، حتى وإن أخطأ في حقه أو قصر.

إنما الاحتقار لأهل البدع، وقبل ذلك للكافرين والمشركين، قال النبي ﷺ في المسلم في المسلم: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلِّ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» وأشار إلى الكافر، والنبي ﷺ يقول: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَذْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ»، ما تدري أنت، كم من مولى أفضل من سيد! وكم من عبد أفضل من حر! وكم من أنثى أفضل من ذكر! وكم من فقير أفضل من غني! وكم من مرعي أفضل من راعي!.

فالأمر عائد إلى الاستقامة الدينية، فلا يحتقر المسلم، حتى أن ابن القيم ذكر في هذا الموطن عن بعضهم: ربما يصلي من الليل ويكون أخوه نائما بجانبه فيحتقره تكلم بكلام مؤداه: لا صليت، كان نومك أكرم لك وأحسن لك من احتقار المسلم، فالإنسان ما يدري، فرب عامي أفضل من عالم في بعض الأمور، فلا يحتقر المسلم أخاه المسلم أبدا، بل يحمد الله على ما آتاه من فضله، ويسأل الله لأخيه الخير). اهـ

(كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ) الترتيب غير مقصود، ويكون هنا بدأ بالأكبر فما دونه فما دونه، وعلى الترتيب في الحديث الأول بدأ بما يدخل منه إلى غيره.

٢٣٦ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

في رواية: «من الخير».

ساق المصنف الحديث؛ لبيان عظيم شأن المؤمن، وأنه لا يكمل إيمانه مع كثرة أعماله الصالحة حتى يحب لأخيه أي المسلم من الخير ما يحب لنفسه من الخير، وفي الحديث: «وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(٢).

(١) انظر الحديث (١٨٣).

(٢) أخرجه مسلم، حديث رقم: (١٨٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

وقلت في شرحي على الأربعين النووية:

- **ومفهوم هذا الحديث:** أن المؤمن لا يكمل إيمانه حتى يكره لأخيه ما يكره لنفسه من الشر.

ويدل هذا الحديث: على منزلة الترابط الذي بين أهل الإسلام والإيمان، وما انتصر الإسلام في الزمن الأول إلا لما كان أهله على هذه الاخلاق الفاضلة، العظيمة أما الآن فقد ضعف الإيمان في قلوب المسلمين، والسبب في ذلك ما انتشر بينهم من الحقد، والحسد والتنافس من أجل الدنيا، والعجيب أن التنافس قد يراه الناس محمودًا وإذ لم يضبط بالكتاب والسنة سيتدرج إلى الحسد ثم إلى القتل والقتال، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «**إِذَا فُتِحَتْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟**» فَقَالُوا: نَكُونُ كَمَا كُنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَلْ، تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغُضُونَ، - أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ -، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضُهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ**»^(١).

وضابط هذه الأمور كلها: أن نحب لأنفسنا ولغيرنا الخير؛ فإن ذلك من دواعي طلب العلم، والدعوة، والهدية، والزيارة والنصرة، فإن الإنسان إذا أحب أخاه المسلم سارع في بذل الخير لهذا المسلم، وسارع في سلوك السبل التي تؤدي إلى زيادة الحب بينه وبين المسلم.

ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»^(٢).

(١) أخرجه مسلم حديث رقم: (٢٩٦٢)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم حديث رقم: (٥٤)، وجاء عند الترمذي حديث رقم: (٢٦٨٨).

وجاء عن رسول الله ﷺ قوله: **«وَتَهَادُوا تَحَابُّوا»**^(١)، المسلم إذا رآك وقفت معه في وقت الضيق والحاجة، فإن ذلك من دواعي الحب والدعاء لك.

- **ومن ذلك:** (الدعاء للمسلم)؛ فإنه من علامة حب الخير للعبد فالإنسان قد يأتيه الحسد، والحقد، والغل، على أخيه المسلم، فإذا رأى من نفسه ذلك فليدفعه بالدعاء له.

- ومثل هذه الأحاديث تُشعر أن النبي ﷺ كان يهتم بتربية أصحابه على صفاء القلوب، ونقاؤها وعلى سلامة الصدور على المسلمين، لأن أكثر الأمراض القلبية، هي التي تؤدي إلى حصول الشرور بين الناس، فلهذا ينبغي على المسلم ينبغي أن يكون حبه لله وبغضه لله، وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«إِنْ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ»**^(٢).

والإنسان يكون حريصاً على إيصال الخير إلى الناس فإذا رأى من نفسه العجز فلا أقل أن يكف الشر، قال النبي ﷺ: **«عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ»**، فقالوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: **«يَعْمَلُ بِيَدِهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ»** قالوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: **«يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ»** قالوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: **«فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ»**^(٣).

ولمَّا أوصى الرسول ﷺ أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بترك الإمارة كان ذلك لمحبه له، ولخشية عليه ألا يصل الحق إلى أهله فقال: - **«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي**

(١) أخرجه مالم في "الموطأ" حديث رقم: (٢٦٤١)، عن عطاء بن أبي مسلم.

(٢) أخرجه أحمد حديث رقم: (١٨٥٢٤).

(٣) أخرجه البخاري حديث رقم: (١٤٤٥)، ومسلم حديث رقم: (١٠٠٨).

أَحِبُّ لَكَ مَا أَحْبَبْتُ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَيَّ أَتَيْنَ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ ^(١)، وكما قال النبي ﷺ لمُعَاذٍ: **«وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّكَ؛ فَلَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»** ^(٢).

فهذا حديثٌ قصير العبارة عظيم المعنى، والكلام عليه أكثر من ذلك وفيما تقدم كفاية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين. اهـ

٢٣٧ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»** فَقَالَ رجل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: **«تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»**. رواه البخاري ^(٣).

الشرح:

(وعنه رَوَى اللَّهُ عَنْهُ) أي: عن أنس.

قوله: (أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا) انصر أخاك إذا كان ظالما، يريد يقتل، يريد يزني، يريد يفجر، يريد ينهب، انصره، لكن كيف ينصر؟ بمنعه من هذا الباطل، ومن هذا الشر الذي قد عزم عليه.

(أَوْ مَظْلُومًا) اعتدي على ماله، على نفسه، على عرضه، انصره بالدفاع عنه والذب عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

^(١) أخرجه مسلم حديث رقم: (١٨٢٦)،

^(٢) أخرجه أبو داود حديث رقم: (١٥٢٢).

^(٣) حديث رقم: (٦٩٥٢)، وأخرجه مسلم من حديث جابر رَوَى اللَّهُ عَنْهُ.

(قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا) هذا أمر واضح أنك تدفع عنه الشر، **(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟)**؛ لأن هذا أمر يحتاج إلى بيان، **(قَالَ: تَحْجُزُهُ - أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ)** بل والله من أعظم النصر.

إذا فدعاة أهل السنة والجماعة وعلى رأسهم العلماء ومن إليهم من أعظم الناس نصرا للمسلمين، حتى للظالمين، يحذرون من الشرك، يحذرون من الربا، يحذرون من الزنا، يحذرون من صغير الذنب وكبيره، فهذا من أعظم النصر.

إذا فمن نصحك فقد نصرك، فاشكر له نصحه، والنبى ﷺ يقول: **«وَمَنْ صَنَعَ بِكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى يَرَى أَنْ قَدْ كَافَتْهُ»**^(١)، وكيف لا يكون نصرا له وأنت تنصره على الشيطان؟ وتنصره على هواه، وتنصره على نفسه الأمار بالسوء، ويكون فعلك نصرا له في الآخرة لا يتعرض إلى العقوبة؟ فهذا أعظم النصر والله.

٢٣٨ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ»**. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).

وفي رواية لمسلم: **«حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَاجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدِ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»**.

الشرح

(١) أخرجه أحمد، حديث رقم: (٥٣٦٥)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢).

وهذا حديث عظيم، تضمن حقوق المسلمين التي لو عمل بها لكان المسلمون على خير حال، لما وقع التنافر، ولا التشاجر، ولا التقاطع، ولا التدابر، ولا التقاتل، ولا شيء من ذلك، ما يقع سرقة، ما يقع نهب، ما يقع اغتصاب، ما يقع غيبة، ما يقع نيمة، لا يقع شيء إذا أدينا حق المسلمين علينا، بالكف عن أعراضهم، والكف عن أموالهم، والكف عن أنفسهم.

قال: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ) يعني حق واجب، حق واجب في بعضه، وفي بعضه ربما يكون من باب الاستحباب، لكن حق الواجب إذا وقع منه المجازاة على ما سيأتي في ذلك.

(خَمْسٌ) وفي رواية: «ست»، إذا العدد غير مراد، لا يفيد الحصر، بل هو أكثر من ذلك، لو ذكرنا حقوق المسلمين هي أكثر من الست وأكثر من الخمس، وإنما ذكر في هذا الحديث من أشهرها.

(رَدُّ السَّلَامِ)؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ [سورة النساء: ٨٦]، فابتداء السلام مستحب، لكن رد السلام واجب، فإذا الحق منه المستحب ومنه الواجب، فإذا لقيت أخاك المسلم فبادره بالسلام، فإن ذلك يدخل في القلوب المحبة، «أَوْ لَا أَذْلكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمْوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفَسُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(١)، وأفضله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ) إذا مرض، إلا أن يكون مبتدعا، ففي الحديث: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ إِنْ مَرَضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشِيعُوهُمْ»^(٢)، وإلا يعاد

(١) أخرجه مسلم، حديث رقم: (٥٤)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود، حديث رقم: (٤٦٩١)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المريض ويدعى له، « **مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ** »^(١)، وسيأتي باب هذا، وقد عاد النبي ﷺ سعد بن عباد، وعاد غير واحد.

(وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ) أي: إذا مات تتبع جنازته، وقد يكون الاتباع واجبا، وقد يكون مستحبا، واجبا إذا لم يوجد من يتبعه فيجب؛ لأنه واجب كفائي، وإن وجد من يتبعه تتبعه للخير الذي في ذلك، على ما يأتي في باب الجنائز.

(وِاجَابَةُ الدَّعْوَةِ) إن كانت وليمة، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وفي حديث ابن عمر: إذا دعيتم إلى وليمة عرس أو نحوه فأجيبوا، وأما إذا كانت غير ذلك فلا بأس، قال النبي ﷺ: **«لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كِرَاعٍ لَقَبَلْتُ»**.

(وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ) تشميت العاطس، لكن بشرط: أن يحمد الله، **«إِذَا عَطَسَ بِحَمْدِ اللَّهِ فَشَمَّتْهُ»** على ما جاء في الروايات الأخرى، أما إذا لم يحمد الله فلا يشمت، فإن النبي ﷺ عطس عنده رجلان، فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، قال: يا رسول الله عطس فلان فشمته ولم تشمتني؟ قال: **«حَمْدُ اللَّهِ وَأَنْتَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ»**.

وأيضا جاء عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ عَطَسَ عَنْده ابناه، فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، فعاد أحدهما إلى أمه فقال: عطس ابن فلانة فشمته وعطست فلم يشمتني، فلما رجع إلى زوجته قالت: ما شأن فلان عطس فشمته ولم تشمت ولدي؟ فرد عليها قال: فلان حمد الله وولدك لم يحمد الله، لأن النساء مساكين تتعصب لأبنائهن.

فإذا لم يحمد الله لا حق له، وإذا حمد الله له حق الرد.
(حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ) تقدم.

(١) أخرجه مسلم، حديث رقم: (٢٥٦٨)، عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ) وهذه الزائدة، إذا استنصحك فالمستشار مؤتمن انصح له، وبين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وكن ناصحا له بأحسن ما يعمله من الأعمال، كأنك تنصح لنفسك، هذه هي الأخوة، استنصحك حتى ولو كنت أنت البائع، ولو كان الشأن يخصك، إذا استنصحك انصح له، هذا تمام الأخوة أن يكون الإنسان ناصحا لأخيه بلسان الحال ولسان المقال، قال النبي صل الله عليه وسلم: **«الدين النصيحة»**، وقال جرير: بايعنا رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم.

ولا والله لو نصحن لبعضنا بعضا لاستقمنا، إذا رأيت في حزية نصحته، إذا رأيت في بدعة نصحته، في شرك نصحته، في معصية نصحته، في بيع أو شراء وهو يحتاج إلى نصيحة نصحته، يستقيم الحال، وتزداد المحبة والألفة والخير.

وقال الأصمعي: كنت عند الرشيد يوما وعنده عافية القاضي، وقد أحضره لأن قوما استعدوا عليه إلى الرشيد، فجعل الرشيد يوقفه على ما قيل عنه، وهو يجيب الخليفة عما يسأله، وطال المجلس، فعطس الخليفة، فشتمه الناس ولم يشتمه عافية، فقال له: لم لم تشمتني مع الناس؟ فقال: لأنك لم تحمد الله، واحتج بالحديث في ذلك، فقال له الرشيد: ارجع إلى عملك، فوالله ما كنت لتفعل ما قيل عنك، وأنت لم تسامحني في عطسة، ورده ردا جميلا إلى ولايته^(١).

(١) (البداية والنهاية) (١٣ / ٦٠٧).

٢٣٩ - وعن أبي عُمارة البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ: أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ الْمَقْسِمِ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَمَهَانَا عَنْ خَوَاتِيمِ أَوْ تَحْتَمِ بِالذَّهَبِ، وَعَنْ شُرْبِ بِالْفِضَّةِ، وَعَنْ الْمَيَاثِرِ الْحُمْرِ، وَعَنْ الْقَسِيِّ، وَعَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ وَالِاسْتَبْرَقِ وَالِدِّيَاجِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

وفي رواية: وَإِنْشَادِ الصَّلَاةِ فِي السَّبْعِ الْأَوَّلِ.

(المَيَاثِرُ) بِيَاءٍ مَثْنَاءٌ قَبْلَ الْأَلْفِ، وَثَاءٌ مُثَلَّثَةٌ بَعْدَهَا: وَهِيَ جَمْعُ مِثْرَةٍ، وَهِيَ شَيْءٌ يُتَّخَذُ مِنْ حَرِيرٍ وَيُخْشَى قَطْنًا أَوْ غَيْرِهِ، وَيُجْعَلُ فِي السَّرَجِ وَكُورِ الْبَعِيرِ يَجْلِسُ عَلَيْهِ الرَّكَّابُ. (الْقَسِيُّ) بَفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِ السِّينِ الْمَهْمَلَةِ الْمَشْدُودَةِ: وَهِيَ ثِيَابٌ تَنْسَجُ مِنْ حَرِيرٍ وَكَتَّانٍ مُخْتَلِطَيْنِ.

(وَإِنْشَادُ الصَّلَاةِ): تَعْرِيفُهَا.

الشرح:

وهذا حديث عظيم، حقه أن يكون في مجلد أو نحو ذلك، إذ أنه تضمن أربعة عشر أمراً ونهياً، وكل نوع من هذه الأمور لها أحكامها، وقد تكلم عليه الحافظ بتوسع في كتابه (فتح الباري)، ولعلنا تكلمنا عليه أيضاً بإفادة في كتابنا على (عمدة الأحكام).

قال: (أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ) هذا ليس على الحصر، وإنما هذه السبع في مجلس واحد، وإلا فقد أمر ﷺ بما هو أكثر من ذلك، وأوامر رسول الله ﷺ منها الفرض والواجب والحثم، ومنها المستحب، ومنها الإرشاد، وغير ذلك، والأصل في أمر النبي ﷺ الوجوب، إلا أن يأتي دليل يدل على الاستحباب، قال النبي ﷺ: «**مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ**».

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٩)، ومسلم (٢٠٦٦).

(ونهانا عن سبع) ونواهي النبي ﷺ أكثر من ذلك، ولكن هذه السبع لعلها في هذا الحديث، وإلا فقد نهى عن الشرك، ونهى عن الخمر والميسر والأصنام، ونهى عن الزنا، ونهى عن كثير من الشرور والآثام.

(أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ) للحق الذي له في تأنيسه، والتفسيح له في أجله، والدعاء له، والنصيحة، والإحسان إليه، ونحو ذلك، فإن الإنسان إذا أهمل ضاق صدره، وإذا عاده إخوانه انشرح صدره، وربما وجد فيهم الخير، وكان في زيارته موعظة، كم من إنسان يهتدي عند موته، كما اهتدى ذلك الغلام اليهودي، وكم من إنسان قد يعرض، لكن الإنسان يبذل النصيحة.

ولكن لا يجلس عنده حتى يمَلِّه، ولا يضيق له في أجله، ما يدخل عليه يقول: والله شكلك مودع، هذه تضيق صدره مسكين، ولكن الأعمار بيد الله، ونسأل الله أن ينفس لك في أجلك، ونوصيك بالذكر، الذكر من أسباب رفعة العبد في الدارين، بدون أن تقول له: ستموت بعد قليل، حتى ما يفعله بعض الأطباء هداهم الله ربما يقول للمريض: أنت ستموت بعد عشر أيام بعد عشرين يوم، لا سيما أصحاب تليف الكبد ونحو ذلك، قد يصيب وقد يخطئ، لكن الواقع أن هذا لا يصلح؛ إساءة إلى المريض؛ لأن الإنسان إذا حس بدنو الأجل قد يعجز عن العمل، بينما إذا نُفس له في أجله يعمل ويبادر إلى الخير، وينصح بالتوبة ونحو ذلك.

(وَأَتَّبَاعُ الْجَنَازَةِ) ومن الحقوق التي أمر بها النبي ﷺ اتباع الجنائز، يعني إذا مات، ولا يتبعه ببدع ولا محدثات.

(وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ) تقدم.

(وَأِنْزَارِ الْمُقْسِمِ) وهذا ليس على الوجوب وإنما على الاستحباب، فإذا أقسم عليك أن تتغدى عنده تغدى، ولا حرج عليك في ذلك، أو أقسم عليك أن تعيره كتابا أعره، بما لا ضرر عليك في ذلك، أما إذا كان عليك ضرر أو حرج فإن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال للرسول ﷺ: أقسمت عليك يا رسول الله لتخبرني؟ قال: «**لا تقسم**»، ولم يجيبه إلى طلبه.

(وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ) ويجب أن ينصر المظلوم بدفع الشر عنه، والإعانة له، ما استطاع الإنسان، بالقول أو الفعل أو المال، أو نحو ذلك، انصره يا أخي، وهذا من التعاون على البر والتقوى.

والمقصود بالمظلوم الذي ينصر المسلم ابتداءً، وحتى الكافر إذا كان ذمياً، أو كان غير ذلك، لا يجوز أن يظلم، فالظلم ظلمات يوم القيامة.

(وِاجَابَةِ الدَّاعِي) على التفصيل الذي سبق.

(وَأَفْشَاءِ السَّلَامِ) على التفصيل الذي سبق، وستأتي أحكامه في بابه.

(وَنَهَانَا عَنْ خَوَاتِيمٍ أَوْ تَخْتُمَ بِالذَّهَبِ)؛ لأن هذا خاص بالنساء، لبس الذهب في

الدنيا خاص بالنساء، كما في حديث علي وسيقاتي: «**هذا حرام على ذكور أمتي**».

(وَعَنْ شُرْبِ الْفِضَّةِ) وأما التختم بالفضة فيجوز للرجل، لكن الشرب بالذهب أو

الفضة لا يجوز، فإن هذا إنما يصنعه من لا خلاق له، والنبي صلى الله عليه قال:

«**الَّذِي يَشْرَبُ فِي إِنَاءِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ**»؛ لأن هذه أفعال

المترفين، والمؤمن مأمور بالترفق وعدم ذلك، وبمراعاة المشاعر أيضاً، قد قيل: بأن

النهي؛ مراعاة للمشاعر، وقيل كذلك: حتى لا تنتهي العملة.

(وَعَنْ الْمِثَاقِ الْحُمْرِ) نوع من الحرير أحمر، يُركب عليه.

(وَعَنْ الْقَسِّيِّ) نوع من الحرير أيضاً.

(وَعَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ) كأنها أنواع من الحرير تصنع مع غيرها، والحرير الحرير

الصرف، فمنه إلا مقدار هكذا للحاجة، أو يجوز لبسه أيضاً للحاجة لمن كان به

حساسية وحكة، أو كان به قمل، ولم يستطع التخلص منه، أو نحو ذلك للحاجة،

وبعضهم جوز لباسه في الحرب أمام الكفار، والصحيح أنه لا يلبس.

(والإستبرق) نوع من الحرير أيضا.

(والدياج) نوع من الحرير، كلها من الألبسة التي نهى عنها النبي ﷺ، وهي من

الحرير.



٢٨ - باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [سورة النور: ١٩].

الشرح:

هذا باب عظيم؛ لأن ما منا إلا ويلم إما بزلقة لسان، وإما بخطأ بفعل، أو نحو ذلك، فالمسلم يُستر، المسلم يستر ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا، إلا إذا كان في إشاعة هذا الأمر تحذير للمسلمين من شر وإثم، وإلا فالمسلم يُستر، ولماذا جعل الله عَزَّجَلَّ الشهادة في الزنا أربعة شهود؟ تعظيما لباب الستر، لو رجل رجلا يزني حقيقة ورأى الميل في المكحلة وشهد معه آخر وآخر لاستوجب الحد في ظهورهما، ولو شهد أربعة ولم يثبت أحدهم الشهادة لجلدوا؛ تعظيما لهذا الحق، تعظيما لباب الستر، وذلك الرجل الذي إلى جاء إلى النبي صل الله عليه وسلم يقول: يا رسول الله إني زنيت أعرض عنه، أعرض عنه ﷺ، ثم ما زال يباحثه بعد الرابعة.

فالشاهد أن الستر ممدوح، مهما أَلَمَّتْ بذنب فاستر نفسك، استر نفسك، وادع الكريم العظيم الستير أن يستر عليك.

وإياك والتبجح بالذنوب والمعاصي؛ فإن هذا من إشاعتها، وهذا من أسباب فضيحة الله عَزَّجَلَّ للعبد، كثير من الناس لا سيما العوام يتبجحون، يتبجحون بأفعال قبيحة يجب فيها الستر، كذلك ستر عورات المسلمين، لا تتطلع إلى بيوت الناس ثم تكشف عوراتهم، تتبّع عوراتهم وتكشفها، «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قُلُوبَهُ! لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»^(١).

(١) أخرجه أحمد، حديث رقم: (١٩٢٧٧)، عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا) يعني يشيع الكلام الفاحش والفعل الفاحش، فإن هذا فيه دعوة إلى الباطل، لو كان امرأة فيها سوء وتذهب: فلانة زانية فلانة زانية فلانة زانية تجرئ عليها السفهاء، أو كان رجل فيه سوء وتكثر من ذكره وإشاعة فحشه ربما تجر إليه أهل الفساد؛ للاستفادة من دروسه الشيطانية، ونحو ذلك، فالإنسان يضيق مداخل الشيطان ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأهل الشر لهم طرق لمعرفة الفساد والمفسدين، إن الطيور على أشكالها تقع. وأذكر مرة كنا في صنعاء ندرس، ووالله ما نعلم بشيء في تلك الحارة، ولا نحن حول شيء، حول نذهب للدراسة ثم نرجع إلى البيت، وجاء أحدهم شرير إلينا مكث عندنا ليلة وإذا به يكثر من هذا الكلام، هذا البيت فيه كذا، وذاك البيت فيه كذا، نعود بالله من الشر، فجألس الصالحين أهل الستر، ولا تجالس غيرهم؛ فإنه يؤزك إلى الشر أزا.

٢٤٠ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

(لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ) من المسلمين (عَبْدًا) من المسلمين سواء كان رجلا أو امرأة، (في الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، وهذا دليل على أن هذا يحتاج إلى مجاهدة، يحتاج إلى مجاهدة لتعود ستر العورات، يستر الله يوم القيامة، يوم أن تقع الفضائح على رؤوس الأشهاد.

(١) حديث رقم: (٢٥٩٠).

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": (وهذه بشارة عظيمة للمؤمنين، أن الله عَزَّجَلَّ إذا ستره في الدنيا يرجى أن يستره في الآخرة، ونسأل الله أن يسترنا في الدنيا والآخرة، فحالفنا كما قال القائل:

والله لو علموا قبيح سريري لأبى السلام علي من يلقياني
أحياناً يكون في القلب أمور لو ظهرت للناس لازدروه واحتقروه، وربما أفعال لو
ظهرت لازدروك واحتقروك، ولكن الله عَزَّجَلَّ سَتِيرٌ يحب الستر لعباده، والله
المستعان، ولذلك يجازي من ستر المسلمين بالستر، «**من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا الآخرة**». اهـ

٢٤١ - وعنه، قَالَ: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

مثل هذا لا عبرة بستره، هذا كيف يستر وهو هو الذي يتبجح ويذهب وفعلت وفعلت وفعلت؟ ربما أعمال قد سترها الله عليه وهو يتبجح بها.
قال: (**كُلُّ أُمَّتِي**) المراد بهم أمة الإجابة لا أمة الدعوة.
(**مُعَافٍ**) أي من الفضيحة، ومعافى ربما بالتوبة.
(**إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ**) الذين يتبجحون بالمعاصي.
(**وَلَا مِنَ الْمُجَاهِرَةِ**) يعني المجاهرة أنواع، ربما يأتي الذنب والناس ينظرون إليه، أو ربما كحال الذين الآن يسجلون وينشرون، وغير ذلك مما يفعلونه.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

(وَأَنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ) (من) للتبعيض.

(أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ) وأيضا المرأة، الحديث عام، وإنما ذكر الرجل؛ لخروجه

مخرج الغالب.

(عمالاً) أي عمل من الأعمال المحرمة.

(ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ) ما أحد يدري به ولا بصنيعه.

(فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ) يتبجح ويتعازم في نفسه أنه عصا الله عز وجل.

(وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ) فيفضحه الله، ويصير مذموماً

عند الناس، والله يصير محققاً عند الخاص والعام.

٢٤٢ - وعنه، عن النبي ﷺ قَالَ: «إِذَا زَنَتِ الْأُمَةُ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا

يُتْرَبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّانِيَةَ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ

فَلْيَبْعَهَا وَلَوْ بِحَبْلِ مِنْ شَعَرٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

(التَّشْرِيبُ): التَّوْبِيخُ.

الشرح:

(عنه) أي: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(الْأُمَةُ) أي: الجارية المملوكة.

(فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا) أي: عُلِمَ زِنَاهَا، أما إذا لم يتبين لا تبحث ولا تنقب، لا تنقب عن

المستور، نهينا عن التجسس، وإن يظهر شيء قلنا به، وعملنا به، كثير من الناس ربما

ينقب في شأن زوجته، في شأن أبنائه، في أمور لم تكن معلومة عندهم، أو ربما النصيحة

العامة أولى، ثم ينقب ينقب حتى يظهر البلاء، ويظهر الشر، ونسأل الله السلامة، ثم

بعد ذلك يتخرج.

(١) أخرجه البخاري (٢١٥٢)، ومسلم (١٧٠٣).

(فَتَبَيَّنَ زَنَاها) أي: ظهر وعلمه، أما بقرائنه أو بحقيقته.

(فَلْيَجْلِدْها الْحَدَّ) أي يجلدُها، عليها نصف ما على المحصنات من العذاب،

ويقوم هو بجلدِها بنفسه، والأمر للوجوب.

(وَلَا يَثْرَبُ عَلَيْها) أي: لا يوبخ، يكفي التعذيب بالحد.

(ثُمَّ إِنْ زَنَّتِ الثَّانِيَّةُ فَلْيَجْلِدْها الْحَدَّ) مرة ثانية.

(ثُمَّ إِنْ زَنَّتِ الثَّالِثَةُ فَلْيَجْلِدْها وَلَوْ بِحَبْلِ مِنْ شَعْرٍ) يتخلص منها، ويذهبها عن أماكن

الفساد، لعلها تصلح، وهل يشترط أن يخبر المشتري لها؟ لا يلزم أن يخبر المشتري

لها بفسادها؛ لأن المراد الستر، وكذلك المراد أن يذهب بها من مكان الفاحشة

وأماكن الشر، فإن بعض الناس قد يفسد في بعض الأماكن ويصلح في بعض الأماكن،

«انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى

أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضٌ سُوءٌ»، ولهذا أمر بتغريب الزاني والزانية؛ حتى يبتعد عن الشر، أما

إذا أصبح يتعاطاه هذا الشر قد تعمق في قلبه، وعظم شأنه.

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": ونسأل الله السلامة من قد وقع في هذه

البلية قل أن يتوب إلا أن يشاء الله، يتسلط عليه الشيطان ويزين له الشيطان الحرام، لو

كانت عنده أجمل النساء لرأيته متطلعا إلى أقبح النساء في باب الحرام، وربما يترك

زوجته وهي من أحوج النساء إليه، فتنة ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة

الصف: ٥]، زاهدوا في الحلال فابتلوا بحب الحرام.

وربما معاشر امرأة تعاشر غيره، لا رحمة، ولا ألفة، ولا سكن، ولا طمأنينة وربما

ابتلي بالأمراض كالزهري، والسيلان، والإيدز، ونحو ذلك من الأمراض التي عجز

ال أطباء عن مداواتها، نسأل الله السلام والعافية.

والحمد لله الذي عافانا من هذه البلية، ونسأله الثبات حتى نلقاه، قال الإمام أبو محمد ابن حزم: والله ما حللت إزارى على فرج محرم، الإنسان يحمده الله إذا عافاه من هذه الأمراض، من هذا الشر المستطير الذي يفشو في آخر الزمان. ولهذا من كان عنده ولد عاجل بزواجه، ومن كان عنده بنت عاجل بزواجها؛ لإعفافها، وإعفاف ولده، وللمسارعة في سد ذرائع هذه الشرور السيئة، التي توفرت طرق الوصول إليها، نظرة فابتسامة فسلام، فكلام فموعد فلقاء. وكذلك منعت الحدود التي تؤدي إلى التضييق على أهلها، وإلى زجرهم، والله المستعان. اهـ

٢٤٣ - وعنه، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ خَمْرًا، قَالَ: «اضْرِبُوهُ»، قَالَ أَبُو هريرة: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، قَالَ: «لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ». رواه البخاري^(١).

الشرح:

قوله: (عنه) عن أبي هريرة رضي الله، وأحاديث هذا الباب عن أبي هريرة جميعا. **(أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِرَجُلٍ)** وكان إمام المسلمين، يقوم بالحدود ونحوها. **(بِرَجُلٍ)** وهو النعيمان، كما جاء مصرحا به في بعض الروايات، وكان محبا لله، ومحبا لرسول الله ﷺ، مع أنه ربما كان يشرب الخمر رَحْوَالَهُ عَنْهُ. **(قَالَ: اضْرِبُوهُ)** لأن النبي ﷺ كان حد الخمر في عهده الضرب بالجريد والنعال، وقيل: الضرب أربعين. **(فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ)** يؤدبونه.

(١) حديث رقم: (٦٧٧٧).

(فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ) فرد عليهم النبي ﷺ هذه الدعوة، حاول ألا تدعوا بالخزي على مسلم ما استطعت إلى ذلك سبيلا.
(قَالَ: لَا تَقُولُوا هَكَذَا) يعني لا تقولوا: أخزأك الله.
(لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ) ولكن أعينوه على الشيطان بحضه على الخير، ودلالته عليه، وإرشاده إليه، فإن هذا من أسباب صلاح الحال والمآل.



٢٩ - باب قضاء حوائج المسلمين

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ﴾ [سورة الحج: ٧٧].

الشرح:

وهذا الباب تابع للأبواب السابقة، فقضاء حوائج المسلمين من أسباب قضاء الله عَزَّوَجَلَّ حوائجك، من أسباب التعاون على البر والتقوى، من أسباب نيل الدرجات العلى، إلى غير ذلك.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ﴾) ومن أسباب الفلاح، وقوله: ﴿رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا﴾ [سورة الحج: ٧٧] لفظ عام، يشمل كل خير من خيري الدنيا والآخرة، ﴿رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ﴾ [سورة الحج: ٧٧]، فالتوحيد خير، والصلاة خير، والزكاة خير، وبر الوالدين خير، وصلة الأرحام خير، وإعانة الفقير والمحتاج خير، والشفعة خير، حتى الشفاعة في الزواج، الشفاعة في العفو والصفح، الشفاعة في إعطائه بعض المال، الشفاعات من أعظم أبواب الخير.

٢٤٤ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ. مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

وقد تقدم الحديث، وتقدم الكلام عنه بما يغني عن الإعادة.

(١) انظر الحديث (٢٣٣).

٢٤٥ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسِّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ». رواه مسلم^(١).

الشرح

وهو حديث عظيم، تضمن عدة جمل من مهمات الدين، وفيها الترغيب والترهيب.

قال: (مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) فالجزاء من جنس العمل، وقد تقدم معنى ذلك.

(وَمَنْ يَسِّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) سواء كان التيسير بشفاعة، أو بإعطائه مال، أو بالتجاوز عنه، أو غير ذلك، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، سواء كان المال لك أو لغيرك، إلا أنك أعتته، «كل امرئ تحت ظل صدقته يوم القيامة»، والجزاء من جنس العمل، فإذا أردت تفريج الله لكربتك ففرج كرب المسلمين، إذا أردت أن الله عَزَّجَلَ يزيل فقرك فأزل فقر المسلمين ما استطعت إلى ذلك سبيلا، إذا أردت أن يعينك الله عَزَّجَلَ في جميع شأنك فكن معينا للمسلمين، فأين من يعمل بهذه الأحاديث؟ حتى يجازيه الله عَزَّجَلَ الجزاء الأوفى.

(١) حديث رقم: (٢٦٩٩).

(وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) بأضعاف، الله واسع، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧]، أجره مضاعف، تستر مسلماً في الدنيا عن مجموعة من الناس يسترك الله في الدنيا والآخرة.

(وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) وهذا لفظ عام، الله في عونك ما دمت في عون أخيك، على أي حال كنت تعينه ما دمت معيناً له على الخير، دالاً له إليه، مرشداً له عليه.

(وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ) وهذه نصيحة مهمة من رسولنا ﷺ، فيها التوجيه لطلب العلم؛ لما فيه من الخير العظيم، فهو سبيل يوصل إلى الجنة، ويوصل إلى مرضاة الله، والنبي صل الله عليه وسلم يقول: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ»^(١)، الحديث يحسنه بعضهم.

(وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا) علم الكتاب والسنة، ما هو علم الفلسفة أو علوم الدنيا، وإن كان العلم الديني إذا كان لا محذور فيه لا حرج، لكن المراد به هنا علم الكتاب والسنة، جميع الأدلة التي فيها الحث على طلب العلم المراد به علم الكتاب والسنة، أما علوم الدنيا يتقنها البر والفاجر، والمؤمن الكافر، لكن علم الكتاب والسنة إنما يقوم به الفحول من الرجال، ويحبونهم فأعظم طريق للجنة طلب العلم.

تدري أخي أين طريق الجنة طريقها القرآن ثم السنة

أسهل طريق وأقرب طريق إلى الجنة العلم، قال أحمد بن أبي الحواري: يا علم إنما اتخذتك لأصل إلى الله وقد وصلت، ثم أمر بدفن كتبه، لا يوافق على دفن كتبه، لكن المراد أنه يقول: وصلت إلى الله، تعلم العلم؛ لخشية الله خشي الله، تعلم

(١) أخرجه الترمذي حديث رقم: (٢٦٤٧).

للتوحيد وحد الله، تعلم للصلاة صلى وصام وحج واعتمر، ودعا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وسلك كل سبيل يوصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

(وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى) فيه فضيلة الذكر، وفضيلة الاجتماع، وليس المراد بالذكر التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل فقط، بل هو أعم من ذلك، فقولُه: (يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ) ليس المراد فقط مدارس القرآن، بل هو أعم من ذلك، فيدخل فيه معرفة أحكام القرآن، ومعاني القرآن، وهكذا معرفة الحلال والحرام، فكله داخل في مذاكرة القرآن ومدارسته.

(وَيَتَذَرُّونَهُ بَيْنَهُمْ) أي بتلاوته أو تلاوة معانيه وأحكامه.

(إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ) وانظروا والله أن هذا أمر مشاهد وملحوظ أن المجالس العلمية يشعر الإنسان فيها بسكينة الحال، وهدوء البال، وطمأنينة القلب، وانشرح الصدر، مع ما هو محمل من هموم الدنيا، إلا أننا نرى بركة عظيمة والله الحمد والمنة، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ﴾ ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ﴾ [سورة الشرح: ١-٤].

إذا كانت هذه الآيات خبر في حال رسول الله ﷺ فهي وعد في حق غير رسول الله ﷺ، فإن الله ما شرح صدره وما يليه مما ذكره الله إلا لما كان عليه من العلم والعمل، فيرجى لمن سلك هذا المسلك أن يشرح الله صدره، وأن يرفع ذكره، إلى غير ذلك مما هو معلوم.

ولا أعظم في رفع الذكر من طلب العلم، يذكرون أن الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه ذك قال لهم: من أرفع الناس؟ أو نحو هذا الكلام، فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين ابن عم رسول الله ﷺ، وذكروا من شأنه، قال: بل غير ذلك، بل غير ذلك، أولئك العلماء الذين نموت وينسى ذكرنا وهم يُذكرون مع رسول الله ﷺ.

وفعلا انظر إلى البخاري ومسلم، وإلى أبي داود، والترمذي، والنسائي، وأحمد، وإلى غيرهم من أئمة الهدى ومصابيح الدجى، دائماً يذكرون مع رسول الله ﷺ، يذكرون مع كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فالعلم العلم بآرك الله فيكم.

(وَعَشِيَّتُهُمُ الرَّحْمَةُ) ومن أعظم الرحمة أن تكون هاديا مهديا، لا تظن أن الرحمة فقط أن يكون لباسك لينا، وأن يكون طعامك وافرا، أو راحة البدن، الرحمة أعم من ذلك، أعظم الرحمة أن تكون موحدًا لله، أعظم الرحمة أن تكون مستقيما على السنة، أعظم الرحمة أن تكون طائعا لله عَزَّجَلَّ، قال الله عَزَّجَلَّ في شأن محمد ﷺ: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** [سورة الأنبياء: ١٠٧]، مع أنه ﷺ كان يجالدهم بالسيف، إلا أنه رحمة لما يدعو إليه من الخير والرشد والهدى.

(وَحَفَّتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ) ملائكة الله، السيارة التي سخرها لهذا الأمر، **«إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةُ سَيَّارَةٍ فَضْلَاءُ»**، وسيأتي بابه في باب الذكر إن شاء الله تعالى.

(وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ) وهذه أعظم المراتب أن يذكرك الله فيمن عنده، نذكره بين أناس مساكين، ربي يعلم بحالنا وحالهم، ويذكرك الله عَزَّجَلَّ في الملء الأعلى عند ميكائيل وجبرائيل وإسرافيل، وعند حملة العرش والملائكة المقربين، فأمر أعظم من هذا أن يذكرك الرب العظيم الكبير المتعال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ وإذا ذكرك ذكره ليس كذكر غيره، **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١)** [سورة الشورى: ١١]، إذا ذكرك أعانك، وسددك، ووفقك، وحفظك، ونصرك، وأعزك، وأكرمك في الدنيا والآخرة، فوالله أنها من أعظم المكاسب، لو لم يكن إلا هي لكان حري بنا أن نلازم هذه المجالس حتى نلقى الله عَزَّجَلَّ بها.

(وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ) مهما كان، مهما كنت، فدعوة إلى من يسمون أنفسهم بالأقوال والعباهلة، وهم عن طريق الأقوال والعباهلة من أهل السنة والجماعة في بعد، يطعنون في سنة النبي ﷺ، ويطعنون في النبي ﷺ، ويطعنون في كتاب الله

عَزَّوَجَلَّ، ويطعنون في أئمة أهل البيت الصالحين، كعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحسن والحسين، ومن إليهم، هؤلاء والله لا ينفعهم النسب اليمني، ولا ينالهم الأحاديث النبوية التي قالها ﷺ في شأن اليمن، هؤلاء زنادقة، ومن أهل النفاق، وستزول فتنتهم كما زالت فتنة غيرهم.

وهكذا يقال للرافضة والباطنية والصوفية ومن إليهم ممن عبد القبور، وغلا في أهل البيت، وعظموهم فوق ما شرع الله عَزَّوَجَلَّ: أنهم لن ينتفعوا بالأنساب، فقد قال النبي ﷺ لفاطمة بنت محمد: «يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا، سليني من مالي ما شئت».

وهكذا نادى قريشا فعم وخص، وذكر صفية بنت عبد المطلب، والعباس بن عبد المطلب، ولو كان مغنيا عن أحد لأغنى عن أبي طالب، إذ أنه في النار خالدا مخلدا فيها أبدا، مع ما قال به من النصرة لرسول الله ﷺ، وإنما شفع له في تخفيف العذاب، قال ﷺ: «هُوَ فِي صَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَأَنَّهُ مِرْجَلٌ، وَلَوْ لَا أَنَا؛ لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»^(١).

فعلينا عباد الله أن نحسن العمل مع الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الأنساب والأموال والنصار لا تنفع إذا كان العمل سيئا، إذا كان العمل طالحا، لا سيما إذا خالطه الشرك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٣]، لا يأتي الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتي متوجها بنسبك، فإن هذا لا يزيدك إلا ضعة عند الله عَزَّوَجَلَّ، قال النبي صل الله عليه وسلم: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ

(١) متفق عليه: البخاري حديث رقم: (٦٥٦٢)، ومسلم حديث رقم: (٢١٣)، عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الَّذَرَّ فِي صُورِ الرَّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى
بُؤْلَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ»^(١).



(١) أخرجه الترمذي حديث رقم: (٢٤٩٢)، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

٣٠ - باب الشفاعة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ [سورة النساء:

٨٥].

الشرح:

أي الشفاعة للمسلمين فيما يحتاجونه، في نكاح، أو قرض، أو بيع أو شراء، فإن هذا من حاجة المسلم، وقد تقدم معنا «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته». والشفاعة نوع من الكرم، ولا يقوم بها إلا الكرماء، والناس يختلفون في الوجاهة، وفي نحو ذلك، فلا بأس أن يشفع المسلم لأخيه في خطبة امرأة، أو في قضاء دين، أو في إصلاح بين الناس، كل ذلك من المعروف. ومن عود نفسه الشفاعة وعُرف بها ربما قبلت منه، وصارت عنده طرق يتوصل بها إلى إقناع المشفوع عنده، وفي الشفاعة نوع تزكية؛ لأنك حين تشفع لشخص أنت تزكيه.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾، فالدال على الخير له كأجر فاعله، والدال على الشر له كوزر فاعله، فلو شفع رجل لرجل في قنينة خمر فله إثم شديد، وقد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، ومن شفع لأخيه في تفريج هم أو قضاء دين كان له نصيب وحظ: أولاً: من ثناء الناس ودعائهم له.

ثانياً: من وعد الله «من فرج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة».

ثالثاً: أنه يرجي له الشفاعة؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

٢٤٦ - وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ أَقْبَلَ عَلَى جُلَسَائِهِ، فَقَالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

وفي رواية: «مَا شَاءَ».

الشرح:

وفيه من الفقه: أن الناس كانوا يأتون النبي ﷺ؛ لمعرفة لهم لكرمه، وكان ﷺ لا يرد أحداً ما دام موجوداً، ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً فقال لا.

وفيه تعليم النبي ﷺ لأصحابه مكارم الأخلاق، من قوله: (اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا) اشفعوا لأخيكم، وعودوا أنفسكم هذا الأمر الحسن، (تؤجروا): يأجركم الله عَزَّجَلَّ، وكل بحسبه.

(وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ) يقضي الله ما شاء، أنت تشفع وقد تقبل شفاعتك وقد ترد، لكن مع ذلك أنت مأجور.

وقلت في شرحي على صحيح مسلم: فيه: استحباب الشفاعة لأصحاب الحوائج المباحة، سواء كانت الشفاعة إلى سلطان أو إلى غيره، وأما الشفاعة في الحدود فحرام، وهكذا الشفاعة في الباطل.

وفيه ما عليه النبي ﷺ من دلالة الصحابة على وجوه الخير فينتظر حتى يشفع الشافع، فيؤجر الشافع، ويقع بينه وبين من شفع له المحبة.

لكن إن ردك لا تغضب، وإن أجازك فأمر طيب، انظر إلى سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمناً، فأعرض عنه، يا رسول الله، مالك يا عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمناً، فأعرض عنه، وفي الثالثة: يا رسول الله، مالك عن

(١) أخرجه البخاري (٧٤٧٦)، ومسلم (٢٦٢٧)، وقد جاء خارج الصحيح عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلان؟ والله إني لأراه مؤمناً، قال: «أفتالاً يا سعد؟»، يشفع الإنسان إن قبلت شفاعته وإلا الحمد لله، ما خسر شيئاً.

وباب الشفاعات كثير، الشفاعة في الزواج، الشفاعة عند الخطبة، الشفاعة في طلب العلم، الشفاعة في دين، الشفاعة في قضاء الحاجات، أبوابها كثيرة. اهـ

٢٤٧ - وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قِصَّةِ بَرِيرَةَ وَزَوْجِهَا، قَالَ: قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ؟» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَشْفَعُ» قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. رواه البخاري^(١).

الشرح:

بريرة جارية، فيها ثلاث سنن:

الأول: قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ اعْتَقَ».

الثاني: «هي لها صدقة ولنا هدية».

الثالث: أن الجارية إذا أُعْتِقَتْ تحت العبد، فأمرها إلى نفسها، إن شاءت أن تبقى معه وإن شاءت فسخت الزواج منه.

وزوجها يقال لهم مُغِيث، ولم تركته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جعل يتبعها من مكان إلى مكان وعينه تدمع، فشفع النبي ﷺ عندها، فردت شفاعته، وقال النبي ﷺ: «أَلَا تَعْجَبُونَ

مَنْ حَبَّ مُغِيثٌ لِبَرِيرَةَ وَمَنْ بَغَضَ بَرِيرَةَ لِمُغِيثٍ؟».

(قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ رَاجَعْتِهِ؟) هذا ليس المراد بها أنها قد طُلقت، أو أن

المراجعة بيد المرأة، إنما معناها: لو رجعت إليه وبقيت معه.

بهذا الحديث استدل بعضهم على أن الكفاءة في الحرية ونحو ذلك، لكن الصحيح أن الكفاءة في الدين.

(١) حديث رقم: (٥٢٨٣).

(قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟) فيه أن أمر النبي ﷺ لا بد أن يُنفذ، **(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** [سورة النور: ٦٣]، ربما يفتن عن الدين، ويزيغ قلبه عن الاستقامة، وربما تكون من أسباب عذابه يوم القيامة.

وانظر إلى تعظيم الصحابة لأمر النبي ﷺ، امرأة جارية، والأصل في مثل هؤلاء ضعف العلم وضعف الحال، ومع ذلك تقول: تأمري؟ بمعنى: أنه إذا قال لها: راجعیه أمرا **(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)** [سورة الأحزاب: ٣٦].

وفيه أن النبي ﷺ لم يكن يحمل أصحابه العنت، ولم يكن يشق عليهم؛ لأنها إذا رجعت إليه على مضض ربما يصيبها بعض الشيء، الإنسان بشر، لكن مع ذلك قال: **(إِنَّمَا أَشْفَعُ)** والشفاعة قد تقبل وقد ترد، فإياك أن تغضب إذا رُدَّتْ شفاعتك، أنت أردت المعروف والإحسان، فلا ينقلب إحسانك إلى إساءة؛ لأن الذي تشفع عنده ليس بواجب عليه هذا الفعل، وإنما هو من المستحبات والمندوبات والمباحات.

(قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ) أي: لا رغبة لها في البقاء عليه، وهذا قد يكون لها فيه مصلحة دينية ودنيوية، أما الدنيوية: فربما وجدت زوجا تطمئن إليه وترتاح به، وأما الدينية: حتى لا تبقى متحرجة من عصيانه وبغضه، كما قالت تلك المرأة: يا رسول الله إني أكره الكفر في الإسلام.



٣١ - باب الإصلاح بَيْنَ الناس

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ جُحُودِهِمْ إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة النساء: ١١٤].
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [سورة النساء: ١٢٨].
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ١].
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٠].

الشرح:

وما أعظم هذا الخلق العظيم! الإصلاح بين المسلمين لـ:

إن القلوب إذا تنافرت ودها مثل الزجاج كسرها لا يجبر

والإصلاح بين المسلمين إغاضة للشيطان، ورضا للرحمن، وسلوك لهدي النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكم في الإصلاح من بركات؟ ألفة القلوب، وشفاء الصدور، والعفو والمسامحة، والقرب والتعاون على الخير، بينما إذا حصل التباعد والتقاطع والتدابير يلحقه الغيبة والنميمة، والحقد والحسد، وكثير من الشرور، وربما تبات وأنت في غيظ، وتقوم وأنت في غيظ، فإذا اصطلحت مع أخيك ارتحت واطمأنت.

ويا لله حين المباغضة والمباعدة كل فعل من أخيك يغيظك، صحته ومرضه، وحضره وسفره، بل ربما في أشد من ذلك، كما قال بعضهم:

إن يبغضوني على موتي فوا أسفا حتى على الموت لا أخلو من

فيصبح الإنسان في هم وغم لا يعلمه إلا الله، فما أحسن من سلامة الصدور، ولذلك قال النبي ﷺ في أهل الجنة: «وَأَكْمَلُ النَّاسِ إِيمَانًا كُلُّ ذِي قَلْبٍ مَخْمُومٍ وَاللِّسَانِ الصَّادِقِ، قُلْنَا: قَدْ عَرَفْنَا اللِّسَانَ الصَّادِقَ فَمَا الْقَلْبُ الْمَخْمُومُ؟ قَالَ: «هُوَ النَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا حَسَدٌ».

وإذا كان الإصلاح بين الزوجين من الأمور المهمة فما بالك إذا كان الإصلاح بين أخوين مسلمين؟ وما بالك إذا كان الإصلاح بين داعيين سلفيين؟ فإن هذا من الأمور متحمة؛ لأن بقاء الدعاة في حالة تفرق يؤدي إلى التباعض والتقاطع والتدابير، ويتسلسل إلى أتباعهم ومحبيهم، وربما وقع فيه الإلزامات، وحصل من جرائه التبديع والتفسيق والتكفير.

فالإصلاح بين أهل السنة من الأمور المتعينة، فإذا ما خرج الإنسان عن السنة إلى البدعة فلا يقال: يصلح بين فلان وفلان، ولكن لا بأس بالنصيحة بعودة المبتدع إلى السنة، «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

والصلح جائز بين المسلمين، أي صلح جائز، إلا صلح أحل حراماً أو حرم حلالاً، وإلا يجوز أن تصلح، لو اختلف اثنان على أرضية تقول: لك النصف وله النصف، أو: لك الثلثان وله الثلث، إذا رضي كل واحد تم الصلح؛ لأن الصلح غير الحكم، الحكم الشرعي يلزم أن يعطى كل واحد ماله، ولا بد من الشهادات والبيّنات والاعترافات، أما الصلح لا يلزم ذلك.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ يخبر الله عزَّ وجلَّ أن: لا خير في كثير من شأن الناس من كلامهم وأفعالهم (إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ): دل على الخير، «والدال على الخير له كأجر فاعله».

(أَوْ مَعْرُوفٍ) أعم من الصدقة، الصدقة قد تكون بالمال، والمعروف أعم. (أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) في حال اختلافهم، وسيأتي أن النبي ﷺ أخر صلاة العصر؛ حتى يصلح بين الناس.

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي كله، الصلح خير كله، بين الزوج وزوجه، بين الأب وابنه، وبين الابن وأبيه، وبين الصاحب وصاحبه، وهكذا.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ راقبوا الله في شأنكم، فإن إصلاح ذات البين من المهمات، والناس قد يقع بينهم ما يقع، فلا بد من العفو والتصفح والتجاوز.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فيه أن من شأن الأخوة: التحاب والتصافي، والتآزر، والتناصح، وأما التقاطع والتدابير فليس من شأن المؤمن، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات: ١٠]، والأخ لأخيه أن يعينه، وأن يكون معه، وأن يحفظه، وأن يحوطه.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وهذا الأمر قد يكون للوجوب إذا كانت المنافرة تؤدي إلى حرام، وقد يكون للاستحباب إذا كانت المنافرة تؤدي إلى مكروه، وقد يكون محرماً إذا أصلحت على غير الوجه الشرعي، أو أصلحت في أمر يخالف الكتاب والسنة، كما تقدم: صلح يحرم الحلال، أو يحل الحرام. فعلمنا ما في الإصلاح بين الناس من المصالح الدينية والدنيوية، لأن فساد ذات البين يؤدي إلى القطيعة، وإلى الغيبة، والنميمة والبهت، ويؤدي إلى التقاطع والتدابير والتهاجر، وإلى غير ذلك من المفسدات، فتعين الصلح بين المسلمين.

٢٤٨ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١). ومعنى (تعدّل بينهما): تُصلح بينهما بالعدل.

الشرح:

(١) انظر الحديث (١٢٢).

قوله: (كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ) أي: كل مفصل من الناس، وقد خلق الإنسان على ستين وثلاثمائة مفصل، كما يأتي في حديث عائشة.

(عَلَيْهِ صَدَقَةٌ) قيل: واجبة، وقيل: مستحبة.

(كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ) ويجزئ أن تؤدي من الصباح إلى المساء، لا يتعين المجيء بها في الصباح فقط.

(تَعْدِلُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ) ثم عدد أنواع الصدقات؛ حتى لا يقول قائل: ما عندي مال حتى أتصدق، تعدل بين الاثنین صدقه، تصلح بين المسلمين وتقارب بينهم، لأن الشيطان يفرح بمباعدة المسلمين، ويغتاظ بمقاربة المسلمين.

(وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا) إذا أراد أن يركب، أو إذا أراد أن يحمل عليها المتاع، والآن كرجل عاجز عن طلوع السيارة، أو رجل له من الأمتعة ما يحتاج إلى إعانة، فيعان، وهو يدخل في الحديث.

(أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ) المتاع: ما يكون من زاد أو لباس أو نحو ذلك يقتنيه الإنسان.

(وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ) الكلمة الطيبة بأنواعها، رد السلام، والابتسامة والإحسان بالنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنه تعليم العلم، وهو من أنفع وأعظم أنواع الصدقات.

والكلمة تطلق ويراد بها الجملة، ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٠]، أي: جملة هو قائلها، وهو قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [سورة المؤمنون: ٩٩]، فالكلمة تطلق ويراد بها الجملة المفيدة.

(وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ) مشيك إلى المسجد، بل ورجوعك من المسجد، ويقاس عليه المشي في أعمال البر والخير، كالمشي في الإصلاح بين الناس، والسعي لسد حاجة الأبناء والزوجات، ومن إليهم؛ حتى لا يبقوا عالة

يتكفون الناس، «لعلك أن تخلف، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك».

(وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ) الأذى بأنواعه، الشوك، والحجر، والحفرة، والمطب، بل ومن ذلك: إزالة أذى صور ذوات الأرواح، لا سيما صور الفاتنات، وأذى الأغاني التي تُسمع في الطرقات، إلى غير ذلك.

٢٤٩ - وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وفي رواية مسلم زيادة، قَالَتْ: وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ، تَعْنِي: الْحَرْبَ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثَ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.

الشرح:

هذا حديث عظيم، فيه فضيلة الصلح بين المسلمين. وأم كلثوم بنت عقبة أسلمت وحسن إسلامها، وأبوها من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، بل يذكرون أنه الذي بصق في وجه النبي ﷺ فردها الله في وجهه، وقتل يوم بدر مشركا.

قوله: (لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ)؛ لأن الإصلاح بين الناس حسنة، والصلح خير، والإصلاح بين الناس يحتاج إلى بعض الكلام، لكن ليس معنى ذلك أن يكذب ويتعنى الكذب، فالكذب حرام، «آية المنافق ثلاثة: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أتمن خان».

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

ولكن المراد: المعاريض، وفي الأثر: إن في المعاريض مندوحة عن الكذب، والمعاريض أن تأتي بكلام يظنه السامع على شيء وأنت تعرض به لشيء آخر، كما حصل من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين دخل مصر فسأله عن سارة فقال: أختي، وقال لها: إذا سئلت فقولي: بأنك أختي؛ فأنا أخوك في الإسلام، وجاء في الأثر أيضا: أن النبي ﷺ سئل: من أين أنت؟ قال: «من ماء»، فيظن الظان أنها منطقة يقال لها: ماء، والصحيح أنه من ماء دافق، إلى غير ذلك.

فمثلا يقول له: يا أخي أنتم أخوة، وأخوك إن شاء الله أنه يحبك، وما في قلبه الذي تظن، يأتي بكلام لا كذب صريح ولا صراحة بحيث ينقل له كل شيء، قال فيك وقال فيك وقال فيك، مما يؤدي إلى قسوة القلوب وتنافر الأبدان.

(فَيَنْمِي خَيْرًا) يبلغ الخير، ويكتم الشر، فهكذا إذا أردت أن تصلح لا بد أن تنقل الخير وتكتم الشر، أما تذهب تصلح وتسمع من الخصم كلاما شديدا، ثم ترجع إلى ذلك وتقول: قال فيك وقال فيك وقال فيك، فيقول بأشد، ثم تطالب منهم الصلح كيف سيصلحون؟ فلا بد أن تنوي الخير، وتقول له: هذا الكلام ما هو طيب، وإن شاء الله أنكم على خير، والمؤمنون أخوة، وهذا الكلام ينمي الخير. **(أَوْ يَقُولُ خَيْرًا)** يكون سببا في الإصلاح.

وأما الزيادة التي في مسلم: **(قَالَتْ: وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ)** فهذه الصحيح فيها الإرسال عن الزهري، ولم تثبت عن النبي ﷺ، والمرسل من قسم الضعيف، لا تقوم به حجة عند جماهير أهل العلم، فهذه زيادة من الزهري، ومع ذلك «الحرب خدعة»، له أن يوري بدون كذب صريح.

(وَالِإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ) والإصلاح بين الناس يوري، ويأتي بكلام مجمل.

(وَحَدِيثَ الرَّجُلِ امْرَأَتُهُ) بما لا كذب فيه.

(وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا) مما لا كذب فيه، كلام عام، يستفيده الجميع، ويصلح به الحال، ويضيق به الفساد.

٢٥٠ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيْنَ الْمَتَأَلَّى عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفُ؟»، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبُّ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).
معنى (يَسْتَوْضِعُهُ): يَسْأَلُهُ أَنْ يَضَعَ عَنْهُ بَعْضَ دَيْنِهِ.
(وَيَسْتَرْفِقُهُ): يَسْأَلُهُ الرِّفْقَ. (وَالْمَتَأَلَّى): الْحَالِفُ.

الشرح:

يعني أن النبي ﷺ استوضعه، بل جاء في رواية أنه قال له: «يا كعب ضع الشطر» أي: النصف على قول.

(سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ) فيه أن الخصومة قد تقع حتى بين الصالحين، إما في الأموال، وإما في الأعراض، وإما في غير ذلك. وفيه أن الخصومة قد تؤدي إلى رفع الصوت، وهذا ناتج عن الغضب، والغضب لا خير فيه، نسأل الله السلامة والعافية، الغضب لا خير فيه، إلا إذا كان الغضب إذا انتهكت حرمات الله عَزَّ وَجَلَّ، وإلا فإن النبي ﷺ يقول: «لا تغضب».

وما من أحد يغضب إلا وندم على غضبته، وما أحد تحلم وندم على حلمه، فإن الحلم مآله إلى حسن العاقبة، والغضب مآله إلى سوء العاقبة، والله المستعان، حتى قال الراوي: فنظرنا في الأمر فوجدنا أن أغلب الشر من الغضب، يعود إلى الغضب.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٥)، ومسلم (١٥٥٧).

(وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ) أي المستدين، لأن المستدين يكون في حالة ذل وكذلك ضعف، وقد كان النبي ﷺ يستعيز من المأثم والمغرم، ف قيل له قال: **«إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف»**، فلا تستعجب إذا رأيت مثل هذا الأمر. وفي مسلم في قصة أبي اليسر: أنه ذهب إلى رجل يسأله ماله، فقال: أين فلان؟ فاختبأ الرجل تحت الأريكة، فقالت امرأته: لا يوجد أحد، أو نحو هذا الكلام، فخرج ابنه، فقال: أين أبوك؟ قال: تحت أريكة أُمي، فرفع صوته وقال: قد عرفت أين أنت فاخرج، فخرج إليه، قال: ما شأنك؟ فأخبره أنه لا يملك قضاء لدينه، قال: الله؟ قال: الله، قال: الله؟ قال: الله، قال: الله، فأخذ الصحيفة وقطعها، ثم أخبره: إن يسر الله عَزَّوَجَلَّ بشيء وإلا فهو في حل، وأخبر أن كل امرئ تحت ظل صدقته.

فالشاهد: أن هذا الأمر قد يقع، فإذا وقع ما تشدد إذا دخلت بالصلح، الرجل في حالة يرثى لها من القلة والحاجة، والذل والضعف، وأنت قمت قلت له: أعط حق الناس، بع سيارتك، أو: بع بيتك، هذا ما هو صلح هذا إجحاف، هذا إساءة، يبيع سيارته وعلى ماذا يركب؟ لا سيما إذا كان يعمل عليها لقوت أبنائه، أو يبيع بيته وأين يخرج الأبناء إلى الشارع؟

الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ تعالى يذكر: أن القاضي إذا قضى بسجن المعسر أنه يعزل من القضاء، وأفتى العلماء: أن القاضي لا يجوز له أن يبيع مكتبة طالب العلم في قضاء الدين، بل إن الفتوى في اللجنة الدائمة: أنه لا يجوز بيع سيارة الشخص الذي يركب عليها، أو يركب أهله عليها، فلا بد أن ينظر إلى حاجة المستدين ولا يجحف به، وحكم الله عَزَّوَجَلَّ: **﴿فَنَظَرُوهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾** [سورة البقرة: ٢٨٠]، هذا حكم الله.

لماذا ما نريد الحكم إلا إذا كان في صالح أحدنا؟ يأتي يقول: **«لصاحب الحق مقال»** نعم **«لصاحب الحق مقال»** وأين قول الله عَزَّوَجَلَّ: **﴿فَنَظَرُوهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾** [سورة البقرة: ٢٨٠] أمر يأمرك الله أن تنظر المحتاج إلى أن ييسر الله له.

فالشاهد: أنه جعل يستترقه: يا أخي ارفق بي ليس معي شيء، سيأتي الخير إن شاء الله وأفضيك، فما أعظمها «من نفس عن مؤمن كربة نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة».

(وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ) غضبة.

(فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَيْنَ الْمُتَأَلَّى عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟)

يعني: تحلف أنك ما تفعل الخير؟ يعني كفر عن يمينك، يكفر عن هذا يمين، «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكْفِرْ عَنْ يَمِينِهِ»، «لَأَنْ يَلْجَأَ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ، أَنْتُمْ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي فَرَضَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ»، فحتى لو حلف الإنسان لا يفعل الخير يكفر عن يمينه.

(فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ) صدق الصحابة (رَضُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمُ).

(فَلَهُ أَيْ ذَلِكَ أَحَبُّ) كفارة لهذا الأمر الذي وقع فيه، له أي ذلك، إما أن يعطيني

مالي، وإما أن يذهب ولا حاجة لي فيما عنده، وإما أن يعطيني بعض مالي، وفي الحديث الآخر قال له النبي ﷺ: «قم فاقضه»، بعد أن ترفق به.

٢٥١ - وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلَغَهُ أَنَّ بَنِي عَمْرٍو بَنِي عَوْفٍ كَانَ بَيْنَهُمْ شَرٌّ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصْلِحُ بَيْنَهُمْ فِي أَنْاسٍ مَعَهُ، فَحُبِسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَانَتِ الصَّلَاةُ، فَجَاءَ بِلَالٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ حُبِسَ وَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَهَلْ لَكَ أَنْ تُؤَمَّ النَّاسُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ شِئْتَ، فَأَقَامَ بِلَالٌ الصَّلَاةَ، وَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي فِي الصُّفُوفِ حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ، فَأَخَذَ النَّاسُ فِي التَّصْفِيقِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَلْتَفِتُ فِي الصَّلَاةِ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ فِي التَّصْفِيقِ التَّفَتَّ، إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَرَجَعَ الْفَهْقَرَى وَرَاءَهُ حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ،

فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، مَا لَكُمْ حِينَ نَابَكُمْ شَيْءٌ فِي الصَّلَاةِ أَخَذْتُمْ فِي التَّصْفِيقِ؟ إِنَّمَا التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ، مَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَقُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ حِينَ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ إِلَّا أَلْتَفَتَ، يَا أَبَا بَكْرٍ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ حِينَ أَشْرَتْ إِلَيْكَ؟»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

معنى (حُبْسَ): أَمْسَكَوهُ لِيُصَيِّفُوهُ.

الشرح:

قوله: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلَغَهُ أَنَّ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ كَانُوا يَبْتَغُونَ شَرْهَ) فيه جواز نقل الحديث إلى الإمام أو غيره إن لم يكن في ذلك غيبة أو نسيمة، وإنما هو لقصد الإصلاح ونحو ذلك، وبنو عمرو بن عوف هم بطن من الأنصار.

(كَانُوا يَبْتَغُونَ شَرْهَ) أي: اختلاف، حتى ربما وقعت بينهم مضاربة بالأيدي ونحوها.

(فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّحُ بَيْنَهُمْ) فيه مبادرة النبي صل الله عليه وسلم للإصلاح بين الناس، وهذا يدل على فضيلة الإصلاح، حتى أن النبي ﷺ لم يتأخر بنفسه، مع علمه أن صلاة العصر قد يأتي وقتها، لأن البقاء بين الناس قد يؤدي إلى نوع تأخير.

(فِي أَنْاسٍ مَعَهُ) فيه مرافقة الرجل الصالح والفاضل في حله وترحاله؛ للاستفادة منه، والإحاطة له، والإعانة له، إلى غير ذلك من المصالح.

(فَحُبْسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) أي: حُبْسَ على طعام، لعله جاءهم قبل أن يتناول الغداء الذي يسمونه بالغوات.

(وَحَانَتْ الصَّلَاةُ) أي: صلاة العصر.

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٤)، ومسلم (٤٢١).

(فَجَاءَ بِلَالٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)؛ لأن بلال هو المؤذن، ولم يكن لمسجد النبي ﷺ إمام غير النبي صل الله عليه وسلم، ولهذا دعا بلال أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للصلاة.
(فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ حُسِرَ وَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَهَلْ لَكَ أَنْ تَوُثِّمَ النَّاسَ؟) أي تأخر، وربما يخرج الوقت أو يضيق، ويطول على الناس الانتظار في المسجد.

(فَأَقَامَ بِلَالٌ الصَّلَاةَ)؛ لقول النبي ﷺ أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة.
(وَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ)؛ لأنه إمام.
(وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي فِي الصُّفُوفِ حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ) فيه جواز دخول الفاضل إلى الصف الأول، لا سيما إذا كان فيه متسع، وذلك لفضيلة الصف الأول.
(فَأَخَذَ النَّاسُ فِي التَّصْفِيقِ) لمنزلة النبي ﷺ، خشي بعضهم أنه ينبغي أن يكون النبي ﷺ هو الإمام، وفعلوا النبي ﷺ قد صلى خلف عبد الرحمن بن عوف، وهنا صلى بهم ودخل في الصلاة.

(وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَلْتَفِتُ فِي الصَّلَاةِ)؛ لخشوعه، ولمراقبته الله عز وجل.
(فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ فِي التَّصْفِيقِ التَّفَتَّ) فيه جواز الالتفات؛ لمصلحة الصلاة أو لحاجة، وقد جاء النبي ﷺ في ليلة جعل يلتفت إلى الشعب في رجل قد أرسله يأتي بخبر القوم، أو نحو ذلك.

والمراد بالالتفات هنا: التفات الرأس دون التفات الجسم، أما إذا التفت بجسمه عكس القبلة بطلت الصلاة، لكن المراد به التفات الوجه، قال النبي ﷺ: **«تلك اختلاصة يختلسها الشيطان من صلاة العبد»**، هذا إذا كانت لغير مصلحة الصلاة، فما بالك إذا كانت لمصلحة الصلاة.

(فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) أي: صل بالناس، فيه جواز العمل بالإشارة.

(فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ) وهذا لم يؤد إلى بطلان الصلاة؛ لأنه شيء من الذكر جاء به في الصلاة، ولم ينكر عليه النبي صل الله عليه وسلم.

(وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى) أي أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى لِلنَّاسِ) إذا هنا مسألة: لو جاء الإمام الراتب بعد أن يكبر الإمام غير الراتب تكبيرة الإحرام هنا لا إشكال سيدخل ويقرأ الفاتحة، ويركع بالناس، وتكون صلاة الإمام وصلاة الناس واحدة في العدد، لكن لو قدر أن الإمام دخل في الركعة الأخيرة، أو دخل في الركعة الثانية، أو دخل في الركعة الثالثة، يعني أنه دخل بعد أن صلى المأمومون مع إمامهم النائب بعض صلاة، فكيف يفعل الناس؟ يصلون بصلاة الإمام، ثم إذا قام للقضاء بقوا على حالتهم، فإذا جلس وأتم صلاته سلموا بتسليمه، هذا وجه.

الوجه الثاني: أن يبقى المأمومون على حالتهم، ويتشهدون، ثم إذا قضوا صلاتهم نوا الانفصال فسلموا، والإمام يتم الذي عليه.

(فَلَمَّا قَرَعَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ) أي رسول الله ﷺ؛ لنصحهم وتوجيههم.

(فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَا لَكُمْ حِينَ نَابَكُمْ شَيْءٌ فِي الصَّلَاةِ أَخَذْتُمْ فِي التَّصْفِيقِ؟) كالمنكر عليهم.

(إِنَّمَا التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ) سواء داخل الصلاة أو خارج الصلاة، على الصحيح من أقوال أهل العلم.

(مَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَقُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ) أي من الرجال.

(فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ حِينَ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، إِلَّا التَّمَتُّ) ولا يلزم الالتفاتة، وإنما يلزم الالتفاتة إلى الفعل الذي ينهوه عليه، فمثلاً صلى الظهر مع الجهر فسمعهم يقولون: سبحان الله، فينبهونه إلى الإسرار، أو صلى العشاء أو المغرب مع الإسرار،

فينبهونه بقول: سبحان الله؛ للجهر، أو قام وعليه جلوس، أو زاد في الصلاة، أو نقص في الصلاة، يقال له: سبحان الله.

وهنا مسألة قد سئلنا عنها مرارا وهي: قول بعضهم يقول: هل يجوز لي أن أستدل عليه بآية من القرآن أنبهه إلى فعله؟ نقول: لا يجوز، لا يجوز الكلام في الصلاة إلا بما هو من مصلحتها، وبما أذن به الشرع.

(يَا أَبَا بَكْرٍ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ حِينَ أَشْرُتَ إِلَيْكَ؟) وأمر النبي ﷺ للوجوب، لكن هنا ليس للوجوب، وإلا لو كان للوجوب للزمه أبو بكر، هنا كان الأمر إذنا من النبي ﷺ لأبي بكر أن يصلي، وهو على الاستحباب، له أن يتم وله أن يجعل الإمام للإمام الراتب.

(فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ) لأنه عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة.



٣٢ - باب فضل ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [سورة الكهف: ٢٨].

الشرح:

لكن ليس المراد بهم خمول التصوف، الخمول المتكلف، حتى أنهم في الشتاء يلبسون الثياب الخفيفة، وفي الصيف يلبسون الثياب الخشنة والصوف، يؤدبون أنفسهم زعموا، وهكذا يأتون إلى اللباس الجديد فيأبونه، ويذهبون إلى الخرق، ونحو ذلك.

المراد بأصحاب الخمول: من كان من ضعفة المسلمين، وإلا «فإن الله جميل يحب الجمال».

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾) أي: اصبر نفسك يا محمد مع الذين يدعون ربهم من فقراء المهاجرين وغيرهم، (بالغداة): الصباح، (والعشي): بعد الظهر إلى الليل. (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) أي: يريدون وجه الله، وفيه إثبات صفة الوجه لله عَزَّجَلَّ، وهي من الصفات الذاتية الخبرية، والأدلة على إثباتها كثيرة، منها قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ﴾ [سورة القصص: ٨٨]، وقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن: ٢٧]، وقول النبي صل الله عليه وسلم: «أعوذ بوجهك»، فلو كان الوجه مخلوقاً؛ ما جاز له أن يستعيز بالمخلوق.

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) أي لا تصرف عينيك عن مجالسهم وعن أماكنهم، كما حذر الله من مجالسة المتكبرين والمتغترسين، والكافرين والمنافقين، قال الله

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾
[سورة الأنعام: ٦٨].

٢٥٢ - وعن حارثة بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَّعَفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).
(الْعَتَلُ): الغليظ الجافي.
(وَالْجَوَاطُ): بفتح الجيم وتشديد الواو وبالطاء المعجمة: وَهُوَ الْجُمُوعُ الْمُنْعُوعُ، وَقِيلَ: الصَّخْمُ الْمُخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، وَقِيلَ: الْقَصِيرُ الْبَطِينُ.
(حارثة بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قرشي.

الشرح:

القصور البطين إذا كان لا يخالف الكتاب والسنة لا حرج في شأنه، وإنما أراد القسم المذموم، وهو المختال في مشيته.

قوله: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟) فيه حرص النبي ﷺ على إخبار أصحابه بصفات أهل الجنة؛ حتى ينقادوا لها، ويعملوا بها، فيدخلوا في هذه الفضيلة.
(كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَّعَفٍ) أي: كل رجل ضعيف، في بدنه، في ماله، لكن مع مجيئه بالطاعات والقربات.

(لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ) كما فعل أنس بن النضر حين أرادوا أن يكسروا رباعية الربيع قال: والله لا تكسر، فقال النبي ﷺ: «**إِنْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ**».

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).

(أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟) بعد أن أخبر بأهل الجنة أخبر بأهل النار؛ حتى يكونوا على بعد من هذه الأخلاق الذميمة، وهذه ليست كل أوصاف أهل الجنة، ولا كل أوصاف أهل النار، وإنما ذكر ما يحتاج المقام إليه، لعله ﷺ رأى من حاله هكذا، أو لعله التمس من حاجة الناس إلى ذلك؛ لأن النبي ﷺ كان يخبر كل أحد ويوجب كل أحد بما يحتاج إليه.

(كُلُّ عُتْلٍ): غليظ على الناس، ما عنده ابتسامة، ولا عنده رحمة، ولا عنده رفق.

(جَوَاطِ) يعني: مناع للخير، وجموع للدنيا، غير مبالي بما عليه من الحقوق.

(مُسْتَكْبِرٍ) مستكبر عن الحق، مستكبر على الناس، والكبر شره عريض، قال النبي ﷺ: **«يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ أَمْثَالُ الدَّرِّيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورِ الرَّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الدُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ مِنْ جَهَنَّمَ يُسَمَّى يُوَلَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَاةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ»**.

ولا أشد كبرا من الكفار؛ لأنهم استكبروا عن التوحيد، واستكبروا عن اتباع الرسل.

٢٥٣ - وعن أبي عباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٌ: **«مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟»**، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟»** فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلِّ الْأَرْضِ مِثْلُ هَذَا»**. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

(١) هكذا قال، والصحيح أنه أخرجه البخاري، حديث رقم: (٦٤٤٧).

قوله: (حَرِيٌّ) هُوَ بفتح الحاء وكسر الراء وتشديد الياء: أي حَقِيقٌ.
وقوله: (شَفَعَ) بفتح الفاء.

الشرح:

قوله: (مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ) أي: من عظماء العرب وكبرائهم، عُرف بهيئته ومنظره.

(فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٌ) أي من المسلمين: (مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟) أو أن الرجل أراد النبي صل الله عليه وسلم أن يريه فضيلة المسلم على غيره.

(فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ): من شيوخهم، ومن سراتهم، ومن عليتهم.
(هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ) المال موجود، والجاه موجود، والجمال موجود، والرغبة فيه أكثر من غيره عند كثير من الناس.

(وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ) إذا شفع لقضاء حاجة أحد قد لا يرد، قد قال فلان، وقد شفع فلان، بعكس الضعيف ربما إذا ذهب يشفع يطرده من الباب، يردونه، بينما ذاك إذا جاء يشفع يفتحون له الباب، ويرحبون، ومثلك لا يرد، والله لولا شفاعة فلان ما رددناك، ونحو ذلك.

(فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) يعني ليريه بعد ذلك ما سترى.
(ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟) رجل عُرف من هيئته.

(فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ) مسكين، ما معه شيء، ولا أحد يريجوه، ولا أحد يخافه، ولا أحد يرغب فيه.
(هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ) لا يُزَوِّج؛ لقلة ماله، لقلة تابعه، لضعف حاله، وقد يكون لزمامة خلقته.

(وَأَنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ): إن ذهب يشفع ما أحد يقبله.

(وَأَنْ قَالَ أَنْ لَا يُسَمَّعَ لِقَوْلِهِ): إن بدأ يتكلم أسكتوه: اسكت.

يذكرون هنا قصة قالوا: أن رجلا كان يقال له: بَكَارَة، وكان يأتي إلى مجالسهم فكانوا يطردونه، اجلس هناك يا بكارة، قم صب قهوة يا بكارة، وإذا جلس على فراش وجاء الرجل الآخر: قم يا بكارة من عمك فلان، المهم دارت الليالي والأيام وفتح الله على بَكَارَة بما فتح من المال، فعند ذلك كان، إذا دخل المجلس: توسعوا لبكار، وسعوا له يجلس في أحسن مكان، وإذا تكلم: اسكتوا الشيخ بكار يتكلم، فعجب من صنيعهم، رجع إلى بيته، وأخرج ما معه من الدنانير والدرهم وجعل يقول: يا دراهم يا مراهم تشفي القلب العليل، كنت أنا بكارة واليوم أنا الشيخ بكار.

وفعلا كثير من الناس نظرهم دنيوية، والله لو يأتيهم واحد أثر السجود كما يقولون في رأسه: كمبرك العنزة، ويحفظ القرآن، ويحفظ ما شاء الله من سنة النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ربما ازدروه وردوه، إلى غير ذلك، إذا سلم ظهره، وإذا جاء صاحب المال لا يحتاجون أن يسألوا لا عن سبب ولا عن نسب، إلى غير ذلك، فنظرة الناس المال، قال النبي ﷺ: «أَحْسَابُ النَّاسِ الَّذِي يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ الْمَالُ»، الغالب في الناس هذا، ونسأل الله العافية.

(هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا) مؤمن، موحد، مصلي لله عَزَّوَجَلَّ، طائع لربه، وذاك ربما كان منافق من المنافقين، أو كافر من الكافرين، فالله أكبر ما أعظم المسلم عند الله! نظر ابن عمر إلى الكعبة وقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك! وللمؤمن أعظم عند الله حرمة منك.

٢٥٤ - وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**اِخْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِي ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَمَسَاكِينِهِمْ، فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا: إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمْتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَسَاءُ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أَعَذَّبُ بِكَ مِنْ أَسَاءُ، وَلِكُلِّكُمَا عَلَيَّ مَلُؤْمَا**». رواه مسلم^(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان أن أهل الجنة هم الضعفاء.

(اِخْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ) أي: تخاصمتا عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا دليل على أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء، وأن الجنة والنار لهما إدراك، بل جاء: «**مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ ثَلَاثًا، قَالَتِ الْجَنَّةُ: اللَّهُمَّ أَذْخِلْهُ الْجَنَّةَ (١)، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ ثَلَاثًا، قَالَتِ النَّارُ: اللَّهُمَّ أَعِذْهُ مِنَ النَّارِ**»^(٢)، وهكذا تكلمهم يوم القيامة، تكلم: ﴿**لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ بُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا بُورًا كَثِيرًا**﴾ [سورة الفرقان: ١٤].

(اِخْتَجَّتِ الْجَنَّةُ) وهي في السماء، **(وَالنَّارُ)** وهي في الأرض السفلى.

(فَقَالَتِ النَّارُ) وهذا من اللف والنشر.

(فِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ): الكافرون المتعطرسون على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفي رواية: «**أُوتِرَتِ الْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ**».

(وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِي ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَمَسَاكِينِهِمْ) الضعفاء في المال، الضعفاء في الأبدان، الضعفاء في الأتباع، لكنهم العظماء في الإيمان، ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [سورة الحجرات: ١٣]، المذمة لمن كان ضعيفا في إيمانه، هذا هو المذموم، وأما من كان قويا في إيمانه وإن كان ضعيفا في بدنه فهذا هو الممدوح.

(١) حديث رقم: (٢٨٤٧).

(٢) أخرجه أحمد، حديث رقم: (١٣١٧٣)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويذكرون عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه كان نحيف البدن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى أن ثوبه ينزل من عليه.

قال الشاعر:

إذا خطب الغني بنات قوم رقصن من المسرة والبشارة
وإن جاء الفقير ولو تقياً ذهبن إلى صلاة الاستخارة

يقول هنا في (مشكاة المصابيح) للشيخ الألباني^(١): أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرُ بْنُ حَرَامٍ وَكَانَ يَهْدِي النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْبَادِيَةِ فَيَجْهِّزُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ». وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ وَكَانَ دَمِيمًا فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ لَا يُبْصِرُهُ. فَقَالَ: أَرْسَلَنِي مِنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ فَجَعَلَ لَا يَأْلُوا مَا أَلْزَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا وَاللَّهِ تَجَدُّنِي كَاسِدًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ». رَوَاهُ فِي (شرح السنة).

والفقراء والمساكين من المؤمنين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، لكن لا يدل ذلك على أنهم أرفع من الأغنياء درجة، فقد يتفاوتون بعد ذلك، قد يدخل الغني متأخرًا ولكنه يُرفع إلى الدرجات العلى والنعيم المقيم، لا سيما إذا كان من الباذلين في أوجه الخير.

(فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا) أي: حكم بينهما.

(إِنَّكَ الْجَنَّةَ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ) وهذه رحمة مخلوق؛ لأن الله يتصف بصفة الرحمة التي هي من صفاته، وليست بمخلوقة، وهذه رحمة مخلوقة يرحم الله

(١) (مشكاة المصابيح) (٣/ ١٣٧٠)، حديث رقم: (٤٨٨٩).

بها من شاء من عباده، فيدخلهم إياها، ويكرمهم بها، وأي رحمة أوسع من هذه الرحمة؟ لا رحمة، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦].

﴿وَأَنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أَعَذَّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ﴾ وهو أشد العذاب، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [١٤] إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا [١٥] جَزَاءً وَفَاقًا [١٦] [سورة الشرح: ١-٢٦].

﴿وَلِكُلِّكُمْ عَلَىٰ مِلْؤِهَا﴾ فأما النار لا يزال يُلقى فيها حتى يضع الجبار قدمه عليها فتقول: قط قط وعزتك، وأما الجنة فينشئ الله لها نشأ، جاء في بعض الروايات: بأن الله ينشئ للنار نشأ، وهذا غلط بين، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: ٤٦]، وإنما ينشئ للجنة يكرمهم بها.

٢٥٥ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ الْعَظِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان أن العظمة بالاستقامة على دين الله عَزَّجَلَّ، وليست بعظمة البدن، ولا بعظمة الأتباع ونحوهم، فإنه يأتي يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وهذا دليل على وزن العامل، ودليل على وزن الكفار، إلا أنه لا وزن لهم يظهر، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا يُفِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾ [سورة الكهف: ١٠٥]، أي أنه وزن خفيف، وإلا يوزن على الصحيح من أقوال أهل العلم.

بينما لو وُزن عبد الله بن مسعود ساقه أثقل من أحد، وفي أبي بكر لو وزن مع الثقيلين غير الأنبياء لرجح بهم، وهكذا النبي ﷺ لو وزن بالثقلين لرجح بهم، أهل إيمان وتقى وعمل صالح.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

ثقل ميزانك من الآن، الميزان لا يثقل بكثرة المأكولات، ولا بحسن الملابس، الميزان يثقل بطاعة رب الأرضين والسموات سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢٥٦ - وعنه: أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، أَوْ شَابًّا، فَقَدَّهَا، أَوْ فَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَ عَنْهَا، أَوْ عَنْهُ، فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنُتُمُونِي» فَكَأَنَّهُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا، أَوْ أَمْرَهُ، فَقَالَ: «ذُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ» فَذَلُّوهُ فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى. يُنَوِّرُهَا هُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).
قوله: (تَقُمُّ) هُوَ يَفْتَحُ التَّاءِ وَضَمُّ الْقَافِ: أَيِ تَكُنُّسُ.
(وَالْقِيَامَةُ): الْكُنَاسَةُ، (وَأَذْنُتُمُونِي) بِمَدِّ الْهَمْزَةِ: أَيِ: أَعْلَمْتُمُونِي.

الشرح:

قوله: (أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ) هذا هو الصحيح أنها امرأة؛ لأكثر الروايات في ذلك.
(كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ) أي تقوم على كنسه وتنظيفه، فإياها المسلمون انظروا إلى هذا الفضل العظيم، فأنتم حين تنظفون المسجد ينالكم أجر عظيم، هذه امرأة رفعها الله؛ لتعظيمها لشعائر الله.
(فيه: جواز مكث المرأة في المسجد، ودخول الحائض في المسجد؛ لأنها امرأة سوداء كانت ملازمة للمسجد والنساء تحيض). من شرحي على "صحيح مسلم".
(أَوْ شَابًّا) هذا شك من الراوي.
(فَسَأَلَ عَنْهَا) فيه أنه لا يعلم الغيب، فيه: تفقد الضعفاء.

(١) أخرجه: البخاري (٤٥٨)، ومسلم (٩٥٦)، الزيادة ليست في البخاري وإنما هي في مسلم، ومع ذلك زيادة قد انتقدت، قال الحافظ: وإنما لم يخرج البخاري هذه الزيادة؛ لأنها مدرجة في هذا الإسناد، وهي من مراسيل ثابت، بين ذلك غير واحد من أصحاب حماد بن زيد، وقد أوضحت ذلك بدلائله في كتابي (بيان المدرج).
قال البيهقي: يغلب على الظن أن هذه الزيادة من مراسيل ثابت.

(أَفَلَا كُنتُمْ آذَنُتُمُونِي) أي: أفلا أخبرتموني، هالاً أخبرتموني؛ حتى أصلي عليها وأشفع لها، والنبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكن شفاعته للأموات، يشفع لهم، فصاحب العمل الصالح لا يبخل على الأموات بدعائه.

(فَكَأَنَّهُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا) مع علمهم بعظمة الموحدين، إلا أنهم قالوا: لا نزاع النبي صل الله عليه وسلم من أجل هذه المرأة، (وفيه: أن طبيعة الناس قد يصغرون من ليس بصغير، ويحتقرون من ليس بحقير). من شرحي على "صحيح مسلم".

(فَقَالَ: دُلُونِي عَلَى قَبْرِهٖ، فَدَلُّوهُ فَصَلَّى عَلَيْهَا) وشرعت سنة عظيمة من أجل هذه المرأة، وهو صحة الصلاة على القبر إذا مات ولم تصل عليه.

(ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا) على الكفار، وأما أهل الإيمان فهم في روح وريحان، ورب راض غير غضبان.

(وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ) أي بدعائي، لكن الحديث كما ترى.

٢٥٧ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَذْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ)**. رواه مسلم ^(١).

الشرح:

أي: رب رجل أشعث، شعره منتفش، ووجهه فيه شيء من التشققات ونحو ذلك، وجسمه فيه شيء من الخشونة.

(مَذْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ) إذا أراد يدخل مع الناس قالوا له: ارجع، أين تريد؟ **(لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ)** لو أقسم في أمر يبره الله، يبر قسمه، قال النووي في شرح على مسلم (١٦ / ١٧٥): أي: حَلَفَ عَلَى وَفُوعِ شَيْءٍ أَوْقَعَهُ اللَّهُ إِكْرَامًا لَهُ بِإِجَابَةِ

(١) حديث رقم: (٢٨٥٤).

سُؤَالِهِ، وَصِيَانَتِهِ مِنَ الْحِنْثِ فِي يَمِينِهِ، وَهَذَا لِعِظَمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا عِنْدَ النَّاسِ، وَقِيلَ: مَعْنَى الْقَسَمِ هُنَا الدُّعَاءُ، وَإِبْرَارُهُ إِجَابَتُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": وهذا الفضل ليس لكل أشعث مدفوع بالأبواب، الآن كثير من الشعث الذين يُدفعون بالأبواب ما يصلي، وبعضهم غير موحد، وبعضهم ربما يكون زنديقا خاملا، فليست هذه هي العبرة، العبرة إن كان خاملا مع طاعة الله وتوحيده، ومراقبته، وحسن عبادته، هذا هو صاحب الفضل.

٢٥٨ - وعن أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مُحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).
(وَالْجَدُّ): بفتح الجيم: الحِطُّ وَالْغِنَى.
وقوله: (مُحْبُوسُونَ) أَي: لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ بَعْدُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

الشرح:

حتى يحاسبون على أعمال عملوها، وأمور أموال ضيعوها، فالأمر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لا بد أن ينتبه الإنسان.

قال النبي ﷺ: (قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ) لعلها رؤيا منام، وتحقق يوم القيامة حين يشفع النبي ﷺ للناس.

(فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ) أي الضعفاء، لكن ضعفاء المسلمين، ليس المراد بهم أي ضعيف حتى وإن كان يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا أو بوذيا، لا، ضعفاء المسلمين.

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٦)، ومسلم (٢٧٣٦).

(لكن ليس معنى ذلك أن المساكين هؤلاء ربما أرفع درجة من أصحاب الجدة من المسلمين، فرب صاحب جدة من المسلمين يتأخر دخوله ولكنه يُرفع الدرجات العلا والنعيم المقيم، بسبب صدقات وأوقاف، ونحو ذلك مما يُعلم يأتي به صاحب المال، كما قال الصحابة: يحجون ولا نحج، ويتصدقون بفضل أموالهم، ويعتقون على نعتق). من شرحي على "صحيح مسلم".

(وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ) أي: أصحاب الجدة والمال والأهبات، وهؤلاء من المسلمين، أصحاب الجد من المسلمين، وإلا فأهل النار يؤمر بهم إلى النار. **(وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةٌ مِنْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ)** قد يدخلها من يخرج منها بعد ذلك من نساء المسلمين اللاتي ألمن ببعض ذلك، وقد يكون أكثر أهلها أيضا نساء الكافرين، فالنساء أكثر ربما في أهل الإيمان وفي أهل الكفر والإجرام، ولذلك يكون للمؤمن في الجنة زوجتان، يرى مخ ساقها من وراء اللحم.

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": فلذلك ينبغي للمرأة أن تحذر على نفسها، أن تتأمل في شأنها، وأن تكثر من الصدقة والاستغفار، أولا: إذا اجتمعت النساء كثيرات الكلام فيما لا يعني، كثيرات الغيبة، تجد عندهن أيضا نميمة، وربما البهت، وقل أن يخلوا مجالس النساء من القيل والقال، بخلاف الرجال وإن وجد عندهم القيل والقال لكنه أخف من النساء.

وهكذا تجد عندها كفرانا للعشير، وتعدي على الأبناء، إذا غضبت على الزوج ضربت أبناءها، أو فرطت، وربما كان عندها حطمة على أم الزوج، أو أقارب الزوج إلا أن يكون الزوج حازما، وإلا كثيرا من النساء يتسلطن على أزواجهن ويؤدين بهم إلى القطيعة، ومن دعا إلى هدى كان له مثل أجر من تبعه، ومن دعا إلى ضلال كان له مثل إثم من تبعه.

وهكذا يقع الشر من النساء في التبرج، والخروج متعطرة ومنتظية، وكثير من الأمور، نسأل الله السلامة والعافية، والسبب في ذلك: نقصان العقل عند المرأة، واغترار المرأة بنفسها، وفتنة الرجل بها. اهـ

٢٥٩ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِمْسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَأَنْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتَّهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمَوَسَّاتِ.

فَتَذَاكُرُ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتِمَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَا فِتْنَتَهُ، فَتَعَرَّضْتُ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَمِشْ إِلَيْهَا، فَاتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمَكَّتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ، قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَيْنَتْ بِهِذِهِ الْبَغِيَّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ. قَالَ: أَيْنَ الصَّبِيِّ؟ فَجَاؤُوا بِهِ فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ، فَصَلَّى فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانُ الرَّاعِي، فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يَقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا.

وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرِضُ عَنْهُ فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارَاهُ وَشَارَهُ حَسَنَةً، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ النَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةِ فِيهِ، فَجَعَلَ يُمُصُّهَا.

قَالَ: «وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَيْنَبٌ سَرَقَتْ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهَذَا لَكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهِذِهِ الْأُمَّةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَيْنَبٌ سَرَقَتْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا؟ ! قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ: زَيْنَبٌ، وَلَمْ تَزِنْ وَسَرَقَتْ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

(الْمُؤَسَّاتُ) بِضَمِّ الْمِيمِ الْأُولَى، وَإِسْكَانِ الْوَاوِ وَكسْرِ الْمِيمِ الثَّانِيَةِ وَبِالْسِينِ الْمَهْمَلَةِ: وَهِنَّ الزَّوَانِي، وَالْمُؤَسَّاتُ: الزَّانِيَةُ.

وقوله: (دَابَّةٌ فَارِهَةٌ) بِالْفَاءِ: أَيِ حَاذِقَةٌ نَفِيسَةٌ.

(وَالشَّارَةُ) بِالشِّينِ الْمَعْجَمَةِ وَتَخْفِيفِ الرَّاءِ: وَهِيَ الْجَمَالُ الظَّاهِرُ فِي الْهَيْئَةِ وَالْمَلْبَسِ.

ومعنى (تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ) أَيِ: حَدَّثْتُ الصَّبِيَّ وَحَدَّثَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

وعلى تحسين ذلك الحديث أيضا في ماشطة ابنت فرعون فقد تكلم ابنها في المهد، وأيضا ذلك الذي أرادوا أن يلقوه في الأخدود، إلى غير ذلك، لعل العدد أكثر من هذا، والله أعلم، فلم يرد به الحصر هنا.

أما عيسى ابن مريم كلامه في القرآن، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ١٩ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٢٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٢١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

شَقِيحًا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ [سورة مريم: ٢٩-٣٣].

وسمي ابن مريم؛ لأن الله خلقه من أم لا أب له.
(وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ) وسمي صاحبه؛ لأنه اهتم به.
(وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا) أي كثير الصلاة والعبادة، لكن الذي يظهر أنه كان قليل العلم، فكثرة العبادة مع ضعف العلم تضعف صاحبها، وضعف العبادة مع كثرة العلم ربما تؤدي إلى ضعف صاحبها، لكن العلم مقدم.
(فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا) والله عَزَّوَجَلَّ نهانا عن هذا، نهى أمة محمد عن اتخاذ الصوامع والبيع كما كان أولئك يفعلون، ونهى عن التبتل.
(فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يَصَلِّي) ولها حق، كان ينبغي له أن يجيبها، لا سيما إذا كان في النافلة، فإن حقها مقدم على النافلة، وأما إذا كان في الفريضة فيتم صلاته.
 وفيه: أثر دعاء الوالدين على ابنهم، فانظر رجل صالح يصلي، ومع ذلك دعت عليه أمه؛ لكثرة ما وقع في قلبها من تأخره عن إجابتها، ثلاثة أيام وهي تأتي إليه في حاجة لها، وهو يقبل على صلاته، قالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، والله ربما لو دعت عليه أن يفتن لفتن، ولو دعت عليه أن يأتي المومسات لأتاهن، لكن لعلها كانت فقيهة، لم تدع عليه بالانحراف الشديد الذي يؤدي إلى نزع الإيمان من قلبه، أو ضعف الإيمان في قلبه، وإنما دعت عليه بقدر ما ظلمها.
(فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ الْمُومِسَاتِ) أي: هو مختبئ داخل هذه الصومعة وأبى أن يجيبني اللهم لا تمته حتى يرى الزواني، وهذا دليل على نبذ الاختلاط ووجوب البعد عنه، وأن الإنسان يتحرز ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

(فَتَذَكَّرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ) فيه حرص المفتونين على فتنه الصالحين، فإياك أن تكون سهلا لهم، يتلاعبون بك، ويحرصون على فتنك، ربما تكون ما

تخزن يقول لك: جي نعطيك تخزينة، ما تحشيش: جي نعطيك حشيشة على حسابنا، ما تغني: اجلس يا أخي اسمع لك هذا المقطع، ما تتلفز ولا تدشداش: اجلس انظر لك هذا المقطع أو هذا الفيديو، ربح على نفسك، طريق لإفساد الرجل، وهكذا يفعلون حتى مع النساء، طريق لإفساد الرجال والنساء.

فينبغي للإنسان أن يتقي الله عَزَّجَلَّ، وأن يبتعد من الأشرار، **«فر من المجذوم فرارك من الأسد»**.

(فَقَالَتْ: إِنَّ شَيْئًا لَأَفْتِنَنَّهُ) فيه شد. فتنة المفتون، وأن هذه المرأة من كثر ما تعاطف من البلاء رُفِع عنها الحياء، وفي الحديث: **«إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»**، بينما لو كانت امرأة عفيفة لن تتكلم بهذا الكلام، حتى وإن خطر في قلبها؛ لتعاضمها له، لكن هذا دليل على شدة فسقها وفجورها، حتى قد علمت أمام الناس أنها فاجرة وفاسقة، وتتحدى أنها تفتنه، نعوذ بالله من الخذلان، نسأل الله السلامة والعافية.

(فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمَكَّتَهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا) يعني أتت جريجا ما التفت إليها؛ لإيمانه ولعبادته ولانشغاله بالطاعة، فأتت راعيا كان يأوي إلى صومعته فأمكته من نفسها، والله أعلم كم بقيت معه حتى حملت، ثم رجعت إليهم كذبا وزورا قالت: هذا ابن جريج.

وفيه: كرامات الأولياء، من أن الله عَزَّجَلَّ أنطق هذا الصبي لبراءة جريج، وكرامات الأولياء يؤمن بها أهل السنة والجماعة، وإنما ينكرها المعتزلة ومن إليهم من أهل البدعة والشناعة.

وفيه: زهد العباد وأهل الطاعة، فإنهم أرادوا أن يرجعوا صومعته من ذهب فأبى، وإنما أمرهم أن يعيدوها بالطين.
وفيه: أن من أتلَف شيئًا ضمنه.

والقضية الثالثة الذي ساق المصنف الحديث من أجلها: قصة هذا الغلام الصغير مع أمه، حيث دعت له أن يكون مع أصحاب الهيئات الحسنة، والأموال، فقال: اللهم لا تجعلني مثلهم، ودعت له أن يكون بعيدا عن هيئة هذه الجارية فقال: اللهم اجعلني مثلها، أي: ضعيفا، صاحب عبادة، وصاحب براءة، وصاحب نسك.

ليس معنى ذلك أن يجعله امرأة، لا، فلا يجوز للرجل أن يدعو أن يجعله الله امرأة، ولا يجوز للرجل أن يعمل عملية تحويل إلى امرأة، هذا تنكس فطر، نعوذ بالله، وهذا خذلان عظيم، ابتلي به كثير من الشباب؛ بسبب تكسرهم، بسبب شذوذهم، بسبب معاصيهم، بسبب انتكاستهم، حتى صار أحدهم يعمل بنفسه مثل المرأة، نعوذ بالله من الخذلان، رجل امتن الله عليه وجعله قواما، وجعله من أصحاب الرجولة التي يتمناها الكثير، ويذهب يلعب بنفسه.

وأقبح أقبح أن يكون هذا في بلاد المسلمين، وأقبح منه أن يكون أيضا في بلاد العرب التي يتميز أهلها بالنخوة والشهامة والشجاعة، إلى غير ذلك، والآن تجدهم في مصر بكل سهولة، وفي الكويت قد عملوها، وفي تركيا غير منكور، وفي كثير من البلدان، عمليات تحويل الشباب إلى شابات، بئس هذا الصنيع، بس هذا الفعل، والله المستعان.

والله أظن لو عُرض هذا الأمر على حمار وكان الحمار يحسن الكلام لأبى أن يكون حمارة، والله صحيح، حمار يأبى أن يكون حمارة، وفرس يأبى أن يكون بغلة أو يكون كذا، الذكر ذكر، والرجل رجل، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [سورة النساء: ٣٤]، ويذهب هذا يتلاعب بنفسه وبوجهه وبرجولته، والله المستعان.



٣٣ - باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين والمنكسرين والإحسان
إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم وخفض الجناح لهم

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلْخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر: ٨٨].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة الكهف: ٢٨].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾ [سورة الضحى:
٩-١٠].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا
يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝﴾ [سورة الماعون: ١-٣].

الشرح:

ذكر هذه الأصناف دون غيرها لأنها أصناف ضعيفة تحتاج إلى مواساة وإحسان ورفق، فاليتيم من البشر: من فقد أباه، ومن الحيوان: من فقد أمه، فيلاطف بالابتسامة والبذل والإحسان، والنبي ﷺ يقول: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة». **(والبنات)** يلاطفن؛ لشعورهن أن الذكور أكمل منهن، ولرغبة الرجال في الذكور، ولذلك جاء أنه يُرَش من بول الغلام ويغسل من بول الجارية، قيل: لرفع الكلفة التي تلحق من كثرة حمل الطفل، بخلاف الأنثى، وقيل غير ذلك. ويذكرون أن رجلا كان له امرأة، وكانت تأتي بالبنات، فهجرها، فجعلت تقول في لعبها لولدها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا	يظل في البيت الذي يلينا
غضبنا ألا نلد البنينا	تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا	ونحن كالأرض لزارعينا

ثم راجع نفسه، فالبنات هن رزق من الله، كما أن الذكور رزق من الله، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝﴾ [سورة الشورى: ٤٩-٥٠]، يزوجهم ذكرانا: أي: يجعل لأحدهم ذكرانا وإناثا، وبعضهم إنما يكون نسله الإناث.

هناك حديث: أن أكثر الأنبياء آباء البنات، لكنه لا يصح، وإلا فلو ط كانت له بنات ولم يذكر له ولد، ومحمد ﷺ كانت له البنات والأولاد، ومات الذكور قبل بلوغهم، وأما البنات فعشن حتى زوجت رقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة رضوان الله عليهن أجمعين، وماتت كلهن قبله، إلا ما كان من فاطمة عاشت بعده ستة أشهر.

(وسائر الضعفة والمساكين) يعني ليس فقط ملاطفة اليتيم والبت، بل سائر الضعفة والمساكين، سواء كانوا من الجيران، أو الأرحام، أو من غيرهم من المنكسرين، كسهرم الفقر أو الحاجة، أو الضعف، والإحسان إلى المنكسر سبب لإحسان الله إلى العبد.

(والإحسان إليهم) بكف الأذى، وبذل الندي، وطلاقة الوجه.

(والشفقة عليهم) بالرحمة، والتواضع، ونحو ذلك.

(وخفض الجناح لهم) يعني بعدم الكبر والتعالي عليهم.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾) هذا أمر للنبي ﷺ، وهو أمر لأئمة.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾) وهذا يحتاج إلى تواضع وسكينة.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾) كما أنك تعرض عمن لم يكن هذا حاله، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [سورة الأنعام: ٦٨]، فهذه الآية أصل في مجالسة الصالحين، وتلك الآية أصل في منابذة المفسدين.

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾) بضرب أو شتم أو سب.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾) إن أحسنت إليه بالعتاء ونحوه، وإلا فأحسن إليه بالمقال.

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾): أخبرني بالذي يكذب بالدين، بيوم الجزاء والحساب.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾) من صفاته أنه ينهر اليتيم ويطرده ويقهره.

﴿وَلَا يَحْضُرْ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾) لا يأمر ولا يحث بالإحسان إلى المساكين.

٢٦٠ - وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمَشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَخْتَرِثُونَ عَلَيْنَا، وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ. وَرَجُلٌ مِنْ هَذِلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [سورة الأنعام: ٥٢]. رواه مسلم ^(١).

الشرح:

ذكر المصنف هذا الحديث؛ لبيان أمر الله عزَّوَجَلَّ بالإحسان إلى الضعفة والمساكين، والمجالسة لهم.

قوله: ﴿كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ﴾ كانوا يحرصون على ملازمته؛ لأخذ العلم منه.

(١) حديث رقم: (٢٤١٣).

(فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا)؛ لأن أصحاب الشرك عندهم كبر وغطرسة، لا يقبلون الضعفاء والمساكين.

(وَكُنْتُ أَنَا) سعد بن أبي قاص بن سادات المسلمين، إلا أنه بعد إسلامه لحقهم الفقر بسبب الهجرة، بسبب ترك الأموال، بسبب ازدياد أهلهم لهم، وسعد بن أبي عقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة، نزل فيه القرآن.

(وَأَبْنُ مَسْعُودٍ) ابن مسعود هو عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمن.

(وَرَجُلٌ مِنْ هَذِلٍ) لعل الرجل من هذيل إما ابن مسعود كرر أو غيره.

(وَبِلَالٌ) بن حمامة، أمه حمامه، وأبوه رباح الحبشي.

(وَرَجُلَانِ لَسْتُ أَسْمِيَهُمَا) أي من فقراء المهاجرين والمساكين.

(فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ)؛ طمعا في إسلامهم، وطمعا في

قربهم.

(فَحَدَّثَ نَفْسَهُ) أي لم يصرح لهم بذلك؛ لأن النبي صل الله عليه وسلم كان

رحيما رفيقا.

(فَاتَزَلَّ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾)؛

إثبات صفة الوجه لله عز وجل.

٢٦١ - وعن أبي هُبَيْرَةَ عَائِدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْمَزْنِيِّ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: مَا أَخَذْتَ سُيُوفَ اللَّهِ مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخٍ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتُ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ» فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: يَا إِخْوَانَاهُ، أَغْضَبْتَكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَحْيَى. رواه مسلم.

قوله: (مَأْخَذَهَا) أي: لم تستوف حقها منه.

وقوله: (يَا أُخَيَّ): رُوي بفتح الهمزة وكسر الخاء وتخفيف الياء، ورُوي بضم الهمزة وفتح الخاء وتشديد الياء.

الشرح:

قوله: (وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرضوان) وهي بيعة الحديبية، وقد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ * لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴿[سورة الفتح: ١٨]، وقال النبي ﷺ: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

(أَنْ أَبَا سُفْيَانَ) وهو صخر بن حرب، أسلم عام الفتح.
(أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ) سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال تقدم.

(فِي نَفَرٍ) معه، وهذا قبل إسلامه.
(فَقَالُوا: مَا أَخَذَتْ سَيْوْفُ اللَّهِ مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ مَا أَخَذَهَا) الإضافة إضافة تشريف؛ لأنها سيوف تقاتل في سبيل الله، وفيه أن الكافر عدو الله عزَّ وجلَّ.
(فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وهو خليفة رسول الله صل الله عليه وسلم، أفضل الصحابة بعد رسول الله ﷺ، عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة، من العشرة المبشرين بالجنة.

(أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخٍ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟) أي: لشيخ الكفار، ولسيد الكفار، أو أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طمع في إسلامه.

(فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ) أي أن أبا بكر أخبر النبي صل الله عليه وسلم.
(فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ) أي أغضبت الصالحين.
(لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ) فيه إثبات صفة الغضب لله عزَّ وجلَّ، وأنه يغضب لغضب أوليائه، فليحذر الإنسان على نفسه من غضب الصالحين، لأن الله عزَّ وجلَّ إذا غضب على الإنسان انتقم منه، ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [سورة

الزخرف: ٥٥] أي: أغضبونا، انتقم الله عَزَّجَلَّ منهم، والنبى ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ، قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»^(١) «إِنَّ اللَّهَ، قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»^(٢).

(فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهُ، أَغَضِبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أُخِي) فيه التحلل من المظلمة إن وقعت من الإنسان؛ لأن من تحلل في دينه سلم في أخراه، ومن تباطأ من التحلل في دينه عوقب في أخراه، نسأل الله السلامة والعافية.

وليت شعري أين نحن من مثل هذا الحديث؟ ربما تقع بيننا وبين إخواننا من المغاضبات ما هي أعظم من هذا، ومع ذلك يستمر أحدنا في هجر أخيه، والبعد منه، وربما أدى إلى التحذير منه، والهجر، والتقاطع والتدابير، فإن كنا على هدى فعلينا أن نتأسى بهؤلاء في العفو والصفح، والتجاوز والإحسان.

قال: (قوله: (مَأْخَذَهَا) أي: لَمْ تَسْتَوْفِ حَقَّهَا مِنْهُ)؛ لأن صناديد قريش قتلوا يوم

بدر.

٢٦٢ - وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا. رواه البخاري^(٣).
(وكافل اليتيم): القائمُ بِأُمُورِهِ.

الشرح:

القائمُ بِأُمُورِهِ بالنفقة عليه، والإحسان إليه، والتربية له، وفي هذا الحديث فضل كفالة اليتيم.

(١) أخرجه البخاري، حديث رقم: (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري، حديث رقم: (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) حديث رقم: (٥٣٠٤).

ولو نظرت إلى حال الناس الآن لوجدت التضييع لحق اليتيم، إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ، يأكلون أموالهم، ويقطعون أرحامهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٠].

قال الحافظ في "الفتح" (٤٣٧/١٠): قَالَ شَيْخُنَا فِي شَرْحِ التِّرْمِذِيِّ: لَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي كَوْنِ كَافِلِ الْيَتِيمِ يُشَبَّهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ أَوْ شُبِّهَتْ مَنْزِلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ بِالْقُرْبِ مِنَ النَّبِيِّ أَوْ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ لِكَوْنِ النَّبِيِّ شَأْنُهُ أَنْ يُبْعَثَ إِلَى قَوْمٍ لَا يَعْقِلُونَ أَمْرَ دِينِهِمْ فَيَكُونُ كَافِلًا لَهُمْ وَمُعَلِّمًا وَمُرْشِدًا وَكَذَلِكَ كَافِلُ الْيَتِيمِ يَقُومُ بِكَفَالَةِ مَنْ لَا يَعْقِلُ أَمْرَ دِينِهِ بَلْ وَلَا دُنْيَاهُ وَيُرْشِدُهُ وَيُعَلِّمُهُ وَيُحْسِنُ أَدَبَهُ فَظَهَرَتْ مُنَاسَبَةُ ذَلِكَ أَهْدَ مُلَخَّصًا. اهـ

٢٦٣ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لَغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» وَأَشَارَ الرَّاوي وَهُوَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى. رواه مسلم^(١).

وقوله ﷺ: «الْيَتِيمُ لَهُ أَوْ لَغَيْرِهِ» مَعْنَاهُ: قَرِيبُهُ، أَوْ الْأَجْنَبِيُّ مِنْهُ، فَالْقَرِيبُ مِثْلُ أَنْ تَكْفُلَهُ أُمُّهُ أَوْ جَدُّهُ أَوْ أَخُوهُ أَوْ غَيْرُهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

و(مالك بن أنس) هو إمام دار الهجرة ومفتيها.
(والمراد بكافله: القائمُ بِأُمُورِهِ مِنْ نَفَقَةٍ وَكِسْوَةٍ وَتَأْدِيبٍ وَتَرْبِيَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْفَضِيلَةُ تَحْصُلُ لِمَنْ كَفَلَهُ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ، أَوْ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِوِلَايَةِ شَرْعِيَّةٍ.
وربما دخل أيضًا فيمن كان سببًا في كفالة اليتيم، فإن الدال على الخير له كأجر فاعليه). اهـ من شرحي على "صحيح مسلم".

(١) حديث رقم: (٢٩٨٣).

٢٦٤ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وفي رواية في الصحيحين: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ».

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان فضيلة الإنفاق على المسكين الذي يتعفف عن سؤال الناس، وعن التطلع لما في أيديهم، فينبغي للمسلم أن يكون حريصاً على إعفافه، حريصاً على ستره، حريصاً على إطعامه؛ حتى لا يتكفف الناس أعطوه أو منعه.

(وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ) عفة عظيمة، وهذا قد يعجز عنه الكثير، لاسيما أن الحاجة متعبة، الإنسان إذا احتاج يتعب في علاج نفسه وعلاج أهله، وفي النفقة على نفسه، والنفقة على أهله، إلى غير ذلك، ولذلك قد لا يقع مثل هذا الحال إلا من خلص صالحى الفقراء والمساكين.

(والمسكين والفقير بينهما عمومًا وخصوص، فقد يطلق المسكين ويراد به الفقير وهذا إذا افترقا، وأما إذا اجتمع فقد اختلف العلماء، فقليل المسكين: الذي لا شيء له، والفقير الذي معه ما لا يغنيه، وقيل العكس، فهنا يقول النبي ﷺ: ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس، وإن كان هذا من جملة المساكين، لكن هناك من هو أشد منه في المسكنة والحاجة، فهذا يطوف ويجد ما يقوته وما يعونه، قد يجد من هذا لقمة، ومن هذا تمرة، ومن هذا كذا وكذا). اهـ من شرحي "على صحيح مسلم".

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩).

٢٦٥ - وعنه، عن النبي ﷺ قَالَ: «السَّاعِي عَلَى الْأَزْمَلَةِ وَالْمُسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». وَأَحْسَبُهُ قَالَ: «وَالْقَائِمِ الَّذِي لَا يَفْتَرُ، وَكَالصَّائِمِ الَّذِي لَا يُفْطِرُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

(وعنه) أي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(السَّاعِي) المنفق الباذل للمعروف.

(عَلَى الْأَزْمَلَةِ): المرأة التي لا زوج لها.

(وَالْمُسْكِينِ): الفقير الذي لا مال له.

(كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وهذا جهاد، جهاد بالمال، كما أن القتال في سبيل الله جهاد بالنفس هذا جهاد بالمال.

(وَأَحْسَبُهُ قَالَ: وَكَالْقَائِمِ الَّذِي لَا يَفْتَرُ) كالذي يقوم الليل، لا يفتر عن صلاة وقرأة.

(وَالصَّائِمِ الَّذِي لَا يُفْطِرُ) الله أكبر، أين أصحاب الأموال من مثل هذه الأحاديث العظيمة التي يوازي فاعلها المصلي والصائم والمقاتل في سبيل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؟ وهذا من الأدلة على تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر، الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر؛ لأنهم يشتركون في الصلاة والصيام والدعاء والرجاء وكذا، ويزيد الغني الشاكر في بذل المعروف، يعني كالمجاهد في سبيل الله إذا كفل يتيما أو أرملة ربما يعطيهم عشرين ألفا في الشهر، أو خمسين ألفا أو نحو ذلك من العملة اليمنية لا يصل إلى خمسمائة ريال بالعملة السعودية وما في بابها، ومع ذلك يحصل على هذا الأجر العظيم، كالمجاهد في سبيل الله.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٧)، ومسلم (٢٩٨٢).

وكم وعد الله المجاهدين في سبيله بالفضل والرفعة والمنزلة؟ وكالقائم الذي لا يفتر، وهو نائم وأجره كالقائم لليل، وكالصائم الذي لا يفطر في النهار. والله أن هذا الحديث حري أن يكون أمام كل مسلم من أصحاب الأموال، أين هم من هذه الفضائل العظيمة؟ ضاعت الحقوق، وقطعت الأرحام، بسبب الأموال، وضاع الأيتام والأرامل، مع أنه ينبغي الاعتناء بهم، وإعطائهم من بيت مال المسلمين إن لم يكن لهم من يعولهم.

٢٦٦ - وعنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُمْنَعُهَا مَنْ يَأْتِيهَا، وَيُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ». رواه مسلم^(١).
وفي رواية في الصحيحين^(٢): عن أبي هريرة من قوله: «بَسَّ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدْعَى إِلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ».

الشرح:

هذا الحديث بابه غير هذا الباب، ولكن ساقه المصنف؛ لأن الوليمة الطعام والشراب يحتاجه الفقراء ولا يُدعون، ويستغني عنه الأغنياء ويدعون؛ لأن الناس بطبيعتهم يحبون أن ينزل عندهم الرجل الشريف، والرجل الرفيع، فلذلك سماه النبي ﷺ شر الطعام، مع أنه حلال طيب، لكن شريته من حيث (يُمْنَعُهَا مَنْ يَأْتِيهَا) يمنعها من يأتيتها، وهم الفقراء والمحتاجون والمساكين، (وَيُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا)، وهم الأغنياء.

(وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ) استدل بهذا اللفظ على أن إجابة الوليمة يعتبر واجبا، وذبح جمهور أهل العلم إلى الاستحباب، والصحيح الأول.

(١) حديث رقم: (١٤٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٧٧)، ومسلم (١٤٣٢).

٢٦٧ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ. رواه مسلم ^(١).
(جَارِيَتَيْنِ) أي: بنتين.

الشرح:

وذلك بالإحسان إليهما، والرفق بهما، والتزويج لهما، إلى غير ذلك، بعضه قد يحسن إلى ابنته من جانب ويضيعها من جانب، لا، عليك أن تحسن من جميع الجوانب، في تربيتها حسسها أنها ابنتك، ليست بناقصة، لا في قيمتها ولا في منزلتها ولا في شأنها، إذا ضربها أخوها أو أساء إليها خذ لها حقها، إياك أن تقدم الذكور على الإناث، أو الإناث على الذكور، أنزل كل واحد منزلته.
وهي عندك الضيف يوشك أن تفارقك، وبعد ذلك لا تراها ولا تراك إلا على رأس الحول، أو في الزيارة، فالإنسان عليه أن يحسن إلى بناته، بالعلم والتعليم، واختيار الزوج الصالح.

٢٦٨ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابْتَانِهَا، تَسْأَلُ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَفَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «مَنْ ابْتَلَى مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(٢).

الشرح:

فيه ضيق حال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهذه زوجة النبي ﷺ ولم تجد عندها إلا تمرات، تمرّة واحدة.

(١) حديث رقم: (٢٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩).

وفيه فضيلة الصدقة ولو كان بالقليل، القليل عندك كثير عند الفقير وعند المحتاج، إياك أن تستقل الخمسين، المائة، الألف الذي تتصدق به ربما لا يشتري لك كيلو رز، أو يشتري لك ربما واحد عصير، لكن هو بالنسبة لهذا الفقير خير، ويفرح به.

فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما قالت: هي ثمرة أيش تسوي بها؟ أعطتها التمرة، والأم فرحت بالتمرة، وقسمتها بين ابنتيها، حاجة، ومسغبة، فقر.

(وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا) فيه حق الأمهات على البنات والأبناء، ربما تجوع الأم وتسهر وتتعب وتنصب من أجل راحة ولدها، ومع ذلك يضيع حقها، على ما يأتي.

(فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا، فَأَخْبَرْتُهُ) فيه مؤانسة المرأة لزوجها، وكذلك إخبار المرأة بما يحصل، وفيه التعجب.

(مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ) أي: من رزق عدة بنات يحسن إليهن يا أخي، كن له سترا من النار، إياك أن تتسخط، جاءتك بنت الله عَزَّجَلَّ هو الذي أنبتها، وأنت الذي زرعت، إن كان الأمر يعود إلى المرأة بالذم فأنت الزارع إليك من باب أولى، ولكن الأمر لله عَزَّجَلَّ، إن شاء أن يهب لك أنثى وهب، إن شاء أن يهب لك ذكرا وهب.

وأنت أحسن إليهم جميعاً، ولا إفراط، ولا تفريط، في بعض المناطق يقدمون البنات على الأبناء، ويعظمون شأن البنات أكثر من شأن الأبناء؛ لتأثرهم بالبلدان التي عاشوا فيها، وفي بعض البلدان يقدمون الأبناء على البنات، فخذ الهدية النبوي بالمساواة بين أبنائك، **«انقوا الله واعدلوا بين أبنائكم»**.

٢٦٩ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: جَاءَنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطْتُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعْتُ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطَعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

الله عَزَّجَلَّ غني كريم، عظيم حلیم، يجازي على القليل بالكثير، قال: «نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عن عبيدي»، فانظر كيف يؤجر الرجل حتى على الإنفاق على بناته وزوجاته وأبنائه، ومن يليه ممن لا يعذر بالنفقة عليهم.

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": قوله: (تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا) إما أن يكون بظاهر اللفظ تحملهما على أكتافها، أو في عرضها؛ لصغرهما، أو تحملهما بمعنى: أنهما يمشيان معها.

(فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ) لا تستصغر صدقة ولو شيئاً يسيراً، عسى أن يكون عند الله عَزَّجَلَّ عظيماً.

(فَأَعْطْتُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً) العدل بين الأبناء.

(فَاسْتَطَعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا)؛ لأن الصغار ما يعلمون بحاجة الكبار.

(فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا) يعني كيف قدمت ابنتيها على نفسها.

(إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ) تفضلاً منه ورحمة.

(أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ) ولا مانع أن يكون إيجاب الجنة عتق من النار. اهـ

(١) حديث رقم: (٢٦٣٠).

٢٧٠ - وعن أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمَ وَالْمَرْأَةَ» حديث حسن رواه النسائي بإسناد جيد^(١).

ومعنى (أُحَرِّجُ): أُلْحِقُ الْحَرْجَ وَهُوَ الْإِثْمُ بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُمَا، وَأَحَذَّرُ مِنْ ذَلِكَ تَحْذِيرًا بَلِيغًا، وَأَزْجُرُ عَنْهُ زَجْرًا أَكِيدًا.

الشرح:

قوله: (اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ) يعني كأنه يقول: ألحق الحرج والإثم على من ضيع حقهما، وسماهم بالضعيفين وإن كان ربما تجد بعض النساء قوية في بدنها، وبعض الأيتام قوي في بدنه، إلا أنه ضعيف مستضعف في المجتمع، لا يُعان ولا ينصر، ولا يحسن إليه، إلى غير ذلك.

(الْيَتِيمَ وَالْمَرْأَةَ) فعلى الإنسان أن يكون على حذر من تضييع حق المرأة، سواء كانت أما، أو بنتا، أو زوجة، أو عمة أو خالة، أو على أي حال، وكذلك حق اليتيم. ومعنى ذلك: أن تضييع حقهما يعتبر من كبائر الذنوب، فينبغي للإنسان أن يراقب الله عَزَّوَجَلَّ في شأن الضعفاء.

٢٧١ - وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: رَأَى سَعْدُ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصِرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ». رواه البخاري^(٢) هكذا مُرسلاً، فإن مصعب بن سعد تابعي، ورواه الحافظ أبو بكر البرقاني في صحيحه متصلاً عن مصعب، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح:

(١) حديث رقم: (٩١٥٠)، قال: صحيح عن أبي هريرة، شاذ عن أبي شريح.

(٢) حديث رقم: (٢٨٩٦).

قوله: (رَأَى سَعْد) وهو ابن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سعد بن مالك.

(أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ) إما بالمال، وإما بنحو ذلك.

(هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضِعْفَائِكُمْ) الضعيف الذي أنت الآن ربما تنظر إليه

نظرة الاحتقار به يحفظ الله البلاد، وبه ينصر الله الجيوش، وبه يرزق الله عزَّجَلَّ الفقراء والمحتاجين، ويوسع على الناس، إما بدعائه، وإما بغير ذلك.

هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضِعْفَائِكُمْ) إذا متى حصلت الهزيمة في الأمة؟ حين

ضيع حق الضعيف، وفي الأثر: أن امرأة بينما هي تحمل جرة على رأسها إذ جاء شاب

فعرض رجله أمامها فسقطت وانكسرت جرتها، فلما قامت التفتت إليه قائلة: كيف

أنت إذا كنت يوم القيامة ونصب الميزان ونحو ذلك؟ فلما أخبر النبي ﷺ قال: «**لَا قَدَسَ اللَّهُ أُمَّةً لَا يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا حَقَّهُ مِنْ شَدِيدِهَا**».

نُصِرَ الإسلام بهذا العدل العظيم، بين الكبراء وبين الصغار، بين العظماء وبين من ينظر إليهم أنهم حقراء، «**إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**».

٢٧٢ - وعن أبي الدرداء عُويمِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«**ابْغُونِي الضُّعَفَاءَ، فَإِنَّمَا تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ، بِضِعْفَائِكُمْ**». رواه أبو داود بإسناد جيد^(١).

الشرح:

(أبي الدرداء عويمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وهو أنصاري، كان من عباد الصحابة.

هذا بمعنى حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



(١) حديث رقم: (٢٥٩٤)، وهو حديث صحيح.

٣٤ - باب الوصية بالنساء

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: ١٩].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ
فَتَذَرُوهُنَّ كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة
النساء: ١٢٩].

الشرح

لما ذكر الضعفة واليتيم ثنا بذكر الوصية بالنساء؛ لأن النساء الزوجات عبارة عن أسيرة عند زوجها، وكثير من الأزواج يجعل نفسه كالسيد، نعم هو سيد على أهل بيته لكن بعضهم يجعل نفسه كالسيد ضرباً وشتماً وهجراً وقسوة، يا أخي المرأة لها حق عليك بالإحسان، ولك حق عليها بالطاعة بالمعروف.

ولا يستقيم شأن البيت إلا بالتعاون على البر والتقوى، فلا إفراط ولا تفريط، لا تجعلها هي المتحكمة في كل شيء؛ لأن عقول النساء ضعيفة، ولا تجعلها كالعبد والأمة فهي لباس لك، وفراش لك، ومجالس لك، وأم لأبنائك، فلها حق عظيم، هذا إذا كانت زوجة.

وإذا كانت أما كذلك لها حقوق أعظم، وإذا كانت بنتاً تقدم، وإذا كانت أختاً هي من الأرحام، لكن المراد هنا الوصية بالنساء أي: الزوجات.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾) والمعروف: ما وافق الكتاب والسنة، فإن وقع منها ميل عن هذا المعروف فبينك وبينها النصيحة والموعظة، ثم الهجر، ثم الضرب بغير تبريح.

وإياكم أن تصدقوا ما يقوم به الكفار الآن من الدعوة إلى تحرير المرأة، يزعمون أن الإسلام هضمها، لا، الإسلام أدى لها حقها، وسترون في هذا الباب من الأحاديث

العظيمة ما يدل على أن المرأة لم تكرم في شريعة ولا في أمة كما أكرمت عند المسلمين.

سميت سورتان في القرآن باسمها: سورة النساء الكبرى التي تعرف بالنساء، وسورة النساء الصغرى التي تعرف بالطلاق، وذكر الله من أحكامها في سورة النور وسورة الأحزاب، وغير ذلك من السور الشيء الكثير.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾) لكن الإنسان يتقي الله ما استطاع، **(﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾)** [سورة التغابن: ١٦]، إياك أن تميل، فإن من مال حصل له بقدر ميله.

(﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾) وهذه نصيحة ووصية من ربنا عزَّجَلَّ للمعدين، الذي تجده هجيرته التعدد، يريد أن يعدد ولكن لا يريد أن يؤدي الحق الذي عليه، فما أن يعدد إلا ويبادر إلى طلاق الأولى أو الثانية، إلى هجر الأولى أو الثانية، إلى قطيعة الأولى أو الثانية، لا، إذا أراد أن يعدد عليه أن يلزم العدل فيما يستطيع، وهو القسمة، والنفقة، والسكنى، ونحو ذلك من الإحسان.

(﴿فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾) لا مطلقة ولا مزوجة، وأكثر المشاكل التي تقع بين المعدين بسبب هذا، وإلا لو كان منصفاً ما لها حق عليه، لو ذهبت إلى أبيها إلى أخيها إلى القاضي وتحاكموا يقول: أنا أعطيتها حقها الذي أوجبه الله لها، ما كان لها عليه سبيل.

لكن الواقع أن كثيراً منهم يذرهما كالمعلقة، بل أسوأ من ذلك بعضهم يرمي بها وبأبنائها، فلا ينفق عليها، ولا يحسن إليها، ولا يربي أبناءه، ويحملها حملاً فوق الحمل التي هي عليه.

﴿وَأَنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (تصلحوا بينكم وبين

أزواجكم، وتتقوا الله فيهن، فإن الله كان غفورا لكم، رحيمًا بكم، إذا وقع تقصير.

٢٧٣ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرَتْهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ، لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وفي رواية في الصحيحين: «الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ وَفِيهَا عَوَجٌ».

وفي رواية لمسلم: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عَوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسَرُهَا طَلَاقُهَا». قوله: (عَوَجٌ) هُوَ بَفَتْحِ الْعَيْنِ وَالْوَاوِ.

الشرح

ساق المصنف الحديث؛ لبيان أهمية حسن العشرة للزوجة، مع ما فيها ربما من بعض أخلاقها التي تعود إلى أصل خلقتها، يذكرون أن الله خلقها من أعلى الضلع، وهو أعوجّه، فلذلك كانت على ذلك، حتى الناس خلقهم الله من الأرض، فمنهم السهل والحزن، والخبيث والطيب، والأبيض والأسود، على قدر الأرض التي أخذوا منها.

كذلك النساء، فإذا أردت أن تقيمها على الصراط لا تخطئ لا تغضب لا تسخط كسرتها، وكسرها الطلاق.

﴿وَأَنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا، اسْتَمْتَعْتَ وَفِيهَا عَوَجٌ﴾ يحصل منها على الأولاد، تغسل لك اللباس، تقضي وطرك، تصلح حالك، فإن غضبت راضها وتراضيك، وهكذا.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣١) و(٥١٨٤)، ومسلم (١٤٦٨).

قال الحافظ في "الفتح": وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنْ يَتْرُكَهَا عَلَى اعْوِجَاجِهَا فِي الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ النَّذْبُ إِلَى الْمُدَارَاةِ لِاسْتِمَالَةِ النَّفُوسِ وَتَأَلُّفِ الْقُلُوبِ وَفِيهِ سِيَاسَةُ النِّسَاءِ بِأَخْذِ الْعَفْوِ مِنْهُنَّ وَالصَّبْرِ عَلَى عَوِجِهِنَّ وَأَنَّ مَنْ رَامَ تَقْوِيْمَهُنَّ فَإِنَّهُ الْإِنْفَاعُ بِهِنَّ مَعَ أَنَّهُ لَا غِنَى لِلْإِنْسَانِ عَنِ امْرَأَةٍ يَسْكُنُ إِلَيْهَا وَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى مَعَاشِهِ فَكَأَنَّهُ قَالَ الْإِسْتِمْتَاعُ بِهَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا. اهـ

٢٧٤ - وعن عبد الله بن زَمْعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يُحْطَبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذْ أُتْبِعَتْ أَشَقَلَهَا**» [سورة الشمس: ١٢] **أُتْبِعَتْ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ، عَارِمٌ مَنِيْعٌ فِي رَهْطِهِ.**
ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ، فَوَعِظَ فِيهِنَّ، فَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ فَلَعَلَّهُ يَضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ.**»
ثُمَّ وَعِظَهُمْ فِي ضَحِكِهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ، وَقَالَ: «**لَمْ يَضْحَكْ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ؟ !**».
مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).
(وَالْعَارِمُ) بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَالرَّاءِ: هُوَ الشَّرِيرُ الْمَفْسِدُ.
وقوله: «**أُتْبِعَتْ**»، أَي: قَامَ بِسُرْعَةٍ.

الشرح:

قوله: (عبد الله بن زمعه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) صهر النبي ﷺ، أخو زوجه سودة بنت زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(**أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يُحْطَبُ**) وكان النبي ﷺ كثيرا ما يخطبهم لتعليمهم وتثقيفهم، وتذكيرهم.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥).

(وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَهَا) أي ناقة صالح والذي عقرها، إذ جعلها الله آية،
﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: ٧٣]،
ولكنهم خالفوا ذلك وعقروها، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [سورة الشمس: ١٤].

مع أن المُنْبِعْث واحد، وهو أشقى القوم، ولكن أضيف الفعل إليهم جميعاً؛ لأنهم
رضوا بذلك، ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [سورة الشمس: ١٤]: طمسها
وأهلكها، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [سورة الشمس: ١٥].

(انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ، عَارِمٌ مَنِيْعٌ فِي رَهْطِهِ) له عشيرة تمنعه وتنصره، ومع ذلك
كان دمارهم عليه.

(ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ) فيه تنوع الخطب، وأن الإنسان يخاطب الناس فيما يحتاجون
إليه.

(فَوَعِظَ فِيهِنَّ)؛ لأن الناس يحتاجون إلى مثل هذا، وكثير يحتاج إلى مثل هذا،
ربما طالب علم ويهز المنابر ولا يحسن التعامل مع زوجته، بعضهم تزوج امرأة كان
ما شاء الله عنده من المحفوظات، وعنده من الخير ما الله به عليم، مرضت قال: أنا
مشغول والله ما أذهب بها، يا فلان قال: مشغول، طلقها، ثم بعد ذلك عاتبه الناس،
وندم على ما صنع، ذهب إلى أبيها وعاتبه أيضاً، فقالوا له: يا أخي ما تستقيم الحياة
هكذا، طالب علم أعط زوجته حقها، وأعط نفسك حقها، وما شاء الله الآن مع
زوجه في أحسن حال، فالشاهد أن الإنسان لا بد أن يؤدي حق زوجته، لا بد.

(فَقَالَ: يَغِمْدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ) إذا كنت ولا بد مؤدباً بالتي هي
أحسن، بما يزرها.

(فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ) يعني يختلف هذا، يضربها ضرب العبد أو ضرب
البعير، ثم بعد ذلك يبات معها، وقد كسر قلبها، ونحو ذلك.

(ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي ضَحِكِهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ) وهذا أمر يضحك منه أكثر الناس، وفي بعض البلدان الضرطة عندهم ليست بعيب ولا بمضحكة، ربما يخرجها وهو يتكلم ما يبالي، كثير من البلدان، أخبرنا أخ قال: كنت في مجلس، فضرط أحدهم، فمضى في شأنه، قال: وأنا اشتديت قلت: لا يقولوا أنا، المهم هم يتكلمون وصاحبنا مشدود، قال: لا طاب لي مجلس، وأنا خائف لا يضحكون علي.

ويذكرون: أن بعضهم دخل عند عمر بن عبد العزيز فضرط، فتأسف وتحسف، فقال له عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورحمه: صاحبك الذي أمامك لم أسمع ضرط أحد مثل ضرط نفسي، وهو كلام صواب أن الإنسان يسمع ضرط نفسه أكثر من غيره، فهذا عليه.

فهذه أمور قد تطرأ، الفساء، والضراط، كل يفسو وكل يضرط، فعلام الضحك؟ وهذا تأديب عظيم من النبي صلى الله عليه.

(قَالَ: لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ؟) أنت إن ضحكت الآن سيُضحك عليك في الغد، وهكذا، وهذا أمر لا ضحك فيه ولا عيب فيه؛ لأن الجسم لا بد أن يخرج ما فيه، بعضهم يتجشأ، وبعضهم يضرط، بعضهم يفسو بدون رائحة، وبعضهم برائحة، والله المستعان.

ولا تظن هي من النعم التي لا نعرف مقدارها، كان في واحد يضحك من هذا الأمر، فكتمت، كأنه عان نفسه أو نحو ذلك، فبقي سنة يتعالج من مستشفى إلى مستشفى، ومن دكتور إلى دكتور، خلاص، إذا حُبس الغاز يؤدي إلى كثير من الأمراض، إلى كثير من الأضرار، ولذلك لا ينبغي كتم هذا البلاء، يبادر الإنسان إلى قضاء حاجته.

وفي (التمهيد) لابن عبد البر: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان جالسا مع رهط، فشم ريحا، فقال عمر بن الخطاب: عزمت على من خرج منه الريح أن يقوم يتوضأ، فقال له جرير

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أو غير ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو؟ قال: نقوم جميعاً ونتوضأ؛ حتى لا يحس بأمر، والأثر فيه كلام، لكن المعنى صواب.

٢٧٥ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»، أَوْ قَالَ: «غَيْرُهُ». رواه مسلم^(١).
وقوله: (يَفْرَكُ) هُوَ بفتح الياء وإسكان الفاء وفتح الراء معناه: يُبْغِضُ، يقال: فَرَكْتُ المرأةَ زَوْجَهَا، وَفَرَكَهَا زَوْجُهَا، بكسر الراء يَفْرَكُهَا بفتحها: أَي أَبْغَضَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

يقول النبي ﷺ: (لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً) قد تؤذيه، قد يكون عندها سوء خلق في لسانها، قد يكون عندها سوء خلق في بعض شأنها، لكن إن كره منها خلقاً رضي منها الآخر، قد تكون ودود، قد تكون محسنة في التربية، قد تكون من ذوات الإحسان في رعاية الزوج في ذات يده، إلى غير ذلك، فإياك أن تفرك زوجتك على أي حال كانت.
قال الإمام أحمد: أقامت أم صالح معي عشرين سنة فما اختلفت أنا وهي في كلمة.

أما الإمام أحمد شأنه آخر، قالوا: استأذنها في التسري، يريد أن يطبق سنة النبي ﷺ، فأذنت له، فأخذ جارية وسماها ريحانة، وتسرى بها، فנסأ الله أن يرحم ضعفنا، نحن قد نغضب على نساءنا، ونرفع أصواتنا، لكن هذه الأخلاق النبوية التي ينبغي أن يسير عليها الجميع، لا إفراط ولا تفريط.

(١) حديث رقم: (١٤٦٩).

٢٧٦ - وعن عمرو بن الأحوص الجُشمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ بَعْدَ أَنْ حَمَدَ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَرَ وَوَعظَ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا؛ فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ: أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ: أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح^(١).

قوله ﷺ: (عَوَان) أي: أسيراتُ جَمْعِ عَانِيَةٍ، بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ، وَهِيَ الْأَسِيرَةُ، وَالْعَانِي: الْأَسِير. شَبَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَرْأَةَ فِي دُخُولِهَا تَحْتَ حُكْمِ الزَّوْجِ بِالْأَسِيرِ. وَالضَّرْبُ الْمُبْرِحُ: هُوَ الشَّاقُّ الشَّدِيدُ. وقوله ﷺ: «فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا» أي: لَا تَطْلُبُوا طَرِيقًا تَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَيْهِنَّ وَتُؤْذِيهِنَّ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

قوله: (أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ) وكانت في السنة العاشرة من الهجرة، وسميت بحجة الوداع؛ لأن النبي ﷺ ودع الناس فيها، وقال: «لعلي لا أراكم بعد عامي هذا».

(١) حديث رقم: (١١٦٣)، الحديث فيه سليمان بن عمرو الأحوص مجهول الحال، لكن له شاهد من حديث عم أبي حرة الرقاشي، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان، وكذلك له شاهد في مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حجة الوداع.

(يَقُولُ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَنْتَى عَلَيْهِ) فيه أن النبي ﷺ كان يفتح الخطب بالحمد والثناء، كما في خطبة الحاجة.

(وَذَكَرَ وَعَظَ) ذَكَرَ الناس بدينهم، وخوفهم بالنار، وذكرهم بعظيم نعمة الله عليهم.

(ثُمَّ قَالَ: أَلَا وَاسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا) أي بعد خطبة ذكر فيها كثيرا مما يحتاجه الناس، فوعظ في النساء، ووصى بهن خيرا.

(فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ) كالأسيرات والضعيفات.
(لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ) أي المعاشرة والإحسان، ولا يجوز لكم أن تقوموا بضربهن أو تأديبهن أو هجرهن إلا إذا وقع منهن ما يستوجب ذلك.

(إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ) هذا لعله نسخ بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٥]، فإذا تبينت فاحشتها لا يجوز له أن يبقى معها، إلا إذا أحدثت توبة ولم يصل الأمر إلى السلطان برجمها.

(فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهُجْرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ) يقول: تهجرها في المضجع، ولا تهجرها خارج البيت، لا تهجر إلا في بيت؛ لأن الهجر خارج البيت قد يؤدي إلى التنافر أكثر، لكن في المضجع لعلك أن تقرب منها أو تقرب منك فيصلح الحال.

(وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ) على ما تقدم.
(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ) بالتزام شرع الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: لا تتجاوزوا حق الله فيما أمر وشرع.

(أَلَا) يؤتى بها للتنبيه.
(إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا) كما أن للمرأة حق على زوجها للزوج حق على زوجته.

(فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكَرَّهُونَ) يعني جلوسا، أما غشيانا لا يجوز لمن يكره أو لمن يحب، أما إذا أحب مثل ذلك منها فيجب عليها أن تفارقه وتخلعه أو تفسخه؛ لأنه رجل سوء.

(وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكَرَّهُونَ) أي من الناس الذين يجوز له الدخول عليها، أما إذا كان لا يجوز له الدخول عليها لا يجوز، سواء أحب أم كره، ولكن لا يجوز له أن يمنعها من أهلها.

(أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ) إحسان، تطعيمها مما طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت.

٢٧٧ - وعن معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تُضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ» حديث حسن رواه أبو داود^(١) وَقَالَ: معنى «لَا تُقَبِّحَ» أي: لا تقل: قبحك الله.

الشرح:

وهذا حديث فيه حسن عشرة النساء.

(أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ) لم يقل: مما طعمت؛ لأنها قد لا تحب ذلك.

(وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ) لم يقل: مما اكتسيت؛ لأنه لا يجوز لها أن تلبس لباس

الرجال.

(قَالَ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْفِتَاتُ مِنَ الْعِيَةِ إِلَى الْخِطَابِ اهْتِمَامًا بِبَنَاتِ مَا قَصَدَ مِنَ الْإِطْعَامِ وَالْكِسْوَةِ يَعْنِي كَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يَقُولَ أَنْ يُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمَ فَالْمُرَادُ بِالْخِطَابِ

(١) حديث رقم: (٢١٤٢)، وهو في (الصحيح المسند).

عَامٌّ لِكُلِّ زَوْجٍ أَيْ: يَجِبُ عَلَيْكَ إِطْعَامُ الزَّوْجَةِ وَكِسْوَتُهَا عِنْدَ قُدْرَتِكَ عَلَيْهِمَا لِنَفْسِكَ كَذَا فِي الْمَرْقَاةِ). اهـ من عون المعبود (١٢٨/٦).

(وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ) إذا احتجت إلى نوع تأديب؛ لأن الله خلق آدم على صورته، وفيه: دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ اجْتِنَابِ الْوَجْهِ عِنْدَ التَّأْدِيبِ.

(وَلَا تَقْبَحْ) باللعن ونحوه.

(وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ) وقد هجر النبي ﷺ خارج البيت، لكن ذاك لأن النبي ﷺ كان معددا، ولحكمة أخرى لعله أراد أن يتفرغ للعبادة، ونحو ذلك.

٢٧٨ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»**. رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

يقول: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا) فيه أن المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم وفي أخلاقهم وفي معاملاتهم، لكن أحسنهم حالا أحسنهم خلقا، مع ربه تعالى بتوحيده، ومع الناس بكف الأذى، وبذل الندى، وطلاقة الوجه.

(وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ) يعني: إذا كان في خير ابداً بأهلك، ليكون خيرك لهم، أما خيرك للناس وشؤمك على أهلك فالله المستعان، فينبغي للإنسان أن يكون خيرَه ابتداءً لأهله.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وهو في (الصحيح المسند)، وقد جاء أيضًا من حديث عائشة، ومن حديث أبي سعيد، وفي حديث جابر، وفي بعضها كلام.

والحلم بالتحلم، والعلم بالتعلم، لا يقول قائل: أنا والله تعودت على رفع الصوت، أنا تعودت على كذا، زوجتي سيئة، زوجتي كذا، قد يكون ما يقول حق، لكن ينبغي له أن يعود نفسه التصبر حتى يصبره الله، والتحمل حتى يحلمه الله.

٢٧٩ - وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ»، فجاء عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ذَرْنِ النَّسَاءَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ، فَأَطَافَ بِأَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ أَطَافَ بِأَلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أَوْلَئِكَ بِخِيَارِكُمْ». رواه أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ^(١).
قوله: (ذَرْنِ) هُوَ بَذَالٌ مُعْجَمَةٌ مَفْتُوحَةٌ، ثُمَّ هَمْزَةٌ مَكْسُورَةٌ، ثُمَّ رَاءٌ سَاكِنَةٌ، ثُمَّ نُونٌ، أَي: اجْتَرَأْنِ، قوله: (أَطَافَ) أَي: أَحَاطَ.

الشرح:

قوله: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ) أَي: زوجاتكم، إلا لحاجة.

(١) حديث رقم: (٢١٤٦)، وهو حسن لغيره، رواه أبو داود (٢١٤٦)، وابن ماجه (١٩٨٥)، وقد اختلف في الراوي عن إياس ف قيل: عبد الله بن عبد الله، وهو ضعيف، وقيل: عبيد الله، وهو ثقة، واختلف في صحبة إياس بن عبد الله، والراجح ثبوت صحبته، وجاء من حديث عائشة، وفي سنده عدي بن الفضل، وقد قال الهيثمي: متروك.

وللحديث شاهد آخر عند ابن حبان من حديث ابن عباس، وفي سنده جعفر بن يحيى بن ثوبان، عن عمه عمارة بن ثوبان الأحوال، والأول مجهول حال، والثاني مجهول عين، ولذا فهذا الشاهد كالذي قبله لا ينفع، إنما ذكرته؛ للبيان، هكذا يقول المحقق.

وجاء مرسل أم كلثوم بنت أبي بكر عند الحاكم والبيهقي، فالحديث بهذه الطرق حسن لغيره. والضرب قد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر الطويل في الحج، والحديث صححه الشيخ الألباني.

(فجاء عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) فيه سرعة امتثال الصحابة لأمر النبي

ﷺ

(فَقَالَ: ذَرْنِ النَّسَاءَ) أي: تطاولن (عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ)، وهكذا شأن المرأة إذا لم تجد نَصْفَةً من أصهارك ربما تتطاول عليك، لكن لا بد أن يؤخذ للمرأة حقها، ويؤخذ للزوج حقه.

(فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ) أي بالمعروف.

(فَأَطَافَ بِأَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِسَاءً كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ)؛ لكثرة ما وقع عليهن من الضرب، الله المستعان.

(لَيْسَ أَوْلَتُكَ بِخِيَارِكُمْ) فالحيرية في الإحسان كما تقدم، «خياركم خياركم لنسائهم»، وبعض الصحابة رَضُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ ضرب امرأته حتى اخضر جلدتها، أحدث فضحكت عليه، فقام إلى العصا فضربها حتى اخضر جلدتها، فجاءت إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله هي تفعل، قالت: يا رسول الله ما أمرته إلا بخير.

٢٨٠ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»**. رواه مسلم ^(١).

الشرح:

فيه بيان أن الدنيا كلها متاع للمسلم، يستمتع بها على الوجه الذي أباح الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يتجاوز ذلك، على ما سيأتي في ذم الدنيا.

(وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ)؛ لأن المرأة السيئة تضيق عليك الحال، تنكدك ولو كان بيتك من أوسع البيوت، ولهذا قال النبي ﷺ: **«الشَّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ: الْمَرْأَةُ، وَالْفَرَسُ، وَالِدَارُ»**، شؤم المرأة في خلقها، وشؤم الفرس في جنوحه، وشؤم الدار في

(١) حديث رقم: (١٤٦٧).

ضيقه، وقال النبي ﷺ: «ثلاث من السعادة: البيت الواسع، والمرأة الصالحة،
والمركب الطيب، وثلاث من الشقاوة: البيت الضيق، والمرأة السيئة، والمركب
السيء» الحديث بمعناه.

فالشاهد: أن المرأة الصالحة تعين زوجها في طلب العلم، في طاعة الله، في تربية
الأبناء، إلى غير ذلك، فللزوجة حق، وللزوجة حق.
نكتفي بهذا، وسيأتي حق الزوج في الأبواب الآتية بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، والحمد لله رب
العالمين.



٣٥ - باب حق الزوج على المرأة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَصْلَحَ قَتَلْتُكَ حَفِظْتُكَ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [سورة النساء: ٣٤].

الشرح:

قد تقدم بيان حق المرأة على زوجها، وثناه بحق الزوج على امرأته؛ لبيان تعيين أداء الحقوق من الجميع للجميع.

ومعنى **(قوامون)** أي: في جميع الشأن، تلزم طاعتهم في المعروف، بل إن طاعة الزوج مقدمة على طاعة الأب والأم، فحقه عظيم، لو كان به جروح فلعلقتها ما أدت حقه.

ويعتبر الزوج للمرأة جنة، سواء في باب الرعاية، أو في باب الديانة، فإذا أطاعته كانت مستجنة من أسباب الذنوب والمعاصي، وإذا عصته فقد وصفها الإسلام بالكفر، كفران العشير، ولذلك جاء في حديث ابن عباس لما قال النبي ﷺ: **«يكفرن»** قالوا: الكفر بالله؟ قال: **«لا، كفران العشير»**.

وقد تعودت كثير من النساء عصيان أزواجهن في هذا الزمن من التلفزيونات والدشوش والمجالسات، وربما لحق الضرر الكثير بسبب الأمهات أو الأخوات، فربما تُخرب بعض البيوت؛ لأن النساء إذا اجتمعن كما يقول العامة: قرقر، إلا ما رحم ربي.

وانظروا إلى هذا الحديث لتعرفوا ذلك، وهو ما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم^(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً. فَتَعَاهَدَنَ وَتَعَاهَدَنَ أَنْ لَا يَكْتُمَنَّ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا^(٢).

قَالَتِ الْأُولَى: زَوْجِي لَحْمٌ جَمَلٌ غَثٌ^(٣)، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعَرٍ، وَلَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، وَلَا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلُ^(٤).

قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا أَبْتُ خَبْرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرَهُ، إِنْ أَذْكَرُهُ أَذْكَرُ عَجْرَهُ وَبُجْرَهُ^(٥).

قَالَتِ الثَّلَاثَةُ: زَوْجِي الْعَشَقُ^(٦)، إِنْ أَنْطَقَ أَطْلَقْتُ، وَإِنْ أَسْكُتَ أُعْلَقُ^(٧).

قَالَتِ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلِيلُ يَهَامَةٍ، لَا حَرَ وَلَا قَرَ، وَلَا مَخَافَةَ وَلَا سَامَةَ^(٨).

قَالَتِ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهَدَ، وَإِنْ خَرَجَ أَسَدٌ^(٩)، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عِهْدَ.

(١) أخرجه البخاري حديث رقم: (٤٨٩٣)، ومسلم حديث رقم: (٢٤٤٨).

(٢) حتى ما هي مأمونة على زوجها.

(٣) أي: مهزول.

(٤) وهذا ذم، تقول: زوجي مثل اللحم الرديء الذي في مكان صعب، لا يرغب فيه، ولا هو قريب.

(٥) العجر: العروق المعقدة في الجسد حتى تراها ظاهرة، والبجر نحوها، إلا أنها في البطن خاصة، والمراد عيوبه الظاهرة والباطنة، وقيل: أموره كلها، ظاهرها وخافيتها.

(٦) أي: الطويل الممتد القامة، والمراد: أنه طويل بغير نفع.

(٧) أي: يتركني كالمعلقة، لا متزوجة ولا معلقة، كناية على أنه ما يأتيها.

(٨) هل هذا مدح أم ذم؟ ساقته على الدم، على أنه إذا دخل لا تستفيد منه شيئاً، لا قر: لا برد، ولا سامة: ملل.

(٩) وهذا على الذم؛ لأن الفهد إذا دخل يرقد، ما يستفاد منه، وإذا خرج أسد، يعني: بين الناس أسد، لكن عندي ما هو شيء، صاحب نوم.

قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفٌّ^(١)، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ^(٢)، وَإِنْ اضْطَجَعَ التَّفَّ^(٣)، وَلَا يُوَلِّجُ الْكَفَّ، لِيَعْلَمَ الْبَثَّ^(٤).

قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِي عَيَّيَاءُ^(٥) أَوْ عَيَّيَاءُ طَبَّاقَاءُ^(٦)، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ^(٧)، شَجَكٌ^(٨)، أَوْ فَلَكَ^(٩)، أَوْ جَمَعَ كَلَالِكَ.

قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي، الرِّيحُ رِيحُ زَرْزَبٍ^(١٠)، وَالْمَسُّ مَسُّ أَرْزَبٍ.

قَالَتِ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ^(١١)، طَوِيلُ النَّجَادِ^(١٢)، عَظِيمُ الرَّمَادِ^(١٣)، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِي^(١٤).

(١) الإكثار منه في التخليط من أصنافه.

(٢) شرب جميع ما في الإناء.

(٣) يعني لف رجله إلى صدره، لا فائدة فيه.

(٤) يعني: لا يدخل يده ويقربها ليعلم شدة الحزن، أرادت ما عندها من الحزن بسبب عدم مواصلته لها، وأنه لا يضاجعها.

(٥) المراد: أنه عاجز لا يهتدي لأمر، أو هو ثقیل الروح.

(٦) الأحمق.

(٧) أي: كل عيب يكون في الرجال فهو فيه.

(٨) الجرح في الرأس أو الوجه.

(٩) الكسر والضرب، وقيل: المراد الخصومة، يعني ما تستفيد منه في شيء.

(١٠) عطر طيب الريح، لكن المس مس أرنب، هذا قيل: أنه على المدح، وقيل: أنه على الذم، يعني عنده من خصال النساء.

(١١) شريف القدر.

(١٢) سيفه طويل.

(١٣) كثير الأضياف.

(١٤) يعني مشغول بأضيافه، تقول: زوجي مشغول بأضيافه.

قَالَتِ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ، إِذَا سَمِعْنَا صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَتَيْنَ أَنْهَنَ هَوَالِكِ ^(١).

قَالَتِ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ فَمَا أَبُو زَرْعٍ؟ أَنَاسٌ ^(٢) مِنْ حُلِيِّ أُذُنِي، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمِ عَضْدِي ^(٣)، وَبَجَحَنِي ^(٤) فَبَجَحَتِ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غَنِيمَةٍ بِشَقٍّ ^(٥) فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ ^(٦) وَمُنَقٍّ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ ^(٧)، وَأَزُقُّدُ فَأَتَصَبِّحُ ^(٨)، وَأَشْرَبُ فَاتَّقَنُّ ^(٩).

أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ؟ عُكُومُهَا رَدَاخٌ ^(١٠)، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ ^(١١).
ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ؟ مَضْجَعُهُ كَمَسَلٌ ^(١٢) شَطْبَةٍ، وَيُسْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ ^(١٣).

بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ؟ طَوْعُ أَبِيهَا وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا وَغَيْظُ جَارَتِهَا.

(١) هذه أيضا تذكر زوجها بالكرم، وأنه مشغول عنها.

(٢) حرك.

(٣) ما بين الكتف والمرفق، والمراد: الجسد كله.

(٤) فرحني ففرحت.

(٥) أي: في جهد من العيش.

(٦) يعني: في أهل الخيل والإبل.

(٧) إذا تكلمت لا يقبحها.

(٨) لكثرة الجوارى، أنها تنام الصباح، ما تحتاج إلى أن تقوم من بعد الفجر تشتغل.

(٩) الشرب بعد الارتواء، وقيل: الشرب على مهل.

(١٠) الأوعية التي فيها الطعام والأمتعة، واحداها عكم.

(١١) أي: واسع.

(١٢) المسل: موضع الشيء المسلول من قشر أو غمد.

(١٣) الأنثى من أولاد المعز.

جَارِيَةُ أَبِي زَرَعٍ فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرَعٍ؟ لَا تَبْتُ حَدِيثَنَا تَبِيثًا، وَلَا تَنْقُثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيشًا، وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا^(١).

قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرَعٍ وَالْأَوْطَابُ^(٢) تُمْخَضُ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَانَيْنِ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا، فَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا^(٣)، رَكِبَ سَرِيًّا^(٤)، وَأَخَذَ خَطِيئًا^(٥)، وَأَرَاخَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا^(٦)، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ قَالَ: كُلِّي أُمَّ زَرَعٍ^(٧) وَمِيرِي أَهْلَكَ، فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِي مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آئِيَةِ أَبِي زَرَعٍ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرَعٍ لَأُمِّ زَرَعٍ».

فالشاهد أن إحدى عشر امرأة ما مدحت الزوج إلا واحدة، والبقية كل منهن في واد لحالها.

(١) هذا كله على المدح، لا سيما أم زرع كل حديثها على المدح.

(٢) جمع وطب، وهو وعاء من جلد، كالقربة، يكون فيه اللبن.

(٣) أي أن أم زرع تزوجت بعد أبي زرع برجل سري، من عليّة القوم وأشرفهم.

(٤) أي: صاحب فرس جيد.

(٥) الرمي: الرماح المنسوبة الخط، وهو ساحل البحر عند عمان والبحرين.

(٦) يعني: غنم وبقر، وأحسن إليها.

(٧) أي: من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم.

(٨) أشبعني نفسك.

وأما الأحاديث فمنها حديث عمرو بن الأحوص السابق في الباب قبله.
 ٢٨١ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ، فَبَاتَ غَضَبَانِ عَلَيْهَا، لَعْنَتُهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).
 وفي رواية لها: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعْنَتُهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ».
 وفي رواية قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْبَى عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا».

الشرح:

(وأما الأحاديث فمنها حديث عمرو بن الأحوص السابق في الباب قبله) والشاهد منه قوله: «أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا؛ فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِنَنَّ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ».

الحديث فيه وجوب طاعة الزوج في العشرة ونحوها، وذلك أن الملائكة تلعن الناشز في هذا الحال، وهذا في حال قدرتها وعدم مرضها، أما إذا كانت معذورة فلا حرج عليها.

وفيه: إثم هجر المرأة لزوجها، فالهجر إنما يكون من الزوج للزوجة، وأما أن الزوجة هي التي تهجر فهذا ليس لها، ولذلك قال الرسول ﷺ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَاللَّهُ مَا يَخْفَى عَلَيَّ يَا عَائِشَةُ إِذَا كُنْتُ رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتُ غَضَبِي»، قُلْتُ: بِمَ تَعْرِفُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً فَحَلَفْتُ وَقُلْتُ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتُ غَضَبِي فَحَلَفْتُ قُلْتُ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ»، فَقُلْتُ: صَدَقْتَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّي إِنَّمَا أَهَجُرُ اسْمَكَ.

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٣) و (٥١٩٤)، ومسلم (١٤٣٦).

في هذا الحديث دليل على علو الله عزَّجَلَّ على عرشه، من قوله: **(إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ)** أي: على السماء، **(سَاحِطًا عَلَيْهَا)**، وفيه إثبات صفة السخط لله عزَّجَلَّ. وفيه عظم حق الزوج، إذ أن رضا الله عن زوجته لرضاه، وسخط الله عن زوجته لسخطه، وأقبح ما في المرأة الغضب، ولذلك بعضهن إذا ذكرتها بمثل هذا الحديث ربما تزيد كما يقال الطين بلة، وتقول: خله يلعني حتى الصباح، أو نحو هذا الكلام الذي يصدر في حالة الغضب والشدة.

٢٨٢ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيضًا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَهَذَا لَفْظُ الْبَخَارِيِّ^(١).

الشرح:

المراد بهذا صوم التطوع، وأما صوم الفريضة فلا يجوز له أن يمنعها، ولا يشترط أن تستأذنه، بل إذا كان مضيعاً لحق الله ويَجبرها على الإفطار في رمضان ونحو ذلك مثل هذا لا تبقى معه، وتعاجل إلى فراقه ولو بالخلع، إذا لم يوجد القاضي الذي يفسخها بهذا العيب الذي صدر منه فتعاجل بالخروج منه بالخلع وفداء نفسها؛ لأن مثل هذا يضعف دينها، ويذهب استقامتها.

(لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) معناه: أنه يحرم صيامها، وإن أنست منه الإذن حتى ولو لم يأذن لها بالقول لا حرج، أو إن كان مسافراً ليس عليها بأس، وإنما مُنعت من الصوم وزوجها شاهد؛ لعله أن يكون له رغبة إليها فيجدها ممتنعة عنه بالصوم.

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٥)، ومسلم (١٠٢٦).

قوله: (وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) لا تأذن بإدخال أحد من محارمها إلا بإذنه، أما غير المحرم لا يجوز لا بإذنه ولا بغير أذنه، فلا بد أن يتفطن لهذه المسألة، وكثير من الناس ربما يقع بينه وبين زوجته خلاف بسبب أنه يريد منها أن تقابل إخوانه، أو أخواله، أو أعمامه، وهذا لا يجوز، فإن **«الحمو والموت»**، إلا أن يكون بينهم رضاعة أو محرمة أخرى، أما مجرد الزواج منها لا يحل النظر إليها لأقاربه.

٢٨٣ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: وَالْأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»**. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان أن الزوجة يجب عليها أن ترعى زوجها، وأن ترعى ولدها، وأن تتعاون مع زوجها على البر والتقوى.

قوله: (كُلُّكُمْ رَاعٍ) هذا من ألفاظ العموم، بمعنى: أن المجتمع المسلم كله في رعايا لشأنه وشأن غيره.

(وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) راع ومسؤول عن رعيته، لا يجوز أن يضيعها.

(وَالْأَمِيرُ رَاعٍ) أمير الناس، وهو في هذا الزمان ما يسمى بالرئيس أو الملك، ونوابه من المحافظين ونوابهم، فهم رعاة، يجب عليهم أن يقوموا بما أوجب الله عليهم تجاه رعيّتهم.

(وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ) المرأة والأبناء ومن تحتهم، من الإخوة والأخوات والأم إن لم يكن الأب موجوداً، ونحو ذلك، فيرعاهم بالنفقة، ويرعاهم بصد الأذى عنهم، وبتوجيههم وإرشادهم.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٠٠)، ومسلم (١٨٢٩).

وانظر إلى هذه الكلمة (راع)؛ لأن الراعي لا يستطيع أن ينام أو أن يذهل عن رعيته، وإلا شردت، لو كان رجل يرعى غنما في واد من الأودية أو حتى الإبل إذا لم تكن في صحراء والبقر ربما يؤدي ذلك إلى تفلت هذه الرعية، فلذلك يحتاج أن ينتبه، فهكذا الرجل إذا لم ينتبه لأهله ومن إليه يلحقهم الضرر.

(وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ) يعني إذا ذهب الزوج للعمل أو سافر أو نحو ذلك تقوم المرأة بما يجب عليها من الرعاية، وكذلك لها شؤون لا يستطيعها الرجل.

٢٨٤ - وعن أبي علي طلق بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّورِ»**. رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

قال: **«إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ»** هذا من الكنايات. **(فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّورِ)** وهذا على المبالغة، بمعنى أن حقه عظيم، والنبي ﷺ قد ثبت أنه جاء إلى زوجته وهي تعج منيأة لها، فدعاها، فقامت إليه.

(١) أخرجه الترمذي (١١٦٠)، والنسائي في (الكبرى) (٨٩٧١)، من طريق قيس بن طلق عن أبيه به، وطلق صدوق لا يعدو ذلك، فالحديث حسن، وله شاهد عند البزار كما في (كشف الأستار)، والطبراني، عن زيد بن أرقم نحوه، في سننه القاسم بن عوف الشيباني، وفيه ضعف، يصلح في الشواهد والمتابعات.

٢٨٥ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لَزَوْجِهَا». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

يقول النبي ﷺ: (لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ) أي غير الله عَزَّوَجَلَّ، (لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لَزَوْجِهَا) أي لعظيم حقها عليه.

وقد جاء لهذا الحديث رواية، وأن بعض الصحابة ذهب إلى الشام فوجد الناس يسجدون لملوكهم ورهبانهم ونحو ذلك، فرجع فسجد للنبي ﷺ، فنهره عن ذلك، فأخبره بالأمر الذي رآه، قال: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لَزَوْجِهَا» أي؛ لعظيم حقه، لكن ذلك لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ، فإن السجود لغير الله عَزَّوَجَلَّ شرك أكبر مخرج من الملة.

٢٨٦ - وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ، وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن^(٢).

الشرح:

مع أنها إذا ماتت وهو راض عنها نالها خير من دعائه، ولم تحاسب على حقه؛ لأنه سيسامحها ويتجاوز عنها.

(١) حديث رقم: (١١٥٩)، وهو في (الصحيح المسند) لشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) حديث رقم: (١١٦١)، وفي سنده مساور الحميري وأمه مجهولان، وضعفه الشيخ الألباني في

(ضعيف السنن)، وحكم عليه بالنكار في (الضعيفة).

٢٨٧ - وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن.

الشرح:

حديث رقم: (١١٧٤)، وهو حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه (٢٠١٤)، وجاء عن جابر قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُقْبَلُ لَهُمْ صَلَاةٌ وَلَا تَصْعَدُ لَهُمْ حَسَنَةٌ: الْعَبْدُ الْأَبْقَى حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَوَالِيهِ فَيَضَعَ يَدَهُ فِي أَيْدِيهِمْ، وَالْمَرْأَةُ السَّاحِطُ عَلَيْهَا زَوْجُهَا، وَالسَّكْرَانُ حَتَّى يَصْحُو».

(لَا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا) بأي نوع من أنواع الأداء.
(إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ) أي يطلعها الله على هذا الأذى الذي حصل له.
(لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ) أي تدعو عليها.
(فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ) أي زمن يسير ويفارقك إلينا.
(يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا) أي: بالموت، ويدخل الجنة ويكرمه الله بما أكرمه.

٢٨٨ - وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

فيه: بيان لعظيم فتنة النساء، وأن الإنسان يجب أن يصون نفسه عن هذا الشر، وسيأتي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ».

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

وقد جاء عن كعب بن عياض: أن النبي ﷺ قال: « **لِكُلِّ أُمَةٍ فِتْنَةٌ وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي** **المالُ** » فكيف يجمع بينه وبين هذا الحديث؟ على أن كثيرا من الناس يفتنون بالمال، وكثير من الناس يفتنون بالنساء؛ لأن النساء كما قيل: فتنة للجميع. وفتنتها في قلة عقلها، وفي عدم حجابها، وفي اختلاطها، وفي كثير من شأنها، حتى أن الإنسان إذا قدمها في كثير من شؤونها ربما أوردته الموارد، والله المستعان.



٣٦ - باب النفقة على العيال

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٣].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا﴾ [سورة الطلاق: ٧].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سورة سبأ: ٣٩].

الشرح:

(باب النفقة على العيال) أي أن العيال لهم أيضا حق، وهو النفقة عليهم،
والتوسعة إن كنت من ذوي السعة واليسار، والإنفاق بقدر الاستطاعة، وسيأتي:
«خذي ما يكفيك ولدك بالمعروف»، إذا كان قد ضيق عليهم.

ولا يجوز له أن يضيعهم، بحيث أنه يلزم الأم بالنفقة عليهم أو نحو ذلك، لا،
حتى ولو كان لديها مال، فالنفقة على الزوج.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٣])
أي الأب عليه الرزق والكسوة لأبنة ولزوجه.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا﴾) أي: كل ينفق على قدر الاستطاعة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا
أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾

[سورة سبأ: ٣٩]، حتى وإن كانت النفقة واجبة يخلف الله بالأجر عليها، ويخلف الله
بالتكثير لها، والخلف عنها؛ لأنه «مَا مِنْ يَوْمٍ يُضَيِّعُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ
أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكَ تَلْفًا».

٢٨٩ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مُسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

فيه: أن الصدقات تتفاوت، فالإنفاق في سبيل الله أجره عظيم، والمصارعة في إعتاق العبيد والإماء أجرها عظيم، ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝﴾ [سورة البلد: ١١-١٦]، ومع ذلك ما ينفقه الرجل على أهله أعظمها أجرا.

(وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مُسْكِينٍ) أجر عظيم.

(وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ): على زوجتك وأبنائك.

(أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ)؛ لأنه قد قال النبي صل الله عليه وسلم: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول أو أن يمسك عمن يملك قوته».

٢٩٠ - وعن أبي عبد الله، وَيُقَالُ لَهُ: أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ ثَوْبَانُ بْنُ بُجْدُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ: دِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». رواه مسلم^(٢).

الشرح:

فبدأ بما ينفق على العيال والأبناء؛ لأن لهم حق مقدم.

(١) حديث رقم: (٩٩٥).

(٢) حديث رقم: (٩٩٤).

(وَدَيْنَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أي التي قد أعدت للاستخدام في الغزو ونحوه.

وهذا الحديث يعود إلى حديث أبي هريرة.

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": هذا حديث عظيم، فيه فضل النفقة في أوجه الخير، وفيها أن الأفضل في النفقات ما كان على الأقربين فالأقربين، فأولهم النفس، أول ما يجب على الإنسان أن ينفق على نفسه، فإذا تعارض النفق على نفسه والنفق على أبنائه يقدم النفقة على نفسه وهكذا إذا تعرض النفقة على أبويه أو على أبنائه يقدم النفقة على أبنائه، وأما من أستطاع فهكذا وهكذا.

وفيه أن الصدقات تتفاوت، فهناك فضيل وأفضل.

وفيه أن الإنفاق كذلك على الدابة في سبيل الله يعتبر من الجهاد، والإنفاق على الأصحاب في سبيل الله سواء في غزوهم أو في طلبهم للعلم يعتبر من النفقات المباركات، فاحتسب يا طالب العلم ما تنفقه على نفسك أو على إخوانك وأنت في هذا السبيل المبارك، سبيل طلب العلم، **«إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك»**.

فانظروا إلى فضل الله الواسع وإلى عطائه العظيم، تنفق على نفسك تؤجر، على ولدك تؤجر، على زوجك تؤجر، على أهلك وأهلك تؤجر، على دابتك وصاحبك تؤجر، وفي هذا الزمان على سيارتك، ما تضعه من البترول والزيت في سيارتك لتمشي عليها في الدعوة وفي غير ذلك من المصالح تؤجر عليه.

فما أحسن تلك العبارة التي قالها بعضهم: عادات أهل السنة عبادات، وعبادات كثير من العوام عادات، فالمستقيم على دين الله ربما يحتسب فتصير عاداته عبادات قال معاذ بن جبل: إني لأحتسب نومتي كما احتسب قومتي، ينام و ينتظر الأجر من الله

على النوم، وقال ذلك الرجل الأنصاري: إني لأحتسب ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي، فكان ما كان. اهـ

٢٩١ - وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِي أَجْرٌ فِي بَنِي أَبِي سَلَمَةَ أَنْ أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ، وَلَسْتُ بِتَارِكْتَهُمْ هَكَذَا وَهَكَذَا إِنَّمَا هُمْ بَنِي؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، لَكَ أَجْرٌ مَا أَنْفَقْتَ عَلَيْهِمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

أم سلمة هي هند بنت أبي أمية، وهي زوج النبي ﷺ، تزوجها بعد أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد.

(قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِي أَجْرٌ فِي بَنِي أَبِي سَلَمَةَ أَنْ أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ) استفتت النبي ﷺ في النفقة على أبنائها الذين هم من أبي سلمة، من زوجها الأول، وأخبرت أنها ليست بتاركتهم؛ لحب المرأة لأبنائها ومن إليها. (فَقَالَ: نَعَمْ، لَكَ أَجْرٌ مَا أَنْفَقْتَ عَلَيْهِمْ) مع أن النفقة عليهم منها ليست بواجبة ومع ذلك حين أنفقت عليهم لها أجر في ذلك.

٢٩٢ - وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطويل الَّذِي قَدَمْنَاهُ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ فِي بَابِ النِّيَّةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «وَأِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَزْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).

الشرح:

وقد تقدم الكلام عليه، وفيه: إثبات صفة الوجه لله عَزَّجَلَّ، وفضل النفقة على الأقارب والزوجة والأبناء.

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٩)، ومسلم (١٠٠١).

(٢) انظر الحديث (٦).

٢٩٣ - وعن أبي مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

(أبي مسعود البدري) وهو عقبه بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سمي بدريا ولم يشهد بدر، ووهم البخاري فعده من أصحاب بدر.

الحديث في فضيلة الاحتساب في النفقات، وربما يؤجر حتى لو لم يحتسبها، لكن لا يكون أجره كالمحتسب الذي إذا وسع على أهله بطعام أو شراب أو لحم أو كساء أو نحو ذلك يطلب رضا الله عَزَّوَجَلَّ فهذا أجره أكثر.

لأن الناس منهم من يعمل بالأعمال عادة، ومنهم من يعمل بالأعمال عبادة، ففرق بين العادة وبين العبادة، قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي، يحتسب النوم وهو عادة، لكن صارت عادات العلماء عبادات، وصارت عبادات الجهال عادات.

٢٩٤ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ» حديث صحيح رواه أبو داود وغيره^(٢).
ورواه مسلم في صحيحه^(٣) بمعناه، قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُخْسِرَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُ».

الشرح:

فيه وجوب النفقة على من تعينت له النفقة، ولا يجوز للإنسان أن يضيع من يليه، فكفى به إثما وكفى به مذمة أن يكون مضيعا لمن وكل بهم، والله المستعان.

(١) أخرجه البخاري (٥٥)، ومسلم (١٠٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٩٢)، والنسائي في (الكبرى) (٩١٧٦).

(٣) حديث رقم: (٩٩٦).

٢٩٥ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

فيه فضيلة الإنفاق في أوجه الخير، وفيه أن الله عَزَّوَجَلَّ قد رصد ملائكة للدعاء للمؤمنين الباذلين للمعروف، ورصد ملائكة للدعاء على من لم يقيم بأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ) أي: في صباح كل يوم.

(إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ) أي من السماء.

(فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا) بأمر الله عَزَّوَجَلَّ: (اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا): أعط من أنفق على

نفسه أو أبنائه أو من يليه خلفا عن هذه النفقة التي ذهبت، كما قال النبي ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا».

(وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا) يدعى عليه بإتلاف ماله، وكم من إنسان

يكون حريصا على المال ويتلف المال.

أنت للمال إذا أمسكته وإذا أنفقته فالمال لك

٢٩٦ - وعنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعْمَلُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ». رواه البخاري^(٢).

الشرح:

(وعنه) أي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٢) حديث رقم: (١٤٢٨).

(الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) وقد جاء مصرحاً به أن اليد العليا المنفقة واليد السفلى السائلة.

(وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ) هذا هو الشاهد، أن الإنسان يبدأ بأبنائه وزوجه قبل غيرهم.
(وَأَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى) خير الصدقة أن تتصدق ولا تؤدي صدقتك إلى التقصير في حق أهلِكَ وأبنائك.

(وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ) من يستغفر عن المسألة يعفه الله ويغنيه الله.

(وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ) أي أن الله عَزَّجَلَّ يوسع عليه.



٣٧ - باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٢].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ
مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧].

الشرح:

(باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد) لأن هذا يدل على محبة الإنفاق وعلى محبة الغير، والإنسان يؤدي إلى الناس الذي يحب أن يؤدي إليه، في العطية والهبة، وفي البيع والشراء، وفي جميع الشؤون.

والجيد؛ لأن الله عَزَّجَلَّ طيب يقبل الطيب من الأعمال والأفعال، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ
الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر: ١٠]، وكما أن الإنسان يكره أن يُعطى القبيح من الأفعال
والرديء من المطعوم والملبوس كذلك يكره لغيره ما يكره لنفسه، ويحتاج الإنسان
أن يجاهد نفسه في ذلك، «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عَزَّجَلَّ».

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾) يعني: لن ينال الإنسان
تمام البر والخير والرفعة حتى يجاهد نفسه بالإنفاق مما يحب، وذلك أن النفس
شحيحة بالمال؛ لأنه عزيز عندها، فمن جاهد نفسه وبذل مما يحب تخلص من
الشح، والنبي ﷺ يقول: «إياكم والشح؛ فإن الشح أهل من كان قبلكم، حملهم على
أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾) تمامها: ﴿وَلَسْتُمْ بِتَاخِذِيهِ إِلَّا
أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧]، يعني: كما أنك لا تأخذ الرديء لا تعط الرديء.

وهذا نداء من الله للمؤمنين بالإنفاق، والإنفاق مما يحب العبد.
وفي هذه الآية بيان لطريق أهل السنة والجماعة من عمل الأسباب الشرعية
للتكسب؛ خلافا لغلاة الصوفية الذين يرون أن التكسب يخدش في التوكل.
(وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ) من تمرها وثمرها وبقليها وغير ذلك، الآية
عامة.

(وَلَا تَيْمَمُوا الْحَيْثُ مِنْهُ تُنْفِقُونَ): ولا تقصدوا الخيث من هذه الأرزاق
فتنفقونها، وتجعلون لأنفسكم ما لذ وطاب، إلا أنه إذا لم يكن معه إلا ذاك لا حرج،
لو أن كل ماله رديئاً فلا بأس أن ينفق منه؛ لأنه الذي في قدرته وتحت تصرفه.

٢٩٧ - عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا
مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) [سورة آل عمران: ٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْكَ: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) [سورة آل
عمران: ٩٢]، وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرَحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةُ اللَّهِ تَعَالَى، أَرْجُو بِرَّهَا وَدُخْرَهَا عِنْدَ
اللَّهِ تَعَالَى، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْعٌ، ذَلِكَ مَالٌ
رَابِعٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ»، فَقَالَ أَبُو
طَلْحَةَ: أَفْعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ، وَبَنِي عَمِّهِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).
قوله ﷺ: «مَالٌ رَابِعٌ»، رُويَ فِي الصَّحِيحِينَ «رَابِعٌ» وَ«رَابِعٌ» بِالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَبِالْيَاءِ
الْمُثَنَّى، أَي: رَابِعٌ عَلَيْكَ نَفْعُهُ.
(وَبَيْرَحَاءَ): حَديقَةُ نَخْلٍ، وَرُويَ بِكسْرِ الْبَاءِ وَفَتْحِهَا.

(١) أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

الشرح:

(أنس) هو ابن مالك، أبو حمزة الأنصاري، خادم النبي ﷺ.
و(أبو طلحة) زيد.

أنا أبو طلحة واسمي زيدُ وكل يوم في شباكي صيدُ
هداه الله على يد أم سليم، دعته للإسلام مقابل مهرها، فكان مهرها الإسلام.

(أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ) وعندهم أموال غير النخل.

يقول: (أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ) فيه تفاضل الناس في الرزق، ولا زال
الناس يتفاضلون، ولا يقدر في حكمة الرب عَزَّوَجَلَّ ولا في عدله، فإن ذلك على
مقتضى حكمته.

(وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَاءَ) فيه تسمية الأراضى، وفيه أن أموال الإنسان
تتفاضل.

(وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ) وهذا يزيدها محبة في قلبه أنها جوار المسجد، قد
يتوسع المسجد فيها، زد على ذلك:

(وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ) وهذا من أعظم أنواع
البر أن يكون النبي ﷺ يعجبه ماؤها، ويدخل ربما استراح في ظلها، ومع ذلك انظر
إلى بذله.

(قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل

عمران: ٩٢] قام أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) فيه سرعة الاستجابة، وفيه حرص
الصحابة على الخير.

(فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْكَ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا

تُحِبُّونَ﴾) فيه الاستدلال بالقرآن.

(وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرَ حَاءٍ) فيه إخبار بما عليه الإنسان من الخير والحال، وبعض الناس في هذا الزمان يتخوف من العين جدًّا، فربما لم يصرح بحبه لبعض الأشياء.

(وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى) فيه فضل الصدقة، لاسيما الجارية، ومثل هذه صدقة جارية.

(أَرْجُو بَرَّهَا) يعني يرجو العمل الصالح والأجر العظيم والثواب الكثير بسبب هذا البر الذي عمله.

(وَذُخْرَهَا) أي: يدخر له عند الله يوم القيامة، «وكل امرئ تحت ظل صدقته»، فكيف إذا كانت الصدقة من هذا المال الطيب؟

(فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ) هذا تفويض، وليس بأمر منه للنبي ﷺ، فإن الأمر يكون من الأعلى إلى الأدنى، ولكن هذا تفويض منه وتوكيل للنبي ﷺ، وفيه حسن الاستشارة، وأن المستشار مؤتمن.

(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَخ) كلمة يؤتى بها للتعجب، وكذلك للتشجيع والتحضيض.

(ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ) مال من أسباب الربح عند الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى القول (برايح): رايح عليك أجره وأنت في قبرك.

(ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ) فيه تكرار الكلام لتوكيده، وبيان الفضل الذي فيه.

(وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ) يعني من توكيلي في التصرف في هذه الأرض.

(وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ) والقريب هو ذو الرحم، والصدقة على القريب صدقة وصلة.

(فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ) فيه العمل بالمشورة إذا كانت موافقة، ومشورة النبي ﷺ كلها موافقة.

(فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ، وَبَنِي عَمِّهِ) حتّى أعطى منها حسان بن ثابت مع أنه

يلتقي هو وهو في الجد السادس.

فهذا الحديث يصلح أن يكون في باب الوقف، وفي باب الصدقة، وفي باب
المسارعة إلى الخيرات، وفي الباب الاستشارة، وفي غير ذلك من الأبواب، فضل
الصحابة رَضِواَ اللهُ عَنْهُمْ.



٣٨ - باب وجوب أمره أهله وأولاده المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى ونهيهم عن المخالفة وتأديبهم ومنعهم من ارتكاب منهي عنه

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [سورة طه: ١٣٢].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [سورة التحريم: ٦].

الشرح:

هذا باب واسع، (وجوب أمره أهله وأولاده المميزين) لأن غير المميز ليس بمخاطب، «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ»، فمن باب أولى عن الصبي حتى يميز، وغير المميز لا يعرف ما يصلحه مما يفسده، ربما أخذ الجمرة، وربما تغوط وبال في نفسه، سواء كان طفلاً لم يبلغ سن التمييز، أو شيخاً قد خرف حتى ذهب عنه التمييز.

وانظر إلى قوله: (وجوب) يعني أن الإنسان يَأْتِمُ إذا لم يقم بهذا الأمر.
(وسائر من في رعيته) إذ لو كان راعياً على أيتام أو على أرحام أو على موالٍ أو عبيد يلزمه أمرهم جميعاً بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

(ونهيهم عن المخالفة) لا سيما الحرام.
(وتأديبهم) إذا فعلوا ما يوجب التأديب، أما بالقول وإما بالفعل.
(ومنعهم من ارتكاب منهي عنه) ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا مِّنْ نَّزْقِكَ وَالْعَلْبَةَ لِلتَّقْوَى﴾، وانظر إلى إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [سورة مريم: ٥٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ خطاب من الله المؤمنين أن يسعوا في وقاية أنفسهم وأهليهم ممن هم

تحت رعايتهم من النار التي وقودها الناس تلتهب عليهم وتحمى عليهم، ويلحقهم بسببها الضرر العظيم، ﴿كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [سورة النساء: ٥٦]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَاْفِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة فاطر: ٣٦-٣٧].

(والحجارة) المحماة، وانظر لو خرجت في يوم صائف ووضعت رجلك على حجر أو إزفلت أو نحو ذلك تجد حرارة شديدة، فكيف بنار تلظى في هذه الحجارة؟ وذكر في وصفها: أنها حجار من القار والإزفلت والكبريت التي هي أشد أنواع الحجارة حرارة.

٢٩٨ - عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَنْحَ كَنْحَ إِرْمَ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).
وفي رواية: «أَنَا لَا نَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةَ».
وقوله: «كَنْحَ كَنْحَ» يقال: بِاسْكَانِ الْخَاءِ، وَيُقَالُ: بِكْسَرِهَا مَعَ التَّنْوِينِ وَهِيَ كَلِمَةُ زَجَرٍ لِلصَّبِيِّ عَنِ الْمُسْتَقْدِرَاتِ، وَكَانَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَبِيًّا.

الشرح:

وربما قالها بعضهم: أخ أخ، أو نحو هذا من الألفاظ، وربما بعضهم يقول: أع أع، أهم شيء أن لكل مجتمع ما يستخدمه من اللفظ لزجر الطفل الذي لا يفهم، أن تقول له: هذا لا يصلح، أو تقدم له كلاما كثير، تكفيه هذه الكلمة.

(١) أخرجه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٩).

قوله: (أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما) وهو أكبر أبناء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، من البشرين بالجنة، قال النبي ﷺ في شأن حسن والحسين: «سيدا شباب أهل الجنة»، أخبر النبي ﷺ عن سيادته: «إن بني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

(تَمَرَّةٌ مِنْ تَمَرِ الصَّدَقَةِ) وذلك أن الطفل لا يميز الممنوع من المباح، ولأن الطفل يلتذ بمثل هذه الأطعمة الحلوة، فلذلك تغلبه نفسه، إلا أنه مع ذلك لما كانت لا تجوز له نهاه النبي ﷺ عن ذلك.

(فَجَعَلَهَا فِيهِ) متلذدا بها، وربما كان محتاجا إليها.
(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَخْ كَخْ إِزْمِ بِهَا) أمر الصغير المميز وزجره إذا خالف الشرع.

(أَمَّا عَلِمْتُ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟)؛ لأنها لا تحل لهم، وقد اختلف العلماء في مثل هذه المسألة، مسألة الصدقة على آل بيت النبي ﷺ، فذهب بعضهم إلى المنع مطلقا، استدلالا بهذه الأحاديث، وحديث: **(إنها من أوساخ الناس)**، إلى غير ذلك. وذهب بعض أهل العلم إلى أنها للحاجة لا بأس بها إذا كان قد منع ما هو له من الخمس ونحوه، وهذا اختيار شيخ الإسلام، والشيخ ابن باز، وعلى ما أظن الشيخ العثيمين، وهذا يكون في حال الضرورة والحاجة الملحة، والله مستان.

قوله: (أَنَا لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ) هذا دليل على أن هذا من خصائصهم، من خصائص آل البيت الصالحين، وأما بقية الناس فتجوز الصدقة في حقهم، إلا أنه ينبغي للابن أن ينفق على أبيه تطوعا، لا يجعل النفقة على أبيه من الصدقات، أو من الزكوات، وكذلك على أمه؛ لأن الزكاة تكون للفقراء والمساكين، ومن يذكرون إن شاء الله في موطنه.

٢٩٩ - وعن أبي حفص عمر بن أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد ربيب رسول الله ﷺ قَالَ: كُنْتُ غَلَامًا فِي حَجَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا غُلَامُ، سَمَّ اللَّهُ تَعَالَى، وَكُلَّ بَيْمِينِكَ، وَكُلَّ مِمَّا يَلِيكَ» فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).
(وَتَطِيشُ): تدور في نواحي الصفحة.

الشرح:

(ريبب النبي ﷺ) أي: تربي بحجره بعد زواج النبي ﷺ من أمه هند بنت أبي أمية، أم سلمة.

وعبد الله بن عبد الأسد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مات قديماً، وهاجر الهجرتين: هجرة الحبشة وهجرة المدينة، وكان صالحاً.

قوله: (كُنْتُ غَلَامًا) أي: صغير السن، حدث السن.

(في حجر رسول الله ﷺ) أي في بيته، وإنما قيل: حجر؛ كناية عن كثرة الالتصاق برسول الله ﷺ في مدخله لذلك البيت وخروجه منه، أو أنه نسبة إلى الحجرة التي يربي فيها.

(وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ) أي لطلب الطعام، هاهنا وهاهنا، كعادة الأطفال، وهذا أمر ممنوع شرعاً، ومستقذر عرفاً، إلا إذا كان الإنسان ربما بين زوجته وأبنائه قد يتجاوزون في مثل ذلك.

(فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) أمره مع صغر سنه:

(يَا غُلَامُ): المناداة لأجل الانتباه.

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

(سَمَّ الله تَعَالَى) جمهور أهل العلم على أن التسمية مستحبة، وظاهر الحديث على الوجوب.

(وَكُلْ يَمِينَكَ) وهذا أمر للوجوب؛ لأن الذي أكل بيساره قال له النبي ﷺ: «لا استطعت».

(وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) أي: من الطعام، واستثنى أهل العلم من ذلك: ما كان من الفواكه ونحوها؛ لقول الله عزَّجَلَّ: ﴿وَفِيكُم مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ وَلَحْم طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥١﴾ [سورة الواقعة: ٢٠-٢١]، وأيضا: أن النبي ﷺ جعل يتبع الدباء، قيل: هذا إذا كان الآكل معك لا يستقذر من صنيعك، وإلا الأصل أن الإنسان يأكل مما يليه.

قوله: (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ) يعني: ما زال هذا الفعل فعله في جميع أكله وشربه أنه التزم هذا الأمر، وفيه الثبات على الحق، والقبول له، والاستمرار عليه. وفيه أن هذا الدين دين عظيم شامل، دين كامل، ذكرت فيه حتى آداب قضاء الحاجة، دين يهتم بالكبير والصغير، والذكر والأنثى، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: ٣].

وكم تجد من أطباء الغرب ممن يقول: افعلوا ولا تفعلوا، وهذا سبب لصحتكم، وهذا سبب لفساد صحتكم، ويتابعهم الناس، بينما إذا عادوا إلى الكتاب والسنة وجدوا ذلك مروي عند رسول ﷺ، وقد سطر عن السلف ﴿حُيِّوا لِلَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾. الآن في هذه الأيام مع كورونا: اغسلوا أيديكم، تمضمضوا، افعلوا، الحمد لله الإسلام قد أمرنا بذلك منذ بعث محمد ﷺ.

وهكذا حتى العطاس الأطباء يركزون على عدم العطاس في وجه الآخر، ومنع الرذاذ، والنبي ﷺ يقول: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْتُمْ مَا اسْتَطَاعَ» الحديث، فالشاهد أن الإنسان يعطس في ثوبه، أو إن لم يجد عطس في يده، ثم لم يؤذ بها غيره. فلا أكرم والله ولا أعظم من امتثال هدي النبي ﷺ قولا وفعلًا.

٣٠٠ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْحَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

تقدم الحديث، والشاهد: أن من الرعاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للأبناء والزوجات، والعبيد، ومن تحت الرعاية، وإلا كان الإنسان مفرطاً في الأمانة ومضيعاً لها، فينبغي على كل إنسان أن يقوم بما أوجب الله عليه من حسن الرعاية.

٣٠١ - وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ». حديث حسن رواه أبو داود بإسناد حسن^(٢).

الشرح:

(عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده) وهذه سلسلة حسنة عند جماهير العلماء، وردها بعضهم ولم يصب.

(١) انظر الحديث (٢٨٣).

(٢) حديث رقم: (٤٩٥)، حسن لغيره، في إسناده سوار بن داود المزني، أبو حمزة ضعيف، وله متابعة عند ابن عدي في (الكامل)، والبيهقي في (السنن) من طريق خليل بن مرة الضبعي، عن ليث بن أبي سليم، عن عمرو بن شعيب به، وخليل ضعيف جداً، وليث ضعيف، وقد اختلط، وله شاهد يأتي بعده في الحديث الثاني، وقد حسنه الألباني في (صحيح سنن أبي داود).
والمراد بعمرو بن شعيب عن أبيه محمد، عن جده عبد الله بن عمرو العاص.

(مُرُّوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ) وهذا على الاستحباب، أن الإنسان يعود ابنه على الطاعة، قلنا على الاستحباب؛ لأنها ليست بواجبة عليهم، فالأمر بها غير واجب، وإنما هو على التعويد والتعليم.

(وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ) وهذا الذي ينبغي.

(وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ) أي: لا يستعجل الإنسان في ضربه والشدة عليه من أول ما يعلمه الصلاة، فإن هذا قد ينفره منها، ولكن قبل السبع يتركه إن صلى صلى وإن ترك ترك، فإن بلغ السبع بدأ في تعليمه: صل، الصلاة طيبة، ونحو هذا الكلام، فإن بلغ العشر وما زال مفرطاً ضربه؛ حتى يتعود عليها.

فأكثر الذين ضيعوا الصلاة الآن هم الذين لم يصلوا في صغرهم، ولم يجدوا من يأمرهم وينهاهم، ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [سورة مريم: ٥٩]، وهذا دليل على عظم الصلاة، إذ ليس ثمة عبادة أمر بها الصغير وعود عليهم مثل الصلاة.

(وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ) هذه اللفظة لا شاهد لها كما سترى، ولكن العمل عليها، «لا يفضي الرجل إلى عورة الرجل، ولا تفضي المرأة إلى عورة المرأة»، ولأن نوم الرجال مع النساء والنساء مع الرجال والأطفال مع البنات والبنات مع الأطفال قد يؤدي إلى مفسد، ويُعوّد الإنسان على التميز في هذا الشأن، وهذا من باب سد الذرائع.

٣٠٢ - وعن أبي ثرية سبرة بن معبد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلَاةَ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ**» حديث حسن رواه أبو داود والترمذي، وَقَالَ: حديث حسن^(١).
ولفظ أبي داود: «**مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ**».

الشرح:

والضرب هنا يكون ضربا غير مبرح، فلا تضربه ضربا شديدا، وإنما هو ضرب تأديب، والتدرج مطلوب في هذا الباب؛ لأنك إذا شددت عليه في الضرب لم ينجح فيه بعد ذلك إلا الضرب الشديد، وإذا رفقت به في الضرب يتهيب الصغيرة، بل إنك إذا عودته العتاب كان العتاب في شأنه نافعا أكثر من الضرب، إذا عودته العتاب على سوء صنيعه أو على تركه لما ينبغي أن يؤتى به فإن ذلك يؤثر فيه جدًّا، ويجعله مستجيبا، وربما يتمنى أن تضربه ولا تعاتبه.
وهذا واقع، إلا أنسان قد كثر العتاب له حتى أصبح لا يبالي، وإلا وضع الشيء في موضعه سبب للصلاح، وهو دواء، وما زاد عن حده انقلب إلى ضده، إذا كان الأب دائما يعاتب والزوجة دائما تعاتب والجميع دائما يعاتب تجد أن العتاب بعد ذلك لا يجدي، لكن لو كان العتاب في موطنه وللحاجة له فإن ذلك يفيد جدًّا، والله مستعان.
سيأتي معنا حديث أبي ذر: «**إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**» حين عاتبه النبي ﷺ وزجره بهذه الكلمة أثرت فيه، أصبح يكسو نفسه ويكسو خادمه مما يلبس.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧)، وفي سننه عبد الملك بن الربيع من سمرة ضعيف يصلح في الشواهد، وله شاهد من حديث أبي هريرة، رواه العقيلي في (الضعفاء)، ثم ذكر عقبه رواية محمد بن عبد الرحمن عن النبي ﷺ، ثم قال: هذا أولى. انتهى.
يعني أنه مرسل، والموصول أيضا في سننه محمد بن حسن بن عطية ضعيف، فالحديث بهذه الطرق حسن لغيره.

٣٩ - باب حق الجار والوصية به

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [سورة النساء: ٣٦].

الشرح:

والجار منقسم إلى قسمين: جار ذي القربى والجار الجنب، فمن كان من ذوي القرابة كان له حقان: حق القرابة وحق المجورة، ومن كان من ذوي الجنب كان له حق المجورة، إلا إذا كان مسلماً، فيكون له حقان: حق الإسلام وحق المجورة، وإذا كان كافراً له حق المجورة، كما سيأتي معنا.

وهذه من مكارم الأخلاق أن الإنسان يكون كريم مع ألصق الناس به، «خيركم خيركم لأهله»، فإذا لم يكن الإنسان كريماً مع ألصق الناس به لا خير فيه، ربما يؤذي ويؤذي ويلحقه الضرر.

بالذات الجيران؛ للخلطة التي بينك وبينهم تحتاج إلى سعة صدر، وإلى تجاوز، وإلى عفو، وإلى صفح، وإذا آذوك وأكثروا عليك تحول، ما ضيق الله على الإنسان، مستريح ومستراح منه.

وكم من إنسان يؤذي جاره وبعد ذلك يتمنى جاره حين يأتيه من يريه العين الحمراء، لكن على الإنسان أن يلتزم بوصية النبي ﷺ، وسيجعل الله عز وجل خيراً.

فالجار شأنه عظيم، وصى الله به في القرآن، ووصى به النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ووصى به أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهو من مكارم الأخلاق، قالت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرسول الله ﷺ: إنك لتكرم الجار، وهكذا كان من عادة العرب إكرام الجار، قال عنتره العبسي الشاعر الجاهلي:

وأغض طرفي إن بدت لي جاري حتى يوارى جاري مأواها
حتى في حديث المقداد: «لأن يزني أحدكم بعشر نسوة أهون من أن يزني بحليلة
جاره، ولأن يسرق من عشرة بيوت أهون من أن يسرق من بيت جاره»، وأعظم الذنب
قال: «أن تزاني حليلة جارك».

قال:

يَلُومُونَنِي إِنْ بَعْتُ بِالرُّخْصِ مَنزِلِي وَلَمْ يَعْلَمُوا جَارًا هُنَاكَ يُنْغِصُ
فَقُلْتُ لَهُمْ كُفُّوا أَلْمَامَ فَإِنَّمَا بِحِيرَانِهَا تَغْلُوا الدِّيَارَ وَتَرْخُصُ
وروى المدائني: أنه باع جار لفيروز داره بأربعة آلاف درهم، فجيء بها فقال
البائع: هذا ثمن داري فأين ثمن جاري؟ قال: ولجارك ثمن؟ قال: لا أنقصه والله عن
أربعة آلاف درهم، فبلغ ذلك الفيروز فأرسل إليه بثمانية آلاف درهم وقال: هذا ثمن
دارك وجارك، والزم دارك لا تبعها.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾) هذه الآية تسمى بآية الحقوق العشر.

وبدأ الله عزَّجَلَّ بالأمر بالتوحيد؛ لأنه حقه: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وهذا الإثبات،
﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وهذا النفي، ففيها معنى (لا إله إلا الله)، وهو دعوة
جميع الرسل، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

وقوله: (شيئا) نكر في سياق النهي فتفيد العموم، لا الشرك الأكبر ولا الأصغر،
فإن الشرك ظلم عظيم، لا يغفره الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿[سورة النساء: ١١٦]﴾
سواء كان الشرك أكبر أم أصغر، على الصحيح من أقوال أهل العلم.

﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ثنا بحق الوالدين؛ لعظيم منزلتهما، وقرنه بحقه؛ لعظيم شأنهما، حتى إذا كانا كافرين يطاعان في طاعة الله، ﴿وَأَنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [سورة لقمان: ١٥].

﴿وَيَذَى الْقُرْبَى﴾ وصى الله عزَّوَجَلَّ أيضا بذى القربى، القرابة، وسيأتي حقهم وفضلهم في بابہ إن شاء الله، مع كلامنا على صلة الأرحام.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ الذين مات آباؤهم؛ لأنه يكون ضعيف الحال، وربما كان ضعيف النفس، فيحتاج إلى نصره.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: الفقراء المعدمون.

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ وأيضا مما وصى به: حق الجار ذي القربى.

﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ قيل: الزوجة، وقيل: الجار من غير القرابة.

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ كذلك.

﴿وَأَيْنِ السَّبِيلِ﴾ الذي آواه المبيت إلى بيتك، أو الجوع إلى دارك، سمي ابن السبيل؛ لكثرة أسفاره، فيقولون: ابن الحرب لمن يبقى محاربا، وابن الهوى لمن كان عاشقا، وابن السبيل لمن كان مسافرا، حتى قيل:

إن تسألوني عن الهوى فأنا وابن الهوى وأخو الهوى وأبوه

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ الإحسان إلى ملك اليمين من الإماء والعبيد.

٣٠٣ - وعن ابن عمر وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

(مَا زَالَ جِبْرِيلُ) هو روح القدس الذي ينزل بالوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو عدو اليهود، ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩٨].

(يُوصِينِي) ووصية جبريل للنبي ﷺ وصية لأتمته، ووصية جبريل للنبي ﷺ بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [سورة مريم: ٦٤].

(حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ)؛ لشدة الوصية به لعله أن يكون له حظ في الميراث، وهذا دليل على عظيم شأنه وعلو منزلته، فأين نحن في هذا الزمان من هذا الخلق العظيم؟ قُطعت الأواصر، وحصل التهاجر والتقاطع والتدابير، ربما كان أيضا بسبب خلاف أبناء صغار غير مكلفين، أو بسبب خلاف زوجات ناقصات عقل ودين، ومع ذلك يلحق الناس من الضرر ما الله به عليم.

وكم أزهقت من أنفس؟ وكم خربت من دور؟ كان الأولى إذا عملنا بهذه الوصية أن تكون على خير حال، وأحسن مآل.

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": وقوله: (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ)؛ لكثرة الأمر بصلته، والإحسان إليه، وبذل معروف، ولا يحقر الإنسان ما أعطى جاره، ولو كان شيئا من مرق، أو من ورق البقل، ونحو ذلك من المأكولات والمشروبات.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤).

وأعظم ذلك كف الأذى عن الجار، فلا يجوز أن يؤذى الجار؛ لأن الله أمر بحقه في القرآن، وهكذا في صحيح السنة.

وفي هذا الحديث من الفوائد: أن الإنسان لا يستقل فعل الخير، وإن كان شيئاً يسيراً، فرب خبزة أنت تراها لا شيء ينتفع بها الجار، أو مرقعة تراها لا شيء ينتفع بها الجار، وما زال الناس في عاداتهم الإهداء إلى الجيران، والأخذ من الجيران.

وكثير من الجيران ربما لا يكون بينهم كثير احتشام في هذا الباب، حتى أن النبي ﷺ مرة دخل بيت رجل من الأنصار، فذبحت له شاة، فقال: «هَذِهِ شَاةٌ ذُبِحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ أَهْلِهَا»، قالت: يا رسول الله إن جيراننا يعني كالتي تقول: ما نحتشم منهم ولا يحتشمون منا في هذا الباب، قال النبي ﷺ: «أَطْعَمُوهَا الْأَسَارَى».

لو كانت حراماً ما أذن بإطعامها للأسارى، إنما تنزه النبي ﷺ أن يأكل من شيء ذبح بغير إذن أهله، ولو كان فيه نوع تجوز، إذ أنهم قد يسمحون مع غضاضة، فلعله ترك من هذا الجانب. اهـ

٣٠٤ - وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ». رواه مسلم^(١).
وفي رواية له عن أبي ذر، قَالَ: إِنَّ خَلِيلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْصَانِي: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِيبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ».

الشرح:

(أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وهو جندب بن جنادة، صلى قبل إسلامه بثلاث سنوات، كان قوالاً بالحق، زاهداً في الدنيا.

(١) حديث رقم: (٢٦٢٥).

في الحديث أهمية الصدقة بالقليل، وعدم احتقار ما يُهدى إلى الجيران ومن في باهم.

(يَا أَبَا ذَرٍّ) ناداه؛ حتى يقع منه الانتباه.

(إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً) أي: إذا طبخت أنت أو طبخت زوجتك، والغالب أنه يتعنى ذلك الزوجة أو الجارية.

(فَأَكْثِرْ مَاءَهَا) يعني إن لم تجد لحمة تعطيها للجار اعط له مرقا، حتى أن جارا يهوديا كان يهدي للنبي ﷺ مرقا، دعاه إلى مرقه.

(وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ) بزيادة الخبزة ناولهم، هنا، زيادة شيء من الأرز ناولهم، إذا احتاجوا إلى ماء أعطهم، والله المستعان.

(وفي رواية له...) وهذا بمعنى الحديث الأول.

قوله: (إِنَّ خَلِيلِي) ﷺ فيه ما عليه الصحابة رَضُوا ﷺ من اتخاذهم للنبي ﷺ خليلا لهم، فصفت محبتهم له.

(أَوْصَانِي) أي أمره على وجه الوصية، فينبغي أن تطبق، وفيه أن الإنسان ينظر أحوج البيوت إلى عطيته وهبته فيمكنهم من ذلك، وأن ذلك من المعروف، والنبي ﷺ يقول: «كل معروف صدقة».

٣٠٥ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وفي رواية لمسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».
(البَوَائِقُ): الْغَوَائِلُ وَالشُّرُورُ.

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان عظم حق الجار.

(وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ) فيه الحلف بدون استحلاف.

(وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ) أي: لا يكمل إيمانه.

(وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ) فيه تكرار اليمين، ومثل هذه اليمين إذا كانت في أمر المستقبل وكررها ليست إلا كفارة واحدة، لكن هذا ذكرها من باب التأكيد.
(قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟) أراد الصحابة أن يعرفوا من هذا الذي استحق هذا الوعيد.

(قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ): لا يَأْمَنُ جاره من شروره، شرور نفسه، فعلى الإنسان أن يكون حريصا على عدم أذية غيره.

(١) أخرجه البخاري عقيب (٦٠١٦)، ومسلم (٤٦)، وهذا انفرد به البخاري عن أبي شريح، ولم يخرج به مسلم، ثم ذكر البخاري تلو حديث أبي هريرة معلقا ولم يسق لفظه، وانفرد به مسلم عن أبي هريرة بلفظ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»، أي: بلفظ الرواية التالية عند المؤلف، ولم يرو مسلم لأبي شريح إلا حديثين، وافقه عليهما البخاري، وليس هذا منها.

٣٠٦ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِجَارَتِهَا وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

قال: (يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ) أمر لجميع المسلمات؛ لأنهن اللاتي يعانين هذا الأمر، من الطباخة وغير ذلك.

(لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِجَارَتِهَا) أي: لا تقول: هذه ما تحتاج إليها، لا يقول: هذه لا تحتاج إليها، ولا رغبة فيها، بل القليل من الهدية كثير عند الغير؛ لما فيها من الاحترام، لما فيها من المحبة، وفي الحديث: «تهادوا تحابوا».

(وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةٍ) وهو العظم الصغير في رجلها، فإن كان ذلك هذا خير، فالإنسان لا يحتقر الهدية؛ لما فيها من النفع، ولما فيها من أسباب المحبة، والله المستعان.

قال الحافظ في "الفتح" (١٠/٤٤٥): الْمُرَادُ مِنْهُ أَيْ لَا تَحْقِرَنَّ أَنْ تُهْدِيَ إِلَى جَارَتِهَا شَيْئًا وَلَوْ أَنَّهَا تُهْدِي لَهَا مَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْغَالِبِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ النَّهْيِ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضَدِّهِ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّحَابُّ وَالْتَوَادُّ فَكَأَنَّهُ قَالَ لِتَوَادِدِ الْجَارَةَ جَارَتَهَا بِهَدِيَّةٍ وَلَوْ حَقَرَتْ فَيَسَاوَى فِي ذَلِكَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَخَصَّ النَّهْيُ بِالنِّسَاءِ لِأَنَّهُنَّ مَوَارِدُ الْمَوَدَّةِ وَالْبَغْضَاءِ وَلَا تَنْهَنَ أَسْرَعَ انْفِعَالًا فِي كُلِّ مِنْهُمَا وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ لِلْمُعْطِيَةِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِلْمُهْدِي إِلَيْهَا. اهـ

(١) انظر الحديث (١٢٤).

٣٠٧ - وعنه: أن رسول الله ﷺ قَالَ: «لَا يَمْنَعُ جَارُ جَارِهِ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا لِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ! وَاللَّهِ لَا زِمِينَ بَهَا يَتَنَ أَكْتَا فِكُمْ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

رُويَ (خَشَبَةً) بِالْإِضَافَةِ وَالْجَمْعِ، وَرُويَ (خَشَبَةً) بِالتَّنْوِينِ عَلَى الْإِفْرَادِ. وَقوله: مَا لِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ: يَعْنِي عَنْ هَذِهِ السُّنَّةِ.

الشرح:

فيه أن الجار يتحمل جاره ولو استخدم الجدار الذي يكون بينهم، ولو أراد أن يغرز الخشبة، وربما ظهرت، وربما أدت إلى تساقط الأتربة وغير ذلك، ومع ذلك يصبر.

وفيه تبليغ العلم، فإن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلغ العلم، وأنكر عليهم الإعراض. وفي وجوب العمل بالعلم بحسبه، تعمل بالعلم بحسبه، ما كان اعتقاداً تعمل به اعتقاداً، وما كان فعلاً تعمل به فعلاً، وهكذا.

٣٠٨ - وعنه: أن رسول الله ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لَيْسَ كُتْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).

الشرح:

قوله: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ) ربا، (وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) موعداً، (فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ) بسب أو شتم، أو قمامة، أو نحو ذلك.

(وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) بما يستطيع.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٣)، ومسلم (١٦٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٦)، ومسلم (٤٧).

(وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لَيْسَ كُتٌ) لأن أصل الشر الذي يلقاه الإنسان من اللسان، فكم من قتل بسبب لسانه، وكم من حبس بسبب لسانه، وكم من إنسان يلحقه الضرر في الدنيا والآخرة بسبب لسانه، على ما يأتي إن شاء الله.

٣٠٩ - وعن أبي شريح الخزازي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لَيْسَ كُتٌ». رواه مسلم بهذا اللفظ، وروى البخاري بعضه^(١).

الشرح:

فيه: (فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ) (فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) (فَلَا يُوْذِ جَارَهُ)، قد تنوعت الروايات.

٣١٠ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي جَارَيْنِ، فإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ أَبَا». رواه البخاري^(٢).

الشرح:

فيه: أن الناس يتفاوتون في الحقوق، فبعضهم يكون أحق من بعض، فالجار الأقرب أحق بالإكرام من الجار الأبعد، وذلك؛ لأن الجار الأقرب قد يقع منه أذى ويقع منه غير ذلك، وأنت تجاهد نفسك في إكرامه، وتجاهد نفسك كذلك في الإحسان إليه، ولأنه أحق، قد جعله الله منك مقدماً.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).

(٢) حديث رقم: (٢٢٥٩).

٣١١ - وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن^(١).

الشرح:

وفيه: أن الناس يتفاضلون، وخيرهم حقاً خيرهم لصاحبه، تجالسه وتسايره، وتوده ويودك، ثم تسيء إليه، لا بد أن تكون مع صاحبك على أحسن حال، حتى وإن أساء إليك أحسن إليه، وإن غلط عليك اعف عنه، فالمخالطة قد تؤدي إلى بعض المنافرة، لكن الإنسان لا يلتفت إلى ذلك، وعليه أن يخصم الشيطان، وأن يرضي الرحمن.

(وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ) على المعنى الذي تقدم، فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ لنا ولكم التوفيق والسداد، ونسأل الله العون على مثل هذه الآداب، لأن الإنسان بطبيعته قد يغضب لنفسه ويتنصر لنفسه، وكذلك يسأم من بعض المعاملات، لكن إذا احتسبنا مثل ما تقدم حصل الخير العظيم.



(١) حديث رقم: (١٩٤٤)، وهو في (الصحيح المسند) لشيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤٠ - باب بر الوالدين وصلة الأرحام

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [سورة النساء: ٣٦].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [سورة النساء: ١].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [سورة الرعد: ٢١].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [سورة العنكبوت: ٨].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تَهَرَّهْمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٣-٢٤].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَدَّهُ فِي عَافِيٍّ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذِكْرُ﴾ [سورة لقمان: ١٤].

الشرح:

وذكر هذا الباب في كتب الرقاق من المهمات؛ لأن حق الوالدين قد قرن بحق الله عزَّ وجلَّ، ولأن كثيرا من الناس يضيعون هذه الحقوق، ولأن الحقوق منها: حق الله عزَّ وجلَّ، وقد تقدم بعضه، وحق النبي ﷺ في المتابعة، وقد تقدم بعضه، وهكذا الحقوق بين الأخوة والأزواج، وقد تقدم، وساق هنا حق الوالدين، والأرحام.

والوالد: هو الأب وإن علا، كالجد، وجد الأب، وجد الجد، ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٣]، فسموهم آباء.

بل إن بر الجد يدخل في البر من جهتين: كونه أب، وكونه وصل الرجل لبر أبيه، فصلته من جهتين: بر له؛ لأنه أب أعلى، وبر للأب.

والأرحام: هم ذو الرحم وكل من يصل إليك بصلة، من الأعمام وأبنائهم، والأخوال وأبنائهم وما إلى ذلك.

إلا أنه ينبغي أن يفرق بين الصلة وبين الاختلاط فيما يسمى بالنساء اللاتي هن من الأرحام وليست بمحارم، فله أن يصل، إما بإرسال السلام إن لم تكن فتنة، أو بكلام إن لم يكن مع خلوة ونظر، أو ببعض الهدايا والإحسان، لكن لا يجوز للإنسان أن يختلي بابنة عمه، أو ابنة خاله، أو ابنة عمته، أو ابنة خالته، ما لم تكن بينهما محرمة من وجه آخر كرضاع ونحوه.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾) تقدم أن هذه الآيات تسمى أية الحقوق العشرة، الأول: حق الله، قدمه؛ لعلو مرتبته ولأهميته، ولأنه الحق الذي لا يقبل من عمل عامل إلا به، ولا ينفع مع الشرك عمل، وهذا مأخوذ من قوله: **﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾** [سورة النساء: ٣٦] أي: وحدوه.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ لا في ألوهية، ولا في ربوبيته، ولا في أسمائه وصفاته، وفي هذا معنى **(لا إله إلا الله)**؛ لأنها جمعت بين النفي الإثبات، فقوله: **(اعبدوا)** إثبات، وقوله: **(ولا تشركوا به شيئا)** نفي، و**(شيئا)** نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم، فلا يجوز أن يشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، لا شركا أكبر ولا أصغر.

قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ هذا هو الشاهد من ذكره أنه ذكر حق الوالدين، أن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً.

﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهم ذوي القرابة من الأرحام ونحوهم.

﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه.

﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾: الفقراء الذين لا يلوون على شيء، أو يحتاجون؛ لأن ما معهم لا يكفيهم.

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الجار: القريب من ذوي الأرحام.

﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: الجار البعيد، إما أن يكون من أهل الإسلام، أو حتى من أهل الذمة.

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ قيل: الزوجة، وقيل غير ذلك.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: المسافر.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ملك اليمين من الإماء والرقيق.

قال: ﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾﴾ تُسألون عن حقه وتُسألون عن حق الأرحام.

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾﴾ وهذا في سياق وصف

المؤمنين، ﴿* أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ١٦﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ١٧﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ١٨﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ١٩﴾.

فالله أمر بصلة الأرحام، فيجب أن يصل إليهم البر، مع أن الآية أعم، ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [سورة الرعد: ٢١]: كل ما أمر الله بوصله والإحسان إليه وتأدية الحق إليه.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾) أي أن الله وصى الإنسان بالإحسان إلى والديه، سواء كان الوالد أبا أو أما.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾) (وَقَضَىٰ): شرع وأمر وحكم، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾: أن توحدوه، وهذا معنى لا إله إلا الله، (ألا تعبدوا) نفي، (إلا إياه) إثبات.

(﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾) وهذا الشاهد.

(﴿إِنَّمَا يَبَلِّغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾) الأب أو الأم، أو الأب والأم، كلاهما طال عمره حتى ضعف عقله ورق جسمه.

(﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ﴾) التأفيف من الكراهة لبعض ما يصدر منهم، إما من الأفعال، وإما من الأقوال، وإما حتى من الروائح، فلا تتأفف؛ لأن ذلك يؤدي إلى أذيتهما، ومفهوم الآية: أنه إذا كان قد نُهي عن التأفيف فمن باب أولى ما هو أعلى منه من الضرب أو الشتم أو السب.

(﴿وَلَا تَهَرَّهْهُمَا﴾) برفع الصوت ونحوه.

(﴿وَقُلْ لَهُمَا﴾) أي للأب والأم، أو لأحدهما.

(﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾): قولاً طيباً، برفق وتؤدة، وسكينة وخضوع.

(﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾) كناية عن التواضع لهما.

(﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾) ادع لهم، سواء في حياتهم أو بعد

مماتهم، بالرحمة وهو التوفيق فيما يأتي، والتجاوز فيما سبق.

وذكر الله عَزَّجَلَّ أحوج ما يكون الإنسان الى أبويه وهو الصغر؛ حتى يعرف المسلم فضلهما.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ﴾) كالمعنى السابق أن الله وصى الإنسان بالإحسان إلى والديه، وكان من شأنه أن أمه حملته وهنًا، أي: في ضعف على ضعف.

وبهذه الآية استدل العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وبه قضى عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإذا زُفت امرأة الى زوجها وكانت ولادتها في ستة أشهر فما فوق فالولد له، ولا بد، إلا إذا انتفى منه باللعان، وأما إذا كان دون ستة أشهر فالولد ليس له.

(﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ﴾) وشكر الله عَزَّجَلَّ يكون بالقلب: استكانة وخضوعاً، وباللسان: ذكر المحامد، وبالجوارح: انقياداً، ولوالديك أيضاً أد شكرهما، **«و لا يشكر الله من لا يشكر الناس»**.

٣١٢ - وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سألت النبي ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، حدثني بهن، ولو استزدته لزادني. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

أبو عبد الرحمن هو عبد الله بن مسعود الهذلي، أسلم قديماً، وكان من حفاظ القرآن، وخيرة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال عنه النبي ﷺ: **«من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»**.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٢)، ومسلم (٨٥).

قَالَ: سألت النبي ﷺ فيه فضيلة سؤال العلماء؛ لما في ذلك من الوصول إلى المطلوب.

(أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟) فيه أن الأعمال تتفاضل، منها محبوب ومنها أحب، ومنها مفضول ومنها فاضل.

(قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا) جاء في بعض الروايات: «**الصلاة على أول وقتها**»، والعمل على هذا المعنى، إلا في صلاة العشاء، ففضيلتها في التأخر، إلا أن النبي ﷺ أمر بتقديمها؛ من أجل الضعفة، ومن أجل أن لا يشق على الأمة، **«إِنَّهُ لَوْ قُتِلَتْ لَوْلَا أَنْ أُشِقَّ عَلَى أُمَّتِي»**، وكذلك الظهر في حال الإبراد.

(قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ) وهذا هو الشاهد، فقرنه النبي ﷺ بالصلاة والجهاد، بل قدمه على الجهاد.

(قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) لأن (ثم) تدل على الترتيب والتعقيب، وإن كانت ليس على إطلاقها، لكن يستفاد هذا أيضا بالقرائن.

(حدثني بهن) أي النبي ﷺ.

(ولو استزدته): لو طلبت منه الزيادة من الأعمال الفضيلة **(لزادني)**، إلا أن النبي ﷺ كان يذكر لكل أحد ما يناسبه.

٣١٣ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَحِدَّهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ»**. رواه مسلم^(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان عظيم شأن الوالد، مع أن الإنسان إذا أعتق عبدا أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار، حتى فرجه بفرجه، ومع ذلك لو فعل

(١) حديث رقم: (١٥١٠).

للوالد من المكارم ما فعل لا يجزيه على جميله ومعروفه وإحسانه، إلا في حالة واحدة: أن يجده مملوكا يباع ويشترى، ويوهب، ويرهن، ويستخدم، فيشتره من الرق فيعتقه، يكون حرا.

ويجب على الولد في هذه الحالة أن يشتري أباه إن كان مستطيعا. وفيه فضيلة العتق، وسيأتي بابها إن شاء الله.

٣١٤ - وعنه أيضا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

(وعنه) أي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ساق المصنف الحديث؛ لبيان فضيلة صلة الرحم، ويدخل فيه أداء حق الوالدين. (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) أي: من الرجال والنساء، يؤمن بالله ربا، وكذلك مجازيا على الأعمال، ويؤمن باليوم الآخر وما فيه من المجازاة على الأعمال الصالحة، وكذلك الأخذ بالأعمال السيئة، إلا أن يتجاوز الله عَزَّوَجَلَّ فيما دون الشرك. (فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) أي: ليحسن إلى ضيفه بالكرامة، مع أنه إنما يلزمه أن يؤدي له ما يستطيع، ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]، لكن يتبشش في وجهه، ويحسن إليه بقدر الاستطاعة.

(وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) وهذا هو الشاهد، في بعضها: «فليحسن إلى رحمه».

(١) أخرجه البخاري ٨ / ٣٩ (٦١٣٨)، ومسلم (٤٧).

(وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) وهو أن لا يتكلم إلا بخير، وسيأتي باب حفظ اللسان في موطنه إن شاء الله.
وفيه فضيلة الصمت لغير ما حاجة.
وفيه فضيلة الكلام إن كان في طاعة الله، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة، وبث العلم ونحوه.

٣١٥ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مُقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقْرَأُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة محمد: ٢٢-٢٣]. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).
وفي رواية للبخاري: فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «مَنْ وَصَلَكَ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعْتُهُ».

الشرح:

(عنه) أي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان فضيلة صلة الرحم ووجوبها، وأن من ضيعها أدى ذلك إلى تضييع نفسه.
قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ) والله خالق كل شيء.
(حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ) أي خلق الإنسان وفرغ منه.
(قَامَتِ الرَّحِمُ) على ما تقدم، وهي شجنة من الرحمن، اشتق لها من اسم الرحمن.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٥٥٤).

(فَقَالَتْ: هَذَا مُقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ) تعلقت بالعرش كما سيأتي في بعض

الروايات.

(قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ) يعني أترضين بهذا الجزاء أن أصل من وصلك؟ وهل بقي ترغيب في صلة الرحم بمثل هذا الحديث؟ من أن الواصل لرحمه يصله الله، يصله بالهداية، يصله بالإحسان، يصله بالرزق، يصله بأنواع الوصل، ومن وصله الله سلم في دينه وسلم في دنياه.

(وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ) وإن كثرت أمواله، وإن كثر ناصروه، إلا أنه يُقْطَع.

(قَالَتْ: بَلَى) أنسها على وصف الرحم، وإلا فهو عام في حق الرجال والنساء.

(قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ) وهذا عهد الله، وهو لا ينقض عهده ولا يخلف وعده.

(ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأُوا إِنَّ شِئْتُمْ) أي دليل ذلك في القرآن، فيه الاستدلال بالقرآن في الخطب والمواعظ ونحو ذلك، فهو حجة، ويليه في الحجية السنة، ثم الإجماع، وإن كن من حيث الحجية سواء إذا ثبتت السنة، وكذلك ثبت الإجماع، فهو في الحجية كالقرآن من حيث وجوب العمل.

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ قُلْتُمْ) يعني: أعرضتم عن الكتاب والسنة.

(أَنْ تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) بأنواع الفساد من الشرك ونحوه.

(وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ) هذا هو الشاهد، بعدم الإحسان إليهم، وبالإساءة

إليهم.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ) أي: من قطع الرحم، وتولى مفسدا.

(فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ) فأصمهم عن الحق، وأعمى أبصارهم عن الحق.

٣١٦ - وعنه رَوَاهُ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أَبُوكَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

وفي رواية: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: «أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ».

(وَالصَّحَابَةُ) بِمَعْنَى: الصَّحْبَةُ.

وقوله: (ثُمَّ أَبَاكَ) هكذا هُوَ منصوب بفعلٍ محذوف، أي: ثُمَّ بَرَّ أَبَاكَ، وفي رواية: (ثُمَّ أَبُوكَ)، وهذا واضح.

الشرح:

(جاء رجل إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) فيه حرص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى التفقه. (فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟) فيه أن الناس يتفاضلون من حيث الإحسان إليهم.

(قَالَ: أُمُّكَ)؛ لأنها هي التي حملت، وأرضعت، وولدت، وتحملت من أجله المشاق، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [سورة الأحقاف: ١٥]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [سورة لقمان: ١٤].

(قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ) كرر له لفصيلة حقها.

ولذلك إذا تعارض أمر الأم مع أمر الأب إذا استطاع الإنسان أن يجمع بينهما كما قال بعضهم: بر أباك وأطع أمك، يحاول الإنسان أن يبر أباه وأن يطيع أمه، إلا في معصية لا طاعة في معصية.

(مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟) أي: المصاحبة.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

(أُمَّكَ، ثُمَّ أُمَّكَ، ثُمَّ أُمَّكَ، ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ) بعد الأب العم، وابن العم، والخال، وابن الخال، ونحو ذلك، والأخ، وابن الأخ، والأخت، وابن الأخت، وهكذا.

٣١٧ - وعنه، عن النبي ﷺ قَالَ: «رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ مَنْ أَدْرَكَ أَبُوهُ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

وهذا دعاء من النبي ﷺ بأن من لم يكن باراً بوالديه أن يرغم أنفه في التراب، دلالة على مهانته، وقد دعا بهذه الدعوة على المنبر وأمن عليها جبريل رضوان الله عليه وسلامه، كما في الحديث: «**آمين آمين آمين**»، قالوا: يا رسول الله سمعناك أمنت ثلاثاً.

(مَنْ أَدْرَكَ أَبُوهُ عِنْدَ الْكِبَرِ) في سن ضعفهما وحاجتهما وفقرهما.
(أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا) الأب وحده، أو الأم وحدها، أو الأب والأم.
(فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ) يعني ضيع أبواب الجنة، باب معد للمسلم بإحسانه إلى أمه وأبيه يدخل الجنة.

٣١٨ - وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسَيِّئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ». رواه مسلم^(٢).

(١) حديث رقم: (٢٥٥١).

(٢) حديث رقم: (٢٥٥٨).

وَتُسَفُّهُمْ) بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء، (وَالْمَلُّ) بفتح الميم، وتشديد اللام وهو الرماد الحار، أي: كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم، لكن ينأهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقّه، وإدخالهم الأذى عليه، والله أعلم.

الشرح:

(أَنْ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ) ما شاء الله هذا الباب أكثرهم يسألون، دليل على اهتمام الصحابة به.

(إِنْ لِي قَرَابَةٌ) من أعمام وأخوال ونحوهم.

(أَصْلُهُمْ) يصلهم بأنواع الوصل، من الكلام والسلام والإحسان.

(وَيَقْطَعُونِي) يزيدون في هجره، والبعد عنه، والإعراض.

(وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسَيِّئُونَ إِلَيَّ) وهذه حالة شديدة أن الإنسان يحسن ويساء إليه.

(وَأُحْلِمَ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ) يتلطف في كلامهم وهم يسبونهم ويجدعونهم، وربما

ضربوه وشتموه.

(فَقَالَ: لَيْتُنِي كُنْتُ كَمَا قُلْتَ) فيه أن بعض الأحكام تحتاج أن الإنسان لا يعاجل

بالحكم قبل أن يسمع من الآخرين؛ لأن الدعوة قد تكون فيها ما فيها، ولهذا قال النبي

ﷺ: (لَيْتُنِي كُنْتُ كَمَا قُلْتَ): إن كان الأمر كما قلت وأخبرت.

(فَكَأَنَّمَا تُسَفُّهُمْ الْمَلُّ): كأنما تطعمهم الرماد الحار.

(وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ) أي لا تزال منصوراً من الله عز وجل ما دمت

على ذلك؛ لأن الإنسان يصبر وينصر، «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر

يسرى».

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ (١٦ / ١١٥): وَمَعْنَاهُ: كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الْحَارَّ، وَهُوَ تَشْبِيهُ لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْأَلَمِ بِمَا يَلْحَقُ أَكِلَ الرَّمَادِ الْحَارَّ مِنَ الْأَلَمِ، وَلَا شَيْءَ عَلَى هَذَا الْمُحْسِنِ، بَلْ يَنَالُهُمُ الْإِثْمُ الْعَظِيمُ فِي قَطِيعَتِهِ، وَإِذْخَالِهِمُ الْأَذَى عَلَيْهِ. **وَقِيلَ:** مَعْنَاهُ إِنَّكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ تُخْزِيهِمْ وَتُحَقِّرُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ لِكَثْرَةِ إِحْسَانِكَ وَقَبِيحِ فِعْلِهِمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْحَقَارَةِ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَمَنْ يُسِفُّ الْمَلَّ. **وَقِيلَ:** ذَلِكَ الَّذِي يَأْكُلُونَهُ مِنْ إِحْسَانِكَ كَالْمَلِّ يُحَرِّقُ أَحْشَاءَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ

٣١٩ - وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١). ومعنى (ينسأ له في أثره) أي: يؤخر له في أجله وعمره.

الشرح:

(يؤخر له في أجله وعمره) هذا قول، وقال بعض أهل العلم غير ذلك. قوله: (من أحبَّ) أي: من راغب. (أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ): يوسع له في رزقه من المال والجاه والعلم ونحو، فإن الرزق لفظ عام. (ويُنْسَأُ لَهُ فِي أَثَرِهِ): يؤخر له، أو يبارك له، أو يجعل له ذكر حتى بعد موته، من يدعو له، ويستغفر له، ويتصدق عنه. (فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ): لأن حقهم مقدم على حق غيرهم.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

٣٢٠ - وعنه، قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٢]، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ ﷻ، يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٢]، وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرَحاءَ، وَلِأَمَّا صَدَقَةُ اللَّهِ تَعَالَى، أَرْجُو بَرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ»، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفَعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

وسبق بيان ألفاظه في باب الإنفاق مما يجب.

الشرح:

وإنما ساق المصنف الحديث؛ لقوله: (وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ)، فأمره النبي ﷺ أن يصل بها ذوي رحمه، وفيه أن أبا طلحة فعل ما أمره النبي ﷺ فقسّمها في الأقربين، ويدخل فيهم الأخوة، وأبناء العم.

وجاء في بعض الروايات أنه أعطى حسان بن ثابت، ويلتقيان في الجد السادس، فليس القرابة فقط على الأخ وابن الأخ، والعم وابن العم، لا، قد تكون إلى الأجداد السابقين.

(١) انظر الحديث (٢٩٧).

٣٢١ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَبَايُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ: «فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟» قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قَالَ: «فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ، فَأَخْسِنْ صُحْبَتَهُمَا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ^(١).
وفي رواية لهما: جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ: «أَحْيٍ وَالِدَاكَ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ».

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان فضل الوالدين، وأن حقهما مقدم على الجهاد، إلا في حالة واحدة، وهي ما إذا وجب الجهاد وجوب عيني، كجهاد الدفع، أو إذا استنفر الإمام، «وإذا استنفرتم فانفروا»، أما جهاد الطلب لا يخرج فيه إلا بإذنها.
قوله: (أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ) لعله من الأعراب؛ لأنهم كانوا كثيرا ما يقدمون على النبي ﷺ لبيعته ونصرته.

(فَقَالَ: أَبَايُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ) أي أنه سيترك بلده ويأتي إلى مدينة النبي ﷺ.
(وَالْجِهَادِ) أي في سبيل الله مع النبي ﷺ في المعارك.
(أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى) أي: أبتغي الثواب من الله، وفيه فضيلة الإخلاص.
(قَالَ: فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟) فيه نباهة المفتي، وأنه ينبغي أن لا يبادر بالفتوى لمن هذا حاله حتى يستفصل، فمثلا بعضهم هذه الأيام يتواصل بك من بلاد الكفر يقول: أريد الهجرة، فيُسأل: هل لك زوجة وأبناء؟ هل لك من أهلك من يحتاج إلى نفقتك والقيام عليه؟ فإن وجد ذلك وجهته إلى الصواب، وإن لم يوجد عند ذلك توجهه إلى ما يكون نافعا له في دنياه وآخره.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩).

بعضهم قبل أيام يقول: أريد أهاجر، يريد يبيع البيت، والبيت فيه أمه وأخواته، وتعلمون مشقة الإيجارات، ومشقة التنقلات، فلو قلت له: نعم ضاعت الأم وضاعت الأخت، إن كان ولا بد ولا يحتاجون إلى نفقته لا يضيعهم في السكنى، أما إذا كانت الأم والأخت ومن في باهما يحتاجون إلى نفقته وعونه وانتباهه فليقم عليهما حتى يجعل الله عزَّوَجَلَّ له فرجا مخرجا.

(فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟) فيه لو كان أحدهما لوجب عليه العودة، فكيف إذا كانوا جميعا.

(فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؟) أي: الثواب العظيم.

(فَارْجِعِي إِلَى وَالِدَيْكَ): إلى أبيك وأمك.

(فَأَحْسِنِ صُحْبَتَهُمَا) على ما تقدم من الإحسان إليهما، ببذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه.

(فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ) فيه على أنه من الجهاد.

فبر الوالدين من الجهاد العظيم، الذي يحتاج من الإنسان إلى احتساب، وأن يلزمه.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٦/١٠٢-١٠٣): وَنَقَلَ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيُّ إِجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْأُمَّ تُفَضَّلُ فِي الْبِرِّ عَلَى الْأَبِّ، وَحَكَى الْقَاضِي عِيَّاضُ خِلَافًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ الْجُمْهُورُ بِتَفْضِيلِهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَكُونُ بَرُّهُمَا سَوَاءً، قَالَ: وَنَسَبَ بَعْضُهُمْ هَذَا إِلَى مَالِكٍ، وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ لِصَرِيحِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي الْمَعْنَى الْمَذْكُورِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الْقَاضِي: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْأُمَّ وَالْأَبَّ أَكْثَرُ حُرْمَةً فِي الْبِرِّ مِنْ سَوَاهُمَا.

قَالَ: وَتَرَدَّدَ بَعْضُهُمْ بَيْنَ الْأَجْدَادِ وَالْإِخْوَةِ لِقَوْلِهِ ﷺ: **«ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»**، قَالَ أَصْحَابُنَا: يُسْتَحَبُّ أَنْ تُقَدَّمَ فِي الْبِرِّ الْأُمُّ، ثُمَّ الْأَبُّ، ثُمَّ الْأَوْلَادُ، ثُمَّ الْأَجْدَادُ وَالْجَدَّاتُ، ثُمَّ الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، ثُمَّ سَائِرُ الْمَحَارِمِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ كَالْأَعْمَامِ وَالْعَمَّاتِ،

وَالْأَخْوَالِ وَالْخَالَاتِ، وَيُقَدَّمُ الْأَقْرَبُ فَلِأَقْرَبُ، وَيُقَدَّمُ مَنْ أَدْلَى بِأَبْوَيْنِ عَلَى مَنْ أَدْلَى بِأَحَدِهِمَا، ثُمَّ بَذِي الرَّحِمِ غَيْرِ الْمَحْرَمِ كَابْنِ الْعَمِّ وَابْنَتِهِ، وَأَوْلَادِ الْأَخْوَالِ وَالْخَالَاتِ وَغَيْرِهِمْ، ثُمَّ بِالْمُصَاهَرَةِ، ثُمَّ بِالْمَوْلَى مِنْ أَعْلَى وَأَسْفَلٍ، ثُمَّ الْجَارِ، وَيُقَدَّمُ الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ الدَّارِ عَلَى الْجَارِ، وَكَذَا لَوْ كَانَ الْقَرِيبُ فِي بَلَدٍ آخَرَ قُدِّمَ عَلَى الْجَارِ الْأَجَنَبِيِّ، وَالْحَقُّو الزَّوْجَ وَالزَّوْجَةَ بِالْمَحَارِمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى الْأَمْرِ بِرِ الْوَالِدَيْنِ، وَأَنْ عُقُوقَهُمَا حَرَامٌ مِنَ الْكِبَائِرِ. اهـ

٣٢٢ - وعنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحْمَةُ وَصَلَهَا». رواه البخاري ^(١).
وَ (قَطَعَتْ) يَفْتَحُ الْقَافَ وَالطَّاءَ، وَ (رَحْمَةُ) مَرْفُوعٌ ^(٢).

الشرح:

أي: ليس الواصل بالمكافئ؛ لأن بعضه يصل من وصله، ويحسن إلى من أحسن إليه، ويكرم من أكرمه، وهكذا، مكافأة، لا، هذا ما هو واصل؛ لأن هذا إنما كافأ، رد الجميل، «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه».

(وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحْمَةُ وَصَلَهَا) يعني هذا الواصل حقاً، ولا يلزم أن الصلة لا تكون إلا مع الرحم التي تقطع، لا، لكن هذا بلغ به الوصل لرحمه أنه مع شدتهم عليه وحطمتهم له وهو يصل إليهم، ربما إذا ذهب إلى بيتهم لزيارتهم يجد وجوههم عابسة، ويجد منهم الكلام السيئ، ومع ذلك يصبر.

معنى هذا أنه عمل هذا العمل لله، لم يعمل له لطلب المكافأة، أو لحظ دنيوي من ثناء ونحوه.

(١) حديث رقم: (٥٩٩١).

(٢) أي: فاعل.

٣٢٣ - وعن عائشة، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي، وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي، قَطَعَهُ اللَّهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

تقدم الإشارة إلى هذا الحديث في أول الباب، وأن دعاءها قد يستجاب؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد وعدها أن يصل من وصلها، وأن يقطع من قطعها، فليحذر الإنسان، كم من إنسان قد ضاق حاله ما يدري ما السبب، يتخبط يمينا يسارا ما يدري ما السبب، وهو قطيعة الرحم، لا بركة في المال، ولا بركة في الأبناء، ولا بركة في العمر، والسبب أنه قاطع لرحمه، لا يصلهم ولا يصلون إليه، لا يحسن إليهم ولا يتوصلون للإحسان إليه.

فعلى كل منا أن يكون في أحسن حال، وأحسن باب.

قال ابن حجر رحمه الله في "فتح الباري": قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: الرَّحِمُ الَّتِي تُوصَلُ عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ فَالْعَامَّةُ رَحِمُ الدِّينِ وَتَجِبُ مُوَاصَلَتُهَا بِالتَّوَادُّدِ وَالتَّنَاصُحِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَالْقِيَامِ بِالْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ، وَأَمَّا الرَّحِمُ الْخَاصَّةُ فَتَزِيدُ لِلنَّفَقَةِ عَلَى الْقَرِيبِ وَتَقْضِي أَحْوَالَهُمْ وَالتَّعَافُلِ عَنْ زَلَّاتِهِمْ وَتَتَفَاوَتْ مَرَاتِبُ اسْتِحْقَاقِهِمْ فِي ذَلِكَ. اهـ

٣٢٤ - وعن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا أَعْتَقَتْ وَلِيدَةً وَلَمْ تَسْتَأْذِنْ النَّبِيَّ ﷺ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهَا فِيهِ قَالَتْ: أَشَعَرْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي أَعْتَقْتُ وَلِيدَتِي؟ قَالَ: «أَوْ فَعَلْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَعْطَيْتَهَا أَخْوَالَكَ كَانَ أَعْظَمَ لَأَجْرِكَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(٢).

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

ميمونة بنت الحارث هي من أواخر من تزوج بها النبي ﷺ، وماتت بسرف، ودفنت هناك.

(أَنَّهُا أُعْتِقَتْ وَلَيْدَةٌ وَلَمْ تَسْأِذِ النَّبِيَّ ﷺ) فيه أن المرأة تملك مالها، وأن الزوج لا مدخل له في الإنكار عليها إلا إذا أفسدته في غير الوجه الشرعي، وإلا لها الحرية، تريد أن تتصدق، تريد أن تبني، تريد أن تحفظه، المال مالها، تريد أن تنفق على زوجها، على أبنائها، مالها؛ لأن النبي ﷺ لم ينكر عليها: لماذا أنفقت ولماذا أعطيت؟

(فَلَمَّا كَانَ يَوْمُهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهَا فِيهِ) لأن النبي ﷺ كان يقسم على تسعة أبيات.
(قَالَتْ: أَشَعَرْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ) يعني: أعلمت؟
(قَالَ: أَوْ فَعَلْتُ؟) كأنه لم يعلم، فيه دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله.

(قَالَ: أَمَا إِنَّكَ) فيه الدلالة على ما هو أفضل، وهذا هو الشاهد.
(لَوْ أُعْطِيَتْهَا أَخْوَالُكَ كَانَ أَعْظَمَ لَأَجْرِكَ) والأحوال من الرحم، فيقول لها: هذا الإعتاق طيب، وأجره عظيم، لكن إعطاء الأحوال؛ ليستفيدوا من خدمتها أو يستفيدوا من بيعها أو يستفيدوا من هبتها أو من أي شيء كان أحسن وأعظم لأجرك؛ لأنه صلة للأرحام، وإدخال السرور على الأرحام.

٣٢٥ - وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).
وَقَوْلُهَا: (رَاغِبَةٌ) أَي: طَامِعَةٌ عِنْدِي تَسْأَلُنِي شَيْئًا؛ قِيلَ: كَانَتْ أُمُّهَا مِنَ النَّسَبِ، وَقِيلَ: مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ.

الشرح:

وقيل: بأن (رَاغِبَةٌ) أَي: راغبة عن الإسلام، ما هي حول الإسلام، ومع ذلك أمرها ﷺ بالإحسان إلى هذه الأم المشركة، فكيف إذا كانت الأم مسلمة؟ وكيف إذا كانت مستقيمة على الكتاب والسنة؟
(قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ) فيه أن الهداية من الله، ما استطاعت أن تكون سببا في هداية أمها، فيه الزيارة بين الأرحام للحاجة.
(فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) فيه حرص الصحابة ألا يفعلوا ولا يقدموا إلا بما يفتيهم به النبي ﷺ، لا سيما في مثل هذا الأمر المستبهم.
(قُلْتُ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ) فيه أن السائل يأتي بالسؤال على وجهه، لا يكتف، انظر إلى أسماء لم تقل: يا رسول الله لعلها تسلم، لعله يحصل منها؛ من أجل أن تحصل على الفتوى الموافقة، لا، قالت: وهي راغبة، أي: عن الإسلام، كما قال بعضهم، أو: راغبة في صلتها لها.
(نَعَمْ، صِلِي أُمَّكَ) فإذا كان وصلها هي كافرة فمن باب أولى وصل المسلمة، والله المستعان.

وهل أمها كانت زوجة لأبي بكر في الجاهلية؟ لعلها كانت زوجة ثم فارقها.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

٣٢٦ - وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَصَدَّقْنَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ»، قَالَتْ: فَرَجَعْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفُ ذَاتِ الْيَدِ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ فَأَتَيْهِ، فَاسْأَلْهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يُجْزِي عَنِّي، وَإِلَّا صَرَفْتُهَا إِلَى غَيْرِكُمْ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: بَلِ اتَّبِعِيهِ أَنْتِ، فَاذْهَبِي، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِيَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَاجَتِي حَاجَتُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أُلْقِيََتْ عَلَيْهِ الْمَهَابَةُ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا بِلَالٌ، فَقُلْنَا لَهُ: أَنْتِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبِرْهُ: أَنَّ امْرَأَتَيْنِ بِالْبَابِ تَسْأَلَانِكَ: أُتْجِزِي الصَّدَقَةَ عَنْهُمَا عَلَى أَزْوَاجِهِمَا وَعَلَى أَيْتَامٍ فِي حُجُورِهِمَا؟ وَلَا تُخْبِرُهُ مَنْ نَحْنُ، فَدَخَلَ بِلَالٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ هُمَا؟» قَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَزَيْنَبُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ الزَّيَانِبِ هِيَ؟» قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَهُمَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

(وعن زينب الثقفية) وهي زوجة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت من الفضليات.

(تَصَدَّقْنَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ) فيه حث النساء على الصدقة؛ لبركتها ونفعها، ولكثرة أخطائهن، فإن النبي ﷺ قال: «نظرت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»، وفيه أن الإنسان يتصدق مما تيسر من طعام أو شراب أو حلي، والله المستعان.

وكثير من النساء الآن يرغبن عن الصدقة، إلا ما رحم ربي، مع كثرة أبوابها، فلربما تستطيع أن تعطي من شيء من طعامها وشرابها وكسائها الذي قد رغبت عنه.

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠).

(قَالَتْ: فَرَجَعْتُ إِلَى عبد الله بن مسعود) إلى زوجها.

وفيه طلب النساء للعلم مع أمن الفتنة، ويكن من وراء حجاب، فأما النبي ﷺ فهو كمنزلة الوالد.

(فقلتُ له: إِنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفُ ذَاتِ الْيَدِ) أي: فقير.

(وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ فَأْتِيهِ) أي: إن كنت مستحقاً أعطيتك.

(فَأَسْأَلُهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يُجْزِي عَنِّي، وَإِلَّا صَرَفْتُهَا إِلَى غَيْرِكُمْ) فيه أن الصحابة

والصحابيات كانوا يحرصون على الاستفتاء قبل العمل.

(فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: بَلِ أَتَيْتِهِ أَنْتِ)؛ حتى تطمئن، وحتى تضع له السؤال على الوجه

الذي تريد.

(فَانْطَلَقْتُ) فيه طاعة الزوج.

(فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَبَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَاجَتِي حَاجَتُهَا) أي: كلا منهما رأت

أن زوجها أحق بهذه الصدقة والزكاة، والضابط هنا يقولون: كل من يلزمك النفقة عليه لا يجوز أن تدفع الزكاة إليه، وكل ما لا يلزمك النفقة عليه يجوز أن تدفع الزكاة إليه.

وأما ابن عثيمين وغيره رأيت لهم تفصيلاً آخر، وهو: إذا كان هذه النفقة ليست من النفقات الواجبة يجوز أن تعطيه لمن يجب أن تنفق عليه.

مثاله: لو أن أمك عليها دين، أو زوجتك عليها دين، لا يجوز أن تعطي الزكاة في

النفقة على زوجتك وعلى أمك وعلى ولدك، لكن لو كان عندهم دين هذا أمر ليس بواجب عليك أن تقضيه أنت، فيقول: لو أعطيتهم لقضاء دينهم فهو أمر حسن، هذا اختيار طيب، وإن كان جمهور العلماء على المعنى الأول.

(وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ الْمَهَابَةُ) نعم، كان عظيماً في قلوبهم، عظيماً

في ملكوت الله، فلذلك لما قام ذلك المشرك لقتله ارتعد، سقط سيفه، وقال عمرو بن

العاص: والله لو سئلت أن أصف النبي ﷺ ما استطعت أن أصفه؛ لأنه ما كان يستطيع ينظر إلى وجهه، وكان عمر بن الخطاب إذا حدث النبي ﷺ كأخي السرار، بصوت خافت.

(فَخَرَجَ عَلَيْنَا بِلَالٍ) إذ أنه من خدام النبي ﷺ، وقد حرضه أبو بكر.

(فَقُلْنَا لَهُ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) فيه الرسالة بالسؤال.

(فَأَخْبَرَهُ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ بِالْبَابِ تَسْأَلَانِكَ: أُتْجِزِي الصَّدَقَةَ عَنْهُمَا عَلَى أَزْوَاجِهِمَا وَعَلَى

أَيْتَامٍ فِي حُجُورِهِمَا؟) إذ أنها لا تجب عليهم النفقة، النفقة على الزوج.

(وَلَا تُخْبِرُهُ مَنْ نَحْنُ) وهذا لا يلزم، إذا أراد الاستفصال له أن يستفصل، وإن

أجاب على السؤال له ذلك.

(فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ هُمَا؟) ولا بد أن يجيب.

(أَيُّ الزَّيْنَبِ هِيَ؟)؛ لأن عندنا زينب بنت أم سلمة، وزينب زوج النبي ﷺ، عدة

زيانب.

(قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ) وكأنه عرفه بالقرينة، وإلا العبادلة كثير، أو أنه لم يكن لمن

يسمى بعبد الله زوجة زينب إلا ابن مسعود.

(لَهُمَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ) وهو صلة الرحم.

(وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ) وهو الزكاة التي قد تعينت عليهما، والله المستعان.

٣٢٧ - وعن أبي سفيان صخر بن حرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطويل في قِصَّةِ هِرْقَل: أَنَّ هِرْقَلَ قَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟ يَعْزِي النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَقُولُ: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ»، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَةِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

أبو سفيان هو صخر من حرب، أسلم في الفتح، وحسن إسلامه، وهو والد معاوية رضي الله عنه، وزوجه هند بنت عتبة، أسلمت وحسن إسلامها، وابنته أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم.

(في حديثه الطويل في قِصَّةِ هِرْقَل) أي حين دعاه بعد مكاتبة النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام، وسأله عن نسب بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومن يتبعه؟ وهل يرتد أحد منهم؟ وهل يهزم في الحرب؟ وهل كنتم تتهمونه قبل أن يقول ما قال؟ الحديث وهو مشهور، مخرج في كتاب بدء الوحي من (صحيح البخاري).

وهرقل لقب يطلق على ملوك الروم، وقصر مثله، وهو ممن عرف الحق وقلاه، وهو القائل: لو كنت صادقاً فيما قلت لبلغ ملكه موضع قدمي هاتين، ودعاهم إلى الإسلام، فلما رأهم حاصوا حيصة الحمر قال: إنما أردت أن أختبركم.

(فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟) أي بم يأمركم ويدعوكم به؟
(قَالَ: قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) وهذا معنى (لا إله إلا الله)، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [سورة النساء: ٣٦]، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا أُمُورٌ إِلَّا لِعِبَادِ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة البينة: ٥].

(١) انظر الحديث (٥٦).

وأغلب الآيات القرآنية الدالة على التوحيد فيها معنى لا إله إلا الله، أما لا إله إلا الله صراحة لم تأت إلا في آيتين: الأولى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة الصافات: ٣٥]، والثانية: ﴿فَلَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَكْبَرُوا لِلذِّكْرِ﴾ [سورة محمد: ١٩]، وأما بقية الآيات فهي متضمنة لمعنى لا إله إلا الله، دالة عليه.

فقوله: **(اعبدوا الله)** هذا إثبات، وقوله: **(وحده)** هذا تأكيد للإثبات، وقوله: **(ولا تشركوا به شيئاً)** هذا نفي، و**(شيئاً)** نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم، فيشمل النهي عن الشرك الأكبر والأصغر.

وانظر كيف بدء بالدعوة إلى التوحيد؛ لأنها أصل الدعوات، ولأنها أهم المهمات، ولأنها مبدأ الرسالات، فدعوة تقوم على غير لا إله إلا الله والدعوة إلى شروطها وأركانها والعمل بها دعوة فاسدة، ويلحق الإنسان الضرر بقدر قصوره في هذا الباب. وإياك أن تقول يا طالب العلم: نحن بين طلاب علم ما نحتاج للكلام إلى التوحيد، أو تقول: أنا قد فهمت التوحيد، أو تقول: هذا المسجد لا يحتاج إلى هذه المسألة، لا، التوحيد نحتاجه في حال طلبنا وفي حال دعوتنا؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم، والتوحيد حق الله، فكلما ازداد الإنسان منه علماً كلما ازداد به شرفاً.

وإذا أردت أن تعظ الناس فلا أعظم من التوحيد، وإظهار الآيات الدالة على عظم الله، وعلى حق الله، وعلى كبر الله، وعلى سعة الله، وعلى قوة الله وقدرته، وإن شئت أن ترغب وترهب فلا أعظم من التوحيد.

وكم هي الأحاديث والآيات التي فيها التوحيد! حتى قال ابن القيم: القرآن كله دعوة إلى التوحيد، وهل أرسلت الرسل وأنزلت الكتب إلا للتوحيد وما هو من

لوازمه؟ ومن عصى الله بأي معصية خلا الشرك بالله مآله إلى الجنة، ومن أطاه الله بأي طاعة وهو مشرك مندد ما له إلى النار، لا تشفع له طاعاته ولو كثرت.

ابن جدعان كان يطعم فقراء الحرم كل يوم جفنه عظيمة يحملها أربعة، وكان يعتقد، يتحنث ويتعبد لله عَزَّجَلَّ، وما نفعه ذلك؛ «لأنه لم يقل: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، لم يكن موحدًا، بل كان مشركًا مندداً.

وأعظم ميزات دعوة أهل السنة والجماعة: تحقيق التوحيد، والدعوة إليه بأقسامه الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وأعظم ما يُتوسل به إلى الله عَزَّجَلَّ التوحيد، وأعظم حسنة التوحيد، والعبادة التي يجب أن تلازم العبد في حال تكليفه التوحيد، «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»، «لكنوا موتاكم لا إله إلا الله».

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥]، ما أرسل من رسول إلا أوحى إليه التوحيد، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٩]، وهو أول رسول إلى أهل الأرض، وآخر رسول إلى أهل الأرض هو محمد ﷺ، ودعوته إلى التوحيد، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة البينة: ٥]، وجميع الرسل بين ذلك.

وانظر الى استدلال أبي سفيان، مع أنه كان في ذلك الوقت من المشركين، وقدم ما يتعلق بحق الله، وانظر الى استدلال هرقل على نبوة النبي ﷺ وصدقه بدعوته إلى التوحيد.

ولذلك حصر الأدلة في نبوة النبي ﷺ على ما جاء في الكتاب والسنة أو كذلك حصر دعوة النبي ﷺ إلى الناس كافة على ما جاء في الكتاب والسنة قد لا يقبله

المخالفون للكتاب والسنة، لكن يستدل بتقرير علمائهم، وبتقرير كتبهم، وبمثل هذه الاستدلالات التي استدل بها هرقل على صدق نبوة النبي ﷺ، أكان يكذب في حديث الناس؟ لا، إنسان ما يكذب في حديث الناس يكذب على الله؟ لا يمكن، هذا شيء لا يُعقل أن إنسانا ما يكذب في حديث الناس يكذب على الله.

(وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ) وهذا أصل ثاني، ترك قول الآباء المخالف للكتاب والسنة، قول الآباء المبني على الرأي والهوى والتقليد، فإن هذا من أعظم وسائل الجاهلية، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢]، وانظر إلى سبب كفر أبي طالب: هو على ملة عبد المطلب.

وترك العوائد من أعظم أسباب السلامة، كثير من الناس ما استقاموا على السنة لماذا؟ للعوائد التي عاشوا عليها، هذا صوفي يعيش على صوفيته، وذاك شيعي يعيش على تشيعه، وذاك حزبي يعيش على حزبيته، وآخر صاحب هوى يعيش على هواه، فترك العوائد المخالفة للكتاب والسنة من الأمور المطلوبة شرعا وقدرًا.

وانظر كيف يقول لهم: **(اتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ)** أي: من الشرك والتنديد والباطل، يترك جملة وتفصيلا، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [سورة الأنعام: ٦٨].

وأیضا أمهاتكم إذا كانت أقوالهن مخالفة للكتاب والسنة، فالآباء يدخل فيه الآباء ويدخل فيه معنى الأمهات، فإن سعد بن أبي وقاص دعت أمه إلى الردة أبى.

(وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ) وأيضا مما يأمرنا به: الصلاة، سيأتي بابها وشأنها وعظيم قدرها في باب خاص، فهي الركن الثاني بعد التوحيد.

(وَالصَّدَقِ) يأمرهم بالصدق، وفي رواية: الصدقة، فالقول بأنه يأمركم بالصدقة أي: بالزكاة، والصلاة والزكاة قرينان، والقول بأنه الصدق: الصدق مع الله، والصدق

مع غير الله بالتعامل الشرعي، فيدخل في هذه الكلمة صدق اللسان، وصدق الجنان، وصدق الجوارح والأركان.

وهذا من مهمات طريقة أهل السنة والجماعة، أن يكونوا على صدق في دعوتهم، وفي تعاملهم، وفي شروطهم، وفي جميع شأنهم.

(والعَفَافُ) عن الباطل، والزور، والزنا، وأموال الناس، فهي كلمة عامة، وكان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى»**.

(والصِّلَةُ) وهذا هو الشاهد، صلة الأرحام، والإحسان إليهم.

٣٢٨ - وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ»**، وفي رواية: **«سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا»**، وفي رواية: **«فَإِذَا افْتَحْتُمُوهَا، فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا»**، أَوْ قَالَ: **«ذِمَّةٌ وَصِهْرًا»**. رواه مسلم^(١).
قَالَ الْعُلَمَاءُ: (الرَّحِمُ): الَّتِي لَهُمْ كَوْنُ هَاجِرٍ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْهُمْ، (وَالصَّهْرُ): كَوْنُ مَارِيَةِ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ.

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان عظيم اهتمام النبي ﷺ بصلة الأرحام، حتى ولو كانت بعيدة، فانظر مارية القبطية امرأة من نساء مصر، ومع ذلك لهذا الصهر؛ أمر النبي ﷺ بالإحسان إلى أهل مصر جميعاً، ورحم هاجر جارية أهديت لسارة، ومع ذلك أمر النبي ﷺ بالإحسان إلى جميع أهل مصر.

«إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا» فيه دلائل من دلائل نبوة النبي ﷺ.

«يُذَكَّرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ» أي: من أوزانهم القيراط.

(١) حديث رقم: (٢٥٤٣).

قوله: (سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ) المراد بها البلد المعروف؛ لأنها لم تصرف، ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى قوله: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [سورة البقرة: ٦١]: أنها ليس المراد بها مصر البلد، وإنما المراد بها موطن من المواطن.

(فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا) أي: أحسنوا إليهم.

(فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا) أي: ذمة وصهر، ذمة الرحم، وذمة الصهارة.

والإحسان مطلوب إلى الناس جميعاً ممن يلزم الإحسان إليه، لكن إذا كان من الأرحام يتعين زيادة الإحسان.

٣٢٩ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤] دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ، وَقَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا». رواه مسلم^(١).

قوله ﷺ: «بِلَالِهَا» هُوَ بفتح الباء الثانية وكسر ها، وَالْبِلَالُ: الماء.

ومعنى الحديث: سَأَصِلُّهَا، شَبَّهَ قَطِيعَتَهَا بِالْحَرَارَةِ تُطْفَأُ بِالماءِ، وَهَذِهِ تُبْرَدُ بِالصَّلَاةِ.

الشرح:

قوله: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾) فيه، دليل أن القرآن كان ينزل منجماً على حسب الوقائع، والنبي ﷺ وإن كانت رسالته إلى الناس كافة إلا أن الرحم لهم مزيد دعوة، مزيد اهتمام.

(١) حديث رقم: (٢٠٤).

وفيه عمل رسول الله ﷺ بالوحي، فإنه سارع إلى ذلك، مع شدة عداوتهم له ومع شدة إعراضهم عنه.

(قُرَيْشًا) أي: جميع هذا البطن الذي ينتسب إلى قريش، قيل: سمي قريشا؛ لأنه كان يجمع أهله على الطعام.

(فَعَمَّ وَخَصَّ) أي عم: بدأ بعموم قريش، **(وخص)** أي: رجع إلى أقربائه وأرحامه، الأقرب فالأقرب.

(يا بني كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ) وهذا جد لقريش أجمع، سواء بني العاص، بني هاشم، بني المغيرة، بني عبد شمس، كلهم يرجعون إليه.

(أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ) أي: بالتوحيد والطاعة.

(أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ) أي: التوحيد والطاعة وحسن العمل.

فأتى على بني هاشم وغير بني هاشم.

(يا بني عبد المطلب) وهم أخص بني هاشم.

(يا فاطمة) في رواية: «يا صفية بنت عبد المطلب».

(فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) ﴿فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ [سورة المدثر: ٤٨]، إلا

إذا كانوا أهل توحيد، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [سورة الانفطار: ١٩].

قوله: (لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) نكرة في سياق الإثبات تفيد العموم، وإن شئت

أن تقول: في سياق النفي تفيد العموم.

(غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا) وهذا هو الشاهد، أنتم أرحامي.

(سَأَبْلُوهَا بِبِلَالِهَا) بما تقدم، بالدعوة إلى الله، فمن أسلم كان له ذاك، ومن لم يسلم

ليس له حظ في الشفاعة يوم القيامة.

وفي الحديث: أن أبا لهب قال: تبا لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: (تبت يدا أبي لهب وقد تب)، كما في قراءة الأعمش، (تبت يدا أبي لهب وقد تب) أي: هلك وخسر.

٣٣٠ - وعن أبي عبد الله عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَهَارًا غَيْرَ سِرٍّ، يَقُولُ: «إِنَّ آلَ بَنِي فُلَانٍ لَيَسُوءُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيُّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبْلُغَهَا بِبِلَالِهَا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبَخَارِيِّ^(١).

الشرح:

عمرو بن العاص أسلم بعد الحديبية، وحسن إسلامه، واشترط على النبي ﷺ، وسيأتي.

(قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَهَارًا غَيْرَ سِرٍّ) أي في حال دعوته، دليل أنه كان يبلغ الجميع، لم يكن يخص أحدا بالعلم في مثل هذه الأمور التي تتعين على الجميع. (إِنَّ آلَ بَنِي فُلَانٍ) يسميهم، ولعلمهم من أقاربه.

(لَيَسُوءُوا بِأَوْلِيَائِي) قد جاء مصرحاً به خارج الصحيح: «إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِي، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِنَّ وَلِيَّيَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا». (إِنَّمَا وَلِيُّيَ اللَّهُ) أي: يتولى الله عَزَّوَجَلَّ، ويتولاه الله برعايته وحفظه وكلاءته ونصره. (وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبْلُغَهَا بِبِلَالِهَا) على ما تقدم.

ومثل هذه الأحاديث فيها عظة عظيمة، زيادة على ما فيها من بيان صلة الرحم وهي: أن الإنسان لا يفتخر بنسبه، ولا بجاهه، ولا بماله، وإنما يفتخر بولاية الله له، ويتولى الله عَزَّوَجَلَّ، فكلما كان الإنسان قريباً من الله كان الله إليه أقرب، وكلما كان بعيداً عن الله كان جزاؤه من جنس عمله.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥).

وفيه الدعوة إلى الولاء والبراء في الله والله وبالله، لأن الغالب أن الإنسان قد تكون عنده محبة جبلية لأقاربه وأصحابه وأبنائه وأزواجه، لكن ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٦]، والولاية تقتضي النصرة والعون.

٣٣١ - وعن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَعْبُدُ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ (١).

الشرح:

أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نزل النبي ﷺ بيته، فنزل النبي ﷺ في أسفله وأبو أيوب وزوجه في أعلاه، ثم إن أبا أيوب قال: لعلنا نمشي فوق رأس النبي ﷺ أو كذا، فبات هو وزوجه في عرض حائط، إلى أن أصبح الصباح، ثم قال للنبي ﷺ: خذ أعلاه وأخذ أسفله، وكره الثوم؛ لأن النبي ﷺ كرهه.

وقُتِلَ شهيدا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أقرب مكان من القسطنطينية، ودُفِنَ هناك، أوصى أن يدفن إلى أقرب مكان من قسطنطينية، وكان قائد ذلك الجيش يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، دُفِنَ وعُمِّي قبره، ومع ذلك لجهل الأتراك بدين الله عزَّ وجلَّ ولتصوفهم تجد أن له مزارا وقبة، وتصرف له من العبادات ما تصرف لغيره من القبور، والله المستعان.

مثل هؤلاء ينطبق فيهم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [سورة الإسراء: ٥٧]، وهؤلاء ينادونهم من دون الله.

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (١٣).

(أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ) هذا السؤال جاء عن عدة من الصحابة: عن أبي هريرة، وعن أبي أيوب، وعن غيرهم، كان الصحابة **رَضُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** يحرصون على الجنة، همهم كيف يدخلون الجنة، ومتى يصلون إلى الجنة.

بخلاف حالنا الآن: من علم بطريق الجنة فرط فيه وضيع، ومن جهل طريق الجنة لم يبحث عنه ولم ينقب، والله هذا يدل على ضعف الجانب العلمي لدى الأمة الإسلامية إلا من رحم الله، تجد أحدهم ربما في أدغال القارات لا يعلم من دين الله عَزَّوَجَلَّ إلا رأى عليه أباه وأمه، ولم يحرك ساكنا في يوم من الدهر أن يعلم شيئا من أحكام الدين، لا في التوحيد، ولا في العقائد، ولا في العبادات، ولا في المعاملات، وهذا يدل على خذلان الله للعبد، فإن الله إذا خذل العبد لم يوفق للخير.

وفيه أن الجنة إنما تُنال بالأعمال الموافقة للكتاب والسنة، وإلا كان بإمكان الصحابي يذهب يعمل أي عمل، لكن كانوا حريصين على أن يعلموا الأعمال بأدلتها.

والنبي ﷺ لعلمه وفقهه وبصيرته وتوفيق الله له وكونه مؤيد بالوحي أيضا وهذه من أعظمها؛ كان يجيب كل واحد منهم على حسد حاله.

(وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ) النار التي وقودها الناس والحجارة، وسيأتي بيان شيء من أوصافها في المنشورات والملح.

(فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَعْبُدُ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) وهذا معنى لا إله إلا الله، (تعبد الله) إثبات، (ولا تشرك به شيئا) نفي.

(وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ) المفروضة، كما جاء مصرحاً به في حديث أبي هريرة، وحديث أبي أيوب أيضا في بعض ألفاظه.

(وَتَوَرَّتِي الزَّكَاةَ) المكتوبة، كما جاء مصرحاً به أيضاً، فإن زاد من الصلاة النافلة فحسن، وإن زاد من التطوع بالصدقات فحسن.

(وَتَصِلُ الرَّحِمَ) وهذا هو الشاهد، انظر كيف قرن الرحم بثلاثة أركان عظام من أركان الإسلام: التوحيد، والصلاة، والزكاة.

٣٣٢ - وعن سلمان بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ؛ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا فَلَمَاءٌ؛ فَإِنَّهُ طَهُورٌ»، وَقَالَ: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن^(١).

الشرح:

قوله: (إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ) أي: من الرجال والنساء.
(فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ) ومن بركته: أنه مفيد للجسم، ويتابع فيها الهدى، وأنه حلوة وطعام.

(١) حديث رقم: (٦٥٨).

قال: ضعيف، والفقرة الثانية صحيحة لغيرها، وفي إسناده الرباب بنت صليح مجهولة، فالحديث ضعيف على اختلاف فيه، لكنه يدور على الرباب، وهي مجهولة، وضعفه الألباني من قول الرسول ﷺ، وصححه من فعله للشاهد الذي أذكره بعد.

وله شاهد من حديث أنس، قال: كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم يكن رطبات فتمرات، فإن لم يكن تمرات حسا حسوات من ماء. رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وفي سنده جعفر بن سليمان الضبعي، وهو وإن كان حسن حديث إلا أن هذا الحديث قد أعده ابن عدي في (الكامل) وتبعه الذهبي في (الميزان) في ترجمة جعفر من مناكيره.

وجاء من طريق أخرى عن أبي يعلى، وفي سنده عبد الواحد بن ثابت الباهلي، منكر الحديث، وأنكر عليه هذا الحديث، كما في (لسان الميزان).

ورواه الترمذي من طريق عبد العزيز بن صهيب، عن أنس، فذكره، وقال الترمذي عقبه: هو حديث غير محفوظ، ولا نعلم له أصلاً من حديث عبد العزيز عن أنس، انتهى، فهو خطأ.

وجاء عند النسائي في الكبرى من طريق رقبة، عن يزيد بن أبي مريم، عن أنس: أن النبي ﷺ كان يبدأ إذا أفطر بالتمر، ورجح النسائي عقبه إرساله، وأشار الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى تصحيحه.
وله أيضاً شاهد عند (الصيام) للفريابي، يدل على أن النبي ﷺ كان يفطر على تمر.

(فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمَرًا فَالْمَاءُ؛ فَإِنَّهُ طَهُورٌ) وسرعان ما يصل الى أماكن الحاجة.
(وَقَالَ: الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ) تكتب عند الله صدقة، والصدقة بعشر أمثالها، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٢]، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

(وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثَتَانِ) صدقة، ألف ريال وألف ريال، تضعه لقريب وتضعه لبعيد، إلا أنه في حق المسكين صدقة واحدة، وفي حق ذي الرحم ثتان: صدقة وصلة، كما قال النبي ﷺ لزينب: «لَكَ أَجْرَانِ، أَجْرُ الصَّدَقَةِ، وَأَجْرُ الصَّلَةِ»، وقد تقدم الحديث معنا.

٣٣٣ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ، وَكُنْتُ أَحِبُّهَا، وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا، فَقَالَ لِي: طَلِّقْهَا، فَأَبَيْتُ، فَاتَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «طَلِّقْهَا». رواه أبو داود والترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

قوله: (كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ) أي: زوجة، أي: تحت عصمتي.
(وَكُنْتُ أَحِبُّهَا) فيه حب الرجال للنساء، وأن ذلك لا يعاب، لا سيما بين الأزواج ومن إليهم.

(وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا) عمر الأب، وعمر من خيرة الناس، ومن الملهمين، لعل كراهيته لها بسبب شيء فيها لم يرضه، وابن عمر لعله أحبها لجمالها ولقربها، ولغير ذلك، وهذه قد تقع في الكثير، لكن هل يلزم أن كل من قال له أبوه: طلق امرأتك أن

(١) أخرجه أبو داود (٥١٣٨)، وابن ماجه (٢٠٨٨)، والترمذي (١١٨٩).

يطلقها؟ لا يلزم، إلا إذا كان المراد من الطلاق لما فيها من النقص الإيماني والنقص الالتزام والاستقامة فيطاع الأب في ذلك، وقد أمر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولده أن يطلق زوجته فطلقها.

(فَأَتَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ) فيه شكوى الوالد ولده على القاضي والحاكم.

(فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: طَلَّقَهَا) فالتزم ابن عمر أمر النبي ﷺ.

٣٣٤ - وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ، قَالَ: إِنَّ لِي امْرَأَةً، وَإِنَّ أُمِّي تَأْمُرُنِي بِطَلَاقِهَا، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوْ احْفَظْهُ». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان حق الوالد على ولده، إلا أن فيه قصة.

قوله: (عن أبي الدرداء) هو عويمر.

(أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ) مبهم لا يضر؛ لأنه السائل.

(قَالَ: إِنَّ لِي امْرَأَةً) أي زوجة.

(وَإِنَّ أُمِّي تَأْمُرُنِي بِطَلَاقِهَا) وهل تطاع؟ سيأتي الفتوى.

(الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ) أي بطاعته.

(فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ) أي: بمعصيته، **(أَوْ احْفَظْهُ)** بطاعته، لكن هذا لم

يأمره بطلاقها، إنما لمح له إلى جواز طلاقها.

(١) حديث رقم: (١٩٠٠).

٣٣٥ - وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح^(١).

وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة، مِنْهَا: حديث أصحاب الغار^(٢)، وحديث جُرَيْج^(٣)، وقد سبقا، وأحاديث مشهورة في الصحيح حذفها؛ اختصاراً، وَمِنْ أَهْمِّهَا: حديث عمرو بن عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطَّوِيلُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى جُمْلٍ كَثِيرَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ وَأَدَابِهِ، وَسَأَذْكُرُهُ بِتَمَامِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَابِ الرَّجَاءِ^(٤)، قَالَ فِيهِ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ - يَعْنِي: فِي أَوَّلِ النَّبُوءَةِ - فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «**نَبِيٌّ**»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «**أُرْسَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى**»، فَقُلْتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ؟ قَالَ: «**أُرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْتَانِ، وَأَنْ يُوحَدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ**» وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان حق الخالة، وأنها بمنزلة الأم، تطاع في طاعة الله، ويحسن إليها، وانظر إلى قوله: «**بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**»، وقد تقدم قول النبي ﷺ: من أحق الناس بحسن صحابة؟ قال: «**أُمُّكَ**»، قال: ثم من؟ قال: «**أُمُّكَ**»، قال: ثم من؟ قال: «**أُمُّكَ**»، قال: ثم من؟ قال: «**أُمُّكَ**»، فينبغي أن تكون الخالة مقدمة حتى على العمّة، والعمّة أيضاً يحسن إليها، لكن الحديث فيه تقديم ذلك.

(حديث أصحاب الغار) وقد تقدم معنا، والشاهد منه قوله: «**اللَّهُمَّ كَانْ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَاءَ بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ**

(١) حديث رقم: (١٩٠٤).

(٢) انظر الحديث (١٢).

(٣) انظر الحديث (٢٥٩).

(٤) انظر الحديث (٤٣٨).

أُرِخَ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتَيْقَاطَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غُبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَاَنْفَرَجَتْ».

(وحدیث جریج) أي: لما نادته أمه فأبى، وقال: أمي أو صلاتي؟ ودعت عليه واستجاب الله دعوتها.

والشاهد من سوق الحديث في هذا الباب قوله: (أَرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ) وسيأتي الحديث بتمامه ونعلق عليه في ذلك الموطن إن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. بهذا نكون قد انتهينا من هذا الباب الذي ذكر فيه النووي رَحْمَةُ اللَّهِ جَمَلًا من الأدلة الدالة على عظيم حق الرحم، ووجوب الصلة، والإحسان إليها، وهو باب متمم لما قبله من الأبواب المبينة لما على الإنسان من الحقوق التي ينبغي أن يؤديها وأن يأتي بها.



٤١ - باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۖ﴾ [سورة محمد: ٢٢-٢٣].
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [سورة الرعد: ٢٥].
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُبَلِّغُنَّ عَنْكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَهَرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ﴾ [سورة الإسراء: ٢٣-٢٤].
 وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۖ﴾ [سورة

الشرح:

(باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم) لما أمر رَحْمَةُ اللَّهِ وحث على صلة الرحم ناسب أن يأتي بالأدلة الدالة على تحريم القطيعة، كالجمع بين الترغيب والترهيب، وهذه طريقة قرآنية، وطريقة نبوية؛ لأن الناس يختلفون، منهم من يحتاج إلى الترغيب وهم أهل الطاعة، وأهل المحبة، فيزداد في ترغيبهم في الخير بذكر الأدلة الدالة على عظيم ذلك.

ومنهم من يحتاج إلى ترهيب وهم أهل التفريط في الحق والتضييع، فيخوف بالله عَزَّوَجَلَّ، لعله أن ينزجر ويرعوي ويتوب ويؤوب.

وما من باب من أبواب العلم والخير والعمل إلا ويحتاج الناس فيه إلى الترغيب والترهيب، ولو تأملت كتاب المنذري (الترغيب والترهيب) لوجدت ذلك عياناً، الترغيب في التوحيد والترهيب من الشرك، الترغيب في العلم والترهيب من الجهل،

الترغيب في الطاعة والترهيب من المعصية، الترغيب في بر الوالدين والترهيب من العقوق، الترغيب في الجنة والترهيب من النار، وهكذا جميع الأبواب.

فلا بد من الجمع، ولو تأملنا السور القرآنية لا سيما سور المفصل أو السور المكية نجد أن الله عَزَّجَلَّ إذا ذكر طريق أهل الجنة يذكر طريق أهل النار، إما قبل وإما بعد، في كثير من الآيات، حتى المدنية.

فلا بد من أن الطالب يسلك هذا المسلك، ويجمع في خطبه ومحاضراته ودروسه بين الأمرين؛ لأن ما من المجلس إلا وفيه الصنفان: صنف يحتاج إلى الترغيب، وصنف يحتاج إلى الترهيب، وانظر كيف هذا القرآن نزل على الصحابة رَضِيَواُ اللّهُ عَنْهُمْ والأحاديث تليت على الصحابة رَضِيَواُ اللّهُ عَنْهُمْ وهم أحرص الناس على خير، ومع ذلك كان يؤتى بالترغيب والترهيب.

بل إن أصل دعوة الرسل هذه، ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [سورة النساء: ١٦٥]، مبشرين بالجنة ومنذرين من النار، مبشرين بأسباب السعادة، ومنذرين بأسباب الهلكة.

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾﴾ هذا إخبار من الله عَزَّجَلَّ: هل عسى إن توليتم عن العمل بالكتاب السنة أن تفسدوا في الأرض بالشرك والتنديد ونحو ذلك وتقطعوا أرحامكم بعدم صلتها وبالإساءة إليها؟

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ إذا قطيعة الرحم سبب لعنة الله للعبد، نسأل الله السلامة، وما أكثر الفتن التي تقع الآن بين القبائل وفي الأمم بسبب قطيعة الرحم! لكن ما يعقلون، بعض المواطن يقطعون الرحم بمنع المرأة من ميراثها، وبعضهم يقطع الرحم بعدم زواجها، أو بزواجها ممن ليس بكفء لها، إما أن

يكون تاركا للصلاة، وإما أن يكون من المبتدعين الضالين، وقد قال الفضيل بن عياض: من زوج وليته بصاحب بدعة فقد قطع رحمها.

ومنهم من يقطع رحمه بسبها وشتمها ولعنها، فما أخرجنا إلى أن نجاهد أنفسنا في صلة الأرحام والإحسان إليهم، وانظر إلى هذا الوعيد العظيم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: من تقدم ذكرهم، طردهم من رحمته.

﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ فأصمهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم عن رؤيته.

﴿وَقَالَ تَعَالَى: وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ بعد أن ذكر الله عزَّ وجلَّ أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فمن أوصافهم:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ وهو ما عاهدوا الله عليه، أو ما كان من العهود بينهم وبين مخالفهم على وفق الكتاب والسنة.

﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الذي واثقوه على أنفسهم، وأقروا به، والتزموه.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الأوامر والنواهي، فقطع الأوامر بعدم العمل بها، وقطع النواهي بارتكابها.

هذه الآية تفيد العموم، بعضهم استدل بها على صلة الأرحام فقط، لكن تفيد العموم، ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾: التوحيد، والسنة، والعلم، والحلم، وصلة الرحم.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالشرك، وغيره.

﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾: النار وبئس

القرار.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَهَرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٤﴾).

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: حكم وشرع، ﴿رَبُّكَ﴾ أي: خالقك ورازقك ومدبرك.
﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي أن تعبدوه، وهذا معنى لا إله إلا الله؛ لأنها جمعت بين النفي والإثبات، ومعنى (تعبدوه): توحده.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ أي: وأمرنا بالإحسان للوالدين.
﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ يعني: يكبران في سنهما، حتى يرق عظمهما، ويحدودب ظهرهما.

﴿أَحَدُهُمَا﴾: الأب أو الأم، ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾: الأب والأم.
﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ وهو أدنى أنواع المعصية لهما، التأفف، فما بالك بما هو أكبر من ذلك من ضربهما وشتمهما وتنقصهما؟

﴿وَلَا تَهَرَّهُمَا﴾؛ لأن هذا السن سن الطفولة عندهم، وإن كان قد كبر في عمره جاوز الثمانين إلا إنه يرجع طفلاً في كثير من التصرفات.

﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ إذا تكلمت معهما برفق: يا أبي، يا أمي، نعم، أيش تريد، ونحو هذا الكلام، والله أن الأب والأم قد يتغيران لأدنى شيء، أذكر مرة من المرات أن أبي رَحِمَهُ اللهُ جاء لزيارتي إلى دماج، فعرفته بالشيخ مقبل، قلت: يا شيخ هذا والدي، فغضب مني من أجل هذه الكلمة، قال: تتخرج من قول: أبي، وأنا والله ما قصدت إلا هذا أن الوالد الأب، لكن هو فهمها أن الوالد تطلق على غير الأب، لكن كلمة الأب لا تطلق إلا على الأب صليبة.

فانظر إذا كان يتأثر بمثل هذه الكلمة، كيف بمن يقول لأمه: يا عجوز، يا شبية، أنت خرف، أنت هرم، أنت كذا، ما يصلح، فينبغي للإنسان أن يأتي بأحسن الألفاظ.

ومهما بلغ علمك، مالك، جاهك، رتبتك، الأب يراك شيئا أنزل، والأم تراك أنزل، ربما يعاملونك معاملة طفل، فلا تتحرج، هذه نظرهم؛ لأنهم ربوك صغيرا، وأنت عندهم مازلت صغيرا ولو كنت ذا شية، فلا بد أن تقل لهما قولا كريما. والإنسان في حال ضعفه تؤلمه الكلمة اليسيرة، انظر إلى مريض على الفراش، يحتاج إلى تطف، لو قلت له: يا أخي أنت ما تستطيع تقوم، يتألم منها جدا، يقول: بلغ مني أنهم يسخرون مني بسبب هذا، وغير ذلك.

فلا بد أن الإنسان يلازم القول الكريم، والفعل الكريم، والإحسان، ذكروا: أن ابن عمر رأى رجلا يطوف بأمه على ظهره، قال: يا ابن عمر أتراني قد أدت حقها؟ قال: ولا زفرة من زفرتها.

وقال بعضهم حين رأى إكرام الولد لأمه قال له: أتراني أدت حقها؟ كانت تكرمك وترجو حياتك، وأنت تكرمها وتنتظر موتها، وهذا فعلا تجد أن الأبناء وإن أحسن إلى أبيه لكن ينتظر متى يموت، لا سيما المريض الهرم الخرف، بينما الابن في طفولته يقع منه الإسهال، والطرش، والبول، وكثرة البكاء، والأب والأم يحملانه، ويلعبان له، ويتمنيان له الشفاء والعافية، ولو يعطى من صحتهما.

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ يعني: تواضع لهما، حتى أنه ذكره كالجنح، وصفه بالجنح، الذل، التواضع، من الرحمة لهما، حتى وإن كنت كبيرا، حتى إن كنت غنيا، حتى وإن كنت عظيما، حتى إن كنت متبوعا، لكن ارحمهما يا أخي، أدخل السرور عليهما.

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ ارحمهما بالفعل وبالقول، أي: بالدعاء لهما.

﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ يعني معناه: أن الجزاء من جنس العمل، لا تتكبر ولا تقل: أنا قد فعلت وفعلت، وأبي وأمي، هم ربياك صغيرا، أنت إن أكرمتهما وربما أحدهما يستطيع يأكل ويشرب، ويخرج، ويدخل، ويغتسل ويتنظف، وربما يكون

لديه بعض مال، وما أنت فيه من المال هو عبارة عن كرمهما لك بعد رزق الله عَزَّجَلَّ، انظر كيف ﴿كَمَا رَيَّانِي صَغِيرًا﴾.

أما أنت كنت في أضعف حال، خرج من بطن أمه في أضعف حال، لا يلوي على الضرع، ولا يستطيع أن يغطي سواته، ولا أن ينظف نفسه، ولا أن يكف عورته، ومع ذلك جعل الله عَزَّجَلَّ في قلب الأم والأب من الرحمة والشفقة على هذا المسكين ما الله به عليم، يريعيانه، ويتلطفان به.

وربما الأم تنام وهو في حجرها ما تقتلب عليه، تلك الأم التي كانت قبل الولادة تنام إلى الصباح في دعة وراحة بال واطمئنان، وربما زوجها ينظر إليها يقول: هذه إذا حصلت ولد سيضيع بين يديها، وإذا بها تسمر مع ابنتها أو ابنها، وتضع نفسها عليه برفق ولين، لا تؤذيه، وتطعمه، وتصبّر.

أسألكم بالله لو أن أحدنا الآن نام نصف ساعة وقال له واحد: قم، نام ربع ساعة وقال له واحد: قم، نام ساعة وقال له واحد: قم، ما عساه يفعل؟ وهذا طول الليلة لا سيما إذا كان مريضاً وهي مسكينة تقوم وترجع، وتقوم وترجع، وتقوم وترجع، ربما إلى الصباح ما تنام.

أغرى امرؤ يوماً غلاماً جاهلاً	بنقوده حتى ينال به الوطر
قال اثنتي بفؤاد أمك يا فتى	ولك الدراهم والجواهر والدرر
فمضى وأغمد خنجراً في صدرها	والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنه من فرط دهشته هوى	فتدحرج القلب المعفر إذ عثر
ناداه قلب الأم وهو معفر:	ولدي حبيبي هل أصابك من
فكأن هذا الصوت رغم حنوه	غضب السماء على الولد انهمر
فاستل خنجره ليطعن نفسه	طعنا سيبقى عبرة لمن اعتبر
ناداه قلب الأم: كف يدا ولا	تطعن فؤادي مرتين على الأثر

الشاعر إبراهيم المنذر، أبيات طيبة مؤداها إلى أن الأم تتألم على الولد، والولد لا يتألم، عندنا المثل النساء تكرر: قلب الأم على الولد، وقلب الولد من خلد، يعني يكون قاسيا، قلب الأم على الولد وقلب الولد من خلد، أي: أنه قاس على أمه. فنسأل الله عَزَّجَلَّ أن يرزقنا البر في آبائنا وأمهاتنا، وأن يرزقنا بر أبنائنا وبناتنا، وأن يرزقنا صلة الأرحام، وأن يعيننا على ذلك.

٣٣٦ - وعن أبي بكرة نُفيع بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟**» - ثلاثاً - قُلْنَا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»، وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ**» فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

أبو بكرة هو نافع بن الحارث، كني بهذه الكنية؛ لأنه تدلى ببكرة في ليلة الهجرة، وهو أخو زياد ابن أبيه لأمه، ووقع بينه وبين زياد منافرة، وذلك أن زياد نسب إلى أبي سفيان، فكان يقال: زياد بن أبيه، أي ابن أبي معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جميعاً، من الصحابة. **(أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟)** أي: أخبركم بأكبر الكبائر، وذلك أن الكبائر تتفاوت، منها كبيرة ومنها أكبر، وسيأتي «**اجتنبوا السبعة الموبقات**».

والكبيرة: ما توعدها بنار أو حرمان من جنة أو لعن، أو رتب عليه حد من حدود الله عَزَّجَلَّ، وذكر عن ابن عباس أنه قال: هي إلى السبعمئة أقرب، وقد ألف الذَّهَب رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة بعنوان **(الكبائر)**، ذكر فيها سبعة وسبعين كبيرة، وليست بالرسالة المتداولة بين الناس، فإن الرسالة المتداولة بين الناس فيها أحاديث

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

موضوعه ومكذوبة، وإنما الرسالة المختصرة التي اكتفى بها بذكر الحديث والآية ونحو ذلك.

(ثلاثاً) فيه تكرار الحديث؛ حتى يفهم، وتعظيم الأمر وتفخيمه.

(قُلْنَا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ) أي: طلبوا منه، أي: نعم يا رسول الله.

(قَالَ: الإِشْرَاكَ بِاللَّهِ) بدأ به؛ لأنه أكبر كبير عصى به، ولأنه الذنب الذي لا يغفر،

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨]، إنه من

يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار.

والشرك بالله: أن تجعل لله شريكا في شيء من خصائصه، سواء في ربوبيته أو في

ألوهيته، أو في أسمائه وصفاته، وهو أعظم الذنوب، كما سيأتي في حديث ابن مسعود:

«أن تجعل لله ندا وهو خلقك».

(وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ) وهو المراد هنا، من أن عقوق الوالدين كبيرة من كبائر

الذنوب، وعظيمة من عظام الآثام؛ لأن الله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وقرن

حقهم بحقه كما تقدم معنا.

(وَكَانَ مُتَكَبِّرًا فَجَلَسَ؛) لتعظيم الأمر الذي سيقوله.

(فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ) ومن الكبائر: قول الزور، ويدخل فيه فعل الزور، فإن

معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام خطيباً في أهل المدينة فقال: يا أهل المدينة، إن النبي ﷺ نهى

عن الزور، ورفع إليهم قصة المرأة التي تصل به شعرها، وقد قال الله عَزَّجَلَّ:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ فَلَا مَرُؤًا بِاللَّعْمَرِ مَرُؤًا كِرَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٧٢]،

وقال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَاتَّجَنَّبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْتَنِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [سورة الحج:

٣٠].

(وَشَهَادَةُ الزُّورِ) وقول الزور هو كل فعل باطل مخالف للكتاب والسنة، وشهادة

الزور المراد بها: الشهادة بباطل في مسائل الدعاوى وما إليها، فيشهد ليحل الحرام أو

يحرم الحلال، ويشهد لأخذ مال الناس بالباطل، فكما لا يجوز كتم الشهادة ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣] كذلك لا يجوز أن يأتي بها على غير الوجه.

(فَمَا زَالَ يُكْرَرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ) يعني شفقة على رسول الله ﷺ، وشدة من حال هذه الكبيرة.

٣٣٧ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ**». رواه البخاري^(١).
(اليمين الغموس): التي يحلفها كاذباً عامداً، سميت غموساً؛ لأنها تغمس الحالف في الإثم.

الشرح:

قوله: **(عبد الله بن عمرو)** هو أبو محمد.
(الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ) أي: منها، **(وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ)** وقد تقدم.
(وَقَتْلُ النَّفْسِ) التي حرم الله إلا بالحق، ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٣]، ولا تقتلوا أنفسكم إنه كان بكم رحيمًا، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٩٣].
(وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ) هي اليمين التي تكون على أمر قد قضي، فيحلف عليه أنه قد وقع أو لم يقع وهو كاذب فيها، وفي الحديث: «**واليمين الغموس تدع الديار بلاقع**»، أي: خاوية على عروشها، وقال النبي ﷺ: «**من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ من المسلم لقي الله وهو عليه غضبان**»، وفي رواية: «**وهو عنه معرض**».

(١) حديث رقم: (٦٦٧٥).

٣٣٨ - وعنه أن رسول الله ﷺ قَالَ: «مِنَ الْكِبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وفي رواية: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ».

الشرح:

قوله: (مِنْ) أي للتبعض، فليست كل الكبائر، وإنما هي منها.

قوله: (شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ) أي: سبهما وتجديعهما والإساءة إليهما، وكان هذا في الزمن الماضي مستقبحا حتى عند أصحاب العقوق، ولذلك تعجب الصحابة (قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟) يعني: هل يقع هذا؟ ولو كان هذا قد وقع ورأوه ما تعجبوا، كان الأمر عظيما عند العرب.

(قَالَ: نَعَمْ) أي: يشتم الرجل والديه، وكيف ذلك؟

(يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ) أي أنه يكون واسطة في سب أبيه وأمه، فاستحق هذا اللعن وهذا الفعل، وما أكثر ما يتعاطاه العوام من سب الآباء والأمهات لغير ما حتى مقصد، لا سيما سفهاء هذا الزمان من الشباب الصائغ الضائع.

(إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ) فيه دليل على أن اللعن يأتي بمعنى

السب.

وفيه: أن المتسبب في الإثم له مثل إثم فاعله.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).

٣٣٩ - وعن أبي محمد جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» قَالَ سَفِيَانُ فِي رَوَايَتِهِ: يَعْنِي: قَاطِعَ رَحِمٍ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان عظمة قطيعة الرحم.

وجبير بن مطعم هو ولد المطعم بن عدي الذي أجار النبي ﷺ، وقال فيه النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ حَيًّا فَكَلِمَتِي فِي هَؤُلَاءِ التَّنَا لَرَكَّتْهُمْ لَهُ»، أسلم حين جاء لفداء أسارى بدر، وسمع قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥] قال: كاد قلبي أن يطير.

قوله: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» أي: ابتداء، وإلا فمن عقيدة أهل السنة والجماعة أن كل مسلم مآله إلى الجنة، قال النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ»، وفي رواية: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسُ الْمُسْلِمَةِ».

ولكن معناه: إما أنه لا يدخل ابتداء، أو أنه على الوعيد، قد يعاقبها الله عَزَّجَلَّ ولا يدخلها إلا بعد عذابه، وهذا دليل على أنه كبيرة، حيث ذكر أنه من أسباب الطرد من الجنة.

٣٤٠ - وعن أبي عيسى المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَمَنْعَا وَهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ: قَيْلٌ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).

قوله: «مَنْعَا» معناه: مَنْعُ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ، وَ(هَاتِ): طَلَبُ مَا لَيْسَ لَهُ. وَ(وَادَ الْبَنَاتِ) مَعْنَاهُ: دَفْنُهُنَّ فِي الْحَيَاةِ.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧٥)، ومسلم (٥٩٣).

وَقِيلَ وَقَالَ مَعْنَاهُ: الْحَدِيثُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُهُ، فَيَقُولُ: قِيلَ كَذَا، وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا بِمَّا لَا يَعْلَمُ صِحَّتَهُ، وَلَا يَنْظُنُّهَا، وَكَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ.
وَ(إِضَاعَةُ الْمَالِ): تَبْذِيرُهُ وَصَرْفُهُ فِي غَيْرِ الْوُجُوهِ الْمَأْذُونِ فِيهَا مِنْ مَقَاصِدِ الْآخِرَةِ وَالْدُّنْيَا، وَتَرْكُ حِفْظِهِ مَعَ إِمْكَانِ الْحِفْظِ.
وَ(كَثْرَةُ السُّؤَالِ): الْإِلْحَاحُ فِيهَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ.
وَفِي الْبَابِ أَحَادِيثُ سَبَقَتْ فِي الْبَابِ قَبْلَهُ كَحَدِيثِ: «وَأَقْطَعْ مَنْ قَطَعَكَ»، وَحَدِيثِ: «مَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ»^(١).

الشرح:

أبو عيسى المغير من شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ هَذِهِ الْكُنْيَةَ، وَلَكِنَّهُ رَدَّ عَلَيْهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَنَاهُ بِهَا.
وَالْمَغِيرَةُ بَنُ شُعْبَةَ مِنْ دِهَاءِ الْعَرَبِ، ذَكَرَ فِي دِهَاءِ الصَّحَابَةِ: مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَالْمَغِيرُ بَنُ شُعْبَةَ.
قَوْلُهُ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) أَي: مَنَعَكُمْ مِمَّا هُوَ مِنْ أَسْبَابِ فُسَادِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمَحْرَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشَّارِعُ عَلَى وَجْهِ الْإِلْزَامِ.
(عُقُوقُ الْأُمَهَاتِ) ذَكَرَ عُقُوقَ الْأُمَهَاتِ دُونَ الْآبَاءِ؛ لِعَظِيمِ حَقِّهِنَّ، وَلِأَنَّ الْأَبَّ قَدْ يَثَارُ لِنَفْسِهِ وَيَنْتَقِمُ لَهَا، وَأَمَّا الْأُمُّ فَضَعِيفَةٌ، وَيَدْخُلُ فِي الْأُمَهَاتِ الْجَدَاتُ وَمَنْ إِلَيْهِنَّ.
(وَمَنْعًا وَهَاتِ) مَنَعَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَسُؤَالُ مَا لَيْسَ لَهُ، كَمَنْعِ الزَّكَاةِ، وَسَائِلِ النَّاسِ الْخَافِ، عَلَى مَا يَأْتِي.

(وَوَادَ الْبَنَاتِ) وَهُوَ قَتْلُهُنَّ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ [سورة التَّكْوِيرِ: ٨-٩]، وَقَدْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مُتَفَشِيًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

(١) انظر الحديثين (٣١٥) و (٣٢٣).

(وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ) والكراهة هنا: التحريم؛ لأن نقل الحديث من قوم إلى قوم للإفساد بينهم يعتبر من النميمة، وتضييع الأوقات يلحق الإنسان الضرر به بقدر إثمه. **(وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ):** الإلحاح في المسألة.

(وَإِضَاعَةُ الْمَالِ) أي في غير وجه حق، وقد أخبر النبي ﷺ: «**أَنْهَا لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ**» ومنها: «**وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ**»، وقد يوجد هذا الصنف بكثرة، فقد قام بعضهم بإحراق بعض الأموال، وقام بعضهم بتكسير كثير من الأموال.

وقوله: (وَأَقْطَعُ مَنْ قَطَعَكَ) تقدم بيانه: أن صلة الرحم من أسباب صلة الله للعبد، وقطيعة الرحم من أسباب ضياع العبد. **(مَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ)** قطعه وقطع عنه الخير وأسباب الخير.



٤٢ - باب فضل بر أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة وسائر من يندب إكرامه

البر مطلوب إلى الجميع، لكن إلى أصدقاء الأب والأم يتعين أكثر؛ لأنه من حسن العهد، وحسن العهد من الإيمان، ولأنه إحسان إلى الأب والأم، ولو كان بعد موتهما.

٣٤١ - عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَبْرَّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وَدَّ

أَبِيهِ»^(١).

٣٤٢ - وعن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، قَالَ ابْنُ دِينَارٍ: فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، إِنَّهُمْ الْأَعْرَابُ وَهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وَدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَبْرَّ الْبِرِّ صَلََةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وَدَّ أَبِيهِ».

وفي رواية عن ابن دينار، عن ابن عمر: أَنَّهُ كَانَ إِذَا خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ كَانَ لَهُ حِمَارٌ يَتَرَوَّحُ عَلَيْهِ إِذَا مَلَ رُكُوبَ الرَّاحِلَةِ، وَعِمَامَةٌ يَشُدُّ بِهَا رَأْسَهُ، فَبَيْنَا هُوَ يَوْمًا عَلَى ذَلِكَ الْحِمَارِ إِذْ مَرَّ بِهِ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: أَلَسْتَ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ؟ قَالَ: بَلَى، فَأَعْطَاهُ الْحِمَارَ، فَقَالَ: ازْكَبْ هَذَا، وَأَعْطَاهُ الْعِمَامَةَ وَقَالَ: اشْدُدْ بِهَا رَأْسَكَ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ أُعْطَيْتَ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ حِمَارًا كُنْتَ تَتَرَوَّحُ عَلَيْهِ، وَعِمَامَةً كُنْتَ تَشُدُّ بِهَا رَأْسَكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ أَبْرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدَّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُؤَيَّ» وَإِنَّ أَبَاهُ كَانَ صَدِيقًا لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَوَى هَذِهِ الرِّوَايَاتِ كُلُّهَا مُسْلِمٌ^(٢).

(١) أخرجه مسلم، حديث رقم: (٢٥٥٢).

(٢) حديث رقم: (٢٥٥٢).

الشرح:

الشاهد من الحديث: أن البر يتفاوت في الفضل والمنزلة، وأبره وأحسنه أن يصل الرجل أهل ود أبيه، فيكرم أباه بعد موته بإكرام صحبه، ويكرم أمه بعد موتها بإكرام صواحبها، وهذا يدل على منزلة بر الأب عند هذا الفاعل، إذ لو كان غير مبال بحق الأب لقال: قد ذهب أبي، ومالي وله؟ ومع ذلك لم يزل الود بينهما.

قوله: (وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ) أي: أركبه على حمار، وفيه مشروعية لبس العمائم، وقد اختلف فيها، فذهب شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللهُ إِلَى أنها لا تصل إلى حد السنية، ولكن من لبسها متأسيا بالنبي ﷺ عسى أن يؤجر إن شاء الله.

وقد جاء عن غير واحد: العمائم تيجان العرب.

وفيه أن الرفقة قد تنكر على من ترافقه بعض العمل، كما أنكروا على عبد الله بن عمر هذا الصنيع، ولكن بن عمر أخبرهم بالسبب.

وفيه دليل القاعدة: إذا عُرف السبب بطل العجب، فإنهم أنكروا على ابن عمر فلما أخبرهم الخبر علموا أن هذا الأمر مشروع.

وفيه أن من أنعم الله عليه بفضل في ملبسه أو مركبه أو مطعمه أن يتصدق في أوجه الخير.

٣٤٣ - وعن أبي أسيد - بضم الهمزة وفتح السين - مالك بن ربيعة الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٌ أَبْرَهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَلِإِكْرَامِ صَدِيقِهِمَا». رواه أبو داود^(١).

الشرح:

قوله: (هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٌ أَبْرَهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟) فيه أن الوالد يُبر بعد موته، وقد تقدم حديث عبد الله بن عمر، ويشهد لهذا اللفظ، ويدل عليها أيضا حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ».

(الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا) إن أراد بالصلاة الدعاء فنعم، الصلاة عليهما: أي الدعاء لهما، وكذلك الصلاة عليهما إذا وُئِدَا في قبورهما في يوم موتهما يجوز أن تصلي على القبر إن لم تشهد الجماعة وقد دُفِنَا، ويجوز أن تصلي بل من فروض الكفاية، وسيأتي بيانه في موطنه.

(وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا) أي مع نفسك، استغفرت لنفسك قل: ﴿اعْفُرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [سورة إبراهيم: ٤١]، ربي اغفر لي ولوالدي، أو قل: اللهم اغفر لأبي وأمي، أو نحو ذلك، وهذا ليس فيه خلاف، الدعاء لهما ليس فيه خلاف، على ما يأتي معنا في (مقدمة صحيح مسلم).

(وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا) أي: إنفاذ الوصية، ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ [سورة البقرة: ١٨١]، فيجب على الإنسان أن يؤدي وصية

(١) حديث رقم: (٥١٤٢)، وهو حديث ضعيف، في سننه علي بن عبيد مولى أبي أسيد، مجهول، وقد ضعف الحديث الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (ضعيف السنن).

أبيه وأمه إن لم تكن وصية جائرة، أما إذا كانت وصية الأب والأم لقبر أو ما يسمى بالدرس ونحو ذلك فلا.

(وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا) وهذا هو الشاهد أن الإنسان يصل ود أبيه ورحم أبيه وأمه.

(وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا) وهو كرامة لهما، ورحم الله الولد محمد رَحِمَهُ اللَّهُ كان إذا جاءه الضيف ربما يكرمه وأنا في السعودية، ويتصل علي يقول: وصل فلان بن فلان من أصحابك وأكرمناه، فأسأل الله أن يكرمه.

٣٤٤ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا غَرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَمَا رَأَيْتُهَا قَطُّ، وَلَكِنْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يَقْطَعُهَا أَغْصَاءَ، ثُمَّ يَبْعُثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا خَدِيجَةُ! فَيَقُولُ: **«إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»**. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).
وفي رواية: **«وَإِنْ كَانَ لِيَذْبَحُ الشَّاةَ، فَيَهْدِي فِي خَلَائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسْعُهُنَّ»**.
وفي رواية: **«كَانَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، يَقُولُ: «أَرْسَلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ»**.
وفي رواية: قَالَتْ: اسْتَأْذَنْتُ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاخَ لِذَلِكَ، فَقَالَ: **«اللَّهُمَّ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ»**.
قَوْلُهَا: **(فَارْتَاخَ)** هُوَ بِالْحَاءِ، وَفِي **(الْجَمْعِ بَيْنَ الصَّاحِبِينَ)** لِلْحُمَيْدِيِّ: **(فَارْتَاخَ)** بِالْعَيْنِ وَمَعْنَاهُ: اهْتَمَّ بِهِ.

الشرح:

ذكر الحديث في باب صلة الأقارب ومن إليهم، وفيه الغير بين النساء، حتى أن عائشة غارت من امرأة قد ماتت.

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٨)، ومسلم (٢٤٣٥).

وفيه فضيلة خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهي أفضل زوجات النبي ﷺ لأمر:

الأمر الأول: أنها أول من أسلمت على الإطلاق، على قول بعض أهل العلم وهو الصحيح، ﴿وَالسَّيْقُونِ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [سورة التوبة: ١٠٠]، فهي داخلة في السابقين ابتداء، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا﴾ [سورة الحديد: ١٠]، وهي آزرت وناصرت.

الأمر الثاني: أن الله أقرأها السلام حين جاء جبريل وقال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْرَأُ خَدِيجَةَ السَّلَامَ»، وعائشة إنما أقرأها جبريل السلام، حيث قال النبي ﷺ: «إِنَّ جَبْرِيلَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ»، فلا شك ولا ريب أن من أقرأها الله السلام أنها أفضل، سلم الله عليها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

زد على ذلك أنها مبشرة بالجنة صراحة: «بَشْرُ خَدِيجَةَ بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ».

وبعضهم يفصل يقول: من حيث العلم عائشة أعلم وأفقه، ومن حيث السابقة خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهذا النوع يقال به لو أن خديجة عاشت حتى احتاج لها الناس وما وُجد عندها العلم.

لكن مما يدل على رجاحة عقلها وقوة فقهها وفهمها: أنها حين رجع إليها النبي ﷺ يرتجف وهو الشجاع الكريم قال لها: «وَاللَّهِ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، قالت: والله لا يخزيك الله، إنك لتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتصدق الحديث، وتعين على نوائب الحق.

هذا يدل على فهم عجيب عند هذه المرأة، وفقه دقيق، ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل، ابن عم لها، وكان نصرانيا يقرأ من التوراة ويقرأ من الإنجيل، فكان ما كان. وفيه أن الإنسان قد يغار ممن لم يره، وربما وقع التحاسد بين من لم يرى غيره، لكن هذه غيرة نساء، ويعفى عنها ما لا يعفى في غيرها.

(وَلَكِنْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا)؛ لحبه لها، ولمواقفها الشريفة الكثيرة، لا سيما وناصرته في أول البعثة، وكانت معه في الشعب، وواسته بمالها، وكم لها من الفضائل والشمائل.

(وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يَقَطُّعُهَا أَغْضَاءَ، ثُمَّ يَبْعُثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ) من باب حسن العهد، كما في حديث حسانة المازنية أنه قال: «حسن العهد من الإيمان».

(فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ) أي عائشة: (كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا خَدِيجَةَ) وهذا من باب الغيرة، وإلا فالنبي ﷺ لا ينكر عليه فعله، فهو بأبي وأمي مؤيد من الله بالوحي. (فَيَقُولُ: إِنَّهَا كَأَنْتَ وَكَأَنْتَ) يعني: من صفاتها كذا، وكانت كذا، (وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ)، فذكر أوجه تفضيلها، وهذا قد يثير غيرة النساء، لكن الإنسان قد يضطر إليه في بعض الحالات كما يقال: الحرجة.

(وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ، فَيُهْدِي فِي خَلَائِلِهَا) أي: في صاحباتها. (مَا يَسْعُهُنَّ) أي: ما يكفينهن.

(كَانَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، يَقُولُ: أَرْسَلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ)؛ إكراما لهن، فلم ينس صواحبها؛ لكثرة حبه لها.

(هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، صحابية.

(فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ)؛ لأن الأصوات تتشابه، لا سيما أصوات الأقارب.

(فَارْتَأَى لِذَلِكَ)؛ لأنها جاءت امرأة كان بينهم وبينهم مصاهرة، ثم ذكرته بزوجه.

(فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ) أي: لتكن هالة بنت خويلد، فكانت.

وقوله: (فارتاع) أي: هتم بذلك، اهتم بها وأكرمها.

٣٤٥ - وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سَفَرٍ، فَكَانَ يَخْدُمُنِي، فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَفْعَلْ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْأَنْصَارَ تَصْنَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا أَكْبَتْ عَلَى نَفْسِي أَنْ لَا أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا خَدَمْتُهُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان أهمية الصلة والإحسان إلى الأقارب والأصحاب، فجرير بن عبد الله البجلي كان من خيرة الصحابة، وكان معدوداً من عائلات الملوك، فلما قدم على النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ عَلَى وَجْهِ مَسْحَةِ مُلْكٍ»، وفي رواية: «مُلْكٍ»، وكان لا يراه النبي ﷺ إِلَّا تَبَسَّمَ، وإسلامه كان بعد نزول سورة المائدة، أي في أواخر الحياة النبوية.

(فِي سَفَرٍ) والأسفار كثيرة، منها ما يكون للتجارة، ومنها ما يكون للحج والعمرة، ومنها ما يكون لغير ذلك، ومنها ما يكون للجهاد.

(فَكَانَ يَخْدُمُنِي) أي جرير يخدم أنس بن مالك.

(فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَفْعَلْ) يعني: كل يخدم نفسه، وربما كانا متقاربين في السن، أو أن جرير أكبر من أنس.

(فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْأَنْصَارَ تَصْنَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا) أي: من الإكرام ونحوه. (أَكْبَتْ) أي: حلفت.

(أَنْ لَا أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا خَدَمْتُهُ)؛ إكراماً لرسول الله ﷺ، وإكراماً لإكرامهم رسول الله ﷺ.



(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٨)، ومسلم (٢٥١٣).

٤٣ - باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ وبيان فضلهم

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٣].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: ٣٢].

الشرح:

والمقصود بآل بيت النبي ﷺ من كان على خير وصلاح، أما من انحرفت عقيدته حتى صار رافضيا أو باطنيا أو صوفيا قبوريا أو خارجيا فمثل هؤلاء لا كرامة لهم، لا سيما من وصلت به بدعته إلى الكفر والزندقة والعياذ بالله، فإن كثيرا منهم اغترا بنسبه وترك فعل السبب الذي هو من أسباب الرفعة في الدارين.

والنبي ﷺ يقول: «**إن آل بيتي هؤلاء يزعمون أنهم أولى الناس بي وليس كذلك**»، والنبي ﷺ يقول: «**أولى الناس بي الصالحون، من كانوا، وحيث كانوا**».

ومع ذلك من علم من آل البيت أنه على صلاح أو من عوام المسلمين لم يكن رافضيا أو مبتدعا شيعيا فإنه يُكرم ويحسن إليه؛ إكراما لرسول الله ﷺ، وقد كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ارقبوا محمدا في آل بيته، أي: راعوه واحترموا وأكرموا.

فأداء حقهم إكراما لرسول الله ﷺ؛ لأنه وصى بالإحسان إليهم فكان من قوله: «**وأذكركم الله في أهل بيتي**»، وقد لقوا بعده إثرة، لا سيما في زمن الخلافة الأموية، حين وقع ما وقع.

٣٤٦ - وعن يزيد بن حَيَّانَ، قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ، وَعَمْرُو بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْنُ: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَسَمِعْتَ حَدِيثَهُ، وَغَزَوْتَ مَعَهُ، وَصَلَّيْتَ خَلْفَهُ، لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، حَدَّثَنَا يَا زَيْدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَا ابْنَ أَحِي، وَاللَّهِ لَقَدْ كَبِرْتَ سِنِي، وَقَدَّمَ عَهْدِي، وَنَسِيتُ بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعْيِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا حَدَّثْتُكُمْ، فَاقْبَلُوا، وَمَا لَا فَلَا تُكَلِّفُونِيهِ.

ثُمَّ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِإِذْنِي، بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعِظَ وَذَكَرَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي».

فَقَالَ لَهُ حُصَيْنُ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ؟ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ حُرِّمِ الصَّدَقَةِ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِّمِ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(١).
وَفِي رِوَايَةٍ: «أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ».

الشرح:

قوله: (انْطَلَقْتُ أَنَا وَحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ، وَعَمْرُو بْنُ مُسْلِمٍ) يدل على اهتمام التابعين بالعلم.

(١) حديث رقم: (٢٤٠٨).

قوله: (إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ؓ) الصحابي الذي نقل إلى النبي ﷺ سب عبد الله بن أبي بن سلول، وكان ما كان من إنكار عبد الله بن أبي بن سلول، حتى أنزل الله براءة زيد بقوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [سورة المنافقون: ١].

(فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدٌ خَيْرًا كَثِيرًا،) فيه تغبيط من لقي الخير من العلم ونحوه.

وفيه فضيلة رؤية النبي ﷺ من قوله: **(رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَسَمِعْتَ حَدِيثَهُ)**، ومن رأى النبي ﷺ وهو مؤمن به ومات على ذلك ولو تخللت رد على الصحيح فقد جاوز القنطرة، وشأنه عظيم، ومنزلته رفيعة.

(حَدَّثَنَا يَا زَيْدٌ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) فيه فضيلة سماع حديث النبي ﷺ، وأهمية ذلك.

(قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ كَبُرَتْ سِنِّي؛) لأن الكبر في السن قد يخرف، وقد ينسى، وقد يذكر بعض الشيء ويفوته شيء، وهو هنا لم يخرف ولكن قد فاته شيء من محفوظاته.

وفيه إبداء العذر من قوله: **(وَقَدَّمَ عَهْدِي، وَنَسِيتُ بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعْي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)** أي بسبب كبر السن، وبعد الزمان.

قوله: (فَمَا حَدَّثْتُكُمْ، فَأَقْبَلُوا، وَمَا لَا فَلَا تُكَلِّفُونِيهِ) فيه إبداء العذر، وفيه أن ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

(ثُمَّ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ) أي بعد رجوعه من حجة الوداع، والرافضة تزعم أن النبي ﷺ أوصى في هذا الماء إلى علي رضي الله عنه بالخلافة، وليس كذلك، فلو كان قد أوصى بها لطبقها الصحابة، ولطالب بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولذلك عندهم احتفال، أعظم عندهم من عيد الأضحى، وهو عيد الغدير، نسبة إلى غدير خم، فيجتمعون فيه ويتدعون، ويقع منهم ما لم يأذن الله به من الكذب على الله، والكذب على رسوله ﷺ، وسب أبي بكر وعمر وعثمان، واتهام الصحابة **رَضِوانَ اللَّهِ عَلَيْهِمُ** بأخذ حق علي بن أبي طالب رَضِوانَ اللَّهِ عَنْهُ، وكل هذا نتائجه عكسية، أدت إلى ازدياد الصحابة، وإلى تكفيرهم من غلاة الرافضة، ونحو ذلك.

فالصحيح أن غدير خم ليس فيه وصية لعلي بن أبي طالب رَضِوانَ اللَّهِ عَنْهُ، وإنما الوصية بالكتاب والسنة على ما سيأتي.

(فَحَمِدَ اللَّهُ، وَأَتَى عَلَيْهِ) فيه البدء بالخطب بالحمد والثناء.

قوله: (وَوَعظَ وَذَكَرَ) فيه الترغيب والترهيب.

(ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ) فيه مجيء الخطيب بقوله: أما بعد، بعد الحمد والثناء.

قوله: (أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ) أي: يا أيها الناس.

(فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ) أي: أموت، **﴿وَمَا جَعَلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ**

مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٤]، **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ**

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى

عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٤].

وفيه أن ملك الموت يعتبر مرسل من الله لقبض الأرواح.

(وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ) أي: أمرين عظيمين جليلين، من تمسك بهما سلم من

البدعة والضلالة، ولا يتم التمسك بأحدهما إلا بالتمسك بهما جميعاً.

(أَوَلَهُمَا كِتَابُ اللَّهِ) ووحيه، الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ،

ليكون من المرسلين، بلسان عربي مبين، يقال له: القرآن، ويقال له: كتاب الله، وغير

ذلك من التسميات.

(فِيهِ الْهُدَى) إلى كل خير، **(وَالنُّورُ)** من كل ظلمة.

(فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ) هذه هي الوصية الأولى، (فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ)، والوصية الثانية جاءت عند الحاكم وغيره: «وستي»، «عليكم بكتاب الله وستي».

وأما قوله: (فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ) أي أنه فيه الهدى والنور، من أخذ به نجا، ومن تركه ضل وغوى.

(ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي) ليس معناه: تمسكوا بكتاب الله وأهل بيتي؛ لأنه لا يكون التمسك برجال، كيف تتمسك بالرجال؟ ففهم غير صحيح لهذا الحديث عند كثير من الناس، لا سيما الرافضة ومن إليهم من الشيعة، قالوا: وصى رسول الله ﷺ بالتمسك بالكتاب وبآل البيت.

أبدا هذا لا يكون، ولم يكن؛ لأن التمسك إنما يكون بالأمر المعنوي، وأما الحسي فيحتاج أن تمسك فيه بيدك، وهذا لم يقل به قائل، ولكن معنى الحديث: تمسكوا بكتاب الله، أي: اعملوا به، وعظموه، واعتقدوا ما فيه، وادعوا إليه؛ لأنه حبل الله، من أخذ به نجا، ومن تركه ضل وغوى.

ثم الأمر الثاني: وستي؛ لأن زيد بن أرقم قد اعتذر لهم، قال لهم: قد نسيت بعض الذي أعني، وما نسيت فلا تكلفوني، فذكرهم بأحد الثقلين، وترك الثاني، وهو مذكور في روايات أخرى وفي كتب أخرى، كالمستدرک وغيره، مع أن الحاكم عنده تشيع، ولو كان الأمر على ما يعتقدون؛ لجاؤا بالأمر على ذلك.

لكن ترك النبي ﷺ فيهم الكتاب والسنة، يعملون بهما، ويهتدون بهديهما، ويصلون بهما إلى مرضاة ربهما، (ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي)، أي: أدوا لهم حقوقهم، وأكرموا ضعيفهم، فلاهل البيت عند أهل الإسلام حقان: حق الإسلام وحق القرابة.

لكن لا يعني ذلك أن تعبد قبورهم، أو يتبرك بذواتهم، أو يُعظمون فوق ما جعل الله لهم، ولا تشفع لهم النسبة إلى النبي ﷺ وهم يسبون أصحابه وأحبابه وأصهاره وجلساءه، وغير ذلك، النبي ﷺ أنكر على خالد بن الوليد حين وقع ما وقع بينه وبين عبد الرحمن بن عوف، فكيف يرضى في ثلب أبي بكر وعمر؟ وإنما معنى الحديث: وأهل بيتي أعطوهم حقوقهم، وأكرمواهم، ولا تجفواهم، وهذا من دلائل نبوته؛ لأن الجفاء قد وقع على بعضهم، **(أذكركم الله في أهل بيتي)** فهذا هو المعنى.

ولذلك طبقه أبو بكر فكان يقول: ارقبوا محمدا ﷺ في أهل بيته، وجاء عنه: لأن أصل قرابة النبي ﷺ أحب إلي من أن أصل قرابتي. **(فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ؟)** من تريد؟ هل أهل بيته أعمامه أم أبناءهم أم منهم؟

(أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟)؛ لأن المرأة تكون مع زوجها في كثير من شأنه، إلا أنهم لسن من آل البيت اللاتي يجتمعن مع رسول الله ﷺ في النسب، وهن مع رسول الله ﷺ في الآخرة، زوجاته، وأهله، لكن حين دعا النصارى إلى المباهلة دعا علي والحسن والحسين وفاطمة، وهم خمسة، جاء الجماعة وسموهم أصحاب الكساء، ويتوسلون بهم، حتى قال بعضهم:

لي خمسة هم الحجا من نار لظى والحاطمة
المصطفى والمرضى وابناهما والفاطمة

(قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِّمَ الصَّدَقَةُ بَعْدَهُ) فالصدقة لآل البيت لا تجوز، وإعانة لهم على الإثم والعدوان، ولا يجوز لهم أن يأخذوها، فإنها أوساخ الناس، وقد جعل الله لهم الخمس، فإن لم يكن ثمة خمس فيُهدى لهم،

ويجب على أولياء الأمور إكرامهم، وقد تقدم أن المراد بصالحهم، أما الرفض فلا؛ لأن الرفضي إن لم يكن مهانا أهان غيره، وتسلب عليه وآذاه.
ولشيخ الإسلام وابن عثيمين وغير واحد فتوى: أنه إذا لم يكن ثمة خمس ووقعت لهم حاجة فلهم أن يعطوا من الزكاة، لكن هذا يكون في حالة اضطرار وإلجاء.

(قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ) أي أبناء علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(وَأَلْ عَقِيل) عقال بن أبي طالب.

(وَأَلْ جَعْفَرُ) جعفر بن أبي طالب.

(وَأَلْ عَبَّاسُ) العباس بن عبد المطلب، أما آل حمزة ما معه آل؛ لأنه مات ولم تكن له إلا ابنة.

(كِتَابُ اللَّهِ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى)؛ لأن الله قد أخبر: ﴿ذَلِكَ

الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ [سورة البقرة: ٢].

(وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ) كان على بدعة.

ومن أخذ كتاب الله الأخذ بسنة النبي ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [سورة الحشر: ٧]، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: ٣-٤]، وقد تقدم شيء من ذلك في باب السنة.

٣٤٧ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْفُوفًا عَلَيْهِ - أَنَّهُ قَالَ: ازْكَبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ. رواه البخاري ^(١).
معنى (ارقبوه): راعوه واحترموه وأكرموه، والله أعلم.

الشرح:

(ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) هو أبو عبد الرحمن.
(أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وهو عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة، سمي بالصديق؛ لكثرة تصديقه لرسول الله ﷺ، وسمي بالعتيق؛ لأنه معتوق من النار، وهو من أمن الناس على رسول الله ﷺ، كما قال رسول الله ﷺ: «إِن أَمِنَ النَّاسُ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصَحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ».
(موقوفاً عليه) وهو ممثل لأمر النبي ﷺ: «أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي».
(أَنَّهُ قَالَ: ازْكَبُوا مُحَمَّدًا ﷺ) أي: راعوه واحترموه وأكرموه؛ لأن إكرام الشخص إكراماً لذويه، وإهانة الشخص إهانة لذويه.
(فِي أَهْلِ بَيْتِهِ) الأبرار، الطائعين للواحد القهار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



(١) حديث رقم: (٣٧١٣).

٤٤ - باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم على غيرهم ورفع مجالسهم
واظهار مرتبتهم

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: ٩].

الشرح:

(باب توقير العلماء...) وهذا الذي عليه أهل السنة، بغير غلو كما يفعل الفرق الضالة من التمسح والتبرك بأثارهم، ورفع هؤلاء فوق قدرهم، إذ يدعون في أئمتهم علم الغيب، ويدعون فيهم إحياء الموتى، بينما أهل السنة يعرفون قدر علمائهم، بغير غلو ولا جفاء.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾) يعني: إذا كان هذا هو الحال لا يستوي العالم مع الجاهل ولا الجاهل مع العالم ينبغي أن يكون للعالم مزيد احترام، وتوقير، وتقدير وسماع؛ لأن إهانة العالم أو تحقير العالم ليس كتحقير غيره من الجاهل ونحوهم، ذاك وإن لحقه ضرر في نفسه لم يلحق الإسلام ضرر، بينما العالم إذا حُقر وأهين وازدري وتكلم فيه قد يؤدي ذلك إلى احتقار ما جاء به، وما دعا إليه، وما علم.

٣٤٨ - وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَوْمُ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِنًا، وَلَا يُؤْمِنَنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ». رواه مسلم^(١).

وفي رواية له: «فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا» بَدَل «سِنًا»: أي إسلامًا.
وفي رواية: «يَوْمُ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً، فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً فَيَوْمُهُمْ أَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَلْيَوْمُهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًا». والمراد بِسُلْطَانِهِ: محل ولايته، أو الموضع الَّذِي يختص به. (وتكرّمته) بفتح التاء وكسر الراء: وهي ما ينفرد به من فراشٍ وسريرٍ ونحوهما.

الشرح:

(أبي مسعود عقبة بن عمرو البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) سمي بدريا؛ لأنه نزل بدر، وإلا فهو لم يشهدا، وذكر البخاري أنه شهدا، وخالفه جماهير العلماء. هذا الحديث وإن كان شأنه شأن الإمامة في الصلاة إلا أن المصنف ذكره في توقير العلماء وأهل الفضل، وذلك أن النبي ﷺ جعل الإمامة فيهم. (يَوْمُ الْقَوْمِ) أي: في صلاة الجماعة. (أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ) وأحفظهم له، حتى قال بعضهم: حتى لو وُجد غيره ممن هو أعلم منه يقدم الأقرأ.

ولكن كان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أيضًا لا يركزون على مسألة الصوت بمثل التركيز على مسألة الصلاح والتمسك بالسنة والعلم بها، والأخذ بالكتاب والتعبد به.

(١) حديث رقم: (٦٧٣).

(فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ) الذي هو أفضل منهما، إذ أن العالم بالسنة سيطبق السنن، ويأتي بها على أحسن الوجوه، وأيضا القارئ للقرآن إنما يقدم إذا كان عنده صلاة كصلاة النبي ﷺ، أما إذا كان جاهلا بصلاة النبي ﷺ وربما لا يحسن فغيره أولى منه ممن عرف السنة، وإن كان مبتدعا حتى وإن كان حافظا لكتاب الله فيقدم غيره، ولا يقدم المبتدعة، إلا إذا ألزمتهم، وإلا الأصل أن لا يقدموا؛ ولأن في تقديمهم تشريف، وهذا لا ينبغي.

(فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةَ) يعني تساوا من حيث القراءة والعلم فقدم السابق في الهجرة والإسلام.

(فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِنًا) وعلى الرواية الأخرى: (سِلْمًا)، أي: أقدمهم في الإسلام، وأكبرهم في السن.

(وَلَا يُؤْمِنُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ) أي في بيته، في مسجد، في ما يتعلق به.

(وَلَا يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ)؛ لأنه أحق بمسجده، وأحق بمكانه.

٣٤٩ - وعنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: «اسْتَوْوَا وَلَا تَخْتَلَفُوا، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلْنِي مِنْكُمْ أَوْلُوا الْأَخْلَامَ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». رواه مسلم^(١).

وقوله ﷺ: «لِيَلْنِي» هُوَ بتخفيف النون وليس قبلها ياءٌ، وَرُويَ بتشديد النون مَعَ ياءٍ قبلها.

«وَالنُّهَى»: الْعُقُولُ. «وَأَوْلُوا الْأَخْلَامَ»: هُمُ الْبَالِغُونَ، وَقِيلَ: أَهْلُ الْحِلْمِ وَالْفَضْلِ.

الشرح:

وهذا هو الأظهر.

(١) حديث رقم: (٤٣٢).

قوله: (وعنه) أي: عقبة بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ البدرى.

قوله: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا) أي في حائل تسوية الصفوف؛ ليتأكد

هل المنكب إلى المنكب أم أن بينهما تفاوت في الصلاة؟

(وَيَقُولُ: اسْتَوُوا) يأمر بالاستواء والتراص.

(وَلَا تَخْتَلِفُوا) أي باختلاف الأبدان، فربما أدى ذلك إلى اختلاف القلوب، كما

قال: (فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ).

بمثل هذا الحديث استدلل أهل العلم على أن تسوية الصفوف واجبة، وما انتشر هذه الأيام من المباعدة بين الصفوف فيما يسمى بالاحترازاات الطبية لكورونا ينبغي أن يصلي الناس على ما هم عليه، والله حافظ لعباده، وما سيقع إلا الخير، ومن علم من نفسه المرض بقي في بيته.

لكن من حيث هل الصلاة صحيحة أو ليست بصحيحة؟ الذي قررناه وقرره كثير من طلاب العلم والمشايخ: أن الصلاة صحيحة، إذ أنها ليست من الفرد خلف الصف، وإنما هي صفوف مقطعة، وقد تكلم العلماء قديما وحديثا عن حكم صلاة الصفوف المقطعة، وأنها صحيحة، ويأثمون إن تعمدوا ذلك، وأما إذا أُلزموا بالتباعد ليس عليهم شيء، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦].

ولأن يحضر الرجل الصلاة في جماعة أهون له من أن يبقى بعيدا عن الجماعة، و﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]، «صلوا، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم»، وأيضا صلاة الخوف قد شرعها الله عَزَّوَجَلَّ مع ما يقع فيها من التغير في حركاتها وهيئاتها، وكثير من شأنها؛ محافظة على الجماعة.

(لِيلَنِي مِنْكُمْ أَوْلُوا الْأَحْلَامَ وَالنُّهَى)؛ حتى إذا غلط الإمام صوبوه وفتحوا عليه، وإذا أراد أن يخرج لحاجه قام أحدهم مكانه يصلي بالناس، وأبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

دخل المسجد فوجد شابا خلف الإمام فأخذه ونحاه، فما درى الشاب ما يقول في صلاته، فلما انصرف من صلاته قال: أي بني، كنا نؤمر بذلك، وأخبره أنه أبي.

(ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ) في الفضل والحفظ والمنزلة. ومع ذلك لو سبق أحد إلى المكان فيراعى، بحيث لا ينفر، يراعى ويحسن إليه، وإن احتاج إلى أن يقدم غيره يقول له: أنت هنا وهذا هنا إن شاء الله، أما الإغلاظ عليه قد يؤدي إلى نفرتة من المسجد، لا سيما الأطفال، والله المستعان.

٣٥٠ - وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِيَلْنِي مِنْكُمْ أَوْلُوا الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيِ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ» ثَلَاثًا «وَيَاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

هذه اللفظة الأخيرة قد أعلت في مسلم، وفيها كلام، ومعنى ذلك: إياكم ورفع الأصوات في المساجد حتى تكون كهيشات الأسواق؛ لأن الأسواق يكثر فيها اللغط ونحو ذلك.

٣٥١ - وعن أبي يحيى، وقيل: أبي محمد سهل بن أبي حثمة - بفتح الحاء المهملة وإسكان الثاء المثناة - الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ وَحِيصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ إِلَى خَيْبَرَ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صُلْحٌ، فَتَفَرَّقَا، فَأَتَى حِيصَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ سَهْلٍ وَهُوَ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ قَتِيلًا، فَدَفَنَهُ، ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ سَهْلٍ وَحِيصَةُ وَحَوِيصَةُ ابْنًا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ: «كَبَّرَ كَبَّرَ» وَهُوَ

(١) حديث رقم: (٤٣٢).

أَخَذْتُ الْقَوْمَ، فَسَكَتَ، فَتَكَلَّمَا، فَقَالَ: «أَتَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ؟» وذكر تمام الحديث. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وقوله ﷺ: «كَبْرُ كَبْرٍ» معناه: يتكلم الأكبر.

الشرح:

وهذا هو الشاهد الذي من أجله ذُكر الحديث في هذا الموطن، فكلهم أخوة، وكلهم صحابة، إلا أن النبي ﷺ رأى أن يتكلم الأكبر؛ لأن الأكبر أضبط وأعقل، وغير ذلك من الأمور، ثم له الاحترام والتقدير.

وهكذا الشأن في البيوت، إذا كان عندك ولد شاب وهناك من هو أصغر منه يقدم عليهم في كثير من الأمور، إلا أنه لا يفضل عليهم، وكذلك لا يُرضى ظلمه لهم؛ لأنه لا يصلح أن تولي شابا على شاب، ولا تولي طفلا على طفل، ما تشاهد إلا الظلم والقهر، يكون هو يلعب ولا يأذن لذلك أن يلعب، هذا من المساويء.

(قَالَ: انْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ إِلَى خَيْبَرَ) يعني قد أخذت خيبر، وأصبحت للمسلمين، وأصبح اليهود يعملون مع المسلمين، فكانوا يذهبون وينظرون إلى مزارعهم، ونحو ذلك.

(وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صُلْحٌ) أي في الزمن الذي صالحهم النبي ﷺ على أن يقرهم في بيوتهم مع العمل.

(فَتَفَرَّقَا) أي: كل منهما ذهب لحاله، وخيبر نحن قد آتيناهما بفضل الله ونظرنا إلى شيء منها، البيوت على مثل التل، والحصون أيضا على أمثال التلال، وأما المزارع فهي في الوادي، إذا نزلت ومشى هذا من هاهنا ومشى هذا من هاهنا قد لا يقع بينهما

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٣)، ومسلم (١٦٦٩).

إلا في مكان آخر، وذلك أن المزرعة محاطة بسور، ونحن رأيناها وقد يبس كثير من نخلها، أما ذلك الزمان ربما كانت ظليلة.

(فَأَتَى مُحَيِّصَةً إِلَى عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ سَهْلٍ وَهُوَ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ قَتِيلًا) قد لقيه مقتولا قتله

يهود.

(فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ وَحَوِيصَةُ ابْنًا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ)؛

للسكوى، فهو رسول الله، وهو أميرهم وإمامهم.

(فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ) أي أخو المقتول.

(فَقَالَ: كَبَّرَ كَبَّرَ) والسبب في نهيه: أنه أحدث القوم وأصغر القوم.

(فَسَكَتَ، فَتَكَلَّمَا) أي: تكلم الأكبر ومن كان حاضرا.

(فَقَالَ: أَتُحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ؟) قالوا: لا يا رسول الله، كيف نحلف على

شيء لم نره؟ قال: **«فتبرئكم يهود بخمسين يمين»**، قالوا: قوم كفار كيف نقبل أيماهم؟ فوداه النبي ﷺ بمائة من الإبل؛ حتى لا يهدر دمه.

وهذا الحديث أصل في القسامة، وهو أن اليمين في جهة المدعين، والأصل أن اليمين في بقية الدعاوى في جانب المدعى عليه، **«لو يعطى الناس بدعواهم لادعى**

ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه»، هذا هو الأصل، إلا في

القسامة وفي اللعان، ففي اللعان قُدم الزوج، وفي القسامة قُدم أهل القتل.

والقسامة لا تقوم هكذا مطلقة، أنت لا تظن أن القسامة بمجرد ما يلقي واحد

مقتول قال: احلف لي خمسين يمينا وأحلف لك خمسين يمينا، لا، لا بد أن يكون

هناك لوث وقرائن للتهمة، كما ذكر ابن القيم: أن يوجد مثلا أحدهم في قريب المكان

ويده ملطخة بالدم، ما يأتي قول: اتوا بيينة أي قتلته، كيف أعطي بينة ويدك ملطخة

بالدم؟ هنا يقسم أهل القتل خمسين يمينا أن فلانا قتله بعينه يدفع إليهم.

والصحيح أن القتل بها هو المتعين؛ لقول النبي ﷺ: «**فیدفع إليكم برمته**»، أي: لقتله واستيفاء حقهم، وفي رواية: «**تستحقون قاتلكم**».

فإن نكل أولياء الدم عن اليمين تعاد اليمين إلي المدعى عليهم، فإن أقسموا خمسين يمينا لم يلزمهم شيء، وإن لم يقسموا خمسين يمينا لزمهم الدعوى، فإن كانت الدعوى على أنه قتل عمدا دُفع القاتل بعينه إليهم فيقتل به، وإن كانت الدعوى على أنه قتل خطأ فالخطأ ليس فيه قصاص، وإنما فيه الدية على العاقلة.

هناك رواية على ما أذكر لكن لا أستحضر الآن الكلام فيها، على أن النبي ﷺ قدم اليهود في اليمين، لكن هذه الرواية كما ذكر الحافظ في (الفتح) نقلا عن غيره: أنها فيها ما فيها، والمحفوظ أن اليمين على المدعي في القسامة.

٣٥٢ - وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتَلَ أَحَدُ يَعْني فِي الْقَبْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: «**أَيُّهَا أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟**» فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ. رواه البخاري^(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان فضيلة الأعلم والأحفظ للقرآن، حتى بعد موته، وكلاهما ميت، ومع ذلك يقدم هذا في القبر.

(جابر) هو ابن عبد الله.

(أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتَلَ أَحَدُ) يعني أمر، وإلا هو لم يباشر الدفن، كانت به جراحة ﷺ، لكن أمر ووجه.

(١) حديث رقم: (١٣٤٣).

وَجُمِعُوا فِي الْقُبُورِ وَإِلَّا الْأَصْلُ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ قَبْرٌ لَكِنْ جَمَعُوا؛ لِكَثْرَةِ الْمُقْتُولِينَ، فَقَدْ قُتِلَ سَبْعُونَ، وَالنَّاسُ فِيهِمْ جِرَاحَةٌ، يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْفَرُوا سَبْعِينَ قَبْرًا، لَا سِيَّمَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ الَّتِي رُبَّمَا كَانَتْ أَدَوَاتُ الْحَفْرِ فِيهِ قَلِيلَةً.

وَفِي هَذَا الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِقَادَةِ الْجِيُوشِ وَمَنْ إِلَيْهِمْ أَنْ يَهْتَمُّوا بِشَأْنِ الْقَتْلِ، وَأَنْ تَوَارَى جِثْمَانِهِمْ، وَأَنْ يَحْسِنَ إِلَيْهِمْ، فَقَدْ بَذَلُوا مَهْجَهُمْ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَحَتَّى لَا يَمْتَهِنُوا مِنَ الْكُفَّارِ أَوْ مِنَ الْبَغَاةِ، رُبَّمَا أَصَابُوهُمْ بِالْمِثْلَةِ وَالتَّشْوِيهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، حَتَّى الْكِلَابُ إِذَا تَعَوَّدَتْ لَحْمَ الْإِنْسَانِ آذَتْهُ.

لَمَّا كُنَّا فِي دِمَاجٍ وَوَقَعَ ذَلِكَ الْبَغْيُ الْعَظِيمُ عَلَيْنَا، وَرُبَّمَا بَعْضُ الْأَمْوَاتِ لَمْ نَصِلْ إِلَيْهِمْ؛ لِعَدَمِ السَّمَاحِ لَنَا بِالْوُصُولِ إِلَيْهِمْ كَانَتْ تَأْكُلُهُمُ الْكِلَابُ وَتَأْخُذُهُمْ، وَوُجِدَتْ بَعْضُ أَعْضَائِهِمْ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ اعْتَدَتْ الْكِلَابُ عَلَى الْإِنْسَانِ، الْكِلَابُ طَعَمَتْ لَحْمَ الْإِنْسَانِ فَصَارَتْ تَتَهَجَّمُ عَلَى الْأَحْيَاءِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

٣٥٣ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرَانِي فِي الْمَنَامِ أَتَسَوَّكُ بِسَوَاكِ، فَجَاءَنِي رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ، فَتَأَوَّلْتُ السَّوَاكَ الْأَصْغَرَ، فَقِيلَ لِي: كَبِّرْ، فَدَفَعْتُهُ إِلَى الْأَكْبَرِ مِنْهُمَا». رواه مسلم مسندًا والبخاري تعليقًا^(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان فضيلة تقديم الأكبر، حتى أن النبي ﷺ رأى ذلك في المنام في بعض شأنه، ورؤيا الأنبياء وحي.

(في هذا الحديث إنزال الناس منازلهم، وقد يكون الأكبر في العلم والفضل والخير، وقد يكون الأكبر في السن، فينزل كل إنسان منزلته التي آتاه الله عَزَّوَجَلَّ إياها.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧١)، وعلقه البخاري (٢٤٦).

وفيه فضيلة السواك، وهو من خصال الفطرة، وفيه الإنكار على من خالف ولو في أمر مستحب، أو مكروه، بغير تشديد في الإنكار، ولا نحو ذلك، وفيه الاستجابة للنصيحة إذا كانت موافقة للحق والصواب). اهـ من شرحي على "صحيح مسلم".

٣٥٤ - وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ» حديث حسن رواه أبو داود^(١).

الشرح:

(أبي موسى) عبد الله بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وساق المصنف الحديث؛ لبيان فضيلة إكرام المسلم، سواء كان كبير السن أو صغيراً، لكن الكبير أولى بالإكرام. (وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَالْجَافِي عَنْهُ) معناه: أن القرآن ربما حمله بعض من لا يجوز أن يكرم، كالذين يغفلون فيه، وكالذين يجفونه ويتعدون عن العمل به. (وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ): العادل.

٣٥٥ - وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ شَرَفَ كَبِيرَنَا». حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح^(٢). وفي رواية أبي داود: «حَقَّ كَبِيرَنَا».

(١) حديث رقم: (٤٨٤٣)، والصحيح أنه من طريق ابن كنانة القرشي، وهو ضعيف، أي مجهول، والمجهول حديثه من قبيل الضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٤٣)، والترمذي (١٩٢٠).

الشرح:

(عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وهي سلسلة حسنة عند جماهير المحدثين.

قوله: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا) ليس منّا جاء على الوعيد، ويدل هذا الأمر على براءة النبي ﷺ من هذا الفعل.

(وَيَعْرِفُ شَرَفَ كَبِيرِنَا) فكما أن الصغير يرحم فالكبير يعرف له منزلته وقدره. وجاء هذا الحديث عن أبي هريرة، وعن عبادة، وابن عباس، وأنس، وجابر، وواثلة بن الأسقع، وأبي أمامة، كما ذكر المحقق.

فالرفق بالصغير مطلوب، سواء كان الصغير ولدا لك أو كان غير ولد، فيلزم الرفق به، يحتاج إلى المداراة والإحسان، فقد يلعب بألعاب أنت تراها خارج حاجة الإنسان وهي من ضرورياته، وقد يتكلم معك بكلام تراه أنه كلام لغو لا حاجة فيه وهو عنده من المناقب والمكرّمات، فربما يبقى معك الصغير: أبه، أبه، أبه، لا تنهره أو تقول: ما لك ترفع صوتك أو نحو هذا؟ هذا الذي يستطيعه.

وهكذا أولاد الناس لا تشدد عليهم في مسألة اللعب المباح، فلا بد أن يرحموا وهذا من رغباتهم، ومن أعمالهم التي يستطيعونها، وكنا قبل أيام مثلهم، ربما نبقي نلعب بين التراب، ما نرجع إلى بيوتنا إلا وقد غبرنا أجسامنا، وعلى رؤوسنا مثل الأكوام، إلى غير ذلك، ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ آتَاكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة النساء: ٩٤].

فينبغي للمسلم أن يرحم أخاه المسلم، لا سيما إذا كان صغيرا، والكبير يعرف له قدره، ما يمزح معه كما يمزح مع الصغير، أو يمزح معه كما يمزح مع الشاب، فربما يتأثر من الكلمة التي لا تؤثر في غيره، فيحتاج إلى أن تراعى مشاعره، ويحسن إليه، ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٤]، ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ

الدَّلِيلُ مِنَ الرَّحْمَةِ [سورة الإسراء: ٢٤]، فإذا كان في هذا بحق الوالدين كذلك في حق غيرهم، سواء كان الكبير كبيرا في سنه أو كان كبيرا في علمه وفضله ومنزلته، والله المستعان.

٣٥٦ - وعن ميمون بن أبي شبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرَّ بِهَا سَائِلٌ، فَأَعْطَتْهُ كِسْرَةً، وَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَهَيْئَةٌ، فَأَقْعَدَتْهُ، فَأَكَلَ، فَقِيلَ لَهَا فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنْزَلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ**».

رواه أبو داود، لكن قال: ميمون لم يدرك عائشة، وقد ذكره مسلم في أول صحيحه تعليقا فقال: وذكر عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم، وَذَكَرَهُ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ (مَعْرِفَةُ عُُلُومِ الْحَدِيثِ) وَقَالَ: هُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ ^(١).

الشرح:

ميمون بن أبي شبيب رَحِمَهُ اللَّهُ لم يسمع من عائشة. ومع ذلك معناه صحيح، معناه تدل عليه أدلة كثيرة، (**أَنْزَلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ**) ومنها ما تقدم: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**»، والنبى ﷺ كان إذا أتاه كبير قوم أكرمه وتألفه، لعل في إسلامه تألف لغيره، ومن ذلك قصة ضماد، وما أكرمه به النبى ﷺ، فدخل في الإسلام، ورجع إلى قومه، فما بقي أحد في قومه إلا دخل في الإسلام.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٢)، وذكره مسلم في (مقدمة صحيحه) (٥ / ١)، والحاكم في (معرفه علوم الحديث) (٢١٧)، والصحيح أنه منقطع بين عائشة وبين ميمون، وفيه عننة حبيب بن أبي ثابت، وفيه يحيى بن يمان ضعيف.

فالإنسان يكرم من يرجو فيه النفع، ومع ذلك لا يشد على غيره ممن لا يرجو فيه نفعاً، بل يحسن إليه، لكن الإحسان يتفاوت من شخص إلى شخص.

٣٥٧ - وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَدِمَ عُمَيْيَةُ بْنُ حِصْنٍ، فَتَزَلَّ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحَرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُھُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُمَيْيَةُ لَابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ لَهُ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ، وَلَا تَحْكُمُ فِينَا بِالْعَدْلِ، فغَضِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحَرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَبِيلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى. رواه البخاري ^(١).

الشرح:

ساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الحديث؛ لبيان ما كان عليه عمر من إدناء القراء وأهل الفضل من مجلسه، ومن مشاورته، وهذا لإكرامهم؛ لما عندهم من العلم، وما عندهم من الخير، وهكذا فليكن حال الناس مع علمائهم.

وانظروا إلى دولة الحرمين الشريفين دولة المملكة العربية السعودية أعزها الله عزَّجَلْ بسبب إدنائها للعلماء، وإكرامها للعلماء، أجرت عليهم المعاشات، وأعدت لهم المكاتب، وقربتهم وأدنتهم، فيستشيرونهم في كثير من أمورهم، وتجد في كثير من أمرائهم احترام أهل العلم وأهل الفضل، فربما تجد ولي العهد يقوم للشيخ الفوزان ويقبله في رأسه ويدنيه.

(١) انظر الحديث (٥٠).

بخلاف كثير من البلدان، لا يلتفتون إلى العالم، ولا يرفعون له رأساً، ولا يقيمون له وزناً، ولهذا حُقروا بين عامتهم، فُرِبط ذلك البلد بالعلماء فرفع شأنهم بسبب رفعة العلماء، فصار الناس يصدقون العلماء، ويأخذون بفتاواهم، لما أراد أصحاب الحزبيات أن يعملوا المظاهرات ونحو ذلك في تلك البلاد فشلوا في دعوتهم، مع أنهم قد أرادوا مراراً، والسبب في فشلهم: أن الناس قد ارتبطوا بعلمائهم بسبب ارتباط الأمراء بعلمائهم.

بينما في البلدان الديمقراطية أهين أهل العلم، وأقصي أهل العلم، وقرب السفهاء، فتسلطوا على البلدان، ولعبوا بها، وأطاعهم الدهماء من الناس، فمن أكرم علماء الملة أكرمه الله، ومن رفعهم رفعه الله، ومن أعزهم أعزه الله، ومن قربهم قربه الله، ويرجى له الخير، فإن كان تقريبتهم بمحبة الدين فالأجر أعظم، ومع ذلك هذا أمر قد سلكه عمر بن الخطاب، وسار عليه كثير من محبي الدين وأهل الفضل في كل زمان ومكان.

وهذه شهادة نقولها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ما عندنا من تلك البلاد شيء، إنما أحببناها؛ لمحبة التوحيد، ولمحبة السنة، ولتقريب أهل العلم وأهل الفضل، والله المستعان. عندنا إذا مرض المغني ملئت وسائل الإعلام بالدعوة إلى إعانته وبتقديمه، وهذه القامة العظيمة، وهذا الإنسان الذي خدم الوطن، بأيش خدم الوطن؟ بالأغاني والتنتنة والدعوة إلى العهر والفسق؟ إلى غير ذلك، بلسان الحال أو المقال. وأولئك يهتمون بالعالم إذا مرض، أو إذا كان له شأن، يقربونه ويدنونه ويزورونه، والله المستعان.

فأي دولة يقوم شأنها على احترام العلماء يعلو شأنها، وأي دولة تقوم على احتقار يخدم شأنها، نعم والله، فأهل العلم يُحتاج إليهم، يحتاج إلى علومهم، يحتاج إلى فتاواهم، يحتاج إلى مشورتهم، يحتاج إلى توجيههم.

ولا بد على ولي الأمر أن يعظم شأن العالم في قلوب عامته، حتى إذا احتاج إلى فتوى العالم يكون الرعية تبع للعالم، أما إذا حقر العالم واحتاج إلى فتوى العالم ما يستجيب الرعية، انظر إلى الدول الديمقراطية ومنها اليمن لما قامت ثورة الربيع العربي ثورة الشر والفساد كان قد حُقر العلماء عند الناس، فصاح أهل السنة والجماعة بتحريم الخروج على الحكام، بتحريم الثورات، بتحريم الانقلابات، ما أحد سمع لهم، إلا قلة من الناس، وإلا الدهماء ذهبت خلف الثوريين، خلف التكفيريين وخلف التفجيريين، فحصل ما حصل من البلاء العظيم.

فمن الآن من أراد أن ينفع نفسه وينفع شعبه فعليه أن يقدم علماء أهل السنة ويدنيهم، فإنهم أهل نصح، حتى وإن قالوا لك: هذا حرام، وإن رأيت عندهم غلظة أو شدة فلمصلحتك، ولمصلحة الأمة، وقبل ذلك لمصلحة دين الإسلام، فهم يتكلمون ويوقعون عن الله وعن رسول الله ﷺ، لا يجوز لهم المحاباة.

انظر إلى شيخ الإسلام رحمه الله كم قام مع الأمراء ومع ذلك مات سجيناً، مات وقد ضيق عليه، لكن أهل السنة نصحهم الله، فنحن إذ ننصح الأمراء وننصح الرؤساء وننصح الحكام لا نريد منهم جزاء ولا شكوراً، ولا نريد رفعة دنيوية.

وأيم الله أن أشد شيء علينا أن ندعى إلى مجالسهم، أن ذلك شديد علينا، لا رغبة لنا فيه مطلقاً، إلا إذا كان للمشورة والمناصحة والتوجيه فلا بأس، أما إذا كان لتكثير أو لدنيا أو لفتنة أو غير ذلك نعوذ بالله من الفتن، فنصيحتنا لهم لنفع أنفسهم، ثم لنفع بلدانهم.

وقد قلتها لكم قبل: لن يستقيم حال اليمن لن تنتهي هذه الحرب التي في اليمن إلا إذا عاد الناس إلى دين الله، آخذين بسنة رسول الله ﷺ، متكرين للحزبية المساخة التي مسخت الفطر، وأضعفت الاستقامة، وجرأت على سفك الدماء، ودعت إلى كل شر وبلاء، فلن يستقيم أمرنا إلا بالتوبة إلى الله النصوح، هذا هو.

فانظر إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع جلالته، مع فضله، مع علمه، مع كل ما يقال فيه من الخير، يدني القراء وحفاظ القرآن من مجلسه، مع أنه الملهم، **«إِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مُحَدِّثُونَ فَهُوَ عَمْرٌ»**.

ومع ذلك أيضا لما أخطأ في حقه هذا الرجل الذي لم يعرف قدرا لعمر عمر ذكر بآية من القرآن فأعرض عنه، وما جوزها مع قدرته على الانتقام، مع أنه طعن فيه طعنا شديدا، **(هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ)**، احتقار، لم يقل له: يا أمير المؤمنين. **(فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ)** يعني: ما تعطينا ولا تكرمنا.

(وَلَا تَحْكُمُ فِينَا بِالْعَدْلِ) يتهمة في أمانته ويتهمة في حكمه، مع أن عمر شهر بالعدل والإنصاف، ومع ذلك لما غضب قال له الحر بن قيس: **(يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ»)** وهو النبي ﷺ.

٣٥٨ - وعن أبي سعيد سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غُلَامًا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا أَنْ هَاهُنَا رِجَالًا هُمْ أَسَنُّ مِنِّي. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أواخر الصحابة موتا، وأما حديث **«أَخْرَكُم مَوْتًا فِي النَّارِ»** فالمراد به: أن جندب مات في قدر قد سُخِّنَ فيه النار، ليس المراد به نار الآخرة. فانظر إلى هذا الصحابي الجليل، عنده العلم، وعنده الحديث، لكن يتوقف عن التحديث وعن الفتوى؛ لما بيَّنه من أن هناك رجال أعلم منه، وأقدم منه سنا، فربما أثر أن يتكلموا هم، وأن يوجهوا هم.

(١) أخرجه البخاري (١٣٣١)، ومسلم (٩٦٤).

٣٥٩ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث غريب^(١).

الشرح:

ومع ذلك الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان، فأكرم غيرك يكرمك الله، وإذا أهنت غيرك سلط الله عليك ربما أدى إلى إهانتك، فعلى الإنسان أن يؤدي إلى الناس الذي يحب أن يؤدي إليه، وأن يكرم الناس، ويحسن إليهم بالمعروف، فإن في ذلك الخير العظيم.

المهم أن هذا باب عظيم ونافع، ولذلك لا ألام ممن يسعى في إهانة الحكام ويسعى في إهانة العلماء؛ لأن إهانة هذين الصنفين سبب لضلال عريض، فإن التجرؤ على الحكام سبب لفساد البلدان والأوطان، كما أن الجرأة على العلماء سبب لتحريم الحلال ولتحليل الحرام، وسبب للتجرؤ على معصية الملك الديان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالخروج على الحكام فتنة عظيمة، سماهم رسول الله ﷺ بكلاب النار، والخروج على العلماء فتنة عظيمة؛ لأن التحذير من العالم والخروج عليه يؤدي إلى احتقار الرعية له، وإذا احتقرته الرعية ما سمعوا منه موعظة ولا فتوى ولا توجيه، والله المستعان.

والناس تبع لعلمائهم وتبع لأمرائهم في الغالب، إلا إذا وقع يعني الانفصال بين هذين الصنفين فيحصل الفساد العريض.

(١) حديث رقم: (٢٠٢٢)، والغريب في الغالب عند الترمذي ضعيف، قال المحقق: ضعيف، رواه الترمذي برقم (٢٠٢٢) وغيره من طريق يزيد بن بيان العقيلي، عن أبي الرجال، عن أنس به، وهما ضعيفان، وقد ذكر الحديث في ترجمتهما، وأنكروه عليهما، وضعف الحديث الشيخ الألباني في (ضعيف الترمذي).

٤٥ - باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتههم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَتَّبِعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [سورة الكهف: ٦٠] إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [سورة الكهف: ٦٦].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [سورة الكهف: ٢٨].

الشرح:

إن أراد بزيارة المواضع الفاضلة مكة والمدينة وبيت المقدس التي جاءت الأدلة بها فنعم، وأما زيارة قبور الصالحين أو شد الرحال إلى ما لم يشرعه الله ورسوله صل الله عليه وسلم فلا تشرع، «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

إلا أنه لا بأس بزيارة أماكن العلم؛ للاستفادة منهم، والتعلم، وزيارة الأخ لأخيه، لا حرج في ذلك، إنما المحذور ما كان على غير هذا الوجه.

وزيارة أهل الخير فيها خير عظيم، فإن الصالح يذكرك إذا نسيت، ويعلمك إذا جهلت، ومثله كمثلي الطيب، كما في حديث: «مثل المجلس الصالح وجليس السوء».

والمصاحبة لهم فيها خير، في الدنيا وفي الآخرة، في الدنيا ربما تتحصل منهم على العلم والعمل، وفي الآخرة «المرء مع من أحب»، وربما شفّعوا لك، انظر إلى أنس بن مالك يقول: يا رسول الله أين أجلك يوم القيامة؟ قال: «اطلبنى عند الصراط، فإن لم تجدني فعند الميزان، فإن لم تجدني فعند الحوض»، المواطن الرهيبة التي يحتاج فيها

المسلم إلى شفاعته، وهكذا في قول عبادة بن الصامت للصنابحي: لئن شفعت لأشفعن لك.

وأيضا في الدنيا، كم من إنسان يموت ويدعو له صاحبه أكثر من دعاء أمه وأبيه له، فاستكثروا من أصحابكم، إذا ذكرك قال: والله كان فلان رَحِمَهُ اللهُ، فعل فلان رَحِمَهُ اللهُ، وإذا دعا لنفسه وأهله ربما دعا لك معهم، وإذا حج أو اعتمر دعا لك؛ لمحبتك لك، وأيضا أنت تدعو له وهو يدعو لك.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ...) أي لما ضرب موسى حتى وصل البحر لزيارة الخضر وطلب العلم منه، وهي قصة عظيمة أخرجها البخاري في كتاب العلم، وهو: أن موسى بني إسرائيل خطب قومه، فقال له بعضهم: من أعلم أهل الأرض؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، فأوحى الله إليه: بلى عبدنا خضراء، قال: يا رب كيف الوصول إليه؟ فجعل له حوتا في مكنل، وجعلت علامته: إذا خرج الحوت فهناك ثم هو.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ...) اصبر على مجالستهم، واصبر على زيارتهم، واصبر حتى على جفائهم، بعض الناس هداه الله إن لم تهش له وتبش ربما تركك، نعم نحن قد أمرنا بالبشاشة لأنفسنا ولإخواننا ولزوارنا، لكن هب أن هذا الإنسان شغل عنك، أو أن في قلبه شيء ما استطاعه يهش لك أو ييش لك، لا تحرم الخير بسبب ما في نفسه وما في نفسك، جالس ولازمه، وهو أيضا يفرح بك، وإن شاء الله يزول الشر.

فلا بد أن الإنسان يصبر نفسه مع إخوانه، لا سيما الدعاة إلى الله فيما بينهم؛ لأن الشيطان قد يدخل ويقول: فلان ما يثني علي، وفلان ما ذكرني، ما دام الشر مدفونا ادفن الشر، وإذا ظهر الشر تعامل معه بالطريق الشرعي، ما احتاج إلى اعتذار فيه الاعتذار، وما احتاج إلى توبة فيه التوبة، وغير ذلك.

فما أحوج الدعاة إلى مثل هذه الآية العظيمة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [سورة الكهف: ٢٨]، فطلاب العلم يدعون ربهم، إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال، قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: لو رفقت بابن عباس لأصبت منه علما كثيرا، أخرجه الدارمي.

وأيضا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقع بينه وبين عائشة ما وقع حتى فاته بعض حديثها، ولذلك فرح بحديث قيام الليل، حين جاء سعد بن هشام، وأرسله إلى عائشة، فسمع منها.

وكم هي المواقف! لأن الشيخ أو الداعي أو صاحب بشر، هو ما هو معصوم هو بشر، يغضب ويرضى، ويسخط، ويحلم، ويجهل، لكن أنت وسع صدرك، وهو سراج نفسه إن شاء الله، ويزول الشر، «ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»، والله لو كل يوم: السلام عليكم كيف حالك يا فلان؟ يرق قلبه ويزول ما في نفسه.

فما أعظم التمسك بالآداب النبوية، والأخلاق الإسلامية!

٣٦٠ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَيْهَا، بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا. رواه مسلم^(١).

الشرح:

(١) حديث رقم: (٢٤٥٤).

(قَالَ أَبُو بَكْرٍ) وهو الصديق، خليفة النبي ﷺ، كان حريصاً عن الخير.
(لِعُمَرَ) وهو الفاروق.

(بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) وكان خليفة للمسلمين.

(أَمِ أَيْمَنَ) بركة الحبشية، من حواضن النبي ﷺ، تزوجها زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد طلاقه لزَيْنَب بنت جحش، وحملت منه أسامة بن زيد.

(تَزَوَّجَهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا) وربما صحبت عليه، وكان يدلها ﷺ،
لما جاء وطلب منها النخل الذي كان قد أعطاها من الأنصار جعلت تصخب،
فعوضها رسول الله ﷺ بدلا عنه.

(فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَيْهَا) امرأة عجوز، مع عدم الخلوة، وغض البصر.

(بَكَتْ) أي: ذكرت مجيء رسول الله ﷺ.

(فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟) ظنا أن بكاءها لفقد النبي ﷺ.

(أَمَّا تَعْلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟)؛ لأن الله خيرُه بين زهرة الحياة
الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده.

(فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ) وهذا
دليل على عظيم فقهها، وعلو فهمها.

(وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ) انظروا إلى هذا الفهم الدقيق
الثاقب، علمت أن انقطاع الوحي من السماء يعتبر كالمصيبة العظيمة، وفعل النبي
ﷺ يقول: «أَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوْعَدُونَ»، كان الصحابة
في ألفة ومحبة، ونصر وخير.

فلما قبض النبي ﷺ جاء أهل الشر وقتلوا عثمان بن عفان، وقبل ذلك قتلوا عمر
بن الخطاب، وبعد ذلك قتلوا علي بن أبي طالب، ووقع كثير من الأحداث، ثم إن
نزول الوحي رحمة من الله لعباده، وشرع، وسبب للألفة وعدم الاختلاف.

٣٦١ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخَا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخَا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيهِ». رواه مسلم^(١).

يقال: (أَرْصَدَهُ) لِكَذَا: إِذَا وَكَّلَهُ بِحِفْظِهِ.

و(الْمَدْرَجَةُ) بَفَتْحِ الميمِ والرَّاءِ: الطَّرِيقُ، ومعنى «تَرُبُّهَا»: تَقُومُ بِهَا، وَتَسْعَى فِي صِلَاحِهَا.

الشرح:

(أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخَا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى) لعله في زمن بني إسرائيل، أخبر النبي ﷺ؛ للتأسي به والافتداء به في هذا الفضل العظيم.

(فَأَرْصَدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا) أي في صورة رجل؛ للاختبار والابتلاء.

(فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟) سألته، مع أن الله بكل شيء عليم.

(قَالَ: أُرِيدُ أَخَا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ) أي: أخ في الله، ليس أخا النسب، كم من أخوة نسبية لا تقدم ولا تؤخر، ولكنها أخوة الإيمان والإسلام.

(قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عَلَيْهِ؟) يعني سبب هذه الزيارة أنه أحسن إليك وأعطاك وأكرمك؟

(قَالَ: لَا) لم يكن ذلك.

(غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى) لأن الناس يحبون من أحسن إليهم، غالب مودة الناس بسبب الإحسان الذي يقع بينهم، فلذلك هذا كانت زيارته لله، ما بينه وبينه نسب ولا سبب من أمور الدنيا، وشأن الحب في الله عظيم، وما أكثر ما نقول لكثير من

(١) حديث رقم: (٢٥٦٧).

إخواننا وأنفسنا ربما فيما بيننا: نحبك في الله، نحبك في الله، وهذا أمر طيب، **«إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه»**.

لكن ضابط المحبة في الله: أنها لا تزيد بعباء ولا تنقص بمنع، وهذا قل أن يوجد في هذا الزمان، إلا في خالص المؤمنين الصالحين، والله المستعان. وللشوكاني كلام نحو هذا، على أن المحبة في الله شأنها عظيم، ليست دعوى الدعوى سهلة أن تقول بلسان حالك أو بلسان مقالك: أحبك في الله، لكن الواقع أنك تحبه وتحب له الخير، وتكره مساءته، وتسعى في ثباته وعونه.

(قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ) أي ملك من الملائكة.
(بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيهِ) فيه إثبات صفة المحبة لله عز وجل، وهي من الصفات الفعلية الثابتة بالكتاب والسنة، وإجماع السلف.

٣٦٢ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخَاهُ فِي اللَّهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ: بِأَنْ طِيبَتْ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّاتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا»**. رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن، وفي بعض النسخ: غريب^(١).

الشرح:

قوله: (وعنه) أي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخَاهُ فِي اللَّهِ) الفضل في الأمرين: فعيادة المريض لها أجر عظيم، وزيارة الأخ في الله لها أجر عظيم.

(١) حديث رقم: (٢٠٠٨)، حسن لغيره، قاله المحقق، أخرجه الترمذي، وأحمد، وابن ماجه حديث رقم: (١٤٤٣)، وفي سنده أبو سنان القسملبي عيسى بن سنان، ضعيف، وله شاهد من حديث أنس، روى أبو يعلى في (مسنده)، والبزار كما في (كشف الأستار)، وفي سنده ميمون ابن عجلان، قال أبو حاتم كما في (الجرح والتعديل): شيخ، فالحديث بطريقه حسن، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(نَادَاهُ مُنَادٍ) ولا يلزم أنه يسمعه، لعله مناد كما قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»^(١)، لا يلزم السماع.

(بِأَنْ طُبِتَ) طبت في نفسك، وطبت في عملك، وطبت في دنياك وآخرتك.
(وَطَابَ مَمْسَاكَ) صار طيباً مقرباً من الله عَزَّوَجَلَّ.

(وَتَبَوَّأَتْ مِنَ الْجَنَّةِ مَنَازِلًا) أي أن الله عَزَّوَجَلَّ هيأ لك في الجنة نزلاً، «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح»، ومن جعل الله له نزلاً في الجنة فهو داخله بإذن الله عَزَّوَجَلَّ ما دام على الإسلام.

٣٦٣ - وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ الشُّوْءِ، كَحَامِلِ الْمَسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلِ الْمَسْكِ: إِمَّا أَنْ يُخْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُتَسِنَةً». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).
(يُخْذِيكَ): يُعْطِيكَ.

الشرح:

(وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وهو عبد الله بن قيس، وقد تقدم.
هذا حديث عظيم، وهو من أعظم الأمثال المضروبة من النبي ﷺ، وقد قال الله: ﴿وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ فَضْرِبَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣]،
ويا لله كم الفرق الشاسع بين الجليسين! مع أنهما ربما كانا من أب واحد وأم واحدة،

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

أو كانا في بيت واحد، أو في منطقة واحدة، إلا أن أحدهما من أهل الصلاح، والثاني من أهل الطلاح.

فالصالح كحامل المسك، ريحه طيب، وعطاؤه طيب، والطالح كنافخ الكير، ريحه سيئ وما وجد الإنسان منه فهو سيئ، فلا أبلغ من كلام النبي ﷺ في هذا الباب.

(إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ) المؤمن التقي، المذكر بالله، والداعي إلى سنة رسول الله ﷺ، ولا أحسن من مجالس أهل العلم، لا أحسن من جليس عالم، أو داعي إلى الله عز وجل، يعلمك التوحيد والسنة، يعلمك الخير ويحذرك من الشر والضير، فتستفيد في مجالسته، وتستفيد من توجيهاته، وتستفيد من دعائه.

(وَجَلِيسِ الشُّوْءِ) جليس الشر والفساد، جليس الغيبة والنميمة والكذب، جليس اللعب، ومن ذلك ما يجتمع عليه الناس لعب الدمنة، والشطرنج، والكيرم، وغير ذلك من الألعاب، فهي داخلة في هذا الحديث، وتتفاوت كل على قدرها وحسبها، فكل مجلس يبعدك من الله فهو مجلس سوء، وكل مجلس يقربك إلى الله فهو مجلس خير وصلاح.

(كَحَامِلِ الْمِسْكِ) المسك، ذلك الطيب الذي هو أطيب الطيب، إلا أن عرق النبي ﷺ كان أطيب منه، كما قالت أم سليم: نجعله في طيننا، وهو أطيب الطيب.

والمسك حقيقة هو عبارة عن شيء يخرج من سرة الغزالة، كالحيض، فيجتمع، ثم بعد ذلك إذا يس تذهب وتحتك بحجر أو غيره فيأتي الصيادون فيأخذون ذلك القطعة، ثم يضعونها في زيوت وغيرها، فتحصل على هذه الرائحة الطيبة.

وهذا قد يكون نادرا الآن، فأغلب ما يقال عنه طيب المسك قد يكون فيه شيء من المسك، وإلا فالمسك ذاك ربما لا يناله إلا الملوك، وأصحاب التجارات الكبيرة العظيمة، إلا أن الجليس الصالح كحامل المسك.

(وَنَافِعُ الْكَبِيرِ) جليس السوء، كير الحداد، من قد رأى منكم كير الحداد؟ قد رأيناه في الأسواق، ليس كبقية الكير، لا بد يجلس الحداد ينفخ فيه؛ من أجل يشعل النار، وهذا النفخ يخرج الشرر هاهنا وهاهنا، فتجد الذي يجلس عند الحداد لفترة وجيزة يقوم رجله سوداء، وثوبه قد تغير، وإذا كان يلبس من هذا الذي يسمى بالبليستر ربما قد دخلت الشرارة في الثوب وأحرقت منه، المهم ما يرجع إلا وحالته حالة، إذا رآه أبنائه ربما فروا منه.

(فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ): يعطيك مكرمة منه.

(وَأَمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ): تشتري لنفسك ولغيرك هدية.

(وَأَمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً) أدنى الدون أن تجد منه ريحا طيبة، تخرج وأنت سالم، مع زيادة ريح تزيدك راحة بال وطمأنينة وسرور، فإن الطيب من أسباب انشراح الصدور.

(وَنَافِعُ الْكَبِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ) أو جلدك.

(وَأَمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً): سيئة قبيحة، فاحرص يا أخي المسلم على مجالسة الصالحين، فهم ريحك الطيب، وإياك ومجالسة السيئين، فهم الريح المنتنة.

٣٦٤ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تُنْكِحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرِ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

ومعناه: أَنَّ النَّاسَ يَقْصِدُونَ فِي الْعَادَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ هَذِهِ الْخِصَالَ الْأَرْبَعَ، فَاخْرُصْ أَنْتَ عَلَى ذَاتِ الدِّينِ، وَاظْفَرِ بِهَا، وَاخْرُصْ عَلَى صُحْبَتِهَا.

الشرح:

وهذا هو الشاهد من سوق الحديث في هذا الموطن، وإلا حقه كتاب النكاح.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

قال: (تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ) يعني أن هذا الأصل عند الناس، تجد فيهم التفاوت، فمنهم من يرغب في الجمال، ومنهم من يرغب في المال، ومنهم من يرغب في الحسب والنسب، ومنهم من يرغب في الدين، وما أحسنها إذا توفر فيها هذه الصفات الأربعة! أحسن المرأة أن تتوفر فيها هذه الصفات الأربع.

(لِمَالِهَا) فيريد أن يغتنى، أو يحصل على راحة بال وهدوء حال.

(وَلِحَسَبِهَا): الحسب والنسب، أي أنها من قبيلة، أو من أناس مثلهم يرغب فيهم، والنبى ﷺ يقول: «**أحساب أهل الدنيا التي يذهبون إليها المال**».

(وَلِجَمَالِهَا) وهذا في أغلب الناس إلا ما رحم الله، ولا الغالب أنهم يبحثون عن الجمال، فكثير من الناس إذا وجد الجمال لا ينظر إلى غيره؛ لأن جمال المرأة من أسباب الاستمتاع بها.

(وَلِدِينِهَا) لاستقامتها، لعلمها، لخيرها، لفضلها، لعبادتها.

(فَاطْفَرُ) يا مسلم **(بِذَاتِ الدِّينِ):** بصاحبة الدين.

(تَرَبَّتْ يَدَاكَ) أي: ألصقت يداك بالتراب، يعني دعاء لا يراد ظاهره، وإنما هو على التحضيض على التمسك بالمرأة الصالحة، وفعلاً أن المرأة الصالحة هي الجليس التي يحتاج إليه الإنسان أكثر من غيره، أما أن تأخذ لك امرأة سيئة عاد صاحب السيئ خرجت من عنده، ذهب إلى بيتك، وارتحت من شره، أما المرأة السيئة تنام على سوئها، وتقوم على سوئها.

قال لي مرة شبيهة من الشيوبة رَحِمَهُ اللهُ إِنَّ كَانَ قَدْ مَاتَ وَخَتَمَ اللهُ لَهُ بِالْخَيْرِ إِنْ كَانَ مَا زَالَ حَيًّا قَالَ: يَا ابْنِي كَانَتْ لِي ابْنَةٌ أَخْتُ زَوْجَتَهَا وَلَدِي، فَقَالَ: فَكَانَتْ كَثِيرَةَ الْكَلَامِ، وَالشَّغْبِ، وَالْأَذَى، وَأَنَا عِنْدِي حِكْمَةٌ: إِيَّاكَ وَالْمَرْأَةَ النَّقَاقَةَ، وَالْحِمَارَةَ السَّقَاقَةَ، وَالشَّمْسَ الشَّرَاقَةَ، هَذِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ.

قال: وفي يوم من الأيام قلت لولدي: طلقها، قال: والله ما أطلقها، يا ابنتي اذهبي إلى أمك، قالت: والله ما أذهب، قال: أفكر كيف أتخلص منها، وفي ليلة من الليالي في آخر الليل قلت لها: قومي أمك ماتت، قال: فقامت تبكي، وأخذتها أنا وصلتها إلى بيتهم، طرقت الباب، فتحت أمها، أخته، فقال لها: هذه ابنتك، إذا أخطأت عليك نؤدبها، قال: والله ما تدخل لي بيت لو تنتهي النساء، قال: وفعلا ما عاد روح بيت. فبعض النساء متعبات، إذا كانت داخل البيت ليلها صياح، ونهارها صياح، يشمئز الإنسان من الحياة، ولا أشد والله من أذى النساء، يمكن تتحمل كم من شنب على ما يقول الناس، وتناطحه، لكن المرأة داخل البيت تضيق عليك الحال، ما لم تكن صالحة، والله المستعان.

فالإنسان يبحث عن ذات الدين، إن نظر سرتة، وإن غاب حفظته، وإن تكلم لم تراجع، وإن راجعته بخفة وسلامة، والله المستعان، قيل في الشعر:

وخير ما يدخر الإنسان في دنياه كيما يستقيم دينه
قلبا شكورا، ولسانا ذاكرا وزوجة صالحة تعينه

٣٦٥ - وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لجبريل: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» فَتَرَكْتُ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [سورة مريم: ٦٤]. رواه البخاري ^(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث مستدلا به على فضل الزيارة في الله، فإن النبي ﷺ تمنى من جبريل أن يجالسه أكثر مما كان يجالسه، مع أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان ينزل إلى النبي ﷺ بأمر الله بالوحي وغيره.

(١) حديث رقم: (٣٢١٨).

(مَا يَمْنَعُكَ) يا جبريل (أَنْ تَزُورَنَا) أي: إلى أماكننا (أَكْثَرُ مِمَّا تَزُورُنَا؟) معناه أنه يزوره كثيراً.

(فَتَرَكْتُ: ﴿وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّي﴾) أي يتنزل بالوحي بأمر الله.
وفي هذا رد على الباطنية والرافضة الذين يزعمون بخيانة الأمين.

٣٦٦ - وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ». رواه أبو داود والترمذي بإسناد لا بأس به^(١).

الشرح:

(لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا) هذا نهى من النبي ﷺ، وهو نهى إرشاد، النهي عن مصاحبة غير المؤمن، وأمر إرشاد في مصاحبة المؤمن.
(وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ) ومع ذلك إن وُجد الضيف غير التقي تتألفه لا حرج، أو كان معك ابن عاق، أو كذلك غير ذلك، قد يأكل من طعامك، فلا حرج، إلا أن الإنسان إن استطاع للكمال فحسن.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥).

قال المحقق: حسن لغيره، رواه أبو داود والترمذي وأحمد، وفي سنده الوليد بن قيس التجيبي، روى عنه جمع، ووثقه العجلي، وقد تابعه رجل مبهم كما في (مسند الطيالسي) من طريق حيوة ابن شريح، عن رجل قد سماه، عن أبي سعيد به، فالحديث حسن، وقد حسنه الألباني في (صحيح السنن).
أما إذا كان المتابع مبهم ما أظنه يرتقي إلى الحسن.

٣٦٧ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ». رواه أَبُو داود والترمذي بإسناد صحيح، وَقَالَ الترمذي: حديث حسن^(١).

الشرح:

قوله: (الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ) وأيضا المرأة، إنما ذكر الرجل على الغالب، وإلا الرجل على دين خليله والمرأة على دين خليلتها، والخليل هو صاحب المجالس. **(عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ)** أي: على طريقة خليله. **(فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ)** من الرجال أو النساء. **(مَنْ يُخَالِلُ):** من يصاحب ويجالس ويخالط، فمن جالس الصالحين ناله من صلاحهم، ومن جالس السيئين ناله من سوءهم. فأنا أنصح كل من يسمع هذا الكلام أنه يحضر مثل هذه الدروس، يناله خير، والله يناله خير، كل يوم يسمع: قال الله قال رسول الله ﷺ، لو لم يكن إلا «هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» أنت رابع، إن أعطاك الله علما فهذا فضل من الله، وسعة من الله، ورزق من الله، وإن لم تحصل على علم فأنت حضرت الخير، وأنت من القوم الذين يُرجى لهم مغفرة الذنوب وستر العيوب.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، والحديث في (الصحيح المسند) للشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣٦٨ - وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

وفي رواية: قيل للنبي ﷺ: الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

الشرح:

لكن تكلم العلماء بمعنى هذا الحديث، وأن المحب هو الذي يلزم ما يحبه حبيبه، فيلزم من هذا أن نلازم أمر الله وأمر رسول الله ﷺ، هذه هي المحبة الصحيحة.

(الْمَرْءُ) أي من الرجال والنساء.

(مَعَ مَنْ أَحَبَّ) أي في الآخرة، إن كان من أهل الإيمان ومحبا لهم وعاملا بعملهم فهو معهم، وإن كان من أهل الكفر والفسوق والعصيان فهو مع أصحابه.

(الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟) يحب أهل الصلاح والخير، إلا أنه لم يلحق بهم، إما لضعف علم، أو لضعف عمل.

٣٦٩ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَعْدَدْتُ لَهَا؟» قَالَ: حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وهذا لفظ مسلم ^(٢).

وفي رواية لهما: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَوْمٍ، وَلَا صَلَاةٍ، وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٠)، ومسلم (٢٦٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

قال أنس بعد هذا الحديث: فأنا أحب الله، ورسوله، وأبا بكر وعمر.
وهذا حديث عظيم ساقه المصنف؛ لما تقدم، وفيه سؤال الأعراب للنبي ﷺ
حتى عن الساعة؛ للجهل الحاصل عندهم، وأما الصحابة الذين يلزمون النبي ﷺ
فقد سمعوا من النبي ﷺ أن الساعة أمرها إلى الله.
ومثله ذلك الرجل الذي سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: «إِذَا وُسِدَ الْأَمْرُ إِلَى
غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

وفيه أن الإنسان عليه أن يستعد للساعة، ويعمل لها.
(مَا أَعَدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرٍ صَوْمٍ، وَلَا صَلَاةٍ، وَلَا صَدَقَةٍ) فيه أن الصوم والصلاة
والصدقة من أسباب دخول الجنة.
(وَلَكِنِّي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) فيعمل بمقتضى محبة الله، ويعمل بمقتضى متابعة
رسول الله ﷺ.

٣٧٠ - وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَرْءُ
مَعَ مَنْ أَحَبَّ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).
تقدم المعنى.

٣٧١ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «النَّاسُ مَعَادِنٌ كَمَعَادِنِ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَتَقَهُوا، وَالْأَزْوَاجُ جُنُودٌ
مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ». رواه مسلم^(٢).
وروى البخاري^(٣) قوله: «الْأَزْوَاجُ» إلخ مِنْ رَوَايَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠).

(٢) حديث رقم: (٢٦٣٨).

(٣) حديث رقم: (٣٣٣٦).

الشرح:

قوله: (النَّاسُ مَعَادِنٌ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) أي: أنهم يختلفون في الأخلاق، وفي الأعمال، وفي المبادئ، وفي القيم، فبعضهم كالفضة، وبعضهم كالذهب، وبعضهم كالقصدير، وبعضهم كالحديد المصدي، الناس على هذا التفصيل، بعضهم كالذهب أين وضع لا يتغير، وهكذا كالفضة الناصعة البياض، وبعضهم كالنحاس، وبعضهم ربما كالرخام، وبعضهم كالقصدير، وبعضهم كالخزف، يتفاوتون.

(خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ) لكن بشرط: **(إِذَا فَقَّهُوا)**: إذا علموا العلم، وسلوكوا سبله.

(وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ) أي أن كل واحد روحه توافق روح الآخر، فمن كان من أهل الصلاح يجالس أهل الصلاح، وروحه تألفهم وترتاح معهم، كما تقدم **«المرء على دين خليله»**.

(فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ) وربما تجد الرجل يخالفك في قبيلته، ويخالفك في لونه، ويخالفك في جميع شأنه، وتحبه، وتجد الآخر يوافقك في كثير من شعرك، وتبغضه، والسبب تنافر الأرواح.

وليس معنى ذلك إساءة الظنون، بعضهم عنده إساءة الظن، هذا ليس من هذا الباب، وإنما البغض في الله والحب في الله.

٣٧٢ - وعن أُسَيْرِ بْنِ عَمْرٍو، ويقال: ابن جابر وَهُوَ - بضم الهمزة وفتح السين المهملة - قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ: أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَنْ مُرَادُ ثَمٍّ مِنْ قَرْنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ، فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ كَانَ بِهِ

بَرَّصٌ، فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فافْعَلْ» فَاسْتَغْفِرُ لِي فَاسْتَغْفَرَ لَهُ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ، قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فَوَافَقَ عُمَرَ، فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ، فَقَالَ: تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ قَلِيلَ الْمَتَاعِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَّصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ، فافْعَلْ»، فَاتَى أُوَيْسًا، فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: أَنْتَ أَحَدْتُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ، فَاسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: لَقِيتَ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَقَطَّنَ لَهُ النَّاسُ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ. رواه مسلم ^(١).

وفي رواية لمسلم أيضًا: عن أسير بن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَفَدُّوا عَلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِيهِمْ رَجُلٌ يَمَنُ كَانَ يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ، فَقَالَ عُمَرُ: هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنَ الْقَرْنِيِّينَ؟ فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، لَا يَدْعُ بِالْيَمَنِ غَيْرَ أُمَّ لَهُ، قَدْ كَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَدَعَا اللَّهُ تَعَالَى فَادْهَبَهُ إِلَّا مَوْضِعَ الدِّينَارِ أَوْ الدِّرْهَمِ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ».

وفي رواية له: عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَمُرُّوهُ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ». قوله: (غَبْرَاءِ النَّاسِ) بفتح الغين المعجمة، وإسكان الباء وبالد: وهم فقراؤهم وصعاليكهم وَمَنْ لَا يُعْرِفُ عَيْنُهُ مِنْ أَخْلَاطِهِمْ.

(١) حديث رقم: (٢٥٤٢).

(وَالْأَمْدَادُ) جَمْعُ مَدَدٍ: وَهُمْ الْأَعْوَانُ وَالنَّاصِرُونَ الَّذِينَ كَانُوا يُمَدُّونَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجِهَادِ.

الشرح:

هذا الحديث كما ترى في (صحيح مسلم)، وقد رأيت القرطبي أو ابن العربي يلزم هذا الحديث، ولكن الحديث في صحيح مسلم، ولا نعلم طاعنا فيه من المتقدمين، ودلالته ظاهرة في أن الإنسان يجالس الصالحين، حيث أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حرص على مجالسة هذا الرجل، وعلى استغفار هذا الرجل، مع أن عمر أفضل من أويس، ومن مئات الأويس، لكن مع ذلك لما علمه صالح طلب منه الاستغفار والدعاء.

فأنت كذلك من رجوت فيه الخير واستجابة الدعوة فلك أن تسأله الدعاء، وكان شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: الحمد لله أن بارت هذه المسألة، مسألة عدم طلب الدعاء، كان هناك طائفة تذهب إلى عدم طلب الدعاء نهائيا، والمسألة فيها تفصيل، فطلب الدعاء من كل أحد ينبغي أن الإنسان لا يستخدمه، وطلب الدعاء من الرجل الصالح لا حرج فيه، فتلک المرأة جاءت إلى النبي ﷺ قالت: يا رسول الله إني أصرع فادع الله لي، وكم هم؟ وما زال الناس يأتون إلى الصالحين، ويطلبوا منهم الدعاء والشفاعة.

٣٧٣ - وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْعُمْرَةِ، فَأَذِنَ لِي، وَقَالَ: «لَا تَسْنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ» فَقَالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أَنْ لِي بِهَا الدُّنْيَا. وفي رواية: وَقَالَ: «أَشْرِكْنَا يَا أَخِي فِي دُعَائِكَ». حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

والشاهد منه: أنه سأل من عمر أن يشركه في دعائه، لكن يغني عنه حديث أم الدرداء: أنها قالت لزوج ابنتها لما عزم على الحج والعمرة: ادع لنا فإني سمعت أبا الدرداء يقول: «دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل يقول: آمين، ولك بمثل»، أو عند كتفه.

٣٧٤ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزُورُ قُبَاءَ رَاكِبًا وَمَاشِيًا، فَيُصَلِّي فِيهِ رَكَعَتَيْنِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢). وفي رواية: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ رَاكِبًا، وَمَاشِيًا وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَفْعَلُهُ.

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لزيارة مسجد قباء، وهو مسجد فاضل، لكن لا يجوز أن تشد الرحال إليه، إلا إذا كان الإنسان في المدينة فإنه يذهب ويصلي فيه، ويتأسى بالنبي ﷺ، وقد جاء في فضله أن: «من تواضأ في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه ركعتين كانت له كعمرة تامة تامة».

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٨)، وابن ماجه (٢٨٩٤)، والترمذي (٣٥٦٢)، وهو ضعيف، في سنده عاصم بن عبيد الله ضعيف جداً، وقد ضعفه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (١١٩٣)، ومسلم (١٣٩٩).

وهو أول مسجد أسس على التقوى، يعني من حيث البناء، وكذلك مسجد النبي ﷺ أول مسجد أسس على التقوى، فكلاهما أسس على التقوى من أول يوم. وفيه فضيلة المشي إلى المساجد، وكذلك جواز الركوب إذا احتاج إلى ذلك، أو حتى إن لم يحتج وأراد أن يرفه نفسه.

(فَيُصَلِّي فِيهِ رُكْعَتَيْنِ) فيه فضيلة صلاة الضحى، فإن النبي ﷺ كان يأتيه ضحى ويصلي فيه ركعتين، وهو من الأدلة على استحباب صلاة الضحى.

ويجوز أن يصلي في غيرها من الأوقات، حتى ولو صلى في وقت كراهة؛ لعموم حديث: **«من أن نتوضأ في بيته ثم أتى هذا المسجد فصلى فيه ركعتين كان له كعمرة تامة»**.



٤٦ - باب فضل الحب في الله والحث عليه وإعلام الرجل من يحبه، أنه يحبه، وماذا يقول له إذا أعلمه

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الفتح: ٢٩] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْزَوْنَ مِنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة الحشر: ٩].

الشرح:

هذه مسألة عظيمة، مسألة الحب في الله والبغض في الله، من أوثق عرى الإيمان، أوثق عرى الإيمان: أن تحب في الله وتبغض في الله، وسيأتي الحديث وأحاديث في هذا.

الحب في الله ضابطه: ألا يزيد بعتاء، ولا ينقص بمنع، وهذا يدل على أن شأنه عظيم، وأنه ثقل على النفوس، يحتاج منا إلى تجرد وإخلاص وإنصاف، ولذلك قال عمار: ثلاث من كن فيه فقد استكمل بهن الإيمان: الإنصاف من نفسك، والإنفاق من الإقتار، وبذل السلام للعالم.

المحب في الله يفرح برفعة أخيه في دنياه وأخراه، المحب في الله يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه من الشر، الحب في الله سبيل إلى التعاون على البر والتقوى، وإلى المبادرة إلى كل خير.

وفضله عظيم، لو لم يكن إلا أن الله عَزَّجَلَّ يحب المتحابين فيه، ويظلمهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ويستفيد بعضهم من دعاء بعض، ويقع منهم التأسى بالنبي ﷺ، وتقع منهم الإغاة للشيطان، والرضى للرحمن.

وإعلام الرجل لأخيه أنه يحبه أمر طيب؛ ليقع تبادل المحبة.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾) وهذه من أظهر صفات أمة محمد صل الله عليه وسلم، أنهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، يتراحمون في أزوادهم، ويتراحمون في نصحتهم، ويتراحمون في جميع شأنهم، وهكذا كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة: ٥٤]، أذلة على المؤمنين تواضعا وتراحما وتعاطفا.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾) يحبون المؤمنين المهاجرين، بل أعطوهم مزارعهم، وشاركوهم في أموالهم، وهل بعد هذا؟ أن تصل إلى بلد ليس لك فيه أنيس ولا جليس، ولا حسب ولا نسب، وتجد واحدا يقول: خذ لك هذه المزرعة، والثاني: اسكن هذا البيت، والثالث: تزوج هذه المرأة، والرابع: يقاسمك فيما هو من شأنه، هذا يدل على عظيم الإيمان عندهم. زد على ذلك: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ [سورة الحشر: ٩]، ربما يحصلون على الشيء اليسير ولا يتألمون ولا يتذمرون، ولا يقولون: كيف هذا الغريب صار أعلى منا؟ أو هذا الذي كان فقير صار أغنى منا؟ لا، جاءهم عثمان بن عفان، جاءهم عبد الرحمن بن عوف، جاءهم كثر من أصحاب النبي ﷺ في فقر وقلة وصاروا أغنياء، وصاروا في رفعة في الدنيا والآخرة، ومع ذلك ما ازداد لهم إلا حبا.

فهذه فضيلة الأنصار عليهم رضوان الله، ولذلك دعا لهم النبي ﷺ ثلاثا: **«اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار»**.

٣٧٥ - وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

(ثلاث) أي ثلاث خصال وخالل.

(مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ) أي طمأنينة القلب، وهدوء البال، وسكينة الحال، وقد ذكر النبي ﷺ أيضا طعم الإيمان: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً».

وحلاوة الايمان إنما يتحصلها كامل الايمان ومن قاربه، فكلما ازداد إيمانك زادت حلاوته في قلبك، ولذلك تتلذذ بالطاعات كما يتلذذ أصحاب الشهوات بشهواتهم، والملذات بملذاتهم، ويقع عليك النكد بقدر تفریطك في هذه الطاعات. (أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا) وهذا هو الأمر الأول، وهو محبة الله، محبة عبادته، فإن الله عَزَّوَجَلَّ فرض علينا محبته، وأمرنا بها، فهو سبحانه يُحِبُّ لذاته، ويحب لصفاته.

وأيضا محبة رسول الله ﷺ، وهي تابعة لمحبة الله، أمر الله بها ورغب فيها، وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

هنا جاء العطف بين لفظ الجلالة وبين الرسول ﷺ: (أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) وقد جاء النهي عن ذلك: «بئس الخطيب أنت»؛ لما قال: من يطلع الله ورسوله فقد رشد،

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

وقد جمع بينهما العلماء: أن ذاك في موطن الخطبة، وهي تحتاج إلى مزيد بيان وتفصيل.

(أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا سَوَاهُمَا) ويؤثر محبة ما يحبه الله ويحبه رسول الله ﷺ على كل محبوب، وهذا من عظيم شأن المحبة، أن الإنسان يكون على الوجه الذي يحبه محبوبه.

(وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ) وهذا هو الشاهد، أن يحب المرء المسلم، قريباً كان أو بعيداً، ذكراً كان أو أنثى، غنياً كان أو فقيراً، لا يحبه إلا الله، من أجل ما يسمع عنه من الطاعة والخير والبر والعلم، والهدى والتقوى.

ولذلك أبغض الصحابة آباءهم الذين لم يسلموا، وإخوانهم الذين لم يسلموا، وأحبوا الحبشي، والرومي، والفارسي، وقربوهم على غيرهم.

لكن هذه المحبة مشروطة: أن تكون إلا الله، وهذا هو المحك والاختبار، لا تحبه من أجل هبة، ولا من أجل عطية، ولا من أجل نسب، ولا من أجل حسب، وإنما تحبه الله.

(وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ) وهذا يدل على عظيم محبته للدين، وبغضه للكفر والكافرين، فلا تقع منه الردة، والله المستعان، بل إن القذف في النار أهون من الارتداد عن الدين؛ لأن المرتد يخلد في النار والعياذ بالله، إن مات على رده.

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": وهذا حديث عظيم المعنى قصير المبنى، قال الحافظ في (فتح الباري): وفي قوله (حلاوة الإيمان) استعارة تخيلية، شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء وأضافه إليه، وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح؛ لأن المريض الصفراوي يجد طعم العسل مرا والصحيح يذوق حلاوته على ما هي عليه، وكلما نقصت الصحة شيئاً ما نقص ذوقه

بقدر ذلك، فكانت هذه الاستعارة من أوضح ما يقوي استدلال المصنف على الزيادة والنقص.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: إنما عبر بالحلاوة؛ لأن الله شبه الإيمان بالشجرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤]، فالكلمة هي كلمة الإخلاص، والشجرة أصل الإيمان، وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهي، وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير، وثمرها عمل الطاعات، وحلاوة الثمر جني الثمرة، وغاية كماله تناهي نضج الثمرة، وبه تظهر حلاوتها. اهـ

٣٧٦ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ وَجَمَالَ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ سِئَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان فضيلة المحبة في الله.

قوله: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ) المراد به: ظل عرش الله، فالظل يضاف إلى الله إضافة تشريف لا إضافة صفة إلى موصوف، وقيل: ظل يخلقه الله.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (فتح الباري): أنهم أكثر من هذا، أظنه أوصلهم إلى واحد وعشرين أو نحو ذلك، قال: قَوْلُهُ: (سَبْعَةٌ) ظَاهِرُهُ اخْتِصَاصُ الْمَذْكُورِينَ بِالثَّوَابِ الْمَذْكُورِ، وَوَجْهُهُ الْكَرْمَانِيُّ بِمَا مُحْصَلُهُ: أَنَّ الطَّاعَةَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الرَّبِّ، أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، فَلْأُولَى بِاللِّسَانِ، وَهُوَ الذِّكْرُ، أَوْ بِالْقَلْبِ

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

وَهُوَ الْمُعَلَّقُ بِالْمَسْجِدِ، أَوْ بِالْبَدَنِ وَهُوَ النَّاشِئُ فِي الْعِبَادَةِ، وَالثَّانِي عَامٌّ وَهُوَ الْعَادِلُ، أَوْ خَاصٌّ بِالْقَلْبِ وَهُوَ التَّحَابُّ، أَوْ بِالْمَالِ وَهُوَ الصَّدَقَةُ، أَوْ بِالْبَدَنِ وَهُوَ الْعِقَّةُ.

وَقَدْ نَظَّمَ السَّبْعَةَ الْعَلَامَةَ أَبُو شَامَةَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ فِيمَا أَنَشَدَنَاهُ أَبُو إِسْحَاقَ التَّنُوخِيُّ إِذْنًا عَنْ أَبِي الْهَدْيِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي شَامَةَ عَنْ أَبِيهِ سَمَاعًا مِنْ لَفْظِهِ قَالَ:

وَقَالَ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى إِنَّ سَبْعَةَ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِظِلِّهِ
مُحِبٌّ عَفِيفٌ نَاشِئٌ مُتَصَدِّقٌ وَبَاكِ مُصَلٍّ وَالْإِمَامُ بِعَدْلِهِ

وَوَقَعَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْيُسْرِ مَرْفُوعًا: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ أَظْلَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»، وَهَاتَانِ الْخَصْلَتَانِ غَيْرُ السَّبْعَةِ الْمَاضِيَةِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَدَدَ الْمَذْكُورَ لَا مَفْهُومَ لَهُ، وَقَدْ أَلْفَيْتُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ عَلَى الْعَالِمِ شَمْسِ الدِّينِ بْنِ عَطَاءٍ الرَّازِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْهَرَوِيِّ لَمَّا قَدِمَ الْقَاهِرَةَ وَادَّعَى أَنَّهُ يَحْفَظُ (صَحِيحَ مُسْلِمٍ)، فَسَأَلْتُهُ بِحَضْرَةِ الْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ عَنْ هَذَا وَعَنْ غَيْرِهِ فَمَا اسْتَحْضَرَ فِي ذَلِكَ شَيْئًا، ثُمَّ تَبَعْتُ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ فَزَادَتْ عَلَى عَشْرِ خِصَالٍ، وَقَدْ انْتَقَيْتُ مِنْهَا سَبْعَةً وَرَدَّتْ بِأَسَانِيدَ جَيَادٍ وَنَظَّمْتُهَا فِي بَيْتَيْنِ تَذْيِيلًا عَلَى بَيْتَي أَبِي شَامَةَ، وَهُمَا:

وَزِدْ سَبْعَةَ إِظْلَالٍ غَازٍ وَعَوْنُهُ وَإِنْظَارَ ذِي عُسْرِ وَتَخْفِيفَ حِمْلِهِ
وِإِزْفَادَ ذِي غُرْمٍ وَعَوْنِ مُكَاتِبٍ وَتَاجَرَ صِدْقٍ فِي الْمَقَالِ وَفِعْلِهِ

فَأَمَّا إِظْلَالُ الْغَازِي فَرَوَاهُ بْنُ حَبَّانَ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ، وَأَمَّا عَوْنُ الْمُجَاهِدِ فَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، وَأَمَّا إِنْظَارُ الْمُعْسِرِ وَالْوَضِيعَةُ عَنْهُ فَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) كَمَا ذَكَرْنَا، وَأَمَّا إِزْفَادُ الْغَارِمِ وَعَوْنُ الْمُكَاتِبِ فَرَوَاهُمَا أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ الْمَذْكُورِ، وَأَمَّا التَّاجِرُ الصَّدُوقُ فَرَوَاهُ الْبُغَوِيُّ فِي (شَرْحِ السُّنَنِ) مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ وَأَبُو الْقَاسِمِ التَّيْمِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَنَظَّمْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى فَقُلْتُ فِي السَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ:

وَتَحْسِينَ خُلُقٍ مَعَ إِعَانَةِ غَارِمٍ خَفِيفَ يَدٍ حَتَّى مُكَاتِبَ أَهْلِهِ
وَحَدِيثُ تَحْسِينِ الْخُلُقِ أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ،
ثُمَّ تَبَعْتُ ذَلِكَ فَجَمَعْتُ سَبْعَةً أُخْرَى، وَنَظَّمْتُهَا فِي بَيِّنَتَيْنِ آخَرَيْنِ وَهُمَا:

وَزِدْ سَبْعَةَ حُزْنٍ وَمَشْيٍ لِمَسْجِدٍ وَكُزْهُ وَضُوءٍ ثُمَّ مُطْعَمٍ فَضْلِهِ
وَآخِذْ حَقَّ بَاذِلٍ ثُمَّ كَافِلٍ وَتَاجِرُ صِدْقٍ فِي الْمَقَالِ وَفِعْلِهِ
ثُمَّ تَبَعْتُ ذَلِكَ فَجَمَعْتُ سَبْعَةً أُخْرَى وَلَكِنَّ أَحَادِيثَهَا ضَعِيفَةٌ، وَقُلْتُ فِي آخِرِ
الْبَيْتِ: تُرْبَعُ بِهِ السَّبْعَاتُ مِنْ فَيْضِ فَضْلِهِ.

وَقَدْ أوردتُ الْجَمِيعَ فِي الْأَمَالِي، وَقَدْ أَفَرَدْتُهُ فِي جُزْءٍ سَمَّيْتُهُ (مَعْرِفَةُ الْخِصَالِ
الْمَوْصَلَةِ إِلَى الظَّلَالِ).

كانه ذكر ثمانية وعشرين خصلة.

(إِمَامٌ عَادِلٌ) بدأ به؛ لأن طبيعة الإمام أن يجور ويظلم؛ لأنه لا ينكر عليه إلا من
خلص المؤمنين، ومع ذلك كان عادلاً، ولازماً للشرع.

(وَشَابَّ نَشَأً فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ) متعلق بالتوحيد، والسنة، والعلم، والعمل،
وهكذا الصلاة، وغير ذلك، وذكر الشاب دون غيره؛ لأن الشاب من طبيعته الميل إلى
محبة النفس، والميل كذلك إلى الشهوات، ونحو ذلك، ومع ذلك تفرغ لطاعة الله
عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ) أي لحبه لها، يذهب للصلاة فيها، فإذا رجع
إلى بيته وجد أن قلبه يميل إلى الذهاب إليها، وانتظار فتحها، لا سيما إذا كان في مكان
لا يوجد فيه المسجد الذي يفتح طول اليوم، فتنوعت تعلقات قلوب الناس
بمراداتهم، وتعلق هذا الرجل بالمسجد للطاعة والقربة.

(وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ) وهذا هو الشاهد، وقوله:
(رجلان) خرج مخرج الغالب، وإلا يدخل فيه أيضا النساء، (تحاببا في الله) أي: من

أجل الله، كما في حديث أبي هريرة في القوم الذين يظلمهم الله في ظله عن يمين الرحمن قال: **«هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وَجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِنْ خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَخْزُونَ إِنْ خَزِنَ النَّاسُ»**.

اجتمعا على محبته وتفرقا على محبته، ليس المراد أنهما اجتمع في حال حبهما لله ثم تفرقا وصارا على وعد ظل لا مع انحراف أحدهما، هذا لا يستقيم، لكن كان اجتماعهم في الله، وكان تفرقهم وهم على ذلك، وأما إذا انحرف أحدهما أو انحرفا جميعا عن الصراط المستقيم فلا يشملهما هذا الوعد.

(وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ) ذات المنصب ربما تأطره على الفاحشة أطرا، وتلزمه بها إلزاما، وذات الجمال تغره بدلالها وجمالها وفتنتها، ومع ذلك ترك ذلك لله، إني أخاف الله، وقد تقدم معنا حديث الثلاثة الذين في الغار: **«فلما قعدت بين رجلها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقام عنها وهي من أحب الناس إليه»**.

(فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ) يعني لم يمنعه من الوصول إليها شيء إلا مخافة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ) أي أنه أخلص العمل لله عَزَّجَلَّ، وشدد وبالع في إخفاء الصدقة، **«والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة، والجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة»**.

وقد اختلف العلماء: أيهما أفضل الإسرار بالصدقة أم الجهر؟ وفصل بعضهم قالوا: بالنسبة للزكاة المفروضة الجهر أولى؛ حتى تكون شاحذة لهمم الغير، وأما للصدقة النافلة فالسر أفضل؛ لأنه أدعى للإخلاص.

هذا الحديث قد انقلب كما في مسلم، «فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله»، والحديث إنما يحفظ بتقديم الشمال: «حتى لا تعلم شماله»؛ لأن إنفاق المؤمنين باليمين.

(وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) ذكر الله عَزَّجَلَّ فخافه واتقاه، فبكى، فهذا يظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

وهذه كلها خصال قل من يتصف بها، نسأل الله العون والسداد.

٣٧٧ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أَظْلُهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي». رواه مسلم^(١).

الشرح:

قوله: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ) فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّجَلَّ، وهذا حديث قدسي. (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي: يوم يقوم الناس لرب العالمين. (أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟) أي الذين كان حُبهم في الله ومن أجل الله، لم تقع بينهم المحبة من أجل نسب، ولا تجارة، ولا مصلحة دنيوية. (الْيَوْمَ أَظْلُهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي) أضافه إلى نفسه إضافة تشريف، كما تقدم.

٣٧٨ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَذْلكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ». رواه مسلم^(٢).

الشرح:

(١) حديث رقم: (٢٥٦٦).

(٢) حديث رقم: (٥٤).

قوله: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) فيه الحلف بغير استحلاف، وفيه إثبات صفة اليد لله عزَّوجلَّ.

(لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا) بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، وقد قال النبي ﷺ: **«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ»**.
(وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا) أي: لا يكمل إيمانكم حتى يقع بينكم التحاب في الله عزَّوجلَّ.

(أَوْ لَا أَذُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟) أي: زاد حبكم لبعضكم.
(أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ) وإلا لو أفشى السلام وكان مشركاً منهدداً لا يشمله هذا الواعد، فلا بد من إخلاص العمل لله عزَّوجلَّ، وسلوك السبل المؤدية إلى التحاب، من الهدايا، **«تهادوا تحابوا»**، من إفشاء السلام، من الإخبار أنه يحبه على ما يأتي.
(وأما السلام على اليهود والنصارى ومن في حكمهم فيأتي بابه أنه لا يبدؤون بالسلام، ولكن إذا سلموا على المسلمين فيرد عليهم: وعليكم). من "شرحي على مسلم".

٣٧٩ - وعنه، عن النبي ﷺ: **«أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخَاهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرَصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَذْرَجَتِهِ مَلَكًا»** وذكر الحديث إلى قوله: **«إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّتُهُ فِيهِ»**. رواه مسلم^(١)، وقد سبق بالباب قبله.

الشرح:

وتقدم بيانه، وساقه المصنف هنا؛ لبيان فضيلة الحب في الله.

(١) انظر الحديث (٣٦١).

٣٨٠ - وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي الْأَنْصَارِ: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

وأمر الله عَزَّوَجَلَّ بحبهم ورغب فيه؛ لأنهم ناصرُوا دين الله، وناصرُوا محمدا ﷺ، وآوُوا المؤمنين وأكرمواهم، فلا يحبهم إلا مؤمن.

(وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ): رجل في قلبه بغض للإسلام وأهل الإسلام، ومن أشد من يبغض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرافضة والباطنية ومن إليهم.

(مَنْ أَحَبَّهُمْ) أي الأنصار، ومن في مصافهم، والمهاجرون أيضا أنصار، (أَحَبَّهُ اللَّهُ) أي: من أحبهم في الله عَزَّوَجَلَّ أحبه الله، ومن أبغضهم لدينه واستقامتهم وفضلهم أبغضه الله.

وفعلا لا يبغضهم إلا رجل ممسوخ الفطرة، وإلا فإن النبي ﷺ يقول في أبي هريرة: «اللهم حب أبا هريرة وأمه إلى المؤمنين»، وكيف لا يحب الأنصار وهم الذين آووا النبي ﷺ وأكرمواهم وناصروه وعزروه ووقروه وبذلوا من أجله المهج؟

٣٨١ - وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي، هُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغِيظُهُمُ النَّيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح ^(٢).

الشرح:

تقدم نحوه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥).

(٢) حديث رقم: (٢٣٩٠).

(قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ) وهذا حديث قدسي.

(الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي) أي في ذات الله عَزَّوَجَلَّ، من الرجال أو النساء، من جميع

المكلفين، من الجن أو الإنس.

(لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ) أي يوم القيامة، يكرمون بالجلوس عليها.

(يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ) يغبطونهم على ما هم فيه من الخير، مع أن النبيين

والشهداء أفضل منهم.

وجاء في رواية: «ليسوا بأنبياء ولا شهداء، وجوههم نور، منابيرهم نور، لا يحزنون

إذا حزن الناس، ولا يفرعون إذا فزع الناس».

٣٨٢ - وعن أبي إدريس الخولاني رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ، فَإِذَا فَتًى

بَرَّاقُ الثَّنَائَا وَإِذَا النَّاسُ مَعَهُ، فَإِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ، أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ،

فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، هَجَرْتُ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ

سَبَقَنِي بِالتَّهْجِيرِ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فانتظرته حتى قَضَى صَلَاتَهُ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ،

فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأَحِبُّكَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَلله؟ فَقُلْتُ: اللهُ، فَقَالَ: أَلله؟

فَقُلْتُ: اللهُ، فَأَخَذَنِي بِحَبْوَةٍ رَدَائِي، فَجَذَنِي إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَبْشِرْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ

ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالمُتَزَاوِرِينَ

فِيَّ، وَالمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ». حديث صحيح رواه مالك في الموطأ بإسناده الصحيح^(١).

قوله: (هَجَرْتُ) أي بَكَرْتُ، وَهُوَ بِتَشْدِيدِ الْجِيمِ قوله: «أَلله فَقُلْتُ: اللهُ» الأول بهمزة

مدودة للاستفهام، والثاني بلا مد.

الشرح:

وله شاهد أظن من حديث عبادة بن الصامت.

(١) حديث رقم: (٢٧٤٤).

وفيه فضيلة للسلف **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** حيث كانوا يلزمون المساجد، وفيه ما عليه معاذ من جبل من حسن الابتسامة لزائره.

وفيه المسابقة إلى الخيرات؛ لقول الله عزَّجَلَّ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [سورة البقرة:

١٤٨].

وفيه صلاة الضحى، وفيه أن المشغول لا يشغل.

وكل مشغول فلا يشغل مثاله الموقوف والمسبل

وفيه أن الإنسان إذا أردت أن تكلمه تأتبه من قبل وجهه، ثم تشرع في الكلام بعد أن يطمئن، بعضهم يأتيك من قبل ظهرك، وربما قال لك بكلام أنت ما تدري بسابقه ولا لاحقه، يحتاج أن تبقى يسيرا حتى تنظر ماذا يريد، فابدأ وسلم، ثم اعمل مقدمة لما تريد، ثم اذكر حاجتك.

وفيه الاستحلاف بالله عزَّجَلَّ مع عدم التكذيب، وإنما للتوكيد.

وفيه الاحتباء وجواز ذلك، وفيه تبشير المؤمن.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ) وهذا هو الشاهد من سوق الحديث

في هذا الموطن.

(وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ): الجلوس في المساجد، وحلق العلم لأجل الله عزَّجَلَّ.

(وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ) الذين يزور بعضهم بعضا من أجل العلم.

(وَالْمُتَبَادِلِينَ فِيَّ) وهذه تجتمع في حق الزائر، الزائر تجتمع به جميع هذه

الصفات.

٣٨٣ - وعن أبي كريمة المقداد بن معد يكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ مُحِبُّهُ». رواه أبو داود والترمذي، وَقَالَ: حديث صحيح^(١).

الشرح:

وهذا على الاستحباب لا على الوجوب، يخبره أنه يحبه على الاستحباب لا على الوجوب، من باب وقوع الألفة والمحبة، والله المستعان.
قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعْنَاهُ الْحَثُّ عَلَى التَّوَدُّدِ وَالتَّأَلُّفِ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ اسْتَمَالَ بِذَلِكَ قَلْبَهُ وَاجْتَلَبَ بِهِ وَدَّهَ وَفِيهِ أَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مُحِبٌّ لَهُ وَوَادَّ لَهُ قَبْلَ نَصِيحَتِهِ وَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ. اهـ من عون المعبود (٢١ / ١٤).

٣٨٤ - وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ، ثُمَّ أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». حديث صحيح، رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح^(٢).

الشرح:

قوله: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ) فيه تواضع النبي ﷺ لأصحابه، وحب النبي ﷺ لأصحابه.

(وَقَالَ: يَا مُعَاذُ) فيه مناداة الطالب باسمه.

(وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ) فيه الحلف بدون استحلاف.

(ثُمَّ أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ) فيه الوصية.

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢٤)، والترمذي (٢٣٩٢)، وهو في (الصحيح المسند).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وهو في (الصحيح المسند) لشيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهو حديث جامع كان يدعو به النبي ﷺ، كما في حديث عبد الله بن مسعود عند أحمد، وجاء: أن النبي ﷺ قال: **«إذا أحب أحدكم أن يجتهد بالدعاء فليقل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**.

وساق المصنف الحديث؛ لبيان الإعلام لمن تحبه بأنك تحبه. ودبر الصلاة المراد بها قبل السلام، وذهب بعضهم إلى أنه بعد السلام، والذي أظهر أنه قبله، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ بِمَعْنَى كَلَامِهِ: ما كان من دعاء فالدبر قبل السلام، يراد بالدبر قبل السلام، وما كان من ذكر فيراد بالدبر بعد السلام. **(اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ)** لأن الله عَزَّوَجَلَّ إذا لم يعن الإنسان فشل في حياته العلمية العملية، كان من دعاء النبي ﷺ: **«رب أعني ولا تعن علي»**، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: **﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾** [سورة الأعراف: ١٢٨].

(عَلَى ذِكْرِكَ): على تسبيحك، وتحميدك، وقراءة القرآن، ونحو ذلك، وسيأتي بابه.

(وَشُكْرِكَ) أي: على الشكر لك، والشكر يكون بالقلب واللسان الجوارح، وقد تقدم.

(وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ) والعبادة تكون حسنة إذا كانت خالصة لله موافقة لسنة النبي

ﷺ.

٣٨٥ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ رَجُلٌ بِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنِّي لِأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعَلِمْتَهُ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «أَعَلِمْتَهُ»، فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ. رواه أبو داود بإسناد صحيح^(١).

الشرح:

وساق المصنف الحديث من أن الإنسان يخبر من يحبه أنه يحبه؛ لأن ذلك أبلغ في وجود المحبة بينهما.
وفيه جواز إخبار الغير أن الإنسان يحب أخاه المسلم، والله المستعان.



(١) حديث رقم: (٥١٢٥)، وهو في (الصحيح المسند) لشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

٤٧ - باب علامات حب الله تعالى للعبد والحث على التخلق بها والسعي في تحصيلها

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٣١].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

الشرح:

(قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾) من علامات محبة العبد لله أن يكون متابعا لرسول الله صل الله عليه وسلم، ومن علامات محبة الله للعبد أن يوفقه للمتابعة، وغير ذلك من الأعمال الصالحة، والدليل على ذلك ما يأتي: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاذني لأعيذنه».

ومن أظهر علامات محبة الله للعبد ومحبة العبد لله: أن يكون ذليلا على المؤمنين، عزيزا على الكافرين، وأن يكون مجاهدا لإعلاء كلمة الله، بالقول والفعل، ولا يخاف الشيطان وأولياء الشيطان، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٥].

وقد يتلى الله عز وجل بعض من يحب؛ لاختبارهم في صدقهم في إيمانهم من عدمه، ومن علامات حب العبد لله: الإقبال على العلم والقرآن والسنة، ومحبة الصالحين، إلى غير ذلك.

(قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾) قل يا محمد: إن كنتم تحبون الله وتدعون ذلك فاتبعوني؛ لأن الأمر كله في الاتباع، كما قال سفيان، **(﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾)** [سورة الأعراف: ٣].

ولا بد من الاتباع، يا أخي دين الله ما فُوضنا فيه إلى عقولنا، ولا إلى آرائنا، لا بد من الاتباع، وإلا كيف تعبد الله؟ إذا عبدته بغير الاتباع عبد هواك، من عبد الله بغير الاتباع عبد هواه ولا بد، **(﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾)** [سورة الجاثية: ٢٣]، فلا بد أن تكون متبعا مهتديا مقتديا برسول الله ﷺ.

قال أبو الزناد في باب الحائض تترك الصوم والصلاة من **(صحيح البخاري)**: إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيرا على خلاف الرأي، فما يجد المسلمون بدا من اتباعها، من ذلك أن الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة. يعني غالبا ما نجد الأمر على خلاف ما في النفس، السنن على خلاف ما في النفس، حتى قال بعض السلف: إذا أردت ملازمة الحق فخالف هواك، خالف الهوى.

(﴿فَاتَّبِعُونِي﴾) أي رسول الله ﷺ، ليس الاتباع لكل أحد، **(﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾)**؛ لسلوك هذا المسلك الطيب، وإذا أحبك الله غفر لك، **(﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾)**، ومغفرة الذنوب تستلزم أمرين: الأمر الأول: التجاوز عنها، والأمر الثاني: الستر لها، ولهذا سمي المغفر مغفرا؛ لأنه يغطي الرأس، **(ذنوبكم)**: خطاياكم.

(﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾) فيها إثبات الردة، وكثير من المبتدعين الضالين لا يرون الردة، ويشكون فيها، مع ثبوتها بالكتاب والسنة والإجماع، وقد ذكر البخاري في كتابه **(الصحيح)**: كتاب استتابة المرتدين.

(مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ) أي الإسلام.

(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) هذه الآية نزلت في أهل اليمن، وكان

مجيء هؤلاء بعد موت النبي ﷺ، من صفاتهم: أنهم يحبون الله، ويحبهم الله، إثبات صفة المحبة لله، وهي من الصفات الفعلية.

ومن صفاتهم أنهم: (أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) الأول: يحبون الله، وهو موافقة

المحسوب، والثاني: (أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [سورة الفتح: ٢٩].

(أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) كما تقدم.

(يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بألستهم، وسيوفهم، وأموالهم، كما في حديث أنس:

«جاهدوا المشركين بألستكم وأموالكم وأنفسكم».

(وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) من الأمراء أو غيرهم، إلا أنهم لا يدعون إلى الفتن.

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) أي هذه الصفات الجليلة والمرتبة العالية.

(وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) واسع في ذاته، وواسع في عطائه، وعالم بما هو أهل للتوفيق

والتسديد.

٣٨٦ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ». رواه البخاري (١).

معنى (آذنته): أعلمته بأني محارب له. وقوله: (استعاذني) روي بالباء وروي بالنون.

(١) حديث رقم: (انظر الحديث (٩٥)).

الشرح:

(وقوله: (استعاذني) روي بالباء وروي بالنون): استعاذ بي، واستعاذني، المعنى

قريب.

قوله: (إِنَّ الله تَعَالَى قَالَ) فيه إثبات صفة الكلام لله، ويسمى هذا الحديث

بالقدسي.

قوله: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا) وولي الله المتقي، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ

وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ [١٦] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ [سورة يونس: ٦٢-٦٣]، فمن

كان لله تقيا كان له وليا، ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾

[سورة الأعراف: ١٩٦]، وكل مسلم ولي، وولايته بقدر استقامته؛ لأن الولاية تزيد

وتنقص، كما هو حال الإيمان.

(فَقَدْ آذَنَتْهُ بِالْحَرْبِ): أعلمته وأخبرته أنني محارب له، وهذا في كتاب الله وفي سنة

رسوله ﷺ.

(وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ) فيه أن أوجب ما يتقرب

به الإنسان إلى الله الواجبات، ما يأتي واحد يقول: أقيم الليل وهو ما يصلي الفجر في

جماعة، هذا مسيء، وإن صلى طول الليل، أو يقول: أنا أصوم من كل شهر ثلاثة أيام

وما يصوم رمضان، هذا مسيء وإن كثر صيامه، أو يقول: أنا أتصدق على الفقراء

والمساكين وقد وجبت عليه الزكاة لا يزكي، هذا مسيء، فأوجب ما تتقرب به إلى الله

عَزَّجَلَّ الفرائض.

يقول: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ) تقدم معنا عدة

أحاديث في صحيح مسلم: يا رسول الله لا أزيد ولا أنقص، قال: «أفلح إن صدق»

«دخل الجنة إن صدق».

(وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ) وهذا العبد السابق والمسارع إلى الخيرات،
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ
وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ﴾ [سورة فاطر: ٣٢].

(حَتَّى أُحِبَّهُ) يحبه إذا أتى بالفرائض، فإذا أتى بالنوافل زاد حب الله له.
(فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ) أحبه الله.

(كُنْتُ سَمِعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ) ليس فيه أن الإنسان يتحد بذات الله أو ذات الله تتحد
بالإنسان، كما يظن المعطلون الضالون، وإنما يوفقه الله لسماع الخير.
(وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ) يوفقه الله للنظر إلى الخير، ويسلمه من الشرور.
(وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا) فلا يسرق، ولا يظلم، ولا يختلس، ولا يعتصب.
(وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا) إلى المساجد والعلم، ونحو ذلك.
(وَإِنْ سَأَلْنِي أُعْطِيَتْهُ) لاستجابة الله لدعائه، «إِنْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ
لَأَبْرَهُ».

(وَلَكِنْ اسْتَغَاذَنِي لِأَعِذْنَهُ) ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة
فصلت: ٣٦].

قال الحافظ في "الفتح" (٣٤٥/١١): وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّوَافِلِ جَمِيعُ مَا
يُنْدَبُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَقَدْ وَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ الْمَذْكُورِ: "وَأَحَبُّ عِبَادَةِ
عَبْدِي إِلَيَّ النَّصِيحَةُ"، وَقَدْ اسْتَشْكَلَ بَأَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعُبَادِ وَالصُّلَحَاءِ دَعَوْا وَبَالَغُوا
وَلَمْ يُجَابُوا؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْإِجَابَةَ تَتَنَوَّعُ فَتَارَةً يَقَعُ الْمَطْلُوبُ بِعَيْنِهِ عَلَى الْفَوْرِ وَتَارَةً
يَقَعُ وَلَكِنْ يَتَأَخَّرُ لِحِكْمَةٍ فِيهِ وَتَارَةً قَدْ تَقَعُ الْإِجَابَةُ وَلَكِنْ بِغَيْرِ عَيْنِ الْمَطْلُوبِ حَيْثُ لَا
يَكُونُ فِي الْمَطْلُوبِ مَصْلَحَةٌ نَاجِزَةٌ وَفِي الْوَاقِعِ مَصْلَحَةٌ نَاجِزَةٌ أَوْ أَصْلَحُ مِنْهَا وَفِي
الْحَدِيثِ عِظَمُ قَدْرِ الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يَنْشَأُ عَنْهَا مَحَبَّةُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ الَّذِي يَتَقَرَّبُ بِهَا وَذَلِكَ لِأَنَّهَا
مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ وَالْقُرْبَى وَلَا وَاسِطَةَ فِيهَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ وَلَا شَيْءَ أَقَرَّ لِعَيْنِ الْعَبْدِ مِنْهَا...

وَفِيهِ أَنَّ الْعَبْدَ وَلَوْ بَلَغَ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ حَتَّى يَكُونَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ لَا يَنْقَطِعُ عَنِ الطَّلَبِ مِنْ اللَّهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُضُوعِ لَهُ وَإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ. اهـ

وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّوَافِلِ جَمِيعُ مَا يُنْدَبُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَقَدْ وَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ الْمَذْكُورِ وَأَحَبُّ عِبَادَةِ عَبْدِي إِلَيَّ النَّصِيحَةُ وَقَدْ اسْتَشْكَلَ بَأَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعِبَادِ وَالصُّلَحَاءِ دَعَوْا وَبَالَغُوا وَلَمْ يُجَابُوا وَالْجَوَابُ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَتَنَوَّعُ فَتَارَةً يَقَعُ الْمَطْلُوبُ بَعَيْنِهِ عَلَى الْفَوْرِ وَتَارَةً يَقَعُ وَلَكِنْ يَتَأَخَّرُ لِحِكْمَةٍ فِيهِ وَتَارَةً قَدْ تَقَعُ الْإِجَابَةُ وَلَكِنْ بِغَيْرِ عَيْنِ الْمَطْلُوبِ حَيْثُ لَا يَكُونُ فِي الْمَطْلُوبِ مَصْلَحَةٌ نَاجِزَةٌ وَفِي الْوَاقِعِ مَصْلَحَةٌ نَاجِزَةٌ أَوْ أَصْلَحُ مِنْهَا وَفِي الْحَدِيثِ عِظَمُ قَدْرِ الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يَنْشَأُ عَنْهَا مَحَبَّةُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ الَّذِي يَتَقَرَّبُ بِهَا وَذَلِكَ لِأَنَّهَا مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ وَالْقُرْبَةِ وَلَا وَاسِطَةَ فِيهَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ وَلَا شَيْءَ أَقَرَّ لَعَيْنِ الْعَبْدِ مِنْهَا ٣٨٧ - وعنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى الْعَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبُوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ». متفق عليه^(١).

وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فيقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فيقول: إِنِّي أَبْغُضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ».

الشرح:

(وعنه) أي: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

قوله: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ) فيه أن الله يحب، وفيه أنه يتكلم؛ لأنه يدعو جبريل ويناديه: (يا جبريل، إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ)، وهذا دليل على فضيلة جبريل، ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سورة سبأ: ٢٣].

(فِيحُبُّهُ جِبْرِيلُ) فيه امتثال جبريل لأمر الله، وعدم مخالفته.

(ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ) أي جبريل تبليغا لوحي الله.

(فيقول: إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ) ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: ٦].

(ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ الرِّزْقَ وَدًّا﴾ [سورة مريم: ٩٦]، وليس معنى القبول: أن يحبه جميع من في الأرض، هذا لا يكون؛ لأن المؤمن يبغضه الكافر والمنافق والمبتدع، ولكن يجعل له القبول والتمكين.

(وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا) فيه إثبات صفة البغض لله عَزَّجَلَّ، «أَبْغَضَ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصْمُ».

(ثُمَّ تُوَضَّعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ) نسأل الله السر والعافية.

(فلذلك ينبغي للمسلم أن يحرص على ملازمة الأعمال الصالحة، وأن يكون حبه لله وبغضه لله، حتى لا يصاب بمثل هذه المعاني المخيفة، (تُوَضَّعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ) لا سيما يبغضه الصالحون، وإذا بغضوه ربما لعنوه، ودعوا عليه، وازدروه وهجروه، واحتقروه، فيلحقه الضرر.

بينما المحبوب المودود يُجَالَسُ، ويؤانس، ويدعى له، ويثنى عليه، ويرشد إليه، وهذا من فضل الله العظيم على المؤمنين، مع شدة المتنكرين لهم يأبى الله إلا أن

يجعل لهم ودا في قلوب المؤمنين، لا يراه أحدهم إلا أحبه، كما قيل في ترجمة معاذ بن جبل). اهد من "شرحي على مسلم".

٣٨٨ - وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ١]، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «سَلُّوهُ: لَأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

قوله: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ) السرية هي العدد اليسير، إما أن يخرج لعين، وإما أن يخرج لقتال.

(فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ)؛ لأنه أميرهم، والمراد بالصلاة صلاة الجماعة، فيستحب الجماعة للمسافر، ويتعين عليه القصر.

(فَيَخْتِمُ بِ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾) أي في الصلوات الجهرية لعله، ولعله أيضا في السرية، وبعضهم تقال هذه السورة، قالوا: إما أن تصلي بها، وإن كنت ترى أنها لا تكفيك صل بغيرها.

(فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ) فيه حرص الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على عدم الافتئات على بعضهم، ورد الأمر إلى صاحبه.

(فَقَالَ: سَلُّوهُ: لَأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟) فيه الثبت، وعدم العجلة في الحكم، فقد يكون عنده من الأعداء ما يجعل الفعل الذي رآوه مذموما ممدوحا.

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لَأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ) انظر إلى هذه الكلمة كم استفدنا منها في الرد على من لا يرى إثبات الصفات! الحديث مأخوذ به ومعمول به.

(صفة الرحمن) وكل اسم من أسماء الله يتضمن صفة، وأفعال الله يشتق منها صفات.

(فَأَنَا أَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا) لهذا المقصد، ليس لأنها قصيرة، نحن الآن نقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ١] ما شاء الله في أغلب النوافل، في كثير من الفرائض، ما نقصر، نأتي بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ١]، لكن لماذا؟ لأنها سورة قصيرة، وهذا يقرؤها لأنها صفة الله، فيحب أن يقرأ بها.



٤٨ - باب التحذير من إيذاء الصالحين والضعفة والمساكين

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [سورة الأحزاب: ٥٨].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ﴾ [سورة الضحى: ٩-١٠].

الشرح:

وهذا باب مهم؛ لأن كثيرا من الناس يخالفون في هذا الباب، وما وقع الظلم في الأرض وانتشر إلا بسبب أذية الصالحين والضعفة والمساكين، الذين لا ناصر لهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكفى به وليا وناصرا، ولكن قد يؤخر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لحكمة أرادها.

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾) بعد أن ذكر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [سورة الأحزاب: ٥٧] ذكر وعطف عليهم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالقول أو الفعل، فاحذر أخي المسلم أن تكون مؤذيا للصالحين في قولك أو فعلك، فإن هذا من أعظم أسباب البهت والإثم، وهذا مؤذن بعذاب الله وعقابه إن لم يتدارك العبد توبة.

(﴿بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾) أي: بغير جرم، معناه: أن الإنسان إذا فعل ما يبيح عرضه أو ماله أو نفسه فقد استحق هذا الذي نزل به.

(﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾): الإثم الكبير، البهتان يقابل الكذب، «إِنْ كَانَ فِيهِ فَقْدٌ

اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقْدٌ بَهْتَهُ»، (وإثما) معروف، (مبينًا): واضح بين.

(﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾) لا بقول ولا بفعل ولا بضر.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾) إن أعطيته وإلا لا ترده.

وأما الأحاديث، فكثيرة منها:

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الباب قبل هذا: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»^(١).

ومنها حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق في باب ملاطفة اليتيم^(٢).

وقوله ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لَئِنْ كُنْتُ أَغْضَبْتُهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ».

الشرح:

أي حين وقع بينه وبين بلال وصهيب وعمار قوله: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ وقد تقدم.

٣٨٩ - وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَطْلُبُكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكُهُ، ثُمَّ يَكْبُهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ». رواه مسلم^(٣).

الشرح:

جندب بن عبد الله القسري، الذي قتل الساحر، وقال: ﴿أَفْتَاتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣]، وصل والناس قد اجتمعوا على رجل يوهمهم أنه يدخل من في البقرة ويخرج من دبرها، ويدخل من دبرها ويخرج من قبلها، فضربه بالسيف، تغير المنكر باليد، ويذكرون أنه سُجِنَ، وكان السجان من النصارى، فرآه فقال: مثلك

(١) أخرجه البخاري.

(٢) قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

(٣) انظر الحديث (٢٣٢).

لا يسجن وأطلقه، وقيل: جندب هذا غير ذاك، فذاك جندب بن عبد الله ويقال: جندب بن كعب.

(مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ) أي في جماعة، كما جاء مصرحاً به في بعض الروايات، أو في غير الجماعة لمن لم يجد جماعة أو غلبه النوم فعذر.

(فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ) فإذا كان الإنسان في ذمة غير الله ويسعى الناس في عدم إخفاره فكيف بذمة الله؟ ولذلك كان بعض السلف لا يتعرض لمن يصلي الفجر في جماعة؛ خشية أن يقع في إخفار ذمة الله.

(فَلَا يَطْلُبَنَّكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ) يعني: لا تؤذ هذا المصلي.
(فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكُهُ) ويناله الأذى، ويلحقه الضرر، بسبب أذيته للمؤمنين.

(ثُمَّ يَكُوبُهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) إن لم تقم منه توبة، ويتجاوز الله عَزَّجَلَّ عنه.



٤٩ - باب إجراء أحكام الناس على الظاهر وسرائرهم إلى الله تعالى

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [سورة

التوبة: ٥].

الشرح:

وهذا من أهم الأبواب، فإن أكثر ما نرى في الأمة سببه سوء الظنون بين الأزواج، وبين الأبناء، وبين الإخوان، وبين الأمراء ورعيته، وبين الرعية وأمرائهم، وبين الشيخ وطلابه، وبين الطلاب ومشايخهم، إلى غير ذلك، أصل الشرور إساءة الظنون؛ لأن الإنسان قبل أن يفعل شيئاً يبدأ بإساءة الظن، فيتجلجل في صدره وقلبه، ثم بعد ذلك يبدأ في الغيبة أو النميمة، أو محاولة الأذى، ونحو ذلك، فلا أحسن من سلامة الصدور، وهناك حديث، لكن فيه كلام: «لا تخبروني بشيء فإني أحب أن أخرج وأنا سليم الصدر».

(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾) يعني لا

تنقب وتقول له: أنت تصلي ظاهراً باطناً أم إنما تتزين لنا؟ خليه يصلي، واحمله على الظاهر، أو جاءك بالزكاة وتقول له: أنت الآن تتقرب إلى الله بالزكاة أم تعمل حيلة علينا؟ فخلوا سبيلهم، أسرى قد وقعوا في يد النبي ﷺ، ومع ذلك يأمره إذا قاموا الصلاة وآتوا الزكاة أي أقروا بالإسلام يخلي سبيلهم، ما يقول له: لا بد حتى أعلم أنك قلتها صدقا.

٣٩٠ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان أن الناس يعاملون بظواهرهم، فإن ظهر منهم غير ذلك أو خذوا به، وهذا مأخوذ من قوله: (فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ) فلا يتعرض لها بسفك، (وأموالهم) فلا يتعرض لها بأخذ. (إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ) كمن سرق تقطع يده، أو قتل متعمدا يقتل إن لم يعف عنه الورثة.

(وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى) أي على ما في بواطنهم.

(فيه أن الصلاة والزكاة شأنهما واحد من حيث الفريضة إلا أن الحكم يختلف في الآخرة، فتارك الصلاة كافر كفرا أكبر مخرج من الملة جحودا أو تكاسلا على الصحيح، بينما تارك الزكاة لا يكفر إلا إذا جحدتها). اهـ من شرحي على "صحيح مسلم".

٣٩١ - وعن أبي عبد الله طَارِقِ بْنِ أَشْيَمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِيَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حُرِّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى». رواه مسلم ^(٢).

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

(٢) حديث رقم: (٢٣).

أي أن الإنسان يؤاخذ بما ظهر منه، ولا ينقب عن باطنه، وهذا الحديث فيه معنى لا إله إلا الله، وهو موافق لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦].

وفي هذين الحديثين فضيلة لا إله إلا الله، وأنها عاصمة للمال والدم والعرض، وتقدم معنا في (صحيح مسلم) عن طارق بن أشيم، ولطارق في صحيح مسلم حديثان: هذا الحديث، والحديث الآخر: كان الرجل إذا جاء بالإسلام علمه النبي ﷺ الصلاة، ثم: «اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني، وعافني، جمعت لك دنياك وأخرأك».

٣٩٢ - وعن أبي معبد المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ، فَاقْتُلْنَا، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَادَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسَلَمْتُ إِلَيْهِ، أَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ فَقَالَ: «لَا تَقْتُلُهُ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا؟ فَقَالَ: «لَا تَقْتُلُهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

ومعنى (أنه بمنزلة) أي: معصوم الدم محكوم بإسلامه.
ومعنى (أنك بمنزلة) أي: مباح الدم بالقصاص لورثته لا أنه بمنزلة في الكفر، والله أعلم.

الشرح

المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المقداد بن عمرو، وإنما نسب إلى الأسود زوج أمه، وقد أبلى في يوم بدر، لم يكن فارساً إلا هو.

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٩)، ومسلم (٩٥).

وهذا حديث عظيم، يستخير الصحابي عن المعاملة بالظاهر، فقال: **(أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ، فَأَقْتُلْتُنَا) هذا على إسلامه وهذا على كفره.**
(فَضْرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَهَا) صار مقطوع اليد.
(ثُمَّ لَأَذَ مِنِّْي بِشَجَرَةٍ) هرب.
(فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ) أظهر الإسلام، وما أدركه أنه قاله باطنا؟ لكن عليه أن يعامله بالظاهر.

(أَقْتُلْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ فَقَالَ: لَا تَقْتُلُهُ) يبقى، فإن ظهر منه موافقة الإسلام الحمد لله، هذا الذي نريد، وإن ظهر منه مخالفة الإسلام بعد ذلك عوقب بحسبه، ولذلك يقول أهل العلم: لا إله إلا الله تنفعه ابتداء.
(لَا تَقْتُلُهُ) وإن فعل ذلك بك.
(فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ)؛ لأنه كان قبل أن يقتله معصوم الدم، قد قال: لا إله إلا الله.

(وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ) كان قبل أن يقول: لا إله إلا الله مباح الدم، فيصبح هذا القاتل مباح الدم.

٣٩٣ - وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرْقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَّخْنَا الْقَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ، وَلَحَقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشَيْنَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَطَعْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَةُ، أَقْتَلْتُهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مَتَعُودًا، فَقَالَ: «أَقْتَلْتُهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَيَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

وفي رواية: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتُهُ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَاتَلَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى تَمَيَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ.

(الْحَرْقَةُ) بضم الحاءِ المهملة وفتح الراءِ: بَطْنٌ مِنْ جُهَيْنَةَ: الْقَبِيلَةُ الْمَعْرُوفَةُ.

وقوله: (مُتَعَوِّذًا): أَيُّ مُعْتَصِمًا بِهَا مِنَ الْقَتْلِ لَا مُعْتَقِدًا لَهَا.

الشرح:

أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الحَبِ بن الحَب، أسامة بن زيد بن حارثه، أمه أم أيمن الحبشية، أصغر قائد جيش، جعله النبي ﷺ على جيش فيه أبو بكر وعمر، وإنما تخلف أبو بكر وعمر بعد ذلك؛ لعدة الخلاف.

(قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا)؛ لأنه عرف من النبي ﷺ شدة الإنكار.

٣٩٤ - وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَتَاهُمُ التَّقْوَا، فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصِدَ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَأَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصِدَ غَفْلَتُهُ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَتَلَهُ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ، حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: «لَمْ قَتَلْتُهُ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْجَعَ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَقَتَلَ فُلَانًا وَفُلَانًا، وَاسْمِي لَهُ نَفَرًا، وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَتَلْتُهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَجَعَلَ لَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه مسلم^(١).

(١) حديث رقم: (٩٧).

الشرح:

ساق المصنف الحديثين؛ لبيان المعاملة بالظاهر، ولا أشد من هذا الموقف، رجل قد قتل فلان وفلان وفلان من خيرة الصحابة، ثم قال: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فأنكر النبي ﷺ على من قتله، وكان الواجب أن يعامل بالظاهر، إن قالها حقيقة عصم ماله ودمه، والإسلام يجب ما قبله، ويكفر ما قبله، وإن قالها رياء أو سمعة سيمكن الله منه بعد ذلك، إن قالها اتقاء سيمكن الله منه بعد ذلك.

وفيه فضيلة (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وفيه شدة عتاب النبي ﷺ وشدة الذنب، حتى أن أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تمنى أنه لم يكن أسلم إلا ذلك اليوم؛ حتى لا يعاتب ويقع في مثل هذا الموقف الحرج.

وفيه الإنكار على من طعن ما في القلوب، (أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟) فكثير من الناس الآن يقول: هو يريد، لا تصدقه، هو يريد، هو قال، هو قصده، مالك ولقصده يا أخي؟ أنت مخاطب بما ظهر منه.

وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من بعث الجيوش للجهاد في سبيل الله. وفيه شدة صبر المسلمين على ما نزل بهم من القتل، وبذل الأنفس في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيه مسارعة الصحابة إلى التوبة والاستغفار، وطلب الدعاء من الرجل الصالح. وفيه أن الإنسان إذا لم يعف عنه ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَشْتَدُّ الْحَالُ عَلَيْهِ. وفيه أن الإنسان إذا فعل ذنباً إن لم يتب الله عليه لقي أثره يوم القيامة، وحوسب عليه.

٣٩٥ - وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود، قَالَ: سَمِعْتُ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ. رواه البخاري^(١).

الشرح:

وهذا حديث عظيم، ينبغي أن لا يغفل عنه المسلم، وهو أثر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المحدث الملمه، الذي وافق القرآن في كثير من المواطن. وعبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة الذين كانت عليهم مدار الفتوى بالمدينة.

(قَالَ: سَمِعْتُ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ) يعني في عهد النبي ﷺ، من كتم غير ما يظهر أظهر الله سريرته، كما فعل ابن أبي حنن قال: ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [سورة المنافقون: ٨]، فلما جاءه الأمر أنكر وحلف بالله ما قال، فأنزل الله عَزَّجَلَّ ما فضح سريرته، وهكذا كم الذين حلفوا للنبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المجادلة: ١٤].

أما بعد موت النبي ﷺ إنما المؤاخذة بالظاهر، من أظهر لك خيرا أمنه وقربه، واحكم عليه بظاهره، لا تجاز ذلك، وإذا كان عنده سرير سيئة سيفضحه الله، ما أخفى رجل سريرة إلا أظهرها الله على فلتات لسانه وصفحات وجهه، ﴿أَمْرٌ حَسِبَ الَّذِينَ

(١) حديث رقم: (٢٦٤١)، وانفرد به.

فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ ﴿٣٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَلَعَهُمْ
بِسِيمَتِهِمْ وَتَعْرِفْتَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٤٠﴾ [سورة محمد: ٢٩-٣٠].

(فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَّا وَفَرَبْنَا) على ما ظهر.

(وَلَيْسَ لَنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ) لا يأتي واحد يقول: لا، هذا مراده، وهذا يقصد، (اللَّهُ

يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ).

(وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنَّهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ) لا يقول: أنا قصدي الخير، يا فلان عف

لحيثك قال: قلبي نظيف، نقول له: قد رأينا في وجهك ما يخالف نظافة قلبك، صحيح

والله، أو رجل يغني ويزمر ويفعل مثل هذه الأفاعيل، يقول: قلبي نظيف، كيف نظيف

وهو يسمع إلى الأغاني وينظر إلى الراقصات والماجنات ونحو ذلك؟ (وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا

سُوءًا لَمْ نَأْمَنَّهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ) نعامله بالظاهر.



٥٠ - باب الخوف

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ فَازَ هَبُونِ﴾ [سورة البقرة: ٤٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [سورة البروج: ١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٣] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٤﴾ وَمَا تُؤَخِّرُونَ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٥﴾ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٧﴾ [سورة هود: ١٠٢-١٠٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [سورة آل عمران: ٢٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٦﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٧﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٨﴾ لِكُلِّ أُمْرِي مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة محمد: ٢٩-٣٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [سورة الحج: ١-٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الرحمن: ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٨﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَقَفْنَا عَذَابَ السُّمُورِ ﴿٩﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الصافات: ٢٧-٢٨].

والآيات في الباب كثيرة جدًا معلومات، والغرض الإشارة إلى بعضها وقد حصل.

الشرح:

(باب الخوف) أي من الله عَزَّجَلَّ، ومن معرة الذنوب، ومن عذاب الله وبطشه، وهذه من عظيم العبادات.

(وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ) أمر لبني آدم أن يرهبوا الله ويخافوه؛ لأن الإنسان إذا رهب من الله وخافه بادر إلى مرضاته.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) سيأتي.

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) يعني: إذا أهلك قرية ودمدم عليها لا راد لأمره ولا غالب له، **(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۖ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۖ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۖ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۖ فَاكْتَرَوْا فِيهَا الْفَسَادَ ۖ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)** [سورة الفجر: ٦-١٤].

وبينما الإنسان في أهبته وعظيم شأنه إذ أخذه الله، فربما صار ضعيفا بعد أن كان قويا، وصار عيبا بعد أن كان بليغا، وصار أعمى بعد أن كان مبصرا، وصار أصما بعد أن كان يسمع، وصار طريق الفراش بعد أن كان طليقا، فنسأل الله العافية.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ) أي: من كون الله عَزَّجَلَّ يهلك القرى آية لمن خاف عذاب الآخرة.

(ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ) جميعا، البر والفاجر، والمؤمن والكافر.

(وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) يشهده الله، وتشهده ملائكته، حتى الدواب تحشر فيه، والجن والإنس.

(وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) **(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)** [سورة الرعد: ٣٨]، **(يَسْأَلُ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)** [سورة الأحزاب: ٦٣].

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿[سورة النبا: ٣٨].

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ لا ثالث لهما، أهل الإيمان أهل السعادة، وأهل الكفر بأطيا فهم أهل الشقاوة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾﴾ [سورة الأعلى: ١١-١٣]، هل بعد هذه الشقاوة من شقاوة؟ أبدا، تصور نار لا تموت فيها ولا تحيي، والله أننا نضيق من حر الجو ونحن في فصل الخريف، وكما ترون المراوح شغالة من هاهنا ومن هاهنا، وفي ظل، والهواء يدخل، فكيف بنار؟

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ يخوفكم من نفسه، فهو القوي الذي لا يعجزه شيء، والعليم الذي لا يخفى عليه شيء.

﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢١﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٢﴾ وَصَلْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٣﴾﴾ يفر من أخيه، بل أشد من ذلك يفر من أمه وأبيه، بل أشد من ذلك يفر من صاحبتة وبنيه، مع أنه في الدنيا ربما يقدم الأب على الأخ، أو قبل ذلك يقدم الأخ على غيره، وربما قدم الأب والأم على الأخ، وربما قدم الزوجة والأبناء على الأب والأم إلا من رحم الله، ومع ذلك يوم القيامة الفرار الفرار، ما السبب؟ يخشى أن تكون بينه وبينهم مظالم فيأخذوا من حسناته، وهم في نفس الوقت يسلكون نفس المسلك، يفرون منه.

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ عن الآخر، فلا يلتفت يمنة ولا يسرة، وهل أعظم من أن رجال ونساء عراة مع بعض ولا يلتفت أحدهم إلى أحد؟ لا أشد من هذا الموقف.

والله لو كنت في الدنيا مهما كان الحال، رجل مع امرأة يقع النظرة، اللمسة، الكلمة، أو نحو ذلك، وفي ذلك اليوم رجال ونساء عراة لا يلتفت أحدهم إلى أحد، قالت: عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: **«يا عائشة الأمر أشد من ذلك»**.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ﴾ بفعل المأمور وترك المحذور، **﴿فَوَرَّيَاكَ﴾** لَنَسَقَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ عَظِيمٌ ﴿٥٢﴾ رجفة الساعة.

﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ الأم في الدنيا تضحي بنفسها من أجل ولدها، لا سيما الرضيع، وفي ذلك الموطن لا مبالاة.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ لهول الحال.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ لكن كالسكارى، في كلامهم، في حركاتهم، في سكناتهم، والسبب ما يرون من الأحوال.

﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ نسأل الله السلامة والعافية.

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٥٦﴾ فِي أَيِّ ذِي الْإِلَهِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٥٧﴾﴾ الآيات في سورة الرحمن، وأيضا **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٥٩﴾﴾** [سورة النازعات: ٤٠-٤١].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ في القيامة، وما جاء أنهم لا يتساءلون هذا في موطن.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين وجلين من رب العالمين.

﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ بسبب الخوف منه، والمراقبة له، والدعاء والرجاء فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ تقرأ (إنه) و(أنه)، إنه هو البر الرحيم؛ لخوفهم منه.

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا فنذكر منها طرفاً وبالله التوفيق:

٣٩٦ - عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح

هذا حديث عظيم، من أشهر أحاديث القدر، كما أنه. من أشهر أحاديث الترغيب والترهيب.

وفيه الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، إذ أن ما بين الإنسان وبين أن يكون من أهل الجنة إلا الشيء اليسير، وما بين الإنسان وبين أن يكون من أهل النار إلا الشيء اليسير، كما سيأتي معنا: «النار أقرب من أحدكم إلى أحدكم من شراك نعله والجنة مثل ذلك».

قوله: (حدثنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) أي أخبرهم وأعلمهم، وفيه ما بوب عليه البخاري من أن قول المحدث: حدثنا وأخبرنا وأنبأنا واحد.

(وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ) الصادق في قوله، والمصدوق من ربه.

(إِنَّ أَحَدَكُمْ) من الرجال والنساء.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

(يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً) في أغلب النسخ لا يوجد نطفة، لكن المعنى يقتضيها.

(نُطْفَةً) وهو ما يكون من مني الرجل وماء المرأة، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [سورة الإنسان: ٢].

(ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ) العلقه معروفه، دويبة سوداء تعيش في المياه العذبة، وربما دخلت مع الماء في فم الإنسان فتبقى في حلقه، وفيها فوائد صحية، لكنها مؤذية.

(ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ) قطعة لحم تكون في بطن المرأة، ثم بعد ذلك كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْلَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [سورة المؤمنون: ١٢-١٤].

(ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ) الموكل بالرحم، كما في حديث حذيفة بن أسيد، وحديث أنس.

(فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ) من الأرواح التي خلقها الله.

(وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ) وهو التقدير العمري، يؤمر بكتابة التقدير العمري، إذ أن هناك تقدير عام، وهو ما تضمنه حديث عبادة: «لما خلق الله القلم قال: اكتب ما كان وما يكون إلى قيام الساعة».

وهناك تقدير بشري، وهو: ما أخذه الله من العهد والميثاق على بني آدم، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].

ثم تقدير عمري، وهو **(فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد)**.

ثم تقدير سنوي، ﴿فِيهَا يُقَرَّرُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: ٤].

وتقدير يومي، ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمن: ٢٩].

(يَكْتُبُ رِزْقَهُ) وفي الحديث: «اتقوا الله وأكملوا في الطلب، إنها لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها».

(وَأَجَلِهِ) ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [سورة الرعد: ٣٨]، ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [سورة آل عمران: ١٤٥]، وفي هذا رد على الرافضة والمعتزلة الذين يقولون بخرم الأجل.

(وَعَمَلِهِ) من خير أو شر.

(وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ) هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فإن الله إذا فرغ من العباد قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [سورة الشورى: ٧].

(فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ) الحلف بغير استحلاف.

(إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ الْجَنَّةِ) «فيما يبدو للناس»، كما في حديث سهل بن سعد، وحديث أبي هريرة، فيما يبدو للناس أنه من أهل الجنة.

(حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذَرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا) معناه أنه لا يجازي أحدا إلا بعمله، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: ٤٦]، وهذا من أقوى الأدلة في الرد على الجبرية، كما أن الحديث من أقوى الأدلة في الرد على القدرية.

فالجبرية عندهم: يجوز لله عَزَّوَجَلَّ أن يعذب من شاء بغير ذنب، وليس بظالم؛ لأنهم يقولون: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٣]، لكن يلزمهم أن هذا هو الظلم، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: ٤٦]، ما يعذب أحدا إلا بجريرة، كما أنه يدخل الجنة من عمل بعمل أهلها.

لا يقول قائل: قضى الله علي وقدر؛ لأنه ما يدري ما في الكتاب؛ لأن عندنا علم مفقود وعلم موجود، القرآن والسنة علم موجود، هو الذي خاطبنا الله به، أقيموا الصلاة، اعبدوا الله، اتركوا الزنا، وغير ذلك، فأنت مخاطب بالعلم الموجود.

وعلم مفقود علم القدر، هذا علم مفقود، لسنا مخاطبين به، لكننا نعلم أن الناس يسرون إليه، لكن مثاله في الشاهد: لو أن رجلاً أراد أن يسافر إلى مارب، وكان في طريق الصحراء سيول، وطريق الساحل سليم من ذلك، فلو قيل له: هذا الطريق ربما تعترضك السيول وقطاع الطريق، وهذه الطريق سلسلة سهلة، أيهما سيختار؟ طريق الأمان، وعند العامة مثل يقول: طريق الأمان مسير ثمان.

فكيف إذا قيل له: هذا طريق الجنة وهذا طريق النار، يقول: لا، إذا قدر الله إني من أهل الجنة من أهل الجنة، إذا قدر الله إني من أهل النار من أهل النار، لماذا لا يأتي بهذا الجواب في مسائل الدنيا وإنما يأتي به في مسائل الدين؟ هذا من وسوسة الشياطين.

(وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ) من كذب، وسرقة، وغصب، وربما شرك.

(حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ) الموت.

(فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا) وكم من أناس دخلوا في الإسلام وما عملوا شيئاً من العمل إلا أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صار من أهل الجنة، قُتل، مات، لم يتمكن من العمل.

والنبي ﷺ لما خرج غزوة أحد جاء رجل للقتال معه، فقال له النبي ﷺ: «ارجع، فإني لا أستعين بمشرك»، ثم عاد الأخرى، ثم عاد، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقتل، فقال النبي ﷺ: «عمل قليلاً وأجر كثيراً».

٣٩٧ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُؤُنَهَا». رواه مسلم^(١).

الشرح:

(وعنه) وهو ابن مسعود.

قلت في شرحي على "صحيح مسلم": (قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: الْحَدِيثُ، هَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا اسْتَدْرَكَهُ الدَّارُ قُطْنِي عَلَى مُسْلِمٍ، وَقَالَ: رَفَعَهُ وَهَمٌ، رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَمَرْوَانُ وَغَيْرُهُمَا، عَنِ الْعَلَاءِ ابْنِ خَالِدٍ مَوْقُوفًا. قُلْتُ: وَحَفْصُ ثِقَّةٌ حَافِظٌ إِمَامٌ، فَزِيَادَتُهُ الرَّفْعَ مَقْبُولَةٌ، كَمَا سَبَقَ نَقْلُهُ عَنِ الْأَكْثَرِينَ وَالْمُحَقِّقِينَ. اهـ

زد على ذلك أنه إما مرفوع كما هو هنا، أو أنه مرفوع حكماً؛ لأن مثل هذا لا يقال من قبيل الرأي). اهـ
(يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ) يوم القيامة.

وهذا هول عظيم، يدل على عظمتها وعلى سعتها وعلى شدتها، هذا الحديث بعضهم يعله بالوقف، لكن له حكم الرفع.

٣٩٨ - وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ يُوضَعُ فِي أَخْصَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ. مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَأَنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).

الشرح:

(١) حديث رقم: (٢٨٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣).

وهذا ما يخوف من عذاب النار، إذا كان أهونهم عذابا من جمرة يغلي دماغه كيف بأشدهم عذابا؟ نسأل الله السلامة، حين تجعل له الأرض مهادا ﴿وَمِنْ قُوَّتِهِمْ عَوَاشٍ وَكَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٤١].

٣٩٩ - وعن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْرَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى تَرْقُوتَيْهِ». رواه مسلم ^(١).

(الحُجْرَةُ): مَعْقِدُ الإِزَارِ تَحْتَ الشَّرَّةِ.

وَالْتَرْقُوتُ: بَفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّ الْقَافِ: هِيَ الْعَظْمُ الَّذِي عِنْدَ ثَغْرَةِ النَّحْرِ، وَلِلْإِنْسَانِ تَرْقُوتَانِ فِي جَانِبِي النَّحْرِ.

الشرح:

سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَكَرَ فِي شَأْنِهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَخْرَكُم مَوْتًا فِي النَّارِ»، وَكَانَ ذَلِكَ أَنَّهُ مَاتَ فِي الْحَمِيمِ، أَي: مَاتَ فِي الْمَاءِ السَّاخِنِ.

(مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ) أَي فِي وَصْفِ النَّاسِ فِي دُخُولِ النَّارِ، عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، (مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ)، وَهُمَا الْعِظْمَانِ النَّاتَتَانِ أَسْفَلَ السَّاقِ.

(وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ) مَعْرُوفَةٌ.

(وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْرَتِهِ) يَعْنِي وَصَلَتْ إِلَى نِصْفِهِ.

(وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى تَرْقُوتَيْهِ) وَلَا يَسْلَمُ إِلَّا رَأْسُهُ، وَهَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَأَنَّهُ فِي شَأْنِ بَعْضِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، أَمَّا الْكَافِرُ فَيَكْرُدُّ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

(١) حديث رقم: (٢٨٤٥).

٤٠٠ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُقَوْمُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).
وَالرَّشْحُ: العَرَقُ.

الشرح:

وهذا يكون في أرض المحشر، يعرق الناس على قدر أعمالهم، فمن كان عمله صالحا كان ممن يظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله، ومن كان عنده من التقصير والذنوب يغطيه من العرق بقدر ذنوبه، نسأل الله السلامة والعافية، وأشدّهم من يأخذ العرق إلى أنصاف أذنيه، إذا أخذ إلى أنصاف أذنيه معناه: أنه وصل إلى فيه وإلى أنفه.

٤٠١ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خُطِبْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، فَقَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَصَحِحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، فَعَطَى أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجُوهَهُمْ، وَهَمُّ خَيْنٌ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(٢).

وفي رواية: بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ فَخَطَبَ، فَقَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحِحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدَّ مِنْهُ، عَطَوْا رُؤُسَهُمْ وَهَمُّ خَيْنٌ.
(الْحَيْنُ) بِالْحَاءِ الْمَعْجَمَةِ: هُوَ الْبُكَاءُ مَعَ غُنَّةٍ وَانْتِشَاقِ الصَّوْتِ مِنَ الْأَنْفِ.

الشرح:

وذلك أن النبي ﷺ قد أطلعه الله على بعض الأهوال والأحوال التي غابت عن غيره، فمثل الأحوال والأهوال التي رآها النبي ﷺ لو رآها غير النبي ﷺ لاشتد حزنه، وطال خوفه وهله، ربما أدى ذلك إلى مفارقة الروح الجسد.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

فإن النبي ﷺ قد رأى الجنة والنار، ومن رأى الجنة شُوق إليها، ومن رأى النار خاف منها.

وفيه ما عليه أصحاب النبي ﷺ من شدة الحزن والخوف من الله عزَّجَل، وهذا دليل على قوة إيمانهم، وعظيم شأنهم.

(فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ) وهذا هو السبب الذي من أجله قال لهم هذا القول، يعني لم ير من الخير في الجنة والشر في النار.

٤٠٢ - وعن المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ»، قَالَ سَلِيمُ بْنُ عَامِرٍ الرَّائِي عَنْ الْمَقْدَادِ: فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ، أَمْسَافَةُ الْأَرْضِ أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ؟ قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِنْجَامًا»، قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ. رواه مسلم ^(١).

الشرح:

(المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وهو المقداد بن عمرو بن الأسود، نُسِبَ إلى زوج أمه.

وهذا دليل على شدة الأحوال في ذلك اليوم.

(تُدْنَى الشَّمْسُ) وهذا قبل تكويرها وإلقائها في النار.

(يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ) الآن حرارتها تؤذينا، فكيف إذا كانت مقدار ميل؟ كيف

ستكون حرارتها؟

(حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ) ثم ذكر الراوي: أنه لا يدري ما يعني بالميل.

(١) حديث رقم: (٢٨٦٤).

(فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ) من كثر سيئاته كثر عرقه، ومن كثر حسناته قل عرقه.

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ) وهذا في الجملة شأنه عظيم.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ) وهذا دونه.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِنْجَامًا) وهذا أشدهم ذنوباً، نسأل الله السلامة والعافية.

٤٠٣ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَعْرِقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ حَدِيثٌ رَقْم: (أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٣٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٦٣)).
ومعنى «يَذْهَبُ فِي الْأَرْضِ»: ينزل ويغوص.

الشرح:

يعني كل واحد عرقه محيط به لا يجاوزه، وهذا دليل على كثرة العرق، وكثرة العرق عذاب، كثرة خروج العرق عذاب، يؤدي إلى أذى الجسم، وإلى حرارة الجسم، وإلى أشياء كثيرة، وإلى العطش، إذا كثر العرق كثر العطش، فانظر حين يعرق الإنسان حتى يصير عرقه في الأرض سبعين ذراعاً، مصيبة، ربما لو كانت بمبة الآن يصبها في أرض ما تبلغ سبعين ذراعاً، تنزل المياه الكثيرة، وقد تبلغ شيئاً، أما سبعين ذراعاً وهذا عرقه يبلغ سبعين ذراعاً، نسأل الله السلامة والعافية.
(وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ): يرتفع.

٤٠٤ - وعنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجِبَةً، فَقَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَا هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا فَسَمِعْتُمْ وَجِبَتَهَا». رواه مسلم^(١).

الشرح:

وهذا دليل على سعة النار وعظيم حرها، كيف بهؤلاء الذين هم في الدرك الأسفل من النار؟ ﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٤٥]، في الدرك الأسفل من النار، والدرك الأسفل سبعون خريفاً، تصور صخرة يهوى بها ما يمسكها شيء، شديدة الانحدار، ومع ذلك سبعين خريفاً، سبعين سنة، فهي واسعة الأرجاء، حرها شديد، وقعرها بعيد، نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يعيذنا منها، نعوذ بالله من النار.

والله أن الإنسان لو يعلم أن روحه إذا فارقت جسده دخل الجنة يتمنى الموت الآن، لكن يخشى من الأمر الآخر، وهو أن يدخل النار ويعذب على ذنوبه ومعاصيه، وبعضهم يدخل النار تحرقه وتميته، كما في أبي حديث أبي سعيد: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن قوم أصابتهم النار بذنوبهم». وبعضهم يبقى يعذب، يدور كما يدور الحمار بالرحى، ويجتمع عليه أهل النار: «يا فلان أما كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية».

والله ولو ذكرنا الجنة والنار ما طاب لنا طعام ولا شراب، ولا تهيننا بنساء، ولا بشيء من الطيبات الدنيوية، الذي وُعد بالجنة لشدة شوقه إلى الجنة ورغبته في الجنة، ومن توعّد بالنار لشدة خوفه من النار، لا يستقيم له حال، لكن نسأل الله العافية.

(١) حديث رقم: (٢٨٤٤).

تسلط علينا الغفلة، ولذلك قست قلوبنا، وطال علينا الأمد، فطالت آمالنا، ولهذا ألف العلماء باب الترغيب والترهيب لهذا الأمر؛ حتى لا تقسوا القلوب، وكذلك لا تقنط القلوب من رحمة الله، ولكن بين ذلك.

المهم أنها أهوال سيمر بها الإنسان، نسأل الله السلامة، أهوال شديدة، إذا كنا نتألم من حر صيف، ومن برد شتاء، ومن جوع لساعات أو لوقت يسير، ومن عطش لساعات أو نحو ذلك، فكيف بتلك الأهوال الشديدة؟ في يوم يغضب فيه الرب عز وجل غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ورحمة الله قريب من المحسنين، لكن أين نحن من الإحسان؟ عندنا والله تقصير لا يعلمه إلا الله، فنسأل الله السلامة والعافية.

وما شرع لنا رسول الله ﷺ في كل صلاة أن نقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال» إلا لهذا الأمر؛ لشدة حر جهنم، ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٥-٦٦]، يعني غرام: لازم شديد، ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ١٤]، حين يرى النار تحطم بعضها بعضا يدعون على أنفسهم بالثبور والويل، فيقال لهم: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ١٤]، نسأل الله السلامة والعافية.

٤٠٥ - وعن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكْلُمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

(عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عدي بن حاتم الطائي، كان نصرانيا فأسلم هو وأخته سَفَانَةَ.

هذا حديث عظيم، فيه تخويف المؤمن مما يقدم عليه.

(مَا مِنْكُمْ) أي: يا معاشر الناس **(مِنْ أَحَدٍ)** من الرجال والنساء، **(إِلَّا سَيَكْلُمُهُ رَبُّهُ)** فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّجَلَّ، وهي من الصفات الذاتية الفعلية، **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١)** [سورة الشورى: ١١].

(لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ) لأن الذي يحتاج إلى ترجمان من لا يعلم، أما ربنا عَزَّجَلَّ فهو بكل شيء عليم، يسمع كل لسان، ويعلم ما يقال، **(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٨٢)** [سورة البقرة: ٢٨٢].

(فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ) أي: هذا العبد المكلف، **(فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ)** من الخير.

(وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ) من الشر.

(وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ) يحطم بعضها بعضا؛ تخويفا للسالك إلى الله عَزَّجَلَّ.

(فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) أي: تحرزوا من النار بالصدقات وفعل الخيرات، فإن لم تجد ما تتصدق به فتصدق ولو بشق تمر، بنصف أو ربع أو جزء من التمر.

(١) انظر الحديث (١٣٩).

وفي هذا الحديث فضيلة الصدقة.

وفيه: أن الإنسان يجد ما عمل يوم القيامة من خير أو شر، فيجازى عليه.

٤٠٦ - وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَبْطَأَ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَهْتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن^(١).

و(أَطَّت) بفتح الهمزة وتشديد الطاء، و(تَبْطَأُ) بفتح التاء وبعدها همزة مكسورة، وَالْأَطِيطُ: صوتُ الرَّحْلِ وَالْقَتَبِ وَشَبْهَيْهِمَا، ومعناه: أَنَّ كَثْرَةَ مَنْ فِي السَّمَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْعَابِدِينَ قَدْ أَنْقَلَتْهَا حَتَّى أَطَّتْ. وَ(الصُّعْدَات) بضم الصاد والعين: الطُّرُقَات: ومعنى: (تَجَارُونَ): تَسْتَغِيثُونَ.

الشرح:

(١) حديث رقم: (٢٣١٢).

قال المحقق: صحيح لغيره، إلا ما بين القوسين، وهو قوله: «وما تلذذتم بالنساء على الفراش» إلى آخره، رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد من طريق إبراهيم بن المهاجر، عن مجاهد، عن المؤرق العجلي، عن أبي ذر به.

وإبراهيم بن المهاجر في حفظه لين، ومؤرق لم يسمع من أبي ذر.

قال أبو زرعة: لم يسمع مؤرق من أبي ذر شيئا، كما في (المراسيل).

وللأطيط شاهد من حديث حكيم بن حزام في (شرح مشكل الآثار) وهو حسن.

وقوله: «لو تعلمون ما أعلم» شواهد كثيرة في الصحيحين، منها: عن أنس، متفق عليه.

وقوله: «أرى ما لا ترون» في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال: وبقيّة الحديث لم أجده له شاهداً. =

= وقوله: «ما تلذذتم» فهو ضعيف، وجاءت زيادة عن أبي ذر من قوله في المسند: «والله لوددت أني

شجرة تعضد»، وهي من نفس الطرق، فهي ضعيفة

قوله: (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ)؛ لأن النبي ﷺ كان يراهم من خلف ظهره إذا صلى، وربما رأى الملائكة، وربما رأى الشيطان، ورأى الجنة والنار.

«وَأَسْمِعْ مَا لَا تَسْمَعُونَ» قد جاء أنه سمع عذاب القبر، وقال: **«لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لِدَعَوَاتِ اللَّهِ يَسْمَعُكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمِعُ»**.

(مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَنَتهُ سَاجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى) فيه كثرة الملائكة العابدة لله عَزَّجَلَّ.

(وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَغْلَمَ)؛ لأن الله أطلعه على ما لم يطلع غيره.

(لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا) من شدة الخوف، وكذلك الزهد في هذه الدنيا.

(وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) لهذا المقصد أيضا؛ لما يعلمون مما قبل الإنسان.

(وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ) لأن الإنسان إذا اهتم زهد في النساء، وزهد في المأكولات والمشروبات.

(وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى): تستغيثون من هول ما علمتم.

٤٠٧ - وعن أبي برزة - براء ثم زاي - نضلة بن عبيد الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟»**. رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح^(١).

(١) حديث رقم: (٢٤١٧)، حديث حسن لغيره، أخرجه الترمذي وأبو يعلى، من طريق سعيد بن عبد الله بن جبرير مولى أبي برزة، عن أبي برزة به، وسعيد هذا مجهول الحال.

وجاء من حديث معاذ بن جبل عند الطبراني، وفي سند سابق بن معاذ مجهول الحال، وقد اختلف فيه، فرواه جماعة موقوفاً، وهو الراجح، ورجحه الدارقطني في (العلل)، والموقوف ضعيف أيضاً، فيه ليث بن أبي سليم، وعدي بن عدي لم يسمع من الصنابحي.

وله طريق أخرى عند الدارمي في مقدمته، والبيهقي في المدخل، وفيها رجل مبهم عن معاذ، وجاء من حديث ابن مسعود رواه الترمذي والطبراني، وفي سنده حسين بن قيس، أبو علي الرحبي متروك،

الشرح:

قوله: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي عن مكانه الذي هو فيه حتى يحاسب، ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [سورة الصافات: ٢٤].

(حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ) أي بعد سن التكليف، وهو الخامس عشرة وبعد البلوغ.

(وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ) أي: فيما عمل به؛ لأن القرآن حجة لك أو عليك، حجة لك إن عملت به، وحجة عليك إن لم تعمل به.

(وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ) هل من حلال أم من حرام؟ **(وَفِيمَ أَنْفَقَهُ)** فيحاسب في شأن المال في حالين: في حال الاكتساب وحال الإنفاق؛ لأن بعضهم يكتسب من حرام وينفق في حلال، وبعضهم يكتسب من حلال وينفق في حرام، وبعضهم يكتسب من حلال وينفق في حلال، وبعضهم يكتسب من حرام وينفق في حرام، فإذا يحاسب على الاكتساب، ويحاسب على الإنفاق.

(وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ) هذا الجسم المليء بالشحم واللحم والعظم والعصب فيما أبلاه وأضعفه، هل في الطاعة والقربة أم في المعصية؟

إلا أن هذا الحديث يشكل عليه ما جاء من الأدلة أنه لا يسأل أحد، فقد جاء في بعض الأدلة أن لا سؤال، وجاء في بعض الأدلة السؤال، والجمع بينها: أنهم يسألون في موطن ولا يسألون في موطن، ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٩٣]

﴿[سورة الحجر: ٩٢-٩٣]، ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٦].

وجاء من طرق أخرى ضعفها شديد، لا تصلح في الشواهد، لكن بمجموع ما تقدم يحسن الحديث لغيره، وقد صححه الألباني في (صحيح الترمذي)، وفي (الصحيحة)، واحتج به شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح مقدمة صحيح مسلم. قاله المحقق.

٤٠٨ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [سورة الزلزلة: ٤]، ثُمَّ قَالَ: «أَتَذَرُونَ مَا أَخْبَارَهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي أن النبي ﷺ قرأ من سورة الزلزلة (ثُمَّ قَالَ: «أَتَذَرُونَ مَا أَخْبَارَهَا؟») وهذا من أوجه التعليم، أن الشيخ أو المدرس أو العالم أو المفتي يبدأ بالسؤال؛ ليوصل الطالب إلى الفائدة.

(قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) هذا في حياته، وأما بعد موته فيقال: الله أعلم، سواء في المسائل العلمية، أو في المسائل الخبرية، الله أعلم.

(قَالَ: فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا) وهذا والله من عظيم الأمور، إذ أن الإنسان قد يكون في خلوته أو في جلوته، وتشهد عليه الأرض، ولذلك ينبغي للإنسان أن يكثر من الطاعات أين نزل وحل؛ حتى يُشهد له بالخير، وأن يكون بعيداً عن المعاصي والسيئات أين نزل وحل؛ حتى لا تشهد عليه الأرض يوم القيامة يوم الفضائح، يوم يفضح فيه العباد إلا من ستره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(تَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا) بدون ما تحتاج إلى كتابة، الأمر عندها على ما أودعه الله فيها.

(١) حديث رقم: (٢٤٢٩)، حديث حسن لغيره، وإلا ففي سننه يحيى بن أبي سليمان ضعيف، وله طريق أخرى عن ربيعة الجرشي، رواها الطبراني في (المعجم الكبير)، وفي سند ابن أبي لهيعة، ضعيف، وربيعة الجرشي مختلف في صحبته، وقد وثقه الدارقطني، فالحديث بطريقه حسن لغيره. هكذا قال المحقق.

٤٠٩ - وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟» فَكَانَ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ هُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن^(١).

(الْقَرْنُ): هُوَ الصُّورُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [سورة الكهف: ٩٩]، كَذَا فَسَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

الشرح:

قوله: (عن أبي سعيد الخدري) هو سعد بن مالك، من صغار الأنصار، ومن صغار الصحابة، ومن المكثرين في رواية حديث النبي ﷺ.

(كَيْفَ أَنْعَمُ) يعني: كيف يستقر شأني مع النعيم وأتألذذ بالنعيم مع علمي بما علمني الله عَزَّجَلَّ من أن **(صَاحِبُ الْقَرْنِ)** وهو إسرافيل بإجماع العلماء، سمي قرناً؛ لأنه مثل القرن، وإلا هو صور عظيم، وهو ما كتب له البقاء، صور عظيم، ينفخ فيه نفخة واحدة ﴿نَضِيقُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ تَرُفُفُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٦٨]، صور عظيم.

(قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنَ) دليل على أن الساعة قريبة، ودليل على أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، أمره بالتقام القرن فالتقمه، ويبقى على هذا الحال ما شاء الله أن يبقى.

(١) حديث رقم: (٢٤٣١)، الحديث مخرج في (الصحيح المسند) للشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ، وخرجه العلامة الألباني من طريق أخرى، فحكم عليه بالضعف، إذ أخرجه الترمذي وأحمد من طريق عطية العوفي عن أبي سعيد به، وعطية ضعيف، وقد اضطرب فيه، فتارة يجعله من حديث أبي سعيد، وتارة يجعله من حديث ابن عباس، كما عند أحمد، وتارة من حديث زيد من أرقام، لكن للحديث طريق صحيح عند أبي يعلى وابن حبان، كما في (الإحسان)، من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد به. كما ذكره المحقق.

(وَأَسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [سورة يس: ٥١]، هذه النفخة الثانية، والنفخة الأولى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَكُوتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الزمر: ٦٨].
 وذهب بعضهم إلى أنها ثلاث نفخات، والصحيح إنما هي نفختان: نفخة الصعق، ونفخة الحشر والبعث.

(فَكَانَ ذَلِكَ ثَقَلًا عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) يعني رأوا أن الساعة قريبة، وربما أحدهم لا يبقى له رغبة حتى في أهله، وزهد في العمل وغير ذلك.
 (فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) أي: الله كافينا هذه الأهوال، وهو نعم الوكيل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحسبنا الله ونعم الوكيل يؤتى بها في مواطن العظائم، فقالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وسلمه الله من النار، وقالها محمد ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣].

٤١٠ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَذْلَجَ، وَمَنْ أَذْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن^(١).
 وَ(أَذْلَجَ): بِاسْكَانِ الدَّالِ وَمَعْنَاهُ سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ. والمراد التشمير في الطاعة، والله أعلم.

الشرح:

(١) حديث رقم: (٢٤٥٠)، قال: ضعيف، في سنده أبو فروة يزيد بن سنان الرهاوي، ليس بشيء، على أنه قد رواه البيهقي في (الشعب)، فجعل بدل يزيد بن سنان: برد بن سنان، وبرد صدوق، لكن يظهر أنه أخطأ، والصواب يزيد بن سنان. قاله المحقق.

قال: (مَنْ خَافَ أَذْلَجَ) هذا مثل يضربه، من خاف وهو في سيره يدلج يجعل من أجل أن يتخلص من هذه الطريق المخيفة؛ لأنه لا يعقل أنه يخاف مما في الطريق من الهوام والسباع والمتربصين ثم يعمد وينام في الطريق، لكنه يدلج ويسرع، ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِيَّيْكُمْ مَتَى نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الذاريات: ٥٠]، ما تبقى بين الفتن والإحْن، وما أنتم مبالي بصلاح قلبك، ولا بصلاح ظاهرِك، ولا صلاح باطنِك.

(وَمَنْ أَذْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ) يعني: من أسرع بلغ المنزل، والدلجة هي السير في أول الليل.

(أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً) وهي الجنة؛ لأنها فيها السعادة الأبدية، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلَتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة: ١١١].

٤١١ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُرِيَهُمْ ذَلِكَ». وفي رواية: «الْأَمْرُ أَهَمُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ (١).

(غُرْلًا) بِضَمِّ الْغَيْنِ المعجمة، أَي: غَيْرَ تَحْتُونِينَ.

الشرح:

والذي يظهر والله أعلم أنهم كانوا يتكلمون بهذه القصص لأمرين:

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

الأمر الأول: تسلية، كما هو عادة الناس أن كل إنسان يتحدث بمحيطه لا يتجاوزه، هذا كان حديث البوادي في ذلك الزمان، فلانة وضعت، فلان صاد أرنباً، فلان فعل، هذا حديثهم، لا يعلم إلا هذا، وقل من يذهب مثلاً إلى المدينة، وينظر في طرقها، وينظر في شوارعها وفي مساكنها ثم يرجع يخبرهم.

الأمر الثاني: كانوا يخوفون، يخشون أن الولد يذهب يتأخر عن البيت، لا سيما بالليل، وكذلك النساء أو البنت ربما تتأخر عن البيت ويقع فيها ضرر، فيخوفون، فتجد أن المرأة تذهب إلى الرعي وهي خائفة من مثل هذه القصص، فتكون حذرة على نفسها، وكذلك الولد يكون حذراً على نفسه، ومن أول الليل وكل واحد داخل.

قوله: (يُخَشِّرُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي الرجال والنساء، بل ويدخل فيهم الجن والإنس.

(حُفَاةٌ) أي: لا نعال لهم، **(عُرَاةٌ) أي:** لا لباس لهم، **(غُرْلَا) أي:** غير مختنين.

جاء في بعض الروايات: **«بهما»** أي: لا يملكون شيئاً من المتاع، وهذا غاية الفقر، حيث تجرد الإنسان من الأسباب الحسية جميعاً، لا لباس، ولا نعال، ولا أموال، وما غُيِّرَ منه بالختان بقي كما هو.

(قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟) موقف شديد، الآن في الدنيا مهما كانت الأحوال إلا في أشدها ربما إذا رأى الرجل المرأة ولو كانت محتشمة ربما وقع قلبه فيها، ووقع قلبها فيه، إلى غير ذلك، لكن هذا الحال يوم القيامة كل على الهيئة التي خلقه الله عليها، ليس عليه شيء، ولكن لا ينظر بعضهم إلى بعض.

وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا امرأة، سألت عن هذا السؤال؛ خشية الحرج الذي يقع فيه الرجال والنساء.

(قَالَ: يَا عَائِشَةُ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهَمَّهُمْ ذَلِكَ) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ [سورة الحجر: ٩٢-٩٣]، انظر إلى هذا الموقف، لشدة؛ ترى الناس كالسكارى، لا يستقيم في مشيه، لا يستقيم في قيامه، لا يستقيم في كلامه، السكران لا يستقيم في مشيه، ولا يستقيم في كلامه، ولا يستقيم في جميع شأنه وتصرفه، فيوم القيامة ترى الناس سكارى بغير سكر، لكن لشدة الأهوال والموقف.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [سورة الحج: ٢]، نسأل الله السلامة والعافية، أهوال، هي في حق المؤمن كفارات، كما ذكر ابن أبي العز رَحِمَهُ اللَّهُ في الكفارات الإحدى عشرة أن منها أهوال يوم القيامة؛ لأن المؤمن قال النبي ﷺ: «لا يصيب المؤمن من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من سيئاته».

فالآن حين يأتي ضمة القبر أو قبل ذلك المرض يكفر الله بها ما شاء من الذنوب والمعاصي، ثم سكرات الموت تكفر ما شاء الله من الذنوب والمعاصي، ثم يأتي ضمة القبر، قد يكون بعض المؤمنين ليس له من شأن القبر إلا الضمة، ثم يعود إلى النعيم المقيم، ثم الفتنة، يسلم فيها الله المؤمنين ويفتن فيها من فتنه الله، ثم القبر وما فيه من عذاب وأهوال، مكفارات، بعض المؤمن يعذب في القبر، وما عليه عذاب بعد ذلك.

فإذا خرج يوم القيامة تجد الأهوال الكثيرة، فلا يبقى للنار إلا من شاء الله ممن وجب عليه الخلود في النار، أو ممن كان من المتلبسين بكبائر كثيرة وشاء الله عَزَّوَجَلَّ لهم العذاب الأليم.

هذا الباب والباب الذي يليه يحتاج إليه الداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ جدًّا؛ لأن باب الدعوة إلى الله مبني على أربعة أبواب:

الباب الأول: العقائد والتوحيد.

الباب الثاني: الأحكام، ويدخل بها العبادات والمعاملات.

الباب الثالث: الترغيب.

الباب الرابع: التهيب.

هذا هو مدار ما يتكلم عليه القرآن وما تتكلم عنه السنة، ومدار ما عليه الوحي الشريف، إذاً على الإنسان إذا أراد أن يخطب أو يحاضر أو يؤلف أو يصنف إن كان في باب الترغيب والتهيب في باب التهيب يخوف الناس بالله، ويخوف الناس بما يمرون عليه من الأهوال الشديدة، والحالات المزعجة، وهكذا في باب الترغيب يرغب.

وينبغي أن يكون فقيهاً، إذا وجدت من قد تسلط عليه اليأس فلا تزيده إرهاباً وترهيباً، وإنما حدثه بأحاديث الرجاء؛ حتى لا ييأس من روح الله؛ لأن اليأس من روح الله مطلقاً يلحق بالكافرين.

وإذا وجدت الآخر قد أسرف على نفسه وعند رجاء عظيم في الله لا تأتي تحدثه بأحاديث الرجاء وأدلة الرجاء، الرجل قد تجاوز الرجاء، صاحب الرجاء حقاً هو الذي يعمل الصالحات ويرجو من الله المثوبات، أما هذا قد عاث في الأرض فساداً، إما بالزنا، وإما باللواط، وإما بالخمير، وإما بالقتل، وإما بالسرقه، وإما بالنهب، وإما بالسلب، فتزيده رجاء، تزيده تمرداً، تزيده بعداً.

لكن إن وجدت من قد شق على نفسه بفعل المعاصي وربما يؤدي به إلى القنوط رغبته في الله، ومن وجدت قد تاع في المعاصي وربما تخشى عليه من الأمن، من مكر الله خوفته بالله، هكذا.

وإن كان الحال أن الناس على الستر فتارة ترغيب وتارة ترهيب، كما هو أغلب آي القرآن، وأغلب أحاديث النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جامعة بين الترغيب وبين الترهيب، وما من سورة في الغالب إلا وتجد فيها ترغيب وترهيب، ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [سورة الكهف: ١٠٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة البينة: ٦]، وهكذا تجد هذه الآيات بين ترغيب وترهيب، فهذا باب عظيم يحتاجه طالب العلم.

وأنا أنصح الأخوة الذين عندهم حرص على الدعوة وعندهم حرص على أن يكون خطيباً لا يثقل على نفسه، أنت الآن إذا أردت أن تحفظ كلام من قبلك يشق عليك، لكن احفظ لك باباً من أبواب (رياض الصالحين)، أو أبواب إن تيسر لك حفظ الكتاب جميعاً، فهو خير عظيم.

كنا في دماج نتبارى في حفظ (رياض الصالحين)، فتجد الإنسان إذا حفظ رياض الصالحين لا سيما إذا منحه الله مع ذلك قوة في الإلقاء، أنت ما ستأتي تحاضر عن الإخلاص بأحاديث الإخلاص المذكورة في هذا الكتاب الإحدى عشر، بل ستأخذ من أحاديث الإخلاص في باب المراقبة، من أحاديث الإخلاص في باب الصدق، من أحاديث الإخلاص في باب الخوف، من أحاديث الإخلاص في باب الرجاء، من أحاديث تستنبط، فربما تضيف إلى الإحدى عشر حديثاً عشرات الأحاديث، وإذا بها رسالة كاملة في الإخلاص.

وهكذا في باب السنة، عند أن تتحدث عن فضل السنة ربما النووي رَحِمَهُ اللهُ ذكر عشرة أحاديث أو أقل أو أكثر، لكن لو أردت أن تتحدث عن السنة وأنت قد حفظت الكتاب أجمع ستجد عشرات الأحاديث، السنن في الصلاة، وفي الأقوال، وفي الأفعال، وفي اللباس، وفي الخروج وفي الدخول، وفي غير ذلك.

كتاب (رياض الصالحين) كتاب مبارك، وفق الله النووي لتأليفه، وكم من أناس قد سلكوا مسلك النووي، لكن القبول لكتاب النووي جعله الله عزَّجَل، فالإنسان يحفظ ويتحفظ، هذا هو السبيل الذي يستطيع أن يصير به خطيباً مفوهاً، أما إذا حفظت خطبة واحد قبلك أو ركزت على شيء أنت الآن حين تقوم بين الناس ربما تكون قد أعددت عشرة أحاديث تنسى خمسة، أول ما تقوم نسيت خمسة، ثم بعد ذلك قال بعد خطبة الحاجة: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستعجم، ما هو يا شيخ مقبل؟ قال له: انظر غيره، كم أحاديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

فأنت الآن قد تصعد المنبر وتستعجم، لكن إذا كان عندك خير ما شاء الله يضيع هذا الحديث خذ غيره، حتى ولو كان ما هو في الباب لكن تستطيع أن تجعله في الباب، يجعل الله بركة.

فالله الله يا أخوة في الإقبال على حفظ السنة، قبل ذلك حفظ القرآن، فهما الزاد وهما الترغيب، وهما الترهيب، وهما الخير العظيم، فتح الله لنا ولكم من خزائن رحمته وفضله، والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والأربعين من كتاب (رياض الصالحين)، وهو درسنا الأسبوعي، وكان هذا الدرس في الليلة الثانية من محرم، لعام اثنين وأربعين وأربعمائة وألف، ما أسرع الليالي والأيام بل والأعوام! كنا من قبل نرى سرعة الليالي والأيام، الآن نرى سرعة الأعوام، قبل أيام ونحن في بداية العام أربعمائة وواحد وأربعين، والآن في بداية الثاني والأربعين، ربما كثير منا ما انتهى من كثير من أعماله التي كان يزعم القيام بها في العام الفائت.

قال الله عزَّجَل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٢]، فهذا التعاقب في الليالي والأيام جعله الله؛ للتذكر والشكر، فقد مضى من أعمارنا في هذا العام فقط من كل واحد سنة، لو كان عمرك

خمس مضي منها واحد، ستون مضي منها واحد، عشر مضي منها واحد، فانظر كم بقي، فنسأل الله أن يتوفانا مسلمين.

كنا نتذاكر مع بعضهم في الصبح، فجاء ذكر الأجل أنه معمي، لو كان كل إنسان يعلم بأجله فقلت له: لو كل إنسان يعلم بأجله ما طابت له حياة، لن يتلذذ ولن يتهنا بزواج ولا ببناء ولا بشيء، لو كل إنسان يعلم أنه ميت بعد كذا كذا خلاص لا سيعمر بيتا، يزهد في الدنيا، ولا سيتزوج، ولا سيتنعم بأكل أو شرب، يبقى خائفا من الأجل، لكن الله حكمه، تقبض الروح وتخرج من الجسد وما زال أمله بعيدا، ولذلك قل من يتوب إلا عند الغرغرة، إلا من كان من أهل الاستقامة والإسلام، والله المستعان.

فمضت أعمارنا ولم يبق منها إلا اليسير، فليكثر أحدنا من قوله: رب توفيني مسلما وألحقني بالصالحين، يعني: يثبتك على الإسلام حتى تلقاه، فهذا هو الربح الأكيد. وينبغي لنا أن ننظر فيما مضى والله، ماذا قدمنا في العام الفائت؟ إن كانت عندنا ذنوب ولا نخلوا فتوب ونستغفر، أيضا ماذا استفدنا من العلوم؟ ماذا حصلنا من الفنون؟ ما الذي قدمناه للإسلام والمسلمين؟ إلى غير ذلك.

أما إذا بقيت لا تنظر تمضي السنة ثم السنة ثم السنة وأنت لا تنظر هذه مشكلة والله، لكن ماذا قدمت في العام الماضي لنفسك ولدينك ولمجتمعك؟ وإن كنت قد فرطت هل بادرت بالتوبة والإنابة؟

لا يكن حالنا مثل العوام، آخر ليلة في السنة يرسلون برسائل المسامحة والعفو والصفح والتهنئة ومثل هذا الكلام، لا، لا بد أن نكون أرفع من ذلك، فإذا كنا قد فرطنا في الذي مضى فلنعزم على عدم التفریط في الذي أتى، وما بينك وبين رمضان إلا ثمانية أشهر غالبا، أغلب المراكز يكون الدروس في سبعة أشهر منها، ثم يقع الضعف.

فاستفد من هذه السبعة الأشهر، من كان حافظاً في القرآن فيراجع، ومن كان بادئاً في الحفظ فليحرص على أن ينتهي قبل رمضان، ومن كان قد قطع شوطاً وتأخر يعجل، نحن في سباق مع الموت، نحن في سباق مع الأيام، نحن في سباق مع الأعوام، لا بد أن نسابق وإلا سبقنا، ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [سورة الجمعة: ٨]، يأتيك ويقطعك، حتى لو كنت من أهل الصلاح ربما كتبت رسالة إن لم تنته منها ما طبعت بعد موتك، كثير من السلف ضاعت كتبهم، كثير من علماء العصر ضاعت كتبهم.

فإذا يا طالب العلم عليك أن تجتهد في تحصيل العلم وتدوينه ونشره، وإفادة نفسك، وإفادة غيرك، أهل الدنيا في آخر الشهر الميلادي من السنة ربما يستدعي أحدهم المحاسبين، وما ينام، يجمع الديون، ويحسب الداخل والخارج في هذا العام، وما له وما عليه، ونحن ما نقول: نجمع، لكن كل منا ينظر في نفسه، ما دفع؟ لماذا قدم؟ ماذا صنع؟ ما الذي يريده في العام الآتي؟ ما هي المشاريع التي سيعزم عليها؟

وهذا إنما يفعله أصحاب الهمم، أما من ضعفت همته لا ينظر إلى هذا، ولا يبالي. فالله الله، أوصي نفسي وإياكم بالاجتهاد في طلب العلم والحرص عليه، وأوصي نفسي وإياكم بالتوبة إلى الله عَزَّجَلَّ من التقصير، ومما نفع فيه من الذنوب والمعاصي، نسأل الله العافية.

وكذلك نوصي أنفسنا وإياكم بالتزود من الأعمال الصالحة، فإنها نعم الزاد، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]، هكذا يقول الله عَزَّجَلَّ.

٥١ - باب الرجاء

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر: ٥٣].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سورة سبأ: ١٧].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [سورة طه: ٤٨].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦].

الشرح:

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يذكر العلماء: أن هذه أرجى آية في القرآن.

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ من المعاصي السيئات.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ فإن الله غفور رحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هذا لمن تاب وأناب، وأما من مات على الشرك فلا يغفره الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾

[سورة النساء: ٤٨]، أو تحمل الآية على أنها في شأن المسلمين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر: ٥٣] لمن شاء من المسلمين.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ومن لوازم ذلك أنه يعفو ويصفح، ويتجاوز

ويرحم، ومما يدل على أنها في المؤمنين أنه ختمها بالرحيم، وهذه الرحمة خاصة

بالمؤمنين، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣].

وسبب النزول يوضح ذلك: أن قوما زنوا فأكثروا وسرقوا فأكثروا، فقالوا: يا

رسول الله إن لما تدعو إليه لحسن، فهل لنا من توبة؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ

الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [سورة الزمر: ٥٣].

ومما يدل على ذلك المعنى: أن رجلاً أسرف على نفسه، فقال لأبنائه: إذا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في يوم راح، نصفي في البر، ونصف في البحر، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً لا يعذب به أحداً من العالمين، ففعلوا، فقال الله: ما حملك على ذلك، قال: يا رب خافتك، فما تلافاه غيرها.

الشاهد أن المسرف على نفسه يخشى من معرة ذنوبه ومعاصيه، والإسراف منهى عنه، سواء كان في المعنويات أو كان في الحسيات، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤١]، فكما لا تسرف في الدقيق، في الملح، في السكر، في أكلك، في شربك، كذلك لا تسرف في أفعالك، فتجاوز المأمور، وترتكب المحظور، بل لازم شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾) أي: أن الكافر هو الذي سيجازى على أعماله بخلوده في النار، وأما المؤمن فالرجاء في الله عَزَّوَجَلَّ أن يتجاوز عنهم، أو عمن شاء منهم، ثم يكون مآلهم إلى الجنة، يخلدون ويتنعمون.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾) أي: العذاب الدائم المستمر الذي لا ينقطع.

(وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾) لكن هذه الرحمة التي وسعت كل شيء قال: ﴿فَسَاكُنْهُمَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦-١٥٧] الآية.

فالرجاء في الله حسن، فكما أنه يجب عليك أن تخاف الله عَزَّوَجَلَّ فكذلك يجب عليك أن ترجوه، فلا تأمن من مكروهه، ولا تيأس من رحمته، ولا يقع اليأس إلا يوم القيامة لمن مات على الكفر، أما في الدنيا فلا يأس.

ولذلك ذكر بعض أهل العلم: أنه لا يجوز لعن الحي الكافر؛ لأن اللعن طرد من رحمة الله، والكافر لعله أن يتوب ويستعتب، وقد لعن النبي ﷺ قوما فأسلموا وحسن إسلامهم، وجاهدوا، ونفعوا أنفسهم، وانتفع بهم الإسلام، والله المستعان.

فلا تيأس من روح الله، انظر إلى الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم قتل مائة نفس، لما لم ييأس من روح الله وأتى تائباً منيباً تلافاه الله عَزَّوَجَلَّ بتلك التوبة، ﴿وَلِيَّ لَعْفَازٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [سورة طه: ٨٢].

وهذا باب مهم أن يطرق؛ لأن كثيراً من الناس ربما يصل بهم القنوط من رحمة الله إلى ترك العبادة، كما أن كثيراً من الناس ربما يصل بهم الأمن من مكر الله إلى ترك العبادة، وأذكر لكم قصة حصلت واطلعت عليها بنفسي: هو أن رجلاً كان في حجه قد قتل زوجته وأمه وأباه، وبعض أقاربه أيضاً، ثم أدخلوه السجن، فأقبل على المسجد، وحفظ القرآن، وكان يقيم الليل، ويصوم من النهار، فجاءه أحدهم وقال له: أنت يغفر الله لك بعد هذا كله؟ فما زال به حتى يأسه من رحمة الله، فترك صلاته، وترك قراءته، وترك كل ما كان فيه، وناقشناه مرة فقال: لن أصلي إلا بشرط واحد، قلنا: ما هو؟ قال: أن يخرجوني الآن إلى حورة، فإذا قد رأيت أنهم سيعدموني أنا مستعد أصلي ركعتين، أما دون ذلك فلا.

المهم أنه خُبط بسبب عدم السياسة معه الشرعية، وإلا مثل هذا قد ابتلي إن كان مازالت تائعا في باطله هنا عليك بترهيبه وتخويفه، وإن كنت قد رأيت منه الانكسار، وكثرة النوح والبكاء والخوف ونحو ذلك فأمنه يا أخي، آمنه من بطش الله وغضبه، فإن التوبة تهدم ما قبلها وتجب ما قبلها، والله المستعان.

٤١٢ - وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أُلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وفي رواية لمسلم: «مَنْ شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ».

الشرح:

الحديث قد تقدم معنا في شرح مسلم.

قوله: (عن عبادة بن الصامت) هو أحد النقباء الذين بايعوا النبي ﷺ في العقبة، وهو من خيرة الأنصار.

قوله: (مَنْ شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فيها فضيلة التوحيد، وأنه يتكون من ركنين أساسيين: النفي والأثبات، وهذه أفضل كلمة على ما يأتي في باب الأذكار، والشهادة هي: الإخبار والإعلام، ولا بد فيها من النطق، ولا تكون حقه إلا إذا طابقت الواقع، وإلا فهي باطلة.

(وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ) توكيد، وحدة توكيد للإثبات، لا شريك له توكيد للنفي.

(وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) يشهد لمحمد ﷺ بالنبوة والرسالة، وأنه عبد ليس له شيء من خصائص الألوهية، ورسول، لا كما يقول الزنادقة ومن إليهم من أنه: عبارة عن رجل ذكي، استطاع أن يجمع الناس على تخيلات ونحوها.

(وَأَنَّ عِيسَى) أي ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَام، **(عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)** وذكره في هذا الحديث دون غيره؛ لعل الحديث وجه إلى قوم كانوا على النصرانية، أو أنه أراد أن يبين حقيقة

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه عبد ورسول، وليس بابن ولا بربر، كما يزعم النصارى ومن إليهم.

(وَكَلَّمْتُهُ) أي كان بالكلمة، وليس هو الكلمة، ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩].

(أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) أي أن الله عَزَّجَلَّ أوحاها إلى مريم، نزل بها الروح الأمين، وأخبرها أن الله عَزَّجَلَّ قد بشرها بعيسى، فعند ذلك قالت: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ وَلَمْ أَكُ بِغَيًّا﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٦١﴾ [سورة مريم: ٢٠-٢١].

(وَرُوحٌ مِنْهُ) أي: من الأرواح التي عنده.

(وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ) شهد أيضا أن الجنة ثابتة موجودة، وأنها دار المؤمنين.

(وَالنَّارُ حَقٌّ) موجودة ثابتة، وأنها مأوى الكافرين.

(أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ) أي: وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه، إما أن يدخل دخولا أوليا، وإما أن يكون مآله إلى الجنة.

(مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ) أي حرم عليه الخلود فيها، أو حرمه عليها ابتداء.

والحديث فيه فضيلة التوحيد، والله المستعان.

٤١٣ - وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً، وَمَنْ لَقِينِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَقَيْتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً». رواه مسلم^(١).

معنى الحديث: (مَنْ تَقَرَّبَ) إِلَيَّ بِطَاعَتِي (تَقَرَّبْتُ) إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي وَإِنْ زَادَ زِدْتُ (فَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي) وَأَسْرَعَ فِي طَاعَتِي (أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً) أَي: صَبَيْتُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ وَسَبَقْتُهُ بِهَا وَلَمْ أُحِوْجْهُ إِلَى الْمَشْيِ الْكَثِيرِ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْمَقْصُودِ.
(وَقُرَابُ الْأَرْضِ) بضم القاف، ويقال: بكسرهما والضم أصح وأشهر ومعناه: مَا يُقَارِبُ مِلَأَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

((مَنْ تَقَرَّبَ) إِلَيَّ بِطَاعَتِي (تَقَرَّبْتُ) إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي) هذا تأويل صار عليه النووي في كثير من شأنه، ونحن نثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة القرب على حقيقتها، مع اعتقادنا أنه في علوه على عرشه استوى، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١].

(أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً) فيه إثبات صفة الهرولة لله، بينما قال النووي: (أَي: صَبَيْتُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ)، وهذا تأويل لا يوافق عليه.

هذا الحديث والذي سبقه ساقه المصنف؛ لبيان الرجاء، لا سيما من الموحدين، أما غير الموحدين فلا يجوز له ذلك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: ١١٠]، فمن شروط الأمن من مكر

(١) حديث رقم: (٢٦٨٧).

الله عَزَّوَجَلَّ: أن تكون موحدًا، مؤمنًا، غير مشرك ولا مندد، فعند ذلك تأمن أن الله عَزَّوَجَلَّ سيدخلك الجنة بإذنه تعالى، مع خوفك من الانحراف عن صراطه المستقيم والطريق القويم، على التفصيل الذي ذكرناه سابقًا: لا بد أن يكون الإنسان بين الخوف والرجاء.

قوله: (يقول الله عَزَّوَجَلَّ) فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الذاتية الفعلية.

قوله: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدَ) كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٠].

(أو أزيد) «إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»، كما هو في حديث ابن عباس، ولعله يأتي بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا) أي أنها لا تضاعف.

(أو أغفر) قد يغفر الله بسلوكه لكثير من مكفرات الذنوب، إما التوبة والاستغفار، أو الدعاء واستغفار المؤمنين له، أو ما يصيبه من الهم والغم والحزن، ونحو ذلك، أو ما يفعله من الطاعات والقربات.

(وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا) فيه إثبات صفة التقرب لله عَزَّوَجَلَّ على ما يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه.

(وَمَنْ آتَانِي يَمْسِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً) تثبت الصفة لله عَزَّوَجَلَّ على المعنى الذي يليق به.

(وَمَنْ لَقِينِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً) لكن بشرط: **(لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا)**

(مَغْفَرَةً)، ويدل على هذا المعنى أيضًا: حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الترمذي، ويشهد له هذا الحديث.

(وهذه الصفات تجد مثل النووي والحافظ ابن حجر، والمازري، والقرطبي ربما تأولها وتصرفها عن ظاهرها، وترغم أن مذهب السلف التأويل، وهذا غير صحيح مذهب السلف إمرار أدلة الأسماء والصفات على ما جاءت، بغير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل). من شرحي على "صحيح مسلم".

٤١٤ - وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُوجِبَاتَانِ؟ قَالَ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

فيه فضيلة التوحيد، وشؤم الشرك.

وفيه أن من مات على التوحيد يرجى له الخير، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه، بخلاف المشرك.

قال النووي في "شرحه على مسلم" (٩٧/٢): وَأَمَّا حُكْمُهُ ﷺ عَلَى مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِدُخُولِ النَّارِ وَمَنْ مَاتَ غَيْرَ مُشْرِكٍ بِدُخُولِهِ الْجَنَّةَ فَقَدْ أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، فَأَمَّا دُخُولُ الْمُشْرِكِ النَّارَ فَهُوَ عَلَى عُمُومِهِ فَيَدْخُلُهَا وَيَخْلُدُ فِيهَا وَلَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْكِتَابِيِّ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ وَبَيْنَ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ وَسَائِرِ الْكُفَرَةِ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ بَيْنَ الْكَافِرِ عِنَادًا وَغَيْرِهِ وَلَا بَيْنَ مَنْ خَالَفَ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ وَبَيْنَ مَنْ انْتَسَبَ إِلَيْهَا ثُمَّ حَكِمَ بِكُفْرِهِ بِجَحْدِهِ مَا يَكْفُرُ بِجَحْدِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَأَمَّا دُخُولُ مَنْ مَاتَ غَيْرَ مُشْرِكٍ الْجَنَّةَ فَهُوَ مَقْطُوعٌ لَهُ بِهِ لَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ كَبِيرَةٍ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ أَوَّلًا وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ كَبِيرَةٍ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا فَهُوَ تَحْتَ الْمَشِيشَةِ فَإِنْ عَفِيَ عَنْهُ دَخَلَ أَوَّلًا وَإِلَّا عَذَّبَ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنَ النَّارِ وَخُلِدَ فِي الْجَنَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ

(١) حديث رقم: (٩٣).

٤١٥ - وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرَّحْل، قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثَلَاثًا، قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أَخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: «إِذَا يَتَكَلَّمُوا» فَأَخْبِرْ بِهَا مُعَاذُ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْتِمًا. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).
وقوله: (تَأْتِمًا) أي خوفًا مِنَ الإِثْمِ فِي كَتْمِ هَذَا الْعِلْمِ.

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان عظيم الرجاء لمن كان موحدًا؛ لقول النبي ﷺ: (مَا مِنْ عَبْدٍ) أي: من الرجال والنساء، ومن الأحرار والعبيد، ونحو ذلك. (يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) بشرط: الإخلاص والصدق. (وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ) بهذا القيم، وإلا فإن المنافقين يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وليسوا من الإسلام في شيء. (إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ) إما أن يكون حرمه تحريم ابتداء، أو حرمه تحريم خلود. (قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أَخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟) أراد الصحابي أن ييشر الناس حتى يعلموا ما عند الله من الفضيلة والمنزلة. (قَالَ: إِذَا يَتَكَلَّمُوا) أي على هذا الفضل، وربما تركوا العمل. (فَأَخْبِرْ بِهَا مُعَاذُ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْتِمًا؟) حتى لا يكتم العلم الذي قاله النبي ﷺ. وفيه جواز الإرتداف، سواء على البعير أو الحمار أو الخيل، أو على مثل هذه التي تركب الآن من السيكلات ونحو ذلك.

(١) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

(قَالَ: يَا مُعَاذُ) فيه مناداة الطالب؛ حتى ينتبه لما يلقي إليه.

(قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ) أي أنه قال: لبيك، وأجبتك، وسعديك: دعا له

بالسعادة في الدارين.

(قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ) فيه تكرار السؤال؛ حتى يقع

الانتباه التام.

(مَا مِنْ عَبْدٍ) وهذا دال على العموم.

٤١٦ - وعن أبي هريرة - أو أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شك الراوي - ولا يَضُرُّ الشَّكُّ فِي عَيْنِ الصَّحَابِيِّ؛ لِأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ عُدُولٌ - قَالَ: لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَذْنَتْ لَنَا فَنَحْرَنَا نَوَاضِحَنَا فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْعَلُوا» فَجَاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ، وَلَكِنْ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَاجِهِمْ، ثُمَّ ادْعُ اللَّهَ هُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ الْبَرَكَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ»، فَدَعَا بِنَطْعٍ فَبَسَطَهُ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَاجِهِمْ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَمِجُّ بِكَفِّ ذُرَّةٍ وَيَمِجُّ بِكَفِّ تَمْرٍ، وَيَمِجُّ الْآخِرُ بِكِسْرَةٍ، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النَّطْعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا فِي أَوْعِيَّتِكُمْ»، فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَّتِهِمْ حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وَعَاءً إِلَّا مَلَأُوهُ، وَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَفَضَلَ فَضْلُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ». رواه مسلم ^(١).

الشرح:

(١) حديث رقم: (٢٧).

هذا الحديث ساقه المصنف؛ لبيان ما فيه من الرجاء للموحدين المخلصين لرب العالمين، وفيه من العجائب غير ذلك: بركة دعاء النبي ﷺ، وفقه عمر، وفيه دلائل من دلائل نبوة النبي ﷺ، والحال الذي كان عليه الصحابة من قلة الظهر ونحو ذلك. وفيه فضيلة التعاون على البر والتقوى، فإن ذلك من أسباب البركة، إلى غير ذلك مما ذكر في الحديث، وفيه ترتيب العسكر، والاهتمام بطعامهم وشرابهم، وغير ذلك، وفيه العودة إلى الأمير؛ حتى لا تقع الفوضى التي يسلكها ربما كثير من الناس، والله المستعان.

(أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) إخبار منه بفضيلة الشهادة.

(وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ) حقاً.

(لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ) فيه فضيلة اليقين؛ لأن الشك من أسباب الردة، لا سيما من شك في أصل التوحيد، وشك في أمور من مهمات الدين لا يجوز الشك فيها.

وقوله: (لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا) فيه إثبات عقيدة الرؤية من أن المؤمن يلقى ربه يوم القيامة.

(فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ) أي: يمنع من الجنة، لكن ليس فيه أنه يدخلها دخولاً أولياً، أو أنه يكون بعد أن يمحص، والله المستعان.

٤١٧ - وعن عَتَبَانَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، قَالَ: كُنْتُ أَصَلِّيَ لِقَوْمِي بَنِي سَالِمٍ، وَكَانَ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَإِذَا جَاءَتِ الْأَمْطَارُ، فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ قَبْلَ مَسْجِدِهِمْ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصْرِي وَإِنَّ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِي يَسِيلُ إِذَا جَاءَتِ الْأَمْطَارُ فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ، فَوَدِدْتُ أَنَّكَ تَأْتِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي مَكَانًا أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَأَفْعَلُ».

فَعَدَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ، وَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَذِنَتْ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ: «**أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟**» فَأَشْرَتْ لَهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَحَبُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَبَّرَ وَصَفَفْنَا وَرَاءَهُ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ، فَحَبَسْتُهُ عَلَى خَزِيرَةٍ تُصْنَعُ لَهُ، فَسَمِعَ أَهْلَ الدَّارِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي فَتَابَ رِجَالٌ مِنْهُمْ حَتَّى كَثُرَ الرَّجَالُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا فَعَلَ مَالِكٌ لَا أَرَاهُ؟ فَقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَقُلْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَنَغَّى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى؟**» فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ أَمَّا نَحْنُ فَوَاللَّهِ مَا تَرَى وَدَّهْ وَلَا حَدِيثُهُ إِلَّا إِلَى الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَنَغَّى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

و(عِثْبَانُ): بكسر العين المهملة وإسكان التاء المثناة فوق وبعدها باءٌ موحدة.

و(الْخَزِيرَةُ) بالخاء المعجمة والزاي: هِيَ دَقِيقٌ يُطْبَخُ بِشَحْمٍ. وقوله:

(تَابَ رِجَالٌ) بِالتَّاءِ المثلثة: أَي جَاؤُوا وَاجْتَمَعُوا.

الشرح:

قوله: (عِثْبَانُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هو من كبار الأنصار، وكبار الصحابة، وهو ممن شهد بدرًا، وكفى بها منقبة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**مَا ضَرَّ أَهْلَ بَدْرٍ مَا صَنَعُوا بَعْدَ الْيَوْمِ**». وغزوة بدر كانت في السنة الثانية من الهجرة في رمضان في السابع عشر منه.

(كُنْتُ أَصَلِّيَ لِقَوْمِي بَنِي سَالِمٍ) أي أنه إمامهم.

(وَكَانَ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَإِذَا جَاءَتِ الْأَمْطَارُ) وهذا يقع كثيرًا، ربما يستمر الوادي لأيام.

(فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ قَبْلَ مَسْجِدِهِمْ) وفيه أن المطر عذر.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

(فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصْرِي) فيه جواز التحدث بما أصاب الإنسان، لا على سبيل الاعتراض على القدر، ولا على سبيل التسخط.

(وَأَنَّ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِي يَسِيلُ إِذَا جَاءَتِ الْأَمْطَارُ فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ)

لكن يشكل على هذا: أن النبي ﷺ رخص لعتبان بن مالك ولم يرخص لابن أم مكتوم، قال العلماء: ابن أم مكتوم كان أقوى من عتبان.

(فَوَدِدْتُ أَنَّكَ تَأْتِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي مَكَانًا أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى) فيه جواز اتخاذ مصلى في البيت للحاجة، وفيه التبرك بآثار النبي ﷺ، وهذا خاص به.

(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: سَأَفْعَلُ) فيه تلمظ النبي ﷺ بأصحابه، ومبادرته إلى إدخال السرور عليهم، وهذا من الأمور الممدوحة عند أهل الشأن؛ لأن الإنسان إذا تلمظ بمن يليه ارتاحوا له، وفرحوا بمؤانسته، ونحو ذلك، والنبي ﷺ كان لا يأنف أن يأكل مع المسكين.

(فَعَدَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) فيه الوفاء بالوعد.

(وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ) فيه الصحبة لمن أراد أن يخرج بعيدا أو قريبا؛ حتى يتأنسان بالكلام ونحو ذلك.

(وَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَذْنَتْ لَهُ) فيه فضيلة الاستئذان، مع أن النبي ﷺ لنا بمنزلة الوالد ومع ذلك استأذن.

قوله: (فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ: أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟) فيه المبادرة إلى العمل قبل أن يحال بينه وبينه، وفيه استئذان صاحب البيت في بيته.

(فَأَشْرْتُ لَهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَحَبُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ) فيه العمل بالإشارة.

(فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَبَّرَ وَصَفَّقْنَا وَرَاءَهُ) فيه جواز الاجتماع في النافلة، لكن ليس على التأييد، وإنما على تارة وتارة.

(فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ) فيه أن النبي ﷺ صلى الضحى، بخلاف ما يقوله بعضهم بأنه: لم يصل الضحى قط.

(ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ) فيه الاقتداء بالإمام.

(فَحَبَسَتْهُ عَلَى خَزِيرَةٍ تُصْنَعُ لَهُ) فيه الدعوة؛ لما فيها من إدخال السرور واجتماع الناس، «ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا الله حتى تروا أنكم قد كافأتموه»، فأراد أن يكافئ النبي ﷺ مع ما هو فيه من شكره والثناء عليه بأن يؤكله شيئا مما معه.

وفي تواضع النبي ﷺ حيث حبس على الخريزة.

وفيه أن الإنسان إذا نزل عند قوم وألحوا عليه على أن يبقى عندهم لأكل أو نحو ذلك أن يطيب أنفسهم بذلك.

(فَسَمِعَ أَهْلَ الدَّارِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي) يعني سمع أهل المحلة، ليس معنى الدار أن أهل البيت الذين يسكنون معه في بيته، وإنما أراد أهل المحلة الذي كان فيها.

(فَقَابَ رِجَالٌ مِنْهُمْ) أي: اجتمعوا، وجاءوا للاستفادة من سماع حديث رسول الله صل الله عليه وسلم، وهكذا إذا نزل العالم أو نحو ذلك ترى الناس يتبارون إلى المجيء وحضور ذلك المجلس، فلا يعدمون من خير.

(فَقَالَ رَجُلٌ: مَا فَعَلَ مَالِكٌ لَا أَرَاهُ؟) فيه أنهم كانوا يتحدثون مع غير النبي ﷺ، يحدث بعضهم بعضاً ومالك ابن الدخشم، وقيل: ابن الدخشن، رجل من الأنصار.

(فَقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُتَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) شهد بما يظهر له، وأخبر بما يظنه.

(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ) فيه الذب عن العرض إذا تكلم في الإنسان في غيبته.

(أَلَا تَرَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَنَغَّى بِذَلِكَ وَجَهَ اللَّهِ تَعَالَى؟) فيه فضيلة التوحيد لمن أتى به على الوجه الذي أمر الله، وفيه فضيلة الإخلاص لله عزَّوَجَلَّ بذلك.

وفيه إثبات صفة الوجه لله عَزَّجَلَّ، وهي صفة ذاتية تليق بجلاله، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾
 وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ [سورة الشورى: ١١]، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو
 الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن: ٢٧]، وهو وجه حقيقي، قال النبي صل الله عليه وسلم:
 «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

(فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) فيه رد العلم إلى الله ورسوله، وهذا في حياته، وأما بعد
 موته فيرد العلم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(أَمَّا نَحْنُ فَأَوَالَهُ مَا نَرَى وَدَّهُ وَلَا حَدِيثُهُ إِلَّا إِلَى الْمُنَافِقِينَ) فيه الحكم على الرجل
 بظاهره، وقول السلف: من أخفى علينا بدعته لم تخف علينا ألفته.

عن المرء لا تسأل وسل عن إن القرين إلى المقارن ينسبُ
 (فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ
 وَجْهَ اللَّهِ) قال بعضهم: بأن النبي ﷺ زكاه، وقال بعضهم: بأنه كان من المنافقين،
 والذي يظهر أنه صحابي، زكاة النبي ﷺ.

٤١٨ - وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ
 مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَالْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: «أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ، فَقَالَ: «لِلَّهِ أَرْحَمُ
 بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدَهَا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

السبي يؤتى به مما يقع من الحروب بين المسلمين والكفار، فيسترق الكفار
 الذين أخذوا عنوة، ويسمون بملك اليمين، وكان النبي ﷺ يقسمهم على المسلمين
 على حسب الأنصبة التي علمت في باب الغنيمة والفبيء.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(فَإِذَا امْرَأَةٌ مِّنَ السَّبْيِ تَسْعَى) أي: تجري وتبحث عن ابن لها؛ لأن الحروب ربما فرقت بين الأهل.

(إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ) لعله شارد مثلها.
(أَخَذَتْهُ فَأَلَزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا) فرحا ببقائه، وإزالة لما في قلبها من الفقد.
(فَأَرْضَعَتْهُ) من ثديها، وفيه محبة الأم للابن، وشدة فقد الولد.
(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَكَهَا فِي النَّارِ؟) ضرب الأمثال.

٤١٩ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي». وفي رواية: «غَلَبَتْ غَضَبِي» وفي رواية: «سَبَقَتْ غَضَبِي». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

(لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ) أي: حين خلق الخليقة.
(كَتَبَ فِي كِتَابٍ) قيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: على العرش.
(فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ) لأن بعضهم استشكل هذه اللفظة قال: كيف؟ نحن نعلم أن العرش أعلى المخلوقات وهذا الكتاب فوق العرش؟ لكن يوضح هذه اللفظة ما أخرجه أحمد في (مسنده) بسند ثابت: أنه كتب في العرش.
(إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي) ولكن رحمته مكتوبة للمؤمنين في الآخرة، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦].

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١).

٤٢٠ - وعنه ^(١)، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عَنْهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَا حَمُّ الْخَلَائِقِ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ».

وفي رواية: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِئَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَا حَمُونَ، وَبِهَا تَغْطِطُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(٢).

ورواه مسلم أيضًا مِنْ رَوَايَةِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِئَةَ رَحْمَةٍ فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَا حَمُ بِهَا الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ، وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وفي رواية: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِئَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طَبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً فِيهَا تَغْطِطُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ».

الشرح

سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَكَرَ أَنَّهُ عَاشَ ثَلَاثُمِائَةَ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ قَالُوا: مِائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ سَنَةً مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَ فَارِسِيًّا مَجُوسِيًّا، ثُمَّ لَحِقَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ، حَتَّى لَحِقَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَكْرَمَهُ اللَّهُ، وَفِي قِصَّتِهِ عَجَبٌ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى الْخَيْرِ، وَانْتِقَالِهِ مِنْ شَخْصٍ إِلَى شَخْصٍ، وَمِنْ عَالَمٍ إِلَى عَالَمٍ، حَتَّى أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

أولاً: اعلم أن الرحمة تنقسم إلى قسمين: قسم صفة الله، وهذه ليست مخلوقة، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ بصفاته أزلا وأبداً، فهو الرحيم الذي يرحم، والرحمن الذي يرحم،

(١) أي: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

ورحمته من الرحمن على وزن فعلان تدل على المبالغة، وهي رحمه عامة، ومن اسم
الرحيم رحمه خاصة، ﴿وَكَانَ يَٰلَهُمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣].

الثاني: الرحمة المخلوقة، وهي الرحمة التي في قلوب المخلوقين، فتجد الوحش
الكاسر يرفع قدمه عن ولده، انظروا إلى الأسد الذي يهرب منه كل حيوان في الغالب
حتى الإنسان يتهيب من الأسد ومع ذلك يرعى أبناءه، ويرعى اللبوة التي هي في محل
الزوجة، وهكذا الثعابين ترحم أبناءها، والعقارب، والإنسان يرحم أبناءه، فربما قدم
أبناءه على نفسه، فهذه الرحمة جعلها الله في قلوب العباد، وإلا أهلك بعضهم بعضا
إلا من تغير عن هذا الحال ألت رحمته.

فالشاهد أن لا يظن الظأن أن رحمة الله مخلوقة لهذا الحديث، فهذه الرحمت
التي خلقها الله عَزَّجَلَّ فيما بين العباد.

قوله: (جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةً جُزْءٍ) أي: خلق، فإن جعل تأتي بمعنى خلق، كما يأتي
في حديث سلمان.

(فَأَمْسَكَ عَنْهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا) هذه الرحمة التي بين
الناس، بين الأقارب، بين الأرحام، بين الأزواج، بين الأبناء، بين الوحوش، ما هي إلا
واحدة.

**(فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ
تُصِيبَهُ)** دابة بهيم، ومع ذلك ألهمها الله عَزَّجَلَّ هذا الأمر، ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ وَ
هُدًى﴾ [سورة طه: ٥٠].

(بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ) وقد يكون التعاطف بين أبناء
الجنس الواحد، ولا يقع تعاطف بين الآخرين، فمثلا: الثعبان يقرص الإنسان
ويؤذيه، لكن مع بعضه يحصل التعاطف.

(وَبِهَا يَتَرَحَّمُونَ): يرحم بعضهم بعضاً، بإعانة المحتاج، وبالتفريج عن المكروب.

(وَبِهَا تَغْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا) الوحش الذي هو حيوان بهيم يحطم كل شيء يرحم ولده، الجمل هذا الكبير يرضع ولده الصغير، الذي ربما لو داسه برجله لأهلكه، ومع ذلك تراه يرضعه، ويعينه على القيام، ثم يعلمه طريقة الرضاع، فبعد أن يكبر يعلمه الرعي، سبحانه الله! ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: ٥٠].

(وَأَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يعني يكون في يوم القيامة التجاوز عن المسلمين.
وفي الرواية الأخرى: **(طِبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)** أي: واسعة كبيرة.

٤٢١ - وعنه ^(١)، عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ، قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(٢).
وقوله تَعَالَى: (فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ) أَيُّ: مَا دَامَ يَفْعَلْ هكذا، يُذْنِبُ وَيَتُوبُ اغْفِرْ لَهُ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا.

الشرح:

هذا الحديث قد يفهمه بعضهم على غير الفهم الصحيح، فيتجراً على المعاصي، وهذا ليس هو الفهم الصحيح لهذا الحديث، ولكن هذا الحديث فيه الشاء على

(١) وهو أبو هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

أصحاب التوبة الصادقة، ﴿وَلِيَّ لَعْفَارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾

[سورة طه: ٨٢]، يتوب توبة صحيحة، بشروطها، ثم يقع منه الوقعة في الذنب، يغلبه هواه، وتغلبه نفسه وشهوته، فيندم ويبادر بالتوبة، فيغفر الله له الذنب.

ليس في الحديث أنه يتجرأ على المعاصي، ثم يتجرأ على نقض التوبة، ثم يعود إلى معصيته، ويتلاعب بالتوبة، لا، ولكن يتوب توبة نصوحا، فيتجاوز الله عن ذنبه، ويوفق في آخر المطاف إلى ملازمة التوبة.

قوله: (فيما يحكي عن ربه ﷻ) أي أن هذا حديث قدسي.

قوله: (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا) إما أن يكون هذا على سبيل الخبر في الأمم المتقدمة، أو خبر في الأمم اللاحقة.

(فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي) أن الله هو غفار الذنوب، وستار العيوب، ﴿وَلِيَّ لَعْفَارٍ

لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [سورة طه: ٨٢]، فلا يجوز أن تطلب المغفرة من غيره، ﴿وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٥].

(فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا) فيه أن الله يتكلم بكلام يسمع، يسمعه من شاء من عباده.

(فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ) يغفر: يتجاوز، يأخذ بالذنب من

استمر فيه، ربما أذاه ذلك إلى الهلكة، ﴿وَمَا أَصْبَرُكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سورة الشورى: ٣٠]، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [سورة العنكبوت:

٤٠]، فالإنسان حين يقول اللهم اغفر لي ذنبي لعلمه أن الله هو الغفور الغفار، وفي نفس الوقت يخشى من الله أن يؤاخذه بذنبه، فإن الذنوب لها آثار على الأبدان والقلوب والجوارح، فكم من إنسان سلبت منه الاستقامة بسبب ذنوبه، وكم من إنسان تغير حاله من الكثرة إلى القلة بسبب ذنوبه

يذكرون أن رجلاً من الكويت كان مليونير بكثرة أمواله، لكن غالب التجار يدخلون في الربا إلا ما رحم ربي، فدارت الليالي والأيام وإذا به يصبح مفلساً، فأصبح يتقوت على ما تعطيه الحكومة مما يسمى بالضمان الاجتماعي، فالله إذا أخذ الإنسان أفسد عليه حياته، نسأل الله السلامة والعافية، نسأل الله أن يتوب علينا في الدنيا والآخرة

ثم عاد فأذنب، فقال أي رب اغفر لي ذنبي) إذا ليس معنى التوبة النصوح ألا يعود في الذنب، فإن الإنسان قد يعود، لأن بعض أهل العلم فسروا قال الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [سورة التحريم: ٨]: أنه لا يعود في الذنب، فقد يعود.

لكن التوبة النصوح أن تستوفي الشروط: الإخلاص، وأن تكون في زمن يقبل فيه التوبة، وأن يقلع عن الذنب، وأن يندم على فعله، وأن يعزم على عدم العودة إليه.

ثم قال: (فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ) هذا ليس على الإباحة، أي يفعل ما شاء من الذنوب، خلاص رُفع عنه التكليف، هذا لا يقوله عاقل، فإن التكليف يلزم العبد ما دام عاقلاً، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: ٩٩] أي: الموت، وأمام ما ذهب إليه بعض الصوفية إلى أن اليقين رتبة إذا وصلها العبد أبيحت له المحظورات فهذا قول فاسد.

وإنما هذا مثل قول النبي ﷺ: «**لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم**»، ليس معنى ذلك أنه أباح لهم الحرام، وإنما على أن فضلهم عظيم، إذا فعلوا شيئاً مما يستوجب المؤاخظة ربما غفر وتجاوز عنهم؛ لسابقيتهم، ولجميل فعلهم، إذ أنهم واجهوا جيشاً عرمرماً مع قتلهم وضعفهم.

٤٢٢ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى، فَيَغْفِرُ لَهُمْ». رواه مسلم ^(١).

الشرح:

من أسماء الله الغفار والغفور، والتواب والرحيم، ومقتضى ذلك: أنه يغفر الذنوب، ويرحم من شاء.

وهنا يقول النبي ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) إثبات صفة اليد لله، والنبي صل الله عليه وسلم كان يكثر أن يحلف بهذا القسم.

(لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا) أي صار حالكم على الطاعة جميعا.

(لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ) أي قبضكم إليه.

(وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ) لا لمحبه للذنوب، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يحب الباطل، لا يحب الزور، ولكن لمحبه للتوبة، فاقترضت حكمته أنه يخلق الشر؛ ليتلى العباد، فمن آمن كان من المحسنين، والله يحب المحسنين، ومن كفر وأعرض ونافق كان من المنافقين، والله لا يحب الكافرين.

(فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى) فيه فضيلة الاستغفار، وأنه من شعار المؤمنين الخالص، الاستغفار قال عنه النبي ﷺ: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا».

(فَيَغْفِرُ لَهُمْ) يروى عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم أبحث هذا الأثر الله أعلم بصحته أنه قال بمعنى ذلك: لا يهمل الاستجابة وإنما الدعاء؛ لأن الله إذا وفقك للدعاء الرجاء أن يستجيب، وفعلا، والله بسبب الذنوب والمعاصي أحيانا يضيق صدر العبد حتى لا يستطيع أن يدعو الله، وإذا دعاه يجد ثقلا في الدعاء، وعدم شعور بالاستجابة، بينما كلما كان مستغفرا تائباً عائداً إلى الله عَزَّوَجَلَّ يفتح له أبواب الخير، فيدعو الله

(١) حديث رقم: (٢٧٤٩).

ويستجيب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه وعد بذلك، ووعد لا يخلف، إنما قد يتخلف بسبب ذنوب العباد، أو لعلم الله أن الخيرية له في غير ذلك.

وفي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خارج الصحيح: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِنْثٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ فِي الدُّنْيَا^(١)، وَإِمَّا أَنْ تُدَخَّرَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يُصَرَّفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلُ ذَلِكَ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا نُكِّرَ. قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»^(٢)

فإذا الدعوة مستجابة على أي حال، إلا أن بعض الدعوات استجابتها بتحقيق الطلب، وبعض الدعوات استجابتها بادخار الأجر والثواب، وبعض الدعوات استجابتها بصرف الشر عنك وأنت لا تدري.

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": وليس معنى هذه الأحاديث أن الله يحب الذنوب، معاذ الله، فإنه يحب الطاعات، ويكره المعاصي والسيئات، ويحب الأبرار ويكره الفجار، ويحب المتقين ويكره الأشرار، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحب التوبة، والرجوع إليه؛ لما يأتي أن العبد عرف أن له ربا، وحصلت منه المراقبة، فكانت التوبة محبوبة:

أولاً: للإقلاع عن الذنب.

الثاني: لأنها مراقبة لله.

الثالثة: أنها سبب لي زوال الذنوب وآثارها.

(١) أي يحقق ما طلب.

(٢) رواه البخاري في (الأدب المفرد) (٧١٠).

الرابع: أنها سبيل الأنبياء والمرسلين، وبها أرسلوا، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ عَفَّارًا﴾ [سورة نوح: ١٠]، وفي سورة هود آيات كثيرة على أن الأنبياء والرسل بعثوا بالتوبة.

الخامس: أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وأن التوبة تهدم ما قبلها مهما كان الذنب، فليس هناك عمل يهدم ما قبله مثل التوبة، والإسلام، واختلف في الحج، والإسلام هو في الحقيقة توبة، الإسلام يهدم ما قبله؛ لأنه في الحقيقة توبة. وأما أهل البدع قد لا يوفقون للتوبة، إلا أن يشاء الله، وإلا فقد قال النبي ﷺ: «يمرقون من الدين ثم لا يعودون إليه، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية»، ولذلك قال بعض السلف: آخر الحديث أشد عليهم من أوله؛ لأنهم يقولون على الله بغير علم، وتتجارى بهم الأهواء، نسأل الله السلام والعافية.

وفيه تعين الاستغفار والعمل، خلافا لما يقول بعض الصوفية: علمك بحالي يغنيك عن سؤالي، هذا كلام غير صحيح، فالذي يريد شيئا يطلبه من الله، إبراهيم حين ألقوه في النار قال: حسبي الله ونعم الوكيل، ما سكت، والنبي ﷺ حين قيل لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣]، ما سكت.

وهم أكثر الناس وأشد الناس مراقبة لله، وثقة في الله، وتوكل على الله، ولم يصدر منهم: علمك بحالي يغنيك عن سؤالي، فإن الدعاء والاستغفار لا ينافي التوكل بحال بل هو من التوكل، فعل الأسباب مع صدق الاعتماد على الله، هو من الأسباب التي يُنصر بها الإنسان، ويحفظ بها الإنسان التوبة، والاستغفار والدعاء). اهـ

٤٢٣ - وعن أبي أيوب خالد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْلَا أَنْكُمْ تُذْنِبُونَ، لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ». رواه مسلم ^(١).

الشرح:

أبو أيوب خالد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أحوال النبي ﷺ، وأسكن النبي ﷺ في بيته حين هجرته، ومن عجيب شأنه: أن النبي ﷺ حين دخل بيت أبي أيوب طلب من أبي أيوب أن يكون في أسفل البيت؛ لأنه أيسر لخروجه ودخوله، وقضاء حاجته، فأجابته إلى ذلك، فلما كان من الليل تذاكر مع أم أيوب أنهم في أعلى، وربما كانوا على النبي ﷺ، فباتوا في جانب من البيت حتى أصبحوا، ثم قصوا للنبي ﷺ الخبر، ورجعوا أن يكون في الأعلى.

وكان النبي ﷺ إذا جاءته هدية من طعام ونحوه أكل منها ثم أرسل بها إلى أبي أيوب، ومرة جاءه طعام فأرسل به إلى أبي أيوب، فإذا به لم يجد أثر أكل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، فقال: «إِنْ فِيهِ ثُومٌ أَوْ شَجَرَةٌ أَكْرَهَ رِيحَهَا»، قال: وأنا أكره ما تكره يا رسول الله.

وشأنه أنه مات مجاهداً في الجيش الذي غزى القسطنطينية، وكان قائده يزيد بن معاوية، وأوصى أن يدفن إلى أقرب مكان إلى الروم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وقد غلى الصوفية في قبره، وبنو عليه القباب كقبور غيره من الصالحين، إلا ممن رحم ربي من الموحدين، وإلا فهؤلاء لا يتورعون عن مثل هذا الشر.

«لَوْلَا أَنْكُمْ تُذْنِبُونَ، لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ» هي الجنة التي ما فيها ذنوب، خلاص من دخلها يكون مسخراً في التسبيح والتحميد، «يَلْهَمُونَ

(١) حديث رقم: (٢٧٤٨).

التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس، وأما الإنسان لا بد منه في ابتلائه واختباره، ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْأَشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [سورة الأنبياء: ٣٥].

وما أبرك التوبة على صاحبها إذا تحققت شروطها! **«أما علمت أن التوبة تهدم ما قبلها»**، تهدم ما قبلها، وقد اختلف العلماء في معنى قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الفرقان: ٧٠]، قيل: تبدل سيئاتهم حسنات على الحقيقة، أي في صحفهم وكتبهم التي تكتب ما وقع منهم، وقيل المراد يبدل الله سيئاتهم حسنات أي: أن من كان يفعل المعصية يأتي بعدها بالطاعة.

لكن الذي يظهر خلاف هذا القول، ويدل عليه ما أخرجه مسلم^(١) عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: **«إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجَ مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ: اغْرُضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَازْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيَقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيَقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا ههنا»**، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ.

فهذا الكتاب كتاب الرجاء من الكتب المهمة، إلا أنه ينبغي للإنسان أن يكون في حاله وسطا بين الخوف والرجاء، فالخوف يمنعه من الاستمرار في المعاصي والسيئات، والرجاء يمنعه من القنوط من رحمة الله، زد على ذلك: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: ١١٠]، أما ترجو

(١) حديث رقم: (١٩٠).

لقاء الله وتذهب تنوع في المعاصي هذا عنده قصور، ولكن إن كان رجاءك في الله حسن فاعمل مما يؤدي إلى كرامتك عند الله عَزَّوَجَلَّ.

٤٢٤ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا قُعُودًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي نَقَرٍ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا فَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، فَفَزَعْنَا فَقُمْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزَعَ فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ إِلَى قَوْلِهِ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اذْهَبْ فَمَنْ لَقِيتَ وَرَاءَ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُسْتَقِينًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**». رواه مسلم^(١).

الشرح:

ساق المصنف الحديث وأخذ منه الشاهد وهو فضل التوحيد، وأن من قالها مستيقنا قلبه بها كان مبشرا بالجنة، وقد خرج أبو هريرة لتبشير الناس، فرده عمر بعد أن ضربه على صدره حتى وقع على استه كما في الحديث، وقال عمر: يا رسول الله لا تخبر الناس فيتكلموا، فأخذ النبي ﷺ بمشورة عمر.

الشاهد: **(اذْهَبْ فَمَنْ لَقِيتَ وَرَاءَ هَذَا الْحَائِطِ)** أي من المسلمين، والدليل: **(يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** ويلزم من شهادة أن لا إله إلا الله إضافة وأن محمدا رسول الله. **(مُسْتَقِينًا بِهَا قَلْبُهُ)** لا شك ولا تكذيب لهذه الكلمة. **(فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ)** جزاء توحيده وعمله صالح.

وهذا الحديث قد يستدل به من يستدل على فضل التوحيد، وأن كلمة لا إله إلا الله تكفي، لكن قد قال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: ثم فرض الله بعد ذلك فرائض، فعلى الإنسان أن يأتي ما استطاع من أمر الله، وأن يستغفر مما وقع فيه من نهي الله.

(١) حديث رقم: (٣١).

وفيه حرص الصحابة على مجالسة النبي ﷺ، وفيه قيام النبي ﷺ بحاجته، وفيه تخوف الصحابة على النبي ﷺ من مكر الكافرين والمنافقين، ومع ذلك قد أنزل الله على نبيه: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [سورة المائدة: ٦٧]، فإن الله قد تكفل بعصمته، فلا يؤذى بقتل أو ضرب أو نحو ذلك.

وفيه فضيلة لأبي هريرة حيث خرج يبتغي رسول الله ﷺ. وفيه جواز دخول الحائط بغير إذن صاحبه إن كنت تشعر بعدم الممانعة من ذلك، فما زال الناس ينزلون إلى حوائط غيرهم، إما لقضاء حوائجهم، وإما للتنزه والتفسيح وغير ذلك، سيأتي معنا أن النبي ﷺ ربما خرج إلى بئر أريس، والله المستعان، وجاء أبو بكر فجلس معه على البئر، ثم جاء عمر فجلس معه على البئر، ثم جاء عثمان فلم يجد مكانا فجلس خارج البئر، ويشرح كل واحد منهم بما له عند الله من التبشير بالجنة ونحو ذلك.

٤٢٥ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّجَلْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّهْنِ أَضَلَّانَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [سورة إبراهيم: ٣٦] الآية، وَقَوْلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلِّمْهُ مَا يُبْكِيهِ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ - وَهُوَ أَعْلَمُ - فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

(١) حديث رقم: (٢٠٢).

(عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أبو محمد، عابد الصحابة.

أي أن النبي ﷺ بينما هو يقرأ القرآن فذكر قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: (رب) أي: يا رب، (إنهن) هذه الأصنام (أضللن كثيرا من الناس)، فأصبحوا مشركين منددين، كافرين برب العالمين، (فمن تبعني) من بريتي (فإنه مني)، (ومن عصاني فإنك غفور رحيم)، مع معصيتهم لله ويرجو لهم المغفرة والرحمة.

وقوله الله عَزَّجَلَّ ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [سورة المائدة: ١١٨] تفعل فيهم ما تشاء، ﴿وَلَنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة: ١١٨]، فكل يدعو الله أن يغفر ذنوب أصحابه، فعند ذلك رفع النبي ﷺ يديه وقال: (اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي) أي: ارحمهم وتجاوز عنهم، وفيه رحمة النبي ﷺ لأُمَّته وشفقته عليهم، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨].

والمراد بالأمّة هنا أمة الإجابة، يبكي على أمة الإجابة، أما أمة الدعوة لما جيء إليه يدعو لقريش بسبب شحة المطر قال لمضر: «إنك لجريء»، وقد دعا لهم. (وبكى) ﷺ على أُمَّته شفقة عليهم ورحمة بهم.

(فَقَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ) والله عَزَّجَلَّ أعلم بحال محمد، وأعلم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، ولكن تربط الأمور بأسبابها ومسبباتها. (يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أَمْتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ) وهذا وعد من الله بكرامة هذه الأمّة، وبرفعة هذه الأمّة، وبما يحصل لهذه الأمّة من الخير، نسأل الله عَزَّجَلَّ أن يكرمنا بكرمه.

وجبريل هو الملك الموكل بالنزول بالوحي إلى أنبياء الله ورسله، وكانت تبغضه اليهود جداً.

٤٢٦ - وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أو عبد الرحمن، توفي صغيراً، قال عنه النبي صل الله عليه وسلم: «يسبق العلماء يوم القيامة برتوة»، أي برمية حجر، ولاه النبي ﷺ على اليمن؛ لفقهه وعلمه.

هذا حديث عظيم، فيه فضيلة التوحيد.

قوله: (كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ) فيه جواز الإرداف، وأن هذا ليس من خوارم المروءة، ومنه ما يفعله الناس الآن من الركوب على هذا المُمْر وما في بابه.

(فَقَالَ: يَا مُعَاذُ) فيه مناداة العالم لطالبه؛ حتى يتنبه.

(هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟) فيه التعليم بصورة السؤال.

(وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟) أي إذا أدوا حقه، وهو حق أوجبه الله على نفسه، لا

يوجبه فعل العبد، كما يقول المعتزلة.

مال العباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع

أن عُذِّبُوا فبِعَدْلِهِ أو نعموا فبفضله وهو الكبير الواسع

(قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) هذا في حياته، وإلا فيقال: الله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(قَالَ: «فَإِنْ حَقَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا») أي: يوحده، وهذا معنى (لا إله إلا الله)، فقوله: (أَنْ يَعْبُدُوهُ) إثبات، (وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) نفي، ولا إله إلا الله متضمنة للنفي والأثبات، وفي معناها كثير من الآيات والأحاديث.

(وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم، لا الأكبر ولا الأصغر، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

(وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذَّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) قد يقول قائل: وما القول في أصحاب الكبائر؟ القول في أصحاب الكبائر أنهم تحت المشيئة، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، لكن معنى الحديث (أَنْ لَا يُعَذَّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا): إن شاء، أو ممن حقق التوحيد وأتى بالأعمال والتوبة النصوح، وأولئك يعذبون إن شاء بقدر ما عندهم من المعاصي، ثم يتوب عليهم ويدخلهم الجنة.

(فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟) فيه التبشير بالعلم، والتبشير بفضل الله، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة يونس: ٥٨]. (قَالَ: لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَبَّرُوا)؛ لأن كثيرا من الناس إذا سمعوا مثل هذه الأحاديث أحاديث الرجاء ربما تمردوا على الله، وعتوا في المعاصي، ونسأل الله السلامة والعافية.

ثم أخبر معاذ عند موته بهذا الحديث؛ خشية كتم العلم، قال: فأخبر به معاذ عند موته تأثما.

٤٢٧ - وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فذلِكَ قوله تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٧]». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

قال: (الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ) وكذلك الكافر يسأل في قبره، والمنافق يسأل في قبره، لكن النبي ﷺ أراد أن يثبت تثبيت الله عزَّجَلَّ للمؤمنين.

(الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ) أي: من ربك.

(يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) لأنه يسأل: من ربك؟ ومن نيك؟

(فذلِكَ قوله تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾) يثبتهم أيضًا، مع أنه يمر بأهوال شديدة، إلا أن المؤمن يثبت.

٤٢٨ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً، أَطْعَمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ».

وفي رواية: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطِي بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتٍ مَا عَمِلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا». رواه مسلم^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١)، الحديث بطوله أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة في (المصنف)، وغيرهم، من طريق زاذان عن البراء، وبعضهم ربما لا يحسن هذه الطريق ويقول: بأنه لا يحتمل التفرد، وجمهور أهل العلم يثبتون الحديث.

(٢) حديث رقم: (حديث رقم: ٢٨٠٨).

الشرح:

ما زال النووي رَحْمَةُ اللَّهِ يَذْكُرُ الأحاديث الدالة على حسن الرجاء وفضله ومنزلته في هذا الدين العظيم، فإن المسلم يرجو الله، ويرجو بركة اليوم الآخر، فانظر من رحمة الله بالمؤمن أنه إذا عمل الحسنة، تدخر إلى يوم القيامة، ويرزق في الدنيا، وأما الكافر إنما هي طعمته في الدنيا.

(إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً) لا تقبل منه، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ

هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٣].

(أَطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا) إما ملبس، وإما مسكن، وإما منكح، أو غير ذلك. (وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ) يوافيه بها، ويضاعفها له. (وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ) ما شاء الله، يطعم ويرزق في الدنيا، ويبارك له في شأنه بسبب الطاعة، وتدخر له الحسنات الباقيات، التي قال عنها الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالْبَلَقِيَّتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [سورة مريم: ٧٦]، ولذلك الكفار عجلت لهم طياتهم في حياتهم الدنيا.

٤٢٩ - وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ

كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمَرٍ عَلَى بَابٍ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ». رواه مسلم^(١). (الْغَمَرُ): الكثير.

الشرح:

«هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»، فانظر إلى هذا الفضل العظيم، أنت تصلي كل يوم

(١) حديث رقم: (٦٦٨).

ويجعل الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الصلاة كفارة لما يقع فيه الإنسان من الذنوب، فالصلوات تزيل الذنوب، وتغسل الذنوب كما يغسل الماء الأبدان.
وفي الحديث ضرب الأمثال.

٤٣٠ - وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

جاء عن عائشة: «يُصَلِّي عَلَيْهِ مِائَةٌ»، فهذا دليل على عظيم الرجاء، ويأتي إخوانك المسلمون يصلون عليك، ويدعون لك بالرحمة والمغفرة والتجاوز والعفو والصفح، لكن حاله من يكون ممن لا يشرك بالله شيئا، وهذا قد لا يوجد في كثير من الناس، شرط شديد، فبعض الناس عنده الشرك الأصغر، وهو لا يعلم، وبعضهم يتعاطى الشرك الأكبر، لكن على المسلم أن يكون تائبا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.
وقوله: (مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ) خرج مخرج الغالب، وإلا حتى النساء.
(فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا) بل ولو صلت أيضا النساء وهن موحيدات غير مندندات.

(لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ) وذلك أن صلاة الجنائز هي شفاعة، هي دعاء، يدعو المسلم لأخيه المسلم فيستجيب الله، ومن فضل الله أن جعل الله عَزَّوَجَلَّ لنا مثل هذا الشأن لتكفر سيئاتنا، وإلا هلكنا.
وفيه خطر الشرك، وعظيم شأن التوحيد، وإكرام الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين.

(١) حديث رقم: (٩٤٨).

٤٣١ - وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قُبَّةٍ نَحْوَا مِنْ أَرْبَعِينَ، فَقَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشَّرِكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

قوله: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) كانوا يجالسونه كثيرا؛ للاستفادة منه، ولمحبتهم له.

(فِي قُبَّةٍ نَحْوَا مِنْ أَرْبَعِينَ) دليل على أنهم كانوا يجتمعون، وهذا من الأمور مهمة، ينبغي لطلاب العلم أن يجتمع بعضهم مع بعض حول شيخهم، فالتفرق من الشيطان. (فَقَالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟) أي أهل الإسلام يكونون في ربع أهل الجنة، وبقية الأمم في ثلاثة أرباع.

(قُلْنَا: نَعَمْ) لأنه عدد كبير، إذا كان منذ آدم إلى أن يرثي الله الأرض ومن عليها وأهل الجنة ربعها من أمة محمد هذا خير عظيم، فضل واسع.

(قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ) هذا أعظم، أن الجنة قُسمت ثلاثة أثلاث، فكان لأهل الإسلام ثلثها، وبقية الناس يشتركون في ثلثيها.

(قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ» حلف بغير استحلاف؛ لتوكيد خبره.

(إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) وهذا خير عظيم، وفضل واسع، بل أعظم من ذلك، قال النبي ﷺ: «خَيْرُتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ أَوْ يَدْخُلُ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).

فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُنْتَفِينَ؟ لَا، وَلَكِنَّهَا لِلْمُتَلَوِّثِينَ،
الْخَطَّاءُونَ»،^(١)

ويوضح هذا حديث بريدة: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ثَمَانُونَ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ»، فظهر لك جليا أن ثلثي أهل الجنة هم أهل الإسلام أمة محمد ﷺ؛ لكثرتهم، وأن بقية الأمم في الثلث، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

قال: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ) إثبات صفة اليد لله.
(إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) رجا قبل أن يوحى إليه لعله لما ذكر.
(وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة) وفي رواية: «مؤمنة»، على ما يأتي معنا في عدة مواطن، وفي رواية: «لا يدخل الجنة إلا المؤمنون أو المسلمون»، أما الكافر لا عبرة بأعماله وإن صلحت طاهرا، فإن الكفر مانع من موانع قبول العمل.
(وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود)؛ لكثرة أهل الشرك وقلة أهل الإسلام.

(أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر) يعني لا تكاد ترى بالعين.

٤٣٢ - وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: هَذَا فَكَأَنَّكَ مِنَ النَّارِ». وفي رواية عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ يَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ». رواه مسلم.^(٢)

(١) أخرجه أحمد، حديث رقم: (٥٤٥٢)، وهو في (الصحيح المسند)، من حديث أبي موسى.

(٢) حديث رقم: (٢٧٦٧).

قوله: «دَفَعَ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: هَذَا فِكَائُكَ مِنَ النَّارِ» مَعْنَاهُ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لِكُلِّ أَحَدٍ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَاَلْمُؤْمِنُ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ خَلَفَهُ الْكَافِرُ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِذَلِكَ بِكُفْرِهِ».

وَمَعْنَى «فِكَائُكَ»: أَنْتَ كُنْتَ مَعْرُضًا لِدُخُولِ النَّارِ، وَهَذَا فِكَائُكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، قَدَّرَ لِلنَّارِ عَدَدًا يَمْلَأُهَا، فَإِذَا دَخَلَهَا الْكُفَّارُ بِذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، صَارُوا فِي مَعْنَى الْفِكَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

المهم أنه من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه يسلمهم من النار، ويدخل في أماكنهم يهود ونصارى، فإن قال قائل: كيف هذا؟ كيف يأخذون أماكن غيرهم بدون ذنب منهم؟ يقال: بأن الذنب موجود، إلا أن المؤمن إذا دخل الجنة أخذ ما كان قد أُرصد لو أسلم فلان أو علان، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠]، والكافر يدخل النار ويوجد مساكن أناس كانوا مستحقين لها من أهل الإسلام سلمهم الله، إما بشفاعته الشافعين، وإلا برحمة رب العالمين.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: فَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ تِلْكَ الذُّنُوبَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيُسْقِطُهَا عَنْهُمْ، وَيَضَعُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِثْلَهَا بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، فَيَدْخِلُهُمُ النَّارَ بِأَعْمَالِهِمْ لَا بِذُنُوبِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [سورة الأنعام: ١٦٤].

وَقَوْلُهُ: (وَيَضَعُهَا) مَجَازٌ، وَالْمُرَادُ: يَضَعُ عَلَيْهِمْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، لَكِنْ لَمَّا أَسْقَطَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ سَيِّئَاتِهِمْ، وَأَبْقَى عَلَى الْكُفَّارِ سَيِّئَاتِهِمْ، صَارُوا فِي مَعْنَى مَنْ حَمَلَ إِثْمَ الْفَرِيقَيْنِ؛ لِكُونِهِمْ حَمَلُوا الْإِثْمَ الْبَاقِي، وَهُوَ إِثْمُهُمْ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّمَا كَانَ لِلْكَفَّارِ سَبَبٌ فِيهَا، بِأَنْ سَنَوْهَا، فَتُسْقِطُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ بَعْفُو

اللَّهُ تَعَالَى، وَيُوضَعُ عَلَى الْكُفَّارِ مِثْلُهَا؛ لِكَوْنِهِمْ سَنُوهَا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

٤٣٣ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُذْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ، فيقول: أتعرفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أتعرفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فيقول: رَبِّ أَعْرِفْ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ، وَأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).
(كَنَفُهُ): سَتْرُهُ وَرَحْمَتُهُ.

الشرح:

هذا دليل على عظيم رحمة الله عَزَّجَلَّ بالمؤمنين، المؤمن يغير الله سيئاته إلى حسنات، ويستر عليهم، ويتجاوز عنهم، والكافر يخزى على رؤوس الخلائق، ﴿آلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود: ١٨]، بهذا تعلم عظم شأن التوحيد، والمؤمن حين يقف بين يدي الله يعترف بذنبه، كما هو حاله في الدنيا، «اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت»، وأما المجرم والكافر فلا يُستَر؛ لأنه يجادل فيفضح.

٤٣٤ - وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النِّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [سورة هود: ١١٤] فَقَالَ الرَّجُلُ: أَلَيْ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لجميع أُمَّتِي كُلِّهِمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣)، وجاء عن غير ابن مسعود، وهو حديث ثابت.

الشرح:

فيه عظيم تجاوز الله عَزَّوَجَلَّ عن المسلمين، وهذه من أحاديث الرجاء، قد يذنب الإنسان، فيتوضأ، ويحسن الوضوء، ثم يأتي المسجد مستغفراً، تائباً، مصلياً، مسبحاً، فيكون في ذلك كفارة لذنوبه ومعاصيه، وكذلك الوضوء، كما سيأتي معنا في فضائل الوضوء، وفي فضائل الصلاة، أن هذه العبادات مكفرات.

وفيه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن هذه الآية نزلت في شأن ذلك الرجل من الأنصار، ومع ذلك صارت العبرة بعموم اللفظ.

وفيه معنى حديث النبي ﷺ: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**».

٤٣٥ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جاء رجل إلى النبي ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ. قَالَ: «**هَلْ حَضَرْتَ مَعَنَا الصَّلَاةَ؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**قَدْ غُفِرَ لَكَ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

وقوله: (أَصَبْتُ حَدًّا) مَعْنَاهُ: مَعْصِيَةٌ تُوجِبُ التَّعْزِيرَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْحَدَّ الشَّرْعِيَّ الْحَقِيقِيَّ كَحَدِّ الزَّانَا وَالْخَمَرِ وَغَيْرِهِمَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْحُدُودَ لَا تَسْقُطُ بِالصَّلَاةِ، وَلَا يَجُوزُ لِلْإِمَامِ تَرْكُهَا.

الشرح:

هو بمعنى الحديث الأول أن الصلاة والطهارة مكفرات.

(١) أخرجه البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤).

٤٣٦ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا». رواه مسلم^(١).

(الأكْلَة): بفتح الهمزة وهي المرة الواحدة مِنَ الْأَكْلِ كَالْغَدْوَةِ وَالْعَشْوَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

فانظر إذا كان بشرية تشربها من الماء أو بلقمة تأكلها من الطعام تقول بعدها: الحمد لله يرحمك الله، كيف بالموحدين؟ كيف بالمصلين والصائمين القانتين المنفقين الطائعين لرب العالمين؟ فهذا من أدلة الرجاء، معناه: لا تحتقر من الأعمال شيئاً، وسيأتي معنا حديث عبد الله بن عمرو: «أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز ما من عامل يعمل بواحدة منها تصديق وعدّها ورجاء ثوابها إلا أدخله الله الجنة».

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": قوله (إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى) صفة الرضى لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية، الثابتة لله على ما يليق بجلاله، ثابتة بالقرآن والسنة، والإجماع.

(عَنِ الْعَبْدِ) المسلم، سواء كان رجلاً أو امرأة.

(أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ) سواء كانت أكلة تامة، كغداء وعشاء، أو أكلة خفيفة، ولو كان نوع من الحلوى أو البسكوت، أو غير ذلك مما يأكله الناس.

(فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا) وليس معنى ذلك أن كل لقمة تقول بعدها: الحمد لله، هذا من التكلف، وهذا أيضاً من مما يشق على الإنسان، ولكن يأكل الأكلة حتى ينتهي.

(أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا) سواء كان يشرب عصيراً، أو يشرب ماء، أو يشرب عسلاً، أو غير ذلك، فهذا من أسباب رضا الله عن العبد، وأعظم ذلك ما جاء

(١) حديث رقم: (انظر الحديث (١٤٠)).

عن أبي أمامة عند البخاري ^(١): «الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُودَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنَى عَنْهُ، رَبَّنَا». اهـ

٤٣٧ - وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا». رواه مسلم ^(٢).

الشرح:

هذا حديث عظيم في فضل التوبة، وقد تقدم باب التوبة، وما فيه من البركات وعظيم الهبات، ربنا عَزَّوَجَلَّ لكرم وجوده وفضله ورحمته يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار حتى لا يسوف، ربما يموت قبل أن يتوب، يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل؛ حتى لا يسوف، ربما يموت قبل أن يتوب، ولكن مبادرة مبادرة، إذا قدر ووقعت في ذنب بادر بالتوبة، لا تسوف ولا تؤخر. وفي إثبات صفة اليدين لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يبسط يده، كما أنه يقبض ويأخذ ويطوي. وفيه أن التوبة مقبولة ما لم تطلع الشمس في مغربها، فإذا طلعت الشمس في مغربها، لا توبة، وهكذا عند الغرغرة لا توبة.

٤٣٨ - وعن أبي نجيح عمرو بن عَبَسَةَ - بفتح العين والباء - السُّلَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بَرَجْلًا بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا، جَرَأُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ» قُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي اللَّهُ» قُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ

(١) حديث رقم: (٥١٤٢).

(٢) حديث رقم: (انظر الحديث (١٦)).

أَرْسَلَك؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْتَانِ، وَأَنْ يُوحَدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»، قُلْتُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ»، ومعه يَوْمُئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي».

قَالَ: فَدَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي، وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ حَتَّى قَدِمَ نَقْرٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ، وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَنْتَ الَّذِي لَقَيْتَنِي بِمَكَّةَ».

قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ، أَخْبَرَنِي عَنِ الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَرْتَفِعَ الشَّمْسُ قَيْدَ رُمْحٍ، فَإِنَّمَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مُحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ تُسَجَّرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مُحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَإِنَّمَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ».

قَالَ: فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَالْوُضُوءُ حَدَّثَنِي عَنْهُ؟ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ، فَيَتَمَضَّمُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَسْتَنْثِرُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنْامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنْامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَنْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

فحدث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أمانة صاحب رسول الله ﷺ فقال له أبو أمانة: يا عمرو بن عبسة، انظر ما تقول! في مقام واحد يُعطى هذا الرجل؟ فقال عمرو: يا أبا أمانة، لقد كبرت سنِّي، ورَّقَ عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله تعالى، ولا على رسول الله ﷺ، لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً - حتى عد سبع مرّات - ما حدثت أبداً به، ولكنني سمعته أكثر من ذلك. رواه مسلم^(١).

قوله: (جُرَاءٌ عَلَيْهِ قَوْمُهُ) هو بجيم مضمومة وبالمدة على وزن علماء، أي: جاسرون مُستطيلون غير هائين، هذه الرواية المشهورة، ورواه الحميدي وغيره (جِراءٌ) بكسر الحاء المهملة، وقال: معناه غَضَابٌ ذُووْ غَمٍّ وَهَمٍّ، قَدْ عِيلَ صَبْرُهُمْ بِهِ، حَتَّى أَثَّرَ فِي أَجْسَامِهِمْ، مِنْ قَوْلِهِمْ: حَرَى جِسْمُهُ يَحْرَى، إِذَا نَقَصَ مِنْ أَلَمٍ أَوْ غَمٍّ وَنَحْوِهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ بِالْجِيمِ.

قوله ﷺ: «بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ» أي ناحيتي رأسه والمراد التمثيل، ومعناه: أنه حيثما يتحرك الشيطان وشيعته، ويتسلطون.

وقوله: «يُقَرَّبُ وَضَوْءُهُ» معناه يُحْضِرُ الْمَاءَ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِهِ.

وقوله: «إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا» هو بالخاء المعجمة: أي سقطت، ورواه بعضهم «جَرَّتْ» بالجيم، والصحيح بالخاء وهو رواية الجمهور.

وقوله: «فَيَسْرُ» أي: يستخرج ما في أنفه من أذى والشرّة: طَرَفُ الْأَنْفِ.

الشرح:

(١) حديث رقم: (٨٣٢).

الشاهد أن هذا الحديث فيه رجاء عظيم، يعني من الوضوء، تسقط خطايا الوجه، خطايا اليدين، خطايا الرأس، خطايا العينين، خطايا القدمين، جميع الخطايا تتساقط من ابن آدم بسبب مثل هذا العمل الصالح والعمل الطيب.

٤٣٩ - وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً أُمَّةٍ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةً أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيَّهَا حَيًّا، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ حَيٌّ يَنْظُرُ، فَأَقْرَعَ عَلَيْهِ بِهَلَاكِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

وهذا من أعظم الأدلة على رجاء هذه الأمة، أنه لا يصيبهم عذاب، بمعنى أنه تأتيهم ما أتى الأمم السابقة من الآيات التي أهلكوا بها وزلزلوا بها ودمروا بها، فإن النبي ﷺ قد قبض، وجعل يدعو لأمته، وينصح أمته بأسباب فلاحها وعزها وقوتها، فهي أمة مرحومة، عذابها في الدنيا القتل.

(إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً أُمَّةٍ) أي كونا.

(قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا)؛ حتى لا يدعوا عليهم بسبب جفائهم وبعدهم.

(فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا) السلف: السابق، والفرط تقدم معنا: أنه الذي

يعد الماء لسقي الإبل ونحوها.

(وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةً أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيَّهَا حَيًّا) لأنه يدعو عليها، وكذلك ينتقم الله له.

(فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ حَيٌّ يَنْظُرُ) ويسلم الأنبياء والمرسلون، لا يهلكون مع الهالكين؛

حتى لا يكون فتنة للناس، ويقولون: كلنا هلكنا، لا، إنما يهلك السيء.

(١) حديث رقم: (٢٢٨٨).

(فَأَقْرَعَيْنَهُ بِهَلَاكِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ) وهذا دليل على سوء معصية الأنبياء

والمرسلين، وعلى فضيلة طاعة الأنبياء والمرسلين.

تقدمت أحاديث الرجاء، وذكر ما ذكر؛ لبيان أن الإنسان لا ييأس من روح الله

مهما كان، بل يرجو رحمة الله، ويرجو رحمته، ويرجو فضله.



٥٢ - باب فضل الرجاء

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنْ خَبَرَا عَنْ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ٤٤ ﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثْمِهِمْ فَزَعَوْتُ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ٤٥ [سورة هود: ١٠٢-٤٥].

الشرح:

بعد أن تكلم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ عن باب الرجاء أراد أن يبين فضله ومنزلته. وقد علمنا أن الله عَزَّجَلَّ يعبد بالرجاء، والخوف، والمحبة؛ لأن الناس في هذا الباب ينقسمون إلى أربعة أقسام:

الخوارج عبدوا الله عَزَّجَلَّ بالخوف.

وغلاة الصوفية عبدوا الله عَزَّجَلَّ بالمحبة.

والمرجئة عبدوا الله عَزَّجَلَّ بالرجاء.

وأهل السنة عبدوا الله بالخوف والرجاء والمحبة، ولذلك كمل إيمانهم، وزاد خيرهم وبرهم.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ٤٤ ﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثْمِهِمْ فَزَعَوْتُ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ٤٥ ﴿أَيُّ رَجَى مِنَ اللَّهِ الْحِفْظَ وَالْكَلاَةَ، فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَةَ مَكْرِ الْقَوْمِ، فَهَذَا مِنَ الْبَابِ الَّذِي تَكَلَّمْنَا فِيهِ، لِيَكُنْ عِنْدَكَ حَسَنُ رَجَاءٍ بِاللَّهِ أَنْ يَحْفَظَكَ وَيَكْلَأَكَ وَيُنْصِرَكَ، وَأُبَشِّرُ مِنَ اللَّهِ بِالْخَيْرِ.

كان عندنا الشيخ علي جعوان الحجوري رَحِمَهُ اللَّهُ، عمر ما شاء الله أكثر من تسعين سنة على التوحيد والسنة في كثيرها، المهم رجوع إلى البلاد يدعو إلى التوحيد، ويحذر من الشرك، ويحذر من السحرة والمشعوذين، فاجتمع عليه السحرة؛ لعمل الحروز

والتماائم؛ لصرفه عما هو فيه، والرجل فيما هو فيه من الخير، ما أثرت فيه الحروز، ولا التماائم، ولا الشعوذات.

يوم من الأيام لقي واحد منهم قال: يا أخ علي أيش عندك من كتاب؟ نحن سبعة اجتمعنا عليك ما استطعنا فيك، قال: أنا عندي كتاب أعظم من كتبكم، هم ظنوا أن الرجل عنده كتاب سحر وشعوذة، بما أنه ما استطاعوا فيه، الرجل عنده الأذكار، عنده القرآن.

فلتكن على حسن الرجاء، انظروا أهل السنة من أبعد الناس عن المس والسحر والشعوذة ما تؤثر فيهم، ما تؤثر هذه الأشياء إلا على ضعيف توحيد، قد يتلى الإنسان نعم، لكن يعافيه الله، ويسير عليها.

النبي ﷺ ابتلاه الله بما فعله ذلك اليهودي من السحر، لكن ما زال في نبوته، وما زال في رسالته، ما زال يدعو إلى التوحيد وإلى السنة، ويلجأ إلى الله، حتى عافاه الله، وأفتاه الله، قال: «يا عائشة شعرت أن الله أفناني»، فشفاه الله.

لكن الإنسان ما يستسلم خلاص إذا قالوا له: عين، سحر، مس، يرتعب، ويزيد بعض المشغبين: عين حاسدة، سحر أسود، جني عاشق، وصاحبنا يرتقل، يا أخي خلك عظيم، خلك، الجني أهون من أن يضعف عقيدتك في الله عز وجل.

كان في أخ يدرس الأصول الثلاثة، وهناك امرأة قد أعيا شأنها القراء، فيها جني ما رضي يتزحزح، وإذا زوجها الجني يمنع زوجها من إتيانها، المهم صاحبنا يدرس في الأصول الثلاثة، وأخو البنت سمع الكلام عن التوحيد والسحر والشرك، وما شاء الله قال: ما يصلح لأختي إلا هذا، فاستدعاه قال له: يا فلان معي أخت لكن قصتها كذا وكذا، قال: زوجني، ما عندي امرأة زوجني، قال: زوجتك بعشرة آلاف، قال: كان معي خمسة آلاف ناولته، ووقعت في نفسي: كيف أبقى خمسة آلاف؟ ذهبت بحثت لها وأعطيته، المهم قال: وجاء بأخته إلي، ونصرني الله على الشيطان.

فالشاهد يا أخو أن الإنسان يستعين بالله، لأن هذه المسألة أصبحت طارئة عند كثير من الناس، أدنى شيء قال: مس، سحر، عين، يا أخي قد تقع العين، لكن ما كل عين قاتلة مهلكة، حتى وإن كان فيك عين أما تصاب بالحمى؟ والحمى مرض، والعين مرض، تصاب بالسرطان، تصاب بالإسهال، تصاب بالقيء، هذه كلها أمراض.

فهكذا العين إذا تعاملت معها التعامل الشرعي زالت، والسحر إذا تعاملت معه التعامل الشرعي زال، لا سيما إذا كنت مؤدياً للأذكار، حمية، الأذكار مثل الحمية، أذكار الصباح وأذكار المساء، وإذا خرجت قل: بسم الله، وإذا دخلت قل: بسم الله، وإذا دخلت الحمام: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث، وإذا أكلت: بسم الله، وإذا عاشرت أهلك: بسم الله، وتجد أن هذه الأشياء كلها تزول، ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٧٣]، هكذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٧٣].

فانظر إلى هذا المؤمن، مؤمن آل فرعون، ما هناك مؤمن في آل فرعون إلا هو، ومع ذلك يحاججهم بالحجج القويمة القوية، الداله على صراحته، وفي آخر الأمر قال لهم: ﴿وَأَقِصْ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ﴾ [سورة غافر: ٤٤]، يعني في حفظي منكم ومن مكرهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرِ الْعِبَادِ﴾ [سورة غافر: ٤٤]، بصير بأفعالهم وأحوالهم، ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [سورة غافر: ٤٥].

٤٤٠ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهُ لَأَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرُولُ». متفقٌ عليه، وهذا لفظ إحدى روايات مسلم^(١)، وتقدم شرحه في الباب قبله.

وروي في الصحيحين: «وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي» بالنون، وفي هذه الرواية: (حيث) بالثاء وكلاهما صحيح.

الشرح

والشاهد منه قوله: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي) فإذا ظننت بربك السلامة والنصر والتمكين والعز كان الله عند ظنك.

فلا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل

إنما يظن بالله غير الحق الجاهلية، وهكذا أهل النفاق يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، فانظر كلمة (وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي) خاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والكلاءة.

(والله) أقسم بغير أن يحلف تأكيداً.

(لَهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ) «وعليها طعامه وشرابه، وقد

أيس منها»، انظر لو واحد دخل صحراء الربع الخالي ثم ضاعت منه دابته التي عليها طعامه وشرابه، ما عساه يمشي؟ سيموت، فعند أن يئس منها ذهب تحت شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على ذلك الحال وإذا بدابته عنده، فقام من شدة الفرح قال: اللهم أنت عبدِي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح.

(١) انظر الحديث (٤١٣) عن أبي ذر.

(وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا) فيه إثبات صفة القرب لله عَزَّجَلَّ، وهو على عرشه.

(وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا) وهو على عرشه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١].

(وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرُولُ) فيه إثبات صفة الهرولة، وفي رواية: «يا ابن آدم اتنني أمشي إليك، وامش إلي أهرول إليك».

(وَرُويَ في الصحيحين: (وأنا معه حين يذكرني) بالنون،) المعنى متقارب.

٤٤١ - وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنه سمع رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام، يقول: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

أي إذا ظننت بأن الله سيرحمك ويتجاوز عنك إن شاء الله أن عند حسن هذا الظن، بينما إذا ظننت غير ذلك ربما يؤدي ذلك إلى غيره السلامة، فعليك أن تحسن الظن بالله، تحسن الظن بالله أن يغفر ذنبك، ويستريح عيبك، ويوسع رزقك، ويسر أمرك، ويصلح ذريتك، أحسن الظن بالله أن الله يدافع عنك من أعدائك، وأن الله عَزَّجَلَّ يحرسك ويحوطك، أحسن الظن بالله أنك إذا قدمت عليه فهو الغفور الرحيم، سيسترك ويتجاوز عنك.

أيضا أحسن الظن بالله أنك لن تموت جوعا؛ لأن كثيرا من الناس الآن ممن يزهد في العلم والصالح يقول: يا أخي هذه اللحية ما تأتي بخير، وربما قال: لحية شعر ما تحته فلوس أزله بالموس، لكن المستقيم ظنه بالله حسن، الرزق ليس بسبب اللحية

(١) حديث رقم: (٢٨٧٧).

من عدمها، الرزق من الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: ٥٨].

وإحسان الظن بالله عبادة عظيمة؛ لأن صفات الله عزَّجَلَّ تؤدي إلى ذلك، اسمه الرحيم، الرحمن، الكريم، الرزاق، اللطيف، العفو، الغافر، الغفار. إلى غير ذلك، كلها أسماء جمال وكرم وجود وإحسان، فكيف تظن به غير الصواب؟
لو قيل لك: اذهب إلى فلان كريم، فلان من الناس، تذهب وكلك رجاء في عطائه، لو قيل لك: اذهب إلى فلان الذي أخطأت عليه يعفو ويصفح، تذهب وأنت مؤمل، فكيف بالله الذي ليس كمثله شيء، الرحيم، الرحمن، الغفور، الودود.
فوالله ينبغي أن يكون ظن المؤمن بربه على أكمل الظن، أما إذا نظرنا إلى أعمالنا أعمالنا دون ذلك، لكن علينا أن ننظر إلى كرم الله وجوده وفضله وإحسانه وعطائه.

٤٤٢ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن^(١).

(عَنَانَ السَّمَاءِ) بفتح العين، قيل: هو مَا عَنَّا لَكَ مِنْهَا، أي: ظَهَرَ إِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ، وقيل: هو السَّحَابُ.
(قُرَابُ الْأَرْضِ) بضم القاف، وقيل: بكسرهما، والضم أصح وأشهر، وَهُوَ: مَا يَقَارِبُ مِلَأَهَا، والله أعلم.

(١) حديث رقم: (٣٥٤٠)، حسن لغيره، فيه كثير بن فائد، مجهول الحال، وقد تابعه سلمة بن قتيبة، وله شاهد عن أبي ذر، وفي سنده شهر بن حوشب، وأصله حديث أبي ذر في مسلم.

الشرح:

يقول: (قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي) إِذَا مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَلْجَأَ إِلَى اللهِ بِالْإِسْتِغْفَارِ وَالرَّجَاءِ، وَيَكُونُ مِنْهُ الْإِجَابَةُ. (يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي) وَلَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ.

(يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَا أُتِيَّتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) لِأَنَّ الشَّرْكَ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ هُوَ الْمَحْبُطُ لِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ.



٥٣ - باب الجمع بين الخوف والرجاء

اعْلَمْ أَنَّ الْمُخْتَارَ لِلْعَبْدِ فِي حَالِ صِحَّتِهِ أَنْ يَكُونَ خَائِفًا رَاجِيًا، وَيَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ سَوَاءً، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ يُمَحِّضُ الرَّجَاءُ، وَقَوَاعِدُ الشَّرْعِ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مُتَظَاهِرَةٌ عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَأْمُنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٩٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة

يوسف: ٨٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الانفطار: ١٣-١٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ

مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَٰوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [سورة الأعراف: ٩-١٥٦].

وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ. فَيَجْتَمِعُ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ فِي آيَتَيْنِ مُقْتَرِنَتَيْنِ أَوْ آيَاتٍ أَوْ آيَةٍ.

الشرح:

(باب الجمع بين الخوف والرجاء) وهذا قد تكلم فيه أهل العلم، فقالوا: ينبغي أن

يكون المسلم في حال صحته مغلبا للخوف؛ حتى لا يقع في المعاصي.

وقال بعضهم: الخوف والرجاء يكون كجناحي طائر، إذا نقص أحدهما سقط

الطائر.

وقال بعضهم: عند الموت يغلب الرجاء؛ للحديث، وأما في بقية الحياة يغلب الخوف؛ حتى لا يقع في المعاصي.

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) ﴿١٤﴾ فترجو أن الله يبيض وجهك، وتخشى من سواد وجهك.

(إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) ﴿١٥﴾ فتخشى عقابه وترجو رحمته.
(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾) ترجو أن تكون من الأبرار، وتخشى أن تكون من الفجار.

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾) فتكون خائفا راجيا.

٤٤٣ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ». رواه مسلم ^(١).

الشرح:

يعني رحمة الله قريبة من المحسنين، فكيف تيأس منها؟ وهكذا عذاب الله شديد فكيف تأمنه؟ فلا بد أن تكون وسطاً؛ حتى لا يميل بك الأمر إلى الخوف المفضي إلى الخسارة، وإلى الأمن المفضي إلى الخسارة.

(١) حديث رقم: (٢٧٥٥).

٤٤٤ - وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا النَّاسُ أَوْ الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قَالَتْ: قَدَّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعَقَ». رواه البخاري^(١).

الشرح:

وأيضا هذا يخشى الإنسان على نفسه من أن يكون حاله حال الطلاح.
قال ابن حجر في فتح الباري (٣/ ١٨٥): وَظَاهِرُهُ أَنَّ قَائِلَ ذَلِكَ هُوَ الْجَسَدُ الْمَحْمُولُ عَلَى الْأَعْنَاقِ وَقَالَ بَطَالُ بْنُ بَطَالٍ إِنَّمَا يَقُولُ ذَلِكَ الرُّوحُ وَرَدَهُ بِنُصْرَةِ الْمُنِيرِ بِأَنَّهُ لَا مَانِعَ أَنْ يَرِدَ اللَّهُ الرُّوحَ إِلَى الْجَسَدِ فِي تِلْكَ الْحَالِ لِيَكُونَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي بُشْرَى الْمُؤْمِنِ وَبُؤْسِ الْكَافِرِ وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ وَزَادَ وَيَكُونُ ذَلِكَ مَجَازًا بِاعْتِبَارِ مَا يُوَلِّ إِلَيْهِ الْحَالُ بَعْدَ إِدْخَالِ الْقَبْرِ وَسُؤَالِ الْمَلَائِكَةِ قُلْتُ وَهُوَ بَعِيدٌ وَلَا حَاجَةَ إِلَى دَعْوَى إِعَادَةِ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ قَبْلَ الدَّفْنِ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ فَمِنْ الْجَائِزِ أَنْ يُحْدِثَ اللَّهُ النُّطْقَ فِي الْمَيِّتِ إِذَا شَاءَ وَكَلَامُ بَطَالِ بْنِ بَطَالٍ يَظْهَرُ لِي أَصُوبٌ. اهـ

٤٤٥ - وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ». رواه البخاري^(٢).

الشرح:

يعني: ما بين الإنسان وبين الجنة إلا التوحيد وما يليه، وما بين الإنسان وبين النار إلا الشرك وما يليه، فليكن الإنسان محققا للتوحيد، ملازما له، حذرا من الشرك والتنديد، وليكن للإنسان ملازم للطاعة، حذرا من المعصية، ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

(١) حديث رقم: (١٣٨٠).

(٢) حديث رقم: (انظر الحديث (١٠٥)).

٥٤ - باب فضل البكاء من خشية الله تعالى وشوقاً إليه

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَحْزُرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [سورة الإسراء: ١٠٩].
وقال تَعَالَى: ﴿أَفَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [سورة النجم: ٥٩-٦٠].

الشرح:

﴿وَيَحْزُرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ إذا قرأوا القرآن وسعوا العلم والبيان.
﴿أَفَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ فالإنسان لا يتعجب تعجب الرد، لكن إن أراد أن يتعجب من آيات الله عزَّجَل فليعجب من عظيم بنائها وعظيم معناها، وما فيها من الخير، وما فيها من الدلالة.

٤٤٦ - وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ» قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُوْرَةَ النَّسَاءِ، حَتَّى جِئْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء: ٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ» فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ. متفقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

قوله: (قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ) فيه فضيلة لابن مسعود، إذ أن النبي ﷺ مع أنه أُنْذِي صوتاً وأَحْسَن صوتاً وعليه نزل القرآن يريد أن يسمع من ابن مسعود.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

وفيه أن سماع القرآن من الغير فيه أثر على الإنسان، فربما زاد خشوعه وتدبره وتعقله؛ لأنه حين يقرأ لنفسه ربما يُشغل بإقامة حروفه عن تدبر معانيه.

(قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك، وعليك أنزل؟) فيه الاستفصال، وذكر ما يتعلق بالحال، وأن القرآن أنزل من الله، فهو وحيه وقوله.

(قَالَ: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي) لاسيما إذا كان القارئ حسن الصوت، حسن القراءة.

(فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُوْرَةَ النَّسَاءِ) وسورة النساء سورة عجيبة، من أتقنها يسحلها سحلا، كما قال ابن مسعود: فسحلتها سحلا، سلسلة، غيرها كذلك، لكن هذه السورة سبحة الله، وابن مسعود كأنه كان متدبرا لها، في الليل قرأ سورة النساء، والنبي ﷺ يسمعه، وحين سأله النبي ﷺ أن يقرأ عليه قرأ عليه من سورة النساء.

(حَتَّى جِئْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾) من كل طائفة يوم القيامة **(﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾)** تشهد عليهم، فإن الرسل يشهدون على أممهم.

(قَالَ: حَسْبُكَ الْآنَ) يعني: يكفي، سيأتي في حديث آخر أنه قال له: **«أحسن»**. **(فَالْتَفَتْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ)** من الخشوع والتدبر والتعقل؛ لأن هذا المعنى عظيم، على التهديد والوعيد، فالنبي ﷺ سيشهد عليك أيها المسلم، وستُسأل عن النبي ﷺ، **«وإنكم مسؤولون عني فما أنتم تجيبون؟»** قالوا: نجيب أنك قد بلغت، قال: **«اللهم اشهد»**.

٤٤٧ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خطب رسول الله ﷺ حُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، فَقَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبْكَيْتُمْ كَثِيرًا» قَالَ: فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ، وَهُمْ خَائِفُونَ. وَتَفَقَّ عَلَيْهِ^(١). وَسَبَقَ بَيَانُهُ فِي بَابِ الْخَوْفِ.

الشرح:

فيه فضيلة الخوف والبكاء من خشية الله.

وفيه أن النبي ﷺ أطلع الله على ما لم يطلع عليه غيره.

وفيه أن الإنسان كلما تدبر وتعقل ما في اليوم الآخر قل ضحكته ولهوه، وزاد خوفه ووجله.

٤٤٨ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَلْجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ عُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ». رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢).

الشرح:

قوله: (لَا يَلْجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) هذا هو الشرط والقيد: أن يكون البكاء من خشية الله، لأن بعضهم يبكي خوف الفقر، وبعضهم يبكي من الفرح، وبعضهم يبكي من الحزن، لكن هذا يبكي من خشية الله، وهي خوفه مع تعظيمه، وقد صل الله عليه وسلم أن من أهل الجنة سيأتي: «رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه». (حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ) وهذا لا يكون، كما لا يعود اللبن في الضرع فذلك لا يدخل النار.

(١) انظر الحديث (٤٠١).

(٢) حديث رقم: (١٦٣٣).

(وَلَا يَجْتَمِعُ غِبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ) في هذه مكرمة للموحدين، ومكرمة للمجاهدين، ومكرمة للطائعين لرب العالمين.

٤٤٩ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ». متفقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

وهذا تضمن عدة فوائد وعدة أبواب، فقد ذكر النبي ﷺ سبعة أصناف، وليس سبعة أشخاص.

(يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ) أي في ظل عرشه، فليس الظل وصف لله عَزَّوَجَلَّ، إذ أن بعضهم قد ظن أن الإضافة هنا إضافة صفة إلى موصوف، والصحيح أنها إضافة تشريف، قد جاء مصرح به: «تحت ظل عرشه»، ولا يلزم من كون ظل العرش أن تكون الشمس فوق العرش، نحن نؤمن أن الله على كل شيء قدير، فهو ظل يخلقه الله، يظل به من شاء من عباده الموحدين والملتقين.

(يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ) يعني ما هناك ظل آخر، يستظل أحدهم بكساء، وأحدهم بحجرة، وأحدهم بشجرة، هذا لا يوجد.

(إِمَامٌ عَادِلٌ) بدأ به؛ لأن الإمام العادل فعله متعدد، وخيره نازل على الأمة، فينتفع الناس به، وإذا فسد الإمام حصل الفساد في الأمة، ولقلة الأئمة العادلين وكثرة الأئمة

(١) انظر الحديث (٣٧٦).

العادلين، لأن هذا اللفظ يطلق على المعنيين: العادل بمعنى: القائم بالقسط، والعادل بمعنى: المائل عن الحق.

فما أكثر العادلين عن الحق في باب الخلافة والإمارة والملك! وهؤلاء ضيعوا الأمانة التي جعلها الله عليهم.

(وَسَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى)؛ لأن الشاب فيه الطيش، فيه التجاوز، فيه البعد، إلا ما رحم ربي، وهذا شاب نشأ في عبادة الله، يصلي، ويصوم، ويقرأ قرآن، ويراقب الله في جلوته وخلوته.

(وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ) أو المسجد، تعلق قلبه بالمسجد، يصلي فيه، ويقرأ فيه، ويتعلم فيه.

(وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ) اجتمعوا على المحبة، وتفرقا حين سافر بعضهم على المحبة، فاجتمعهم على المحبة في الله، وتفرقهم على المحبة في الله.

وقيل: المعنى أنهم اجتمعوا على المحبة في الله، فلما أحدث أحدهما فارقه الآخر من هذا الشأن.

(وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ) وفي الغالب أن من مثل هذا حالها يرغب فيها، منصب، ربما تكون وساطة له، ربما تقدمه وتذنيه، جمال يرغب فيه الناس، ومع ذلك قال: إني أخاف الله.

(وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا) والنبي ﷺ يقول: «المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة، والجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة».

(فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ) وهذا دليل على أن النفقة تكون باليمين.

وهنا تنبيه: وهو أن الإمام مسلم قد روى هذا الحديث مقلوباً، ففيه: «حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله»، وهذا مقلوب.

(وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ) من خشية الله، ومن البكاء من خوف الله، والبكاء على الطمع فيما عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

٤٥٠ - وعن عبد الله بن الشَّخِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي وَرَجَوُفِهِ أَزِيْزٌ كَأَزِيْزِ الْمَرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ.
حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي في الشمائل بإسناد صحيح^(١).

الشرح:

قوله: (أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي) أي حال كونه يصلي.
(وَلَجَوُفِهِ أَزِيْزٌ كَأَزِيْزِ الْمَرْجَلِ) يعني: القدر (مِنَ الْبُكَاءِ) في جوفه، لأن النبي ﷺ لم يكن حاله كحال المتباكين الآن، ربما بعضهم إذا بكى تسمعه يخور كخور الثور، فالإنسان يحاول أن يكتم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن غلبه البكاء وخرج ليس عليه شيء، فإن الإنسان قد يُغلب، والله المستعان.

٤٥١ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَنْدَةَ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة البينة: ١] قَالَ: وَسَمَّيْنِي؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَبَكَى أَبِي. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).
وفي رواية: فَجَعَلَ أَبِي يَبْكِي.

الشرح:

(١) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والترمذي في (الشمائل) (٣٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

فيه فضيلة لأبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو ممن حفظ القرآن على عهد النبي صل الله عليه وسلم.

وفيه أن النبي صل الله عليه وسلم عبد طائع لله عَزَّجَلَّ.

وفيه أن الطالب قد يخص ببض الأمور، إما درس، وإما قراءة، ونحو ذلك.

وفيه تشجيع الطالب المجتهد.

وفيه أن الله يكرم من شاء، سمى أبي لمحمد ﷺ، وهذه والله غاية الكرامة، أن يسميك الله، ويذكرك باسمك أو بوصفك.

وفيه فضيلة لأبي حيث بادر إلى البكاء، لم يأتية الغرور كحالنا الآن، نسأل الله السلامة، إذا جاءنا ثناء من بعضنا ربما يفرح أحدنا به، فكيف بأبي؟ الأمر من الله وبكى خوفاً وخضوعاً وخشوعاً.

٤٥٢ - وعنه ^(١)، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نَزُورُهَا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَكِنِّي أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ؛ فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا. رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(٢)، وَقَدْ سَبَقَ فِي بَابِ زِيَارَةِ أَهْلِ الْحَيْرِ.

٤٥٣ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ، قِيلَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ غَلَبَهُ الْبُكَاءُ، فَقَالَ: «مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ».

(١) أي عن أنس.

(٢) حديث رقم: (انظر الحديث (٣٦٠)).

وفي رواية عن عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قلت: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ. متفقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

الشاهد منه: رقة قلب أبي بكر رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه، حيث يبكي من قراءته للقرآن. وفيه فضيلة لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قدمه النبي ﷺ للصلاة بالناس، وهذا كالإشارة إلى أنه سيكون خليفة المسلمين، وفي ذلك الزمن كان يصلي بالناس خيرهم وأكرمهم، «يَوْمَ النَّاسِ أَقْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ»، وكان أبو بكر على مستوى عظيم من العلم والعمل.

وفيه اهتمام للنبي ﷺ بالجماعة، وكذلك اهتمام الصحابة بالجماعة، مع شدة وجع النبي ﷺ يذكره بالصلاة، وهو يأمرهم بالجماعة.

(فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ) أي القلب.

(إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ غَلَبَهُ الْبُكَاءُ) ولا بأس أن يصلي ولو كان يغلبه البكاء.

(فَقَالَ: مُرُّهُ فَلْيَصِلْ) في رواية قال: «لَنْ أَصَاحِبَ يَوْسُفَ».

٤٥٤ - وعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى بِطَعَامٍ وَكَانَ صَائِئًا، فَقِيلَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، فَلَمْ يَوْجِدْ لَهُ مَا يَكْفِي فِيهِ إِلَّا بُرْدَةً إِنْ غُطِّيَ بِهَا رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِنْ غُطِّيَ بِهَا رِجْلَاهُ بَدَا رَأْسُهُ، ثُمَّ بَسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بَسِطَ - أَوْ قَالَ: أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا - قَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتِنَا عَجَلَتْ لَنَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ. رواه البخاري ^(٢).

الشرح:

(١) أخرجه: البخاري (٦٨٢) عن ابن عمر، وأخرجه البخاري (٦٧٩)، ومسلم (٤١٨) عن عائشة.

(٢) حديث رقم: (١٢٧٥).

أولاً: عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العشرة المبشرين في الجنة، وحديث أن **«عبد الرحمن بن العربي يدخل الجنة حبوا»** لا يصح.

قوله: (أَتَيْ بِطَعَامٍ وَكَانَ صَائِمًا) أي: قرب المغرب.

(فَقَالَ: قُتِلَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قتل في أحد، وهو من خيرة الشهداء في ذلك اليوم، وكان من خيرة شباب قريش، ولكنه أثر الآخرة على الدنيا، وإلا ذكروا في ترجمته: أن شباب قريش كانوا يتسابقون في غسل ملابسهم في أثر ملابسهم؛ لريحها الطيب، ونحو ذلك، ومع ذلك هو أول من صلى بهم الجمعة في المدينة، أول من جمّع بهم مصعب بن عمير بأمر من أسعد بن زرارة.

(وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي) على باب التواضع، وإلا فهذا مبشر بالجنة.

(فَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ مَا يُكْفَنُ فِيهِ)؛ لضيق الحال.

(إِلَّا بُرْدَةً)؛ نوع من اللباس.

(إِنْ غُطِّيَ بِهَا رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ)؛ لضيقها.

(وَأِنْ غُطِّيَ بِهَا رِجْلَاهُ بَدَا رَأْسُهُ) ومثل هذا يقدم تغطية الرأس والوجه، وتغطي

الأرجل بغير ذلك.

(ثُمَّ بَسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بَسِطَ) أي: وسع الله لهم في الأموال.

(قَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا) نرجو أن الله عَزَّوَجَلَّ إنما وسع لهم وادخر

لهم الحسنات إلى يوم يلقوه.

(ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ) وهذا هو الشاهد، كونه بكى من خشية الله.

٤٥٥ - وعن أبي أُمَامَةَ صُدِّيِّ بْنِ عَجْلَانَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةٌ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَقَطْرَةٌ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى». رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ^(١).

وفي الباب أحاديث كثيرة منها: حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذُرِفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ. وَقَدْ سَبَقَ فِي بَابِ النَّهْيِ عَنِ الْبَدْعِ.

الشرح

الشاهد من الحديثين: البكاء من خشية الله.

وأما أبو أُمَامَةَ فهو صُدِّيُّ بْنُ عَجْلَانَ، كان كثير الصلاة والصيام، وكان يحب الجهاد ويقول: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة، فكان النبي ﷺ يقول: «اللهم سلمهم وغنمهم»، وفي آخره سأل النبي ﷺ أن يوصيه قال: «عليك بالصوم، فإنه لا مثل له».

هناك حديث يحسنه بعض أهل العلم: أن النبي ﷺ رأى أبا أُمَامَةَ كثير الذكر لله، فقال: «ألا أدلك على خير من ذكرك بالليل والنهار؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «سبحان الله عدد ما خلق، سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما في السماء والأرض، سبحان الله ملء ما في السماء والأرض، سبحان الله عدد ما بينهما، سبحان الله ملء ما بينهما، سبحان الله عدد كل شيء، سبحان الله ملء كل شيء، سبحان الله ملء ما أحصاه كتابه»، قال: «والحمد لله مثل ذلك».

(١) حديث رقم: (١٦٦٩).

قوله: **(لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ إِلَهَ تَعَالَى مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ)** فيه أن المستحبات والطاعات تتفاوت في باب محبة الله عز وجل لها، وفيه إثبات صفة المحبة لله عز وجل على ما يليق بصفة وجهه وعظيم سلطانه.

فأحب الطاعات إلى الله عز وجل الفرائض، ثم بعد ذلك كل طاعة بحسبها، ففي باب الجهاد أعظم شيء في باب العين ودمع العين، وفي باب الأثر أعظمه البكاء، وكذلك الدم يراق في سبيل الله.

(قَطْرَةٌ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) وهذا هو الشاهد: من خشية الله، ليست فقط قطرة دموع مجردة.

(وَقَطْرَةٌ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) «لَا يُكَلِّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُزْأُهُ يُنْعَبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمُسْكِ»، وسيأتي في كتاب الجهاد إن شاء الله.

وقوله: **(في سبيل الله)** فيه شرطية الإخلاص في مثل هذه الأعمال.

(وَأَمَّا الْأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى) أثر في الغزو، حتى أن البخاري استدل بحديث: أن النبي ﷺ قال: **«من اغبرت قدماه في سبيل الله دخل الجنة»** أو نحو ذلك على أن المشي إلى المسجد يوم الجمعة في سبيل الله، وهو عام، لفظ عام.

(وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى) كالصلاة، والحج، وغير ذلك مما يتعاطاه الإنسان ويحتاج منه إلى حركة الأبدان، أو هكذا إلى أثر ولو حتى كان معنويًا، لو كان أثرًا معنويًا أو أثرًا حسيًا لأفاده إن شاء الله سبحانه وتعالى، فليس بالشرط أن تكون الآثار حسية فقط، **﴿وَنَسْتَبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾** [سورة يس: ١٢] ولو كانت معنوية، والله المستعان.

٥٥ - باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يونس: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الكهف: ٤٥-٤٦].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرِيَهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾﴾ [سورة فاطر: ٥].

وقال تعالى: ﴿لَهُنَّكَ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ [سورة التكاثر: ١-٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِی الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦٤].

والآيات في الباب كثيرة مشهورة.

الشرح:

(باب فضل الزهد في الدنيا والحث عَلَى التقلل منها وفضل الفقر) الزهد في الدنيا أي: عما يلهي منها، وإلا فإن الإنسان يحتاج إلى شيء منها؛ لإقامة دينه ولإعفاف نفسه، حتى قال سفيان: لولا المهنة لتمدل بي الناس، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ كما في وصية قوم قارون لقارون: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [سورة القصص: ٧٧]، يعني: لا تنس أن تأخذ شيئاً منها، يعني: لا تحرم المباح الطيب. لكن كثير من الناس نسوا دينهم، نسوا عقيدتهم، نسوا ما أوجب الله عليهم بسبب الحرص على الدنيا.

(﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾) في هذه الآية مثل الله عَزَّوَجَلَّ الحياة الدنيا بالمطر الذي ينزل على الأرض، فتنبت من أحسن ما فيها من المنظر والشجر، ونحو ذلك، مما يأكله الناس والأنعام من الثمار والعشب. (﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾) أي أنها ظهر ما فيها من البهاء والنضارة والخير، وأزينت للناظرين. (﴿وَوَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾): واستيقن أهلها أنهم قادرون عليها، أي: أنهم محيطون بها، ومتصرفون فيها.

(﴿أَتْلَهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾) يعني غير الله حالها بأمر بسبب كفرانهم، وبغير ذلك. (﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقْنِ بِالْأَمْسِ﴾): تصبح كأنها أرض محصودة، كأن لم يكن فيها عشب أخضر، أو كان لم تكن فيها حياة. (﴿كَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ﴾) هذه الآيات التي يذكرها الله للتعقل والتدبر.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾) وهذا المثل أيضا ضربه الله عَزَّجَلَّ للنبات الأخضر، فإذا ضربته الريح والشمس أصبح شيما تذرؤه الرياح يمينا ويسارا.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾): لا يعجزه شيء.

ثم قال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾) أي مما يتزين به الإنسان في دنياه، ويدخل عليه السرور به.

﴿وَالْبَلَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ﴾) من التسبيح والتحميد والتكبير.

﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾) أي: ثوابها خير، وخير أملا يلقاها يوم القيامة ويؤمل خيرها، وفي آية: ﴿وَحَيْرٌ عَقَبًا﴾) [سورة الكهف: ٤٤] يعني: يلقى عقب هذه الحسنات فيستفيداها.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ الآية) هذه الآية أيضا آية عظيمة، يحذر الله عَزَّجَلَّ فيها من الانحراف، والركون الى الدنيا.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾) منهم من يلعب فيها، ومنهم من يلهو بها.

﴿وَزِينَةٌ﴾) زينة سرعان ما تندثر.

﴿وَتَفَاخُرٌ﴾): سبب للتعالي والتعاضم بينكم.

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾) هذا الذي يشغل بها، وأما الإنسان الذي لا يشغل بها له مغفرة من الله.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾): أعجب الزراع ثباته المثمر.

﴿ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَهُ مُضْفَرًا﴾) يشتد الزرع حتى يصير مصفرا، يصير قريبا إلى اليباس.

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾): هشيما.

(﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾) عذاب شديد للكافرين المعرضين، ومن في باهم من المنافقين، ومن شاء الله من العصاة، ومغفرة من الله ورضوان للموحدين.

(﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ﴾) وهذا من الإجمال بعد التفصيل، أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا دنيا غرارة، تغر من فتن بها.

(﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾) كما قال الله قبل قرأناه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة الكهف: ٤٦]، فكذلك مما زين لهم حب الشهوات، من قضاء الوطر، في أكله، في شربه، في بعاله.

(﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾): الأموال الكثيرة.

(﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾) ذكرت؛ لأنها أغلب الأموال، وأكثر الأموال تعود إليها.
(﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾) الخيل التي قد سوّمت ورؤّضت، المعلمة، المسومة: المعلمة.

(﴿وَالْأَنْعَامِ﴾) وكذلك الأنعام، جمع نعم، وهي الخيل، والبقر، والغنم والإبل، وما في بابه.

(﴿وَالْحَرْثِ﴾): الزروع.

(﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾) مهما كانت.

(﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾): الجنة.

(﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾)

مهما كانت.

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) وهو الآخرة، مأوى المؤمنين.

(فَلَا تَعْرَتَكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) فتصدكم عنها.

(وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ): الشيطان، وقيل: فتن الدنيا.

(أَلْهَدَكُمْ الشَّاكِرُ): أي: في الدنيا، تكاثر الأموال وتكاثر الذريات.

(حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) أي بالموت، كما في الحديث: «بل حمى تفور، تزيره

القبور»، وقيل: المراد زيارة المقابر والتفكر فيها، لكن المعنى الأول أصوب.

(كَلَّا سَوْفَ تَعْمَلُونَ ۚ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْمَلُونَ ۚ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) أي: يوم

القيامة.

(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ): تروا الجحيم قد أزلت لكم وقربت.

(ثُمَّ لَتَرُوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۚ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۙ): تسألون عما أنعم

عليكم به في هذه الدنيا، فمن استخدمه في طاعة الله فنعم ما هو، وإن استخدم في معصية الله فلا يسلم من غرمة وجرمه.

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) كما تقدم لعب ولهو، إنما قدم وأخر.

(وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ): الجنة، (لَهَا الْحَيَوَانُ): كذلك الدار الآخرة هي الحيوان،

لكن حياة السعادة الجنة، وحياة الشقاوة النار.

وأما الأحاديث فأكثر من أن تحصر فننبه بطرف منها على ما سواه.

٤٥٦ - عن عمرو بن عوف الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عبيدة بنَ الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِحِزْبَيْهَا، فَقَدِمَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَوَافُوا صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ؟» فَقَالُوا: أَجَلْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «أُبَشِّرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسِطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بَسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ». متفق عليه^(١).

الشرح:

هذا حديث عظيم، وفيه عزة الإسلام، من أن النبي ﷺ بعث أبا عبيدة بن جراح وهو عامر بن الجراح، أمين هذه الأمة، قيل لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لو كان رسول الله مستخلفا من يستخلف؟ قالت: أبا بكر، قيل: ثم من؟ قالت: عمر، قيل: ثم من؟ قالت: أبا عبيدة بن الجراح.

(فَوَافُوا صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) أي: دخلوا المسجد في وقت صلاة الفجر.

(فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ) أي من الصلاة.

(فَتَعَرَّضُوا لَهُ) أي: الأنصار، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لحاجتهم.

(فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) مطمئنا لهم، ومبشرا لهم، وابتسامتك في وجه أخيك

صدقة.

(أَظُنُّكُمْ) الظن تأتي بمعنى اليقين.

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

(سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ؟) وفيه أن الاستشراف للشيء الحلال الذي لك فيه حظ ونصيب لا حرج منه.
والبحرين المراد بها قطر وما حولها في هذه الأيام.
(أَبْشُرُوا) يبشرهم بالخير، وهي في الغالب.
(وَأَمَلُوا مَا يَسُرُّكُمْ) لتكن آمالكم في الله عَزَّجَلَّ ثم في رسوله صل الله عليه وسلم أن يعطيكم.

(فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ) حلف بدون استحلاف؛ لأن ﴿اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: ٥٨].
(وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ) وهذا هو الحال الذي بسببه يفتن الناس عن دينهم إلا ما رحم ربي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
(كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) أي من بني إسرائيل وغيرهم، فحرفتهم عن الصراط المستقيم، والطريق القويم.
(فَتَنَّا فُسُوهَا) أنتم يا معاشر المسلمين (كَمَا تَنَافَسُوهَا) الذين من قبلكم.
(فَتَهْلِكُكُمْ): يلحقكم بسببها الهلكة، هذا يبتدع، وهذا يفتن، وهذا ينحرف، بسبب الدنيا.

وبهذا تعلم أن فتنة الدنيا من أشد الفتن التي تؤدي إلى الانحراف عن منهج السلف الصالح (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، فإذا أردت أن تبقى على هذا المنهج فكن زاهدا في الدنيا وحطامها، وإذا أكرمك الله ومن عليك بالخير هذا خير، لكن أن تفرط في دينك من أجل الدنيا، يؤثر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: ما أتاك من هذا المال فخذ، فإن قالوا: دينك قل: دمي دون ديني، إذا كانت الدنيا مقابل الدين لا، ما بيننا وبينكم هذا، الدين هو المقدم.

٤٥٧ - وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَيَّتِهَا». متفق عليه^(١).

الشرح:

وهذا أيضا مما تخوفه رسول الله ﷺ على أمته، وما تخوفه إلا لشدة، وهذا من دلائل نبوته ﷺ، فقد فُتِحَ على المسلمين الفتوح، ومصرَتِ الأمصار، وكثرتِ التجارات والصناعات والزراعات، فصار كثير من الناس الآن مفتون بسبب زهرة الدنيا، يمكن أن يشتغل من الصباح إلى الليل، لكن ربما ضيع الصلاة، وربما ضيع الواجبات.

٤٥٨ - وعنه^(٢): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ». رواه مسلم^(٣).

الشرح:

وهذا أيضا ساقه لبيان تعين الزهد في الدنيا، وفضل ذلك.
(إِنَّ الدُّنْيَا) أي: حطام الدنيا وما فيها.
(حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ) يعني حلو المطعم، حسن المنظر، شبه الدنيا بالشيء الذي طعمه حسن ومنظره حسن، فربما يأخذ به من جهتين: جهة المطعم، وجهة النظر والتلذذ بذلك.

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢).

(٢) أي: عن أبي سعيد.

(٣) حديث رقم: (انظر الحديث (٧٠)).

(وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا) والاستخلاف الحقيقي: أن تكون على مراد الله، متأسياً برسول الله ﷺ.

(فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(فَاتَّقُوا الدُّنْيَا) أي: اتقوا فتنه الدنيا، اتقوا ما يؤدي إلى انحرافكم من الدنيا. (وَاتَّقُوا النِّسَاءَ)؛ لأن فتنه بني إسرائيل أولها في النساء، والنبى ﷺ يقول: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَعْنَاهُ: تَجَنَّبُوا الْإِفْتِتَانَ بِهَا وَبِالنِّسَاءِ، وَتَدْخُلْ فِي النِّسَاءِ الزَّوْجَاتُ وَغَيْرُهُنَّ، وَأَكْثَرُهُنَّ فِتْنَةُ الزَّوْجَاتِ، لِدَوَامِ فِتْنَتِهِنَّ وَابْتِلَاءِ أَكْثَرِ النَّاسِ بِهِنَّ. اهـ

٤٥٩ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ». متفقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

وساق المصنف هذا الحديث؛ للزهد في الدنيا، وهذا من الشعر الذي كان يتمثل به النبي ﷺ عند بناء المسجد، وعند حفر الخندق: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة».

نحن الذين بايعوا محمدا	على الجهاد ما بقينا أبدا
اللهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا	وثبت الأقدام إن لا قيما
إن الألى قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٣)، ومسلم (١٨٠٥).

وكان النبي ﷺ يمدّها: «أَيْنَا أَيْنَا».

يقول: (اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ) يعني حقيقي، عيش نعيمه دائم.

(إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ) وأما الدنيا مهما توسعت لك فحلوها متعب، ومرها مرهق، لو لم يكن إلا أنك بعد أكلك وشربك تحتاج إلى الخلاء، وتحتاج إلى الراحة، وتحتاج إلى كثير مما يحتاجه الناس، بينما الجنة تأكل وتشرب وتتعم ولا يصيبك شيء من ذلك، ﴿وَلَا الدَّارُ الْآخِرَةُ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٤]، يعني: الحياة الكاملة من كل وجه، وسيأتي في آخر الكتاب وصف الجنة بما يغني.

٤٦٠ - وعنه^(١)، عن رسول الله ﷺ قَالَ: «يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ: أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ، يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ». متفقٌ عَلَيْهِ^(٢).

الشرح:

(يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ) أي ميت، من الرجال أو النساء، من الجن أو الإنس، من جميع المكلفين.

(ثَلَاثَةٌ) أي: ثلاثة أنواع.

(أَهْلُهُ) وقد يكون فيهم الزوجة، والابن، والبنت، والأخ، وربما الأب، كل بحسبه.

(وَمَالُهُ) وماله كثير، منه الذهب والفضة، والعقارات والتجارات، والمركوبات.

(وَعَمَلُهُ) صالح أو طالح.

(فَيَرْجِعُ اثْنَانِ): الأهل والمال، الأهل يتقاسمون المال، والمال تحاسب عليه.

(١) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر الحديث (١٠٤).

في حديث البراء: إن كان عملاً صالحاً جاءه في صورة شاب حسن الوجه، حسن المنظر، حسن الريح، فيقول: من أنت؟ فوجهك الذي يأتي بالخير، يقول: أنا عمالك الصالح، وإن كان عكس ذلك جاءه في صورة رجل سيء المنظر، سيء الريح، فيقول: من أنت؟ فوجهك الذي يأتي بالسوء، يقول: أنا عمالك السيء.

فمثل هذا الحديث يجعل الإنسان يزهّد في الدنيا، ويلتزم الصالحات من الأعمال، إذا كان مالك سيرجع مهما كان هذا المال مهما كثر مهما نما لا يمكن أن يدخل معك القبر، والأهل مهما كان حبه لك سيوارونك وينسونك بعد أيام. أعجبنا بيت قاله أخونا أمين الحجوري حفظه الله في رثاء أخينا إسماعيل الحجوري، قال:

أيّا إسماعيل إن الكفء منا يهل عليك في القبر التراب

يعني: المحب لك والمكرم لك يهل عليك التراب في قبرك، فانظر كيف يصير الحال، أول يوم ربما يبكي، حتى عند البكاء الزوجة تقول: لمن تركتنا؟ والابن يقول: ستتعبد بعدك، والأب يقول: من لنا بعدك؟ كلهم يبكي على نفسه، ما أحد يبكي عليك، نسأل الله السلامة، ما أحد يبكي عليك، ما أحد يقول: كيف ستلقى الله؟ نسأل الله أن يرحمك ويتجاوز عنك، لكن كل واحد يبكي على نفسه.

وأسوؤهم حالاً من ربما تقسم المال ولا دعا له حتى في سجوده، ولا في ركوعه، فمثل هذه الأحاديث تجعلنا نعمل للأخرة، ونكون في زهد من هذه الدنيا وما فيها من الملمات.

٤٦١ - وعنه ^(١)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ». رواه مسلم ^(٢).

الشرح:

وهذا حديث عظيم، يدل على حقارة الدنيا وما فيها، إذا كان أشد الناس نعيماً في الدنيا من غمسة واحدة في النار ما رأى خيراً قط، قد أكل، قد شرب، قد نام، قد تبعل، قد ركب، قد فعل ما يفعله الناس لإسعاد أنفسهم في هذه الدنيا، ومع ذلك: ما رأيت خيراً قط.

وأبأس أهل الدنيا ربما بالأمراض، بالأسقام، بالفقر، بالعذاب، بالقلة، بالشدة، من غمسة في الجنة: ما رأيت بُؤساً قط، هو ما يكذب، ينطمس من ذهنه كل بُؤس مر عليه، وذلك ينطمس من ذهنه كل خير مر عليه؛ بسبب ما رأى.

إذاً هذه الدنيا ليست بشيء بالنسبة للآخرة، ليست بشيء، لا في نعيمها، ولا في عذابها، لا في رخائها، لا في شدتها، لا في جميع شأنها.

﴿كُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [سورة الرعد: ٣٥]، دائم، ﴿لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ﴾ [سورة الواقعة: ٣٣]، ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ، مِنْ نَفَادٍ ۝﴾ [سورة ص: ٥٤]، وفي الجانب الآخر: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [سورة فاطر: ٣٦]، ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٧].

(١) أي عن أنس.

(٢) حديث رقم: (٢٨٠٧).

قال: (يُؤْتَى بِأَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يعني كافر.

فنسأل الله أن يرحمنا برحمته، وأن يسكننا في جنته، فمثل هذا الحديث فيه وعد للمؤمنين وفيه وعيد للكافرين، وهكذا أغلب المواطن القرآنية والأحاديث النبوية يجمع بين الترغيب والترهيب؛ لأن الترغيب وحده قد يؤدي إلى الأمن من مكر الله، والترهيب وحده قد يؤدي إلى القنوط من رحمة الله، لكن يجمع بينهما، فيطمع المؤمن فيما عند الله، ويخشى من عذاب الله.

٤٦٢ - وعن المُسْتَوْدِدِ بْنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعُهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ!». رواه مسلم^(١).

الشرح:

يعني اذهب إلى البحر دخل إصبعك، لا تستطيع أن تقول: أنها خرجت قطرة، ما تستطيع تجزم أن الإصبع خرجت قطرة، لا سيما إذا رفعتها لتنظر ما تشاهد إلا بللا، أثرا بعد عين، فالدنيا هذه التي يتنافس فيها الناس ويتقاتلون ويتهاجرون ويفعلون الحرام من أجلها ليست في الآخرة بشيء.

حتى ليست في الحياة البرزخية بشيء، انظروا إلى هذه الحياة البرزخية كم من أناس قد ماتوا قبل آلاف السنين وأعمارهم ما هي إلا عشرات السنين، إذا شأن الدنيا حقير، فينبغي لنا أن لا نشغل بجمعها عن الآخرة الباقية.

وفي هذا الحديث ضرب الأمثال، وقد ضرب الله الأمثال الكثيرة في القرآن، وهكذا رسوله ﷺ في السنة؛ لتفهيم الناس، والتقريب، ما يفيدهم في دنياهم وآخراتهم.

(١) حديث رقم: (٢٨٥٨).

٤٦٣ - وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفَتِيهِ، فَمَرَّ بِجَدِّي أَسْكَ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا لَهُ بِدْرُهُمْ؟**» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا شَيْءٌ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ ثُمَّ قَالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**» قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيًّا، إِنَّهُ أَسْكَ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «**فَوَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**». رواه مسلم^(١).

قوله: (كَنَفَتِيهِ) أي: عن جانبيه، و(الْأَسْكَ): الصغير الأذن.

الشرح:

وانظر أيضًا إلى هذا المثل العظيم، ضربه رسول الله ﷺ لصحابته الكرام، يعني أخذ جدي ميت، من يحب جدي ميت؟ ربما تمشي وأنت مغمم على أنفك حتى لا تشم رائحته، ولا تريد أن تنظر إليه حتى لا يصيبك شيء من الغثيان، فالنبي ﷺ قال لهم: (أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا لَهُ بِدْرُهُمْ؟) شيء يسير من المال، عبارة عن فلوس، ليس بالمال الكثير، بخلاف الدينار.

(فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا شَيْءٌ) لو كان مجاناً ما نريده.

(وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟) ميت، معيب في أذنه.

قال: (أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟) يعني بالمجان.

(قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيًّا، إِنَّهُ أَسْكَ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟) إذا ما الذي يرغبنا

فيه.

(فَقَالَ: فَوَاللَّهِ) وهذا يمين من رسول الله صل الله عليه وسلم مؤكدة لقوله، وهو

الصديق المصدق.

(لِلدُّنْيَا) بما فيها من الملذات، وبما فيها من التوسعات.

(١) حديث رقم: (٢٩٥٧).

(أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ) فعلينا أن نزهد فيما هو هين عند الله، وإن رُزقنا منها فلنستعين به على بناء الآخرة، ولنجهز بها قصورا وبيوتا ودورا في الدار الآخرة، فكلما أعد الإنسان للآخرة كلما نفع نفسه وأكرمها، والله المستعان.

٤٦٤ - وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أُمِثِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةٍ بِالْمَدِينَةِ، فَاسْتَقْبَلَنَا أَحَدٌ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ» قُلْتُ: لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «مَا يَسُرُّنِي أَنْ عِنْدِي مِثْلُ أَحَدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا شَيْءٌ أَرْضَدُهُ لِدِينٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ سَارَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ «وَقَلِيلٌ مَا هُمْ». ثُمَّ قَالَ لِي: «مَكَانَكَ لَا تَبْرَحَ حَتَّى آتِيكَ» ثُمَّ انْطَلَقَ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ حَتَّى تَوَارَى، فَسَمِعْتُ صَوْتًا قَدِ ارْتَفَعَ، فَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ عَرَضَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَرَدْتُ أَنْ آتِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَهُ: «لَا تَبْرَحَ حَتَّى آتِيكَ»، فَلَمْ أَبْرَحْ حَتَّى آتَانِي، فَقُلْتُ: لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتًا تَخَوَّفْتُ مِنْهُ، فَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «وَهَلْ سَمِعْتَهُ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «ذَلِكَ جِبْرِيلُ آتَانِي، فَقَالَ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». متفقٌ عَلَيْهِ، وهذا لفظ البخاري^(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان زهد رسول الله صل الله عليه وسلم في هذه الدنيا الفانية، ورغبة النبي ﷺ في الآخرة الباقية.

قوله: (عن أبي ذر) وهو جندب بن جنادة.

(١) أخرجه البخاري (٦٢٦٨)، ومسلم (٩٤).

قوله: (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةٍ بِالمَدِينَةِ) وهي الأرض ذات الحجارة السوداء.

(فَاسْتَقْبَلَنَا أَحَدٌ) يعني كان أماننا، وأحد جبل عظيم.

(فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ) فيه مناداة الطالب؛ حتى ينتبه.

(مَا يَسْرُنِي أَنْ عِنْدِي مِثْلُ أَحَدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيَّ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ)

نحن الآن إذا تمنى أحدهم آلاف الريالات السعودية أو الدولارات الأمريكية يقول:

سأشتري منها، وسأعمل منها، وسأفعل بها، وهذا تمنها لماذا؟ (تَمْضِي عَلَيَّ ثَلَاثَةُ

أَيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ) ينفقه في سبيل الله.

(إِلَّا شَيْءٌ أَرْضُدُهُ لِذَيْنِ) يعني عليه، فقضاء الدين مقدم.

(إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ) أي في المسلمين، ولمصالحهم.

(هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا) يعني ينفق إلى جميع الجهات، ولجميع المستحقين،

والنفقات عظيمة.

(إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الأكثرين أموالا هم الأقلون يوم القيامة من

الحسنات.

(إِلَّا مَنْ قَالَ بِالمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا) أنفق في أوجه الخير.

(وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)؛ لأن المال شديد في القلب محبة، ومع ذلك

أنت للمال إذا أمسكته وإذا أنفقته فالمال لك

(ثُمَّ قَالَ لِي: مَكَانَكَ لَا تَبْرَحَ حَتَّى آتِيكَ)؛ لحكمة علمها ﷺ.

(ثُمَّ انْطَلَقَ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ) دليل على شجاعته، وعدم تخوفه من المتربصين، مع

توافر المنافقين واليهود في المدينة.

(فَسَمِعْتُ صَوْتًا، قَدْ اِرْتَفَعَ) صوت كلام.

(فَارَدْتُ أَنْ آتِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَهُ: لَا تَبْرُحَ حَتَّى آتِيَكَ) فيه شدة ملازمة الصحابة لأمر النبي ﷺ، يعني مثل هذا تخوف عليه، رجل ذهب إلى منطقة بالليل ما عنده أحد، فجأة تسمع الصوت قد ارتفع، وهو رجل عظيم، يخشى عليه من الاغتيال ومن الأذى، ومع ذلك ذكر قول النبي ﷺ: **(لَا تَبْرُحَ حَتَّى آتِيَكَ)** لا يبرح. **(ذَاكَ جَبْرِيلُ أَتَانِي)** أي بالوحي.

فقال: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ) وهذه بشارة عظيمة لهذه الأمة، وإما أن يكون الدخول دخولا أوليا بحيث يغفر الله له ذنوبه إن كانت عنده ذنوب، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨]، وإما أن يكون مآله إلى الجنة.

(قلت: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ) وهذا دليل على أن أصحاب الكبائر في النار لا يخلدون، وأنهم تحت المشيئة.

وفي هذا رد على الخوارج الذين يكفرون المسلمين بمطلق المعصية، والله عز وجل قد أوجب الحدود، فلو كان السارق يكفر؛ ما أمر بقطع يده، كان يأمر بقتله وإزهاق نفسه.

٤٦٥ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قَالَ: «لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا لَسَرَّيْنِي أَنْ لَا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثُ لَيَالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا شَيْءٌ أَرْصُدُهُ لِذَيْنِ». متفقٌ عَلَيْهِ^(١).

٤٦٦ - وعنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». متفقٌ عَلَيْهِ، وهذا لفظ مسلم^(٢).

وفي رواية البخاري: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ».

الشرح:

(عنه) أي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأن هذا سيجعلك شاكرا ذاكرا لله عَزَّوَجَلَّ ما عشت، أما إذا كنت تنظر لأصحاب الأموال وأصحاب الدنيا ستري أنك في نعمة أقل، وربما ازدريت النعمة التي أنعم الله عَزَّوَجَلَّ بها عليك، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة طه: ١٣١].

فالإنسان لا يتطلع إلى الدنيا، الدنيا لو كانت مكرمة لكانت في المستقيمين، لكنها ليست مكرمة، ولذلك يعطيها الله من يحب ومن لا يحب، ومع ذلك «نعم المال الصالح للرجل الصالح»، كما قال ﷺ لعمر بن العاص.

(انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) أي: في شأن الدنيا.

(وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ) أي: في شأن الدنيا.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٥)، ومسلم (٩٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣).

(فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) فيه أن المسلم ينبغي أن يكون شاكرًا ذاكرًا لله على نعمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقوله: (إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ) أي في الوسامة والجمال **(فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ)**؛ لأن ذلك يحملك على حمد الله، وعلى شكره على ما أنعم عليك.

بينما في الدين ينبغي أن يكون نظرك إلى من هو فوقك، في العلم انظر إلى من هو فوقك؛ لأنك إذا نظرت إلى من هو دونك ستبقى في الدون، تقول: أنا أحسن من فلان، ما يصلح أنا أحسن من فلان، قل: أنا أريد أن أكون مثل فلان. كان أحدهم يقول له الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللهُ: مثل من تريد أن تكون؟ قال: أريد أن أكون أعلم من الألباني، قال: أسأل الله أن يوفقك يا بني، فالإنسان تكون همته عالية في العلم، في الدين، في الخير.

٤٦٧ - وعنه، عن النبي ﷺ قَالَ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالذَّرْهَمُ، وَالْقَطِيفَةُ، وَالْحَمِيصَةُ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ». رواه البخاري^(١).

الشرح:

وله قصة أطول من هذا.

قوله: (تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ) دعاء بالتعاسة من رسول الله صل الله عليه وسلم، أو أنه خبر، فإن كان خبراً فخير النبي ﷺ واقع لا محالة، وإن كان دعاء فدعاء النبي ﷺ غالبه يقع.

(عَبْدُ الدِّينَارِ) نسبه إلى الدينار؛ لتعلقه به، ولاعتناؤه بجمعه دون طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ربما من حلال وحرام، والدينار هو المثقال، ويساوي أربعة جرام من الذهب.

(١) حديث رقم: (٦٤٣٥).

(وَالذَّرْهَمُ) الدرهم هو من الفضة.

(وَالْقَطِيفَةُ) القطيفة: نوع من اللباس التي يلبسها الناس، وفيها شيء من الألوان.

(وَالْخَمِصَةُ) أيضا نوع من الألبسة، يمشي وينظر في قطيفته وخميصته.

(إِنْ أُعْطِيَ) من هذه الدنيا **(رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ)** وقد أخبر النبي صل الله

عليه وسلم: «ثلاثة لا يكلمهم الله»، ومنهم: «رجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا، إن

أعطاه منها رضي، وإن لم يعط منها سخط».

٤٦٨ - وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ: إِمَّا إِزَارٌ، وَإِمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رَبَطُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الْكَعْبَيْنِ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةً أَنْ تُرَى عَوْرَتُهُ. رواه البخاري ^(١).

الشرح:

(وعنه) أي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومع ذلك كان أهل الصفة يقبلون على حفظ القرآن، وعلى تعلم السنة، وعلى

قيام الليل، ويعملون بالنهار، على ما يأتي معنا إن شاء الله.

والصفة: هي مكان متصل بالمسجد، كانوا ينامون فيه.

(قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ) هذا الذي رأهم، وربما كانوا أكثر من

ذلك.

(مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ) الرداء: ما يغطي أعلى الجسم، والإزار: ما يغطي أسفل

الجسم، ما عندهم أردية، وإنما كان عندهم أزر يغطون سوءاتهم.

(إِمَّا إِزَارٌ، وَإِمَّا كِسَاءٌ) يغطي أسفل البدن.

(قَدْ رَبَطُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ)؛ حتى لا يسقط عليه.

(١) حديث رقم: (٤٤٢).

(فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةً أَنْ تَرَى عَوْرَتَهُ) حتى أن النبي ﷺ قال: «يا معشر النساء لا ترفعن رؤوسكن حتى يرفع الرجال»، ربما رفعت رأسها وما زال الرجل ساجدا، وترى عورته وسوءته.

٤٦٩ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

وهذا الحديث لو جعلناه أمام أعيننا لذهب منا ما نجد من الحسرات، أو ما نجد من التغيظات في هذه الدنيا، فإنها سجن، عش لك في سجن، لو أعطوك أحسن لباس وأحسن فراش وأحسن مطعم، سجن، لو أتى إليه أحدهم يزوره ويقول: يا فلان كيف أنت؟ يول له: في سجن، كيف أنا؟

فالدنيا سجن المؤمن، مهما تنعم فيها بأنواع النعم فهو مسجون.

(وَجَنَّةُ الْكَافِرِ) يتنعم فيها، ثم مآله إلى النار، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [سورة محمد: ١٢].

والسجين لا يمكن أن يمضي عليه يومه سعيد، إذا سعد في الصباح وكان منشراح الصدر ما يأتي العصر إلا وهو حزين على فراق أهله، وحزين على الحالة التي هو فيها، فأنت كذلك في الدنيا، في حالة حزن، إن سعدت حيناً ساءت غيرها.

(١) حديث رقم: (٢٩٥٦).

٤٧٠ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ. رواه البخاري^(١).
قالوا في شرح هذا الحديث: معناه: لَا تَرَكُنْ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا، وَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِطُولِ الْبَقَاءِ فِيهَا، وَلَا بِالْأَعْتَاءِ بِهَا، وَلَا تَتَّعَلَّقْ مِنْهَا إِلَّا بِمَا يَتَّعَلَّقُ بِهِ الْغَرِيبُ فِي غَيْرِ وَطَنِهِ، وَلَا تَشْتَغِلْ فِيهَا بِمَا لَا يَشْتَغِلُ بِهِ الْغَرِيبُ الَّذِي يُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَى أَهْلِهِ، وَبِإِلَهِهِ التَّوْفِيقُ.

الشرح:

قوله: (عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) هو أبو عبد الرحمن، ابن عمر بن الخطاب، خليفة المسلمين.

(قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي) وهو ما بين الكتف والرقبة؛ حتى يكون منتبها لما يلقي عليه، مثل ما تضرب واحدا فوق كتفه وتقول له: كن كذا وكذا، من باب الانتباه.

(كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ) والغريب لا يبنى، ولا يطمئن، ولا يرتاح، شوقه إلى بلده، وإذا رأيت الغريب يركن إلى غير بلده فهذا مسكين، وإلا الغريب مآله إلى بلده، قل الزمن أو قصر، أو حتى الأبناء بعده، فأنت كنت في الدنيا كأنك غريب؛ لأنك سترحل منها إلى غيرها.

(أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) وهذه أشد، **(كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ)** لا تغرك الدنيا، ولا تلهيك عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، **(أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)** عابر السبيل ربما ما يتخذ فرشا، الغريب ربما

(١) حديث رقم: (٦٤١٦).

يستأجر غرفة، يستأجر بيتاً، يعمل بعض الأعمال من أجل يدخر لنفسه بعض القوت، أما عابر السبيل هو يمر، إما أن يأكل في مطعم، أو يستظل تحت شجرة، أو يشرب من برادة، أو يقضي شيئاً من العمل ويمشي.

إذا أنت كن في الدنيا كأنك غريب، وأبلغ من ذلك عابر سبيل، لو نظرنا إلى أعمار المعمرين في هذه الدنيا أمام عمر الآخرة ليست بشيء.

ففهم ابن عمر هذه الوصية وزاد عليها: (وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الصَّبَاحَ)، ولذلك كان بن عمر يكتب وصيته كل ليلة عند رأسه.

(وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الْمَسَاءَ) الله أعلم تبقى إلى المساء أم لا، هل عندك عهد من الله أن تبقى إلى المساء؟ أو عندك عهد من الله أن تبقى إلى الصباح؟ ما عندنا، قد يأتيك الموت وأنت تتكلم، أو يأتيك الموت وأنت نائم، أو يأتيك الموت وأنت تمشي، أو يأتيك الموت وأنت تشرب.

لكن (وَأُخِذَ مِنْ صَحَّتِكَ لِمَرَضِكَ) هذا هو العبد الفطن، الذي يأخذ من صحته لمرضه، من نشاطه لضعفه، من شبابه لشيخوخته، من غناه لفقره.

(وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) أي: تزود بالطاعات والقربات، بحيث إذا انتقلت إلى الله تجد أعمالك أمامك، أليس في حديث البراء في قصة أصحاب القبر أنه: «فَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الثِّيَابِ، حَسَنُ الْمَنْظَرِ، حَسَنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ يَقُولُ: عَمَلُكَ الصَّالِحُ».

٤٧١ - وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فَقَالَ: «أَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَأَزْهَدْ فِيهَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ». حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة^(١).

الشرح:

قوله: (عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هو سعد بن مالك، هو وأبوه صحابة.

قوله: (قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ) يستفتيه.

قوله: (يَا رَسُولَ اللَّهِ) كانوا ينادونه بالرسالة والنبوة، لا ينادونه يا محمد.

(ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ) ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ ينبغي أن يسارع الإنسان في الوصول إليها، وأكثر ما يقرب إلى محبة الله عَزَّوَجَلَّ الإتيان بالفرائض.

(وَأَحَبَّنِي النَّاسُ) وحب الناس يقع لك إذا لم تكن متعرضاً لما في أيديهم، إذا أردت أن يحبك الإنسان فكن بعيداً عما في يديه، ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [سورة التكاثر: ٧-٣٧].

هكذا، ربما تكون عزيزاً عند الإنسان فإذا ما قلت له: يا فلان أعطني أو: يا فلان سلفني أو نحو ذلك وإذا به ربما يتنكر لك، إلا القليل ممن يعلم أن هذه الأمور دول

(١) حديث رقم: (٤١٠٢)، هو من طريق خالد بن عمرو القرشي، كذب، فالحديث ضعيف جداً، وتابعه محمد بن كثير عن سفيان، لكن أعله أبو حاتم، وذكر أن فيه نوع تدليس، وكأن الحديث يعود إلى خالد بن عمرو القرشي.

بين الناس، وأن هذا تفريج للكرب وقضاء للحاجات، وتيسير للكربات، والله عز وجل يجازي المؤمن على عمله.

(أَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ)؛ لأن التعلق بالدنيا مؤداه إلى تضييع العبادات والطاعات، إلا ممن رحم الله.

(وَأَزْهَدَ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ) إذا رآك الناس وأنت زاهد بما في أيديهم ما شاء الله يشنون عليك، ويذكرونك بالخير والجميل.

٤٧٢ - وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا، فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطْلُ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقْلِ مَا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ. رواه مسلم ^(١).
(الدَّقْلُ) بفتح الدال المهملة والقاف: رديء التمر.

الشرح:

في هذا الحديث بيان للقلّة التي كان عليها رسول الله ﷺ في مأكله ومشربه وملبسه، وجميع شأنه، وقد قال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا».

(مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا) فيه ما كان عليه الصحابة من تذاكر، شأن دينهم، وبغضهم للتوسع في الدنيا.

(فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) فيه ذكر الحال الذي كان عليه النبي ﷺ؛ لإيقاع التأسّي به، والبعد عن مخالفته.

(يَطْلُ الْيَوْمَ يَلْتَوِي) أي: يبقى طول اليوم يتلوى من الجوع.

(مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقْلِ) وهو التمر الرديء.

(مَا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ) من باب أولى أنه لا يجد الطيب.

(١) حديث رقم: (٢٩٧٨).

٤٧٣ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: تُوفي رسول الله ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَيْدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكَلْتُهُ فَفَنِي. مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

قوله: (شَطْرُ شَعِيرٍ) أَي: شَيْءٌ مِنْ شَعِيرٍ، كَذَا فَسَّرَهُ التِّرْمِذِيُّ.

الشرح:

(قالت: تُوفي رسول الله ﷺ) أَي: حِينَ قَبْضِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ فِي الرَفِيقِ الْأَعْلَى».

(وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَيْدٍ) أَي: أَنَّهَا قَلِيلَةٌ ذَاتُ الْيَدِ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ.

(إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ): شَيْءٌ مِنْ شَعِيرٍ.

(فِي رَفٍّ لِي) وَهُوَ الْكُوءُ وَمَا فِي بَابِهَا.

(فَأَكَلْتُ مِنْهُ) أَي: اسْتَعْدَمْتُهُ فِي شَأْنِهَا مِنَ الْأَكْلِ.

(حَتَّى طَالَ عَلَيَّ) يَعْنِي طَالَ مَكْتَهُ، جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ بَرَكَةً.

قالت: (فَكَلْتُهُ فَفَنِي) لَوْ تَرَكْتَهُ لَرَبَّمَا طَالَ، مِثْلَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي خَرَجَ إِلَى الْبَرِّ يَصْطَادُ، فَمَا وَجَدَ شَيْئًا، فَقَامَتْ امْرَأَتُهُ حَرَكْتَ هَذِهِ الَّتِي تَطْحَنُ الطَّحِينَ، وَإِذَا بَهَا تَطْحَنُ لِنَفْسِهَا، وَتَخْرُجُ حَبًّا مَطْحُونًا، وَحَرَكْتَ الْقَدْرَ فَإِذَا بِهِ يَفُورُ بِاللَّحْمِ، فَجَاءُوا وَأَوْقَفُوهَا، وَكَذَلِكَ أَلْقَوْا مَا فِي الْقَدْرِ مِنَ اللَّحْمِ لِأَكْلِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ تَرَكُوهُ لَبَقِيتَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

فَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ يَجْعَلُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُمْ بَرَكَاتٍ، مِثْلَ ذَلِكَ الْعَكَّةُ السَّمْنُ الَّتِي كَانَتْ لَأَمِّ سَلِيمٍ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَهْدِي لِلنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مِنَ السَّمْنِ، فَيَصْبِهِ ثُمَّ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٥١)، وَمُسْلِمٌ (٢٩٧٣).

يردها إليها، فتبقى تلك العكة معها، كلما احتاجت لأبنائها صبت منها، جعل الله بركة، فإذا جاءت تعصرها انتهت.

هذا هو الشاهد من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: **(حَتَّى طَالَ عَلَيَّ)** يعني طال المكث، مع أنه قليل، قالت: **(فكلته)** أي: عرفت مقداره، **(ففني):** انتهى.

٤٧٤ - وعن عمرو بن الحارث أخي جُوَيْرِيَّة بنت الحارث أم المؤمنين، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَ: مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا أَمَةً، وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغَلْتُهُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي كَانَ يَرْكُبُهَا، وَسِلَاحُهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا لِابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً. رواه البخاري^(١).

الشرح:

مع أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تأتيه الأموال غنائم للمسلمين، ومع ذلك كان ينفقها في سبيل الله، وما أفاء الله به عليه جعله في ابن السبيل، لم يملكه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقال: **«ما تركناه صدقة»**.

(مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا) الدرهم من الفضة، ولا ديناراً من الذهب، **(وَلَا عَبْدًا)** حررهم، **(وَلَا أَمَةً):** جارية. **(إِلَّا بَغَلْتُهُ الْبَيْضَاءُ)** وهي موقوفة في طاعة الله عز وجل. **(وَسِلَاحُهُ)** وهو موقوف.

(١) حديث رقم: (٢٧٣٩).

٤٧٥ - وعن خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ: مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ نَمْرَةً، فَكُنَّا إِذَا غَطَيْنَا بِهَا رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غَطَيْنَا بِهَا رِجْلَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُعْطِيَ رَأْسَهُ، وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْإِذْخِرِ، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِيهَا. متفقٌ عَلَيْهِ^(١).

(النَّمْرَةُ): كِسَاءٌ مُلَوَّنٌ مِنْ صُوفٍ.

وَقَوْلُهُ: (أَيْنَعَتْ) أَيُّ: نَضِجَتْ وَأَذْرَكَتْ.

وَقَوْلُهُ: (يَهْدِيهَا) هُوَ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّ الدَّالِ وَكسرها لغتان: أَيُّ: يَقْطُفُهَا وَيَجْتَنِيهَا، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ لِمَا فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَتَمَكَّنُوا فِيهَا.

الشرح:

قوله: (وعن خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) صحابي أسلم قديما.

(قَالَ: هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) أي المدينة.

(نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى) يعني: يطلبون الأجر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيه إثبات صفة الوجه لله، وهو من الصفات الخيرية الذاتية.

(فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ) كتب لهم الأجر والمثوبة، ورضي عنهم ورضوا عنه.

(فَمِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا) منهم من قتل في بدر، ومنهم من قتل في أحد، ومنهم من قتل قبل ذلك، وإنما كانت الفتوح بعد الأحزاب، فتح الله عليهم بالغنائم ونحوها.

(مِنْهُمْ: مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) مع أنه كان غنيا من أغنياء مكة، وذكر أن شباب مكة كانوا يغسلون ثيابهم بعد ثيابه؛ لطيبها.

(١) أخرجه البخاري (٣٨٩٧)، ومسلم (٩٤٠).

(قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ) وهو مقبل غير مدبر، وهو أول من صلى بالمسلمين الجمعة، كما ذكر أهل السير والتاريخ، أول من صلى بالمسلمين الجمعة هو مصعب بن عمير، وما جاء أن أسعد بن زرارة أول من جمع بهم إنما هو الذي أمر أن يجمع بهم، وكان قد قدم إلى المدينة مصعب بن عمير قبل النبي ﷺ.

وفي حسنة إسلام سعد بن معاذ، الذي اهتز له عرش الرحمن، وإسلام أسيد بن حضير الذي تنزلت السكينة لسماع القرآن، إلى غير ذلك.

(قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ) وكانت في السنة الثالثة من الهجرة.

(وَتَرَكَ نِمْرَةً) أي: نوع من اللباس الملون، ليس له إلا هي.

(فَكُنَّا إِذَا غَطَيْنَا بِهَا رَأْسَهُ، بَدَتْ رِجْلَاهُ)؛ لأنها قصيرة.

(فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ)؛ لأنه أكرم.

(وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْإِذْخِرِ)؛ حتى لا تكون مكشوفة.

(وَمِنَّا مَنْ أَيْبَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ) أي: دنياه بعد ذلك.

(فَهُوَ يَهْدِيهَا) أي: يستفيد منها، ويأكل منها، والدنيا إذا كانت من حلال لا حرج

فيها، إنما الممنوع إذا كانت من حرام.

٤٧٦ - وعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

قوله: **(لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ)** أي: لو كان للدنيا شأن (مَا

سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)، ولكنها لا شأن لها، يعطيها من يحب ومن لا يحب،

(١) حديث رقم: (٢٣٢٠)، قال المحقق: هو حسن لغيره.

ويجازي المؤمن يوم القيامة على عمله الصالح، نسأل الله عزَّجَلَّ أن يرزقنا القناعة، وأن يرزقنا الزهد في هذه الدنيا الفانية.

٤٧٧ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمًا وَمُتَعَلِّمًا». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن^(١).

الشرح:

وليس المعنى أن الدنيا أرض ملعونة، وإنما المعنى أن ما يشغل عن ذكر الله وعن طاعة الله عزَّجَلَّ ملعون ومطرد، هذا هو المعنى.

(مَلْعُونٌ مَا فِيهَا): مطرود ما فيها مما يسبب الغفلة والقسوة.

(إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَا وَالَاهُ) من العلم والعمل، والصلاة والصيام، وذكر الله طاعته، كما قال سعيد بن جبير.

(وَعَالِمًا وَمُتَعَلِّمًا) فالفضيلة في العلم والعمل، فكلما ازداد الإنسان علماً ازداد رفعة، وكل ما نقص علم الإنسان نقص خيره بمقدار نقص علمه.

٤٧٨ - وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَرَعَبُوا فِي الدُّنْيَا». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن^(٢).

الشرح:

(لَا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ): الأرض والبناء.

(فَرَعَبُوا فِي الدُّنْيَا) أي: يقع منكم الطمع في الدنيا وما فيها.

(١) حديث رقم: (٢٣٢٢)، قال المحقق: صحيح لغيره.

(٢) حديث رقم: (٢٣٢٨).

٤٧٩ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَعَالِجُ خُصًّا لَنَا، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» فَقُلْنَا: قَدْ وَهَى فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ: «مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ». رواه أبو داود والترمذي بإسناد البخاري ومسلم، وقال الترمذي: حديث حسنٌ صحيح^(١).

الشرح:

قوله: (مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) لأنه كان يخرج وربما تفقد أصحابه.
(وَنَحْنُ نَعَالِجُ خُصًّا لَنَا): نصلح خصا: شيئا مما يسكن، وشأنه يسير.
(فَقَالَ: مَا هَذَا؟) سألهم عما يصنعون.
(فَقُلْنَا: قَدْ وَهَى) أي قد ضعف، (فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ): نقيمه.
(فَقَالَ: مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ) لأن الإنسان ما يدري، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [سورة لقمان: ٣٤]، ومع ذلك قد قال النبي ﷺ: «وإنك إن تذر ورثك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»، فلا بأس أن يقوم الإنسان بشيء مما يحتاجه وتحتاجه ذريته للسكنى ونحوها، لكن كان شأن الصحابة وشأن النبي ﷺ عظيم في هذا الباب.

٤٨٠ - وعن كعب بن عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسنٌ صحيح^(٢).

الشرح:

(إِنَّ): حرف توكيد ونصب.
(لِكُلِّ أُمَّةٍ) من الأمم السابقة، وطائفة من الطوائف.

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٣٦)، وابن ماجه (٤١٦٠)، والترمذي (٢٣٣٥).

(٢) حديث رقم: (٢٣٣٦)، وهو في (الصحيح المسند) لشيخنا رحمه الله.

(فِتْنَةٌ) يفتنون بها، كانت فتنة بني إسرائيل في النساء، وكانت فتنة قوم لوط في هذا البلاء الذي يتعاطونه، وكانت فتنة قوم شعيب تطفيف الميزان، فلكل أمة فتنة. قال النبي ﷺ: **(وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ)** حتى يكون في آخر الزمان لا يبالي المرء من أين أخذ المال من حلال أم من حرام، ومع ذلك لو أخذ المرء المال من حله ووضع في حله فقد قال النبي ﷺ: **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»**.

٤٨١ - وعن أبي عمرو، ويقال: أبو عبد الله، ويقال: أبو ليلى عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«لَيْسَ لِابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ»**. رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح^(١). قَالَ الترمذي: سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ سُلَيْمَانَ بْنَ سَالِمِ الْبَلْخِيِّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّضَرَ بْنَ شُمَيْلٍ، يَقُولُ: الْجِلْفُ: الْخُبْزُ لَيْسَ مَعَهُ إِدَامٌ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ غَلِيظُ الْخُبْزِ. وَقَالَ الْهَرَوِيُّ: الْمُرَادُ بِهِ هُنَا وَعَاءُ الْخُبْزِ، كَالْجَوَالِقِ وَالْحُرْجِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

(عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ثالث الخلفاء الراشدين، ذو النورين، زوج ابنتي النبي ﷺ، قتل وقد بشره النبي ﷺ بشهادته لما تحرك أحد قال: **«اثبت أحد، ما عليك إلا نبي وصدیق وشهيدان»**، وفي رواية: **«وشهيد»**، فالحديث الذي كان معه عمر وعثمان وعلي وأبو بكر الصديق، والثلاثة كلهم قتل شهيدا، وفي الحديث الذي لم يكن معه إلا عثمان وعلي فكلاهما الشهيد، قتلهما الخوارج.

(١) حديث رقم: (٢٣٤١)، الحديث منكر، قال المحقق: في سند حريث بن السائب، ضعيف، وقد ضعف الحديث الشيخ الألباني وشيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

والعجيب أن الرافضة لم نجد لهم تذكراً على عبد الرحمن بن ملجم، وإن ذكروه ذكر عابر، مع أنه قتل علي إلا أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لتعلموا أنهم ليسوا حول علي بن أبي طالب.

علي بن أبي طالب منا وإلينا أهل السنة، فنحن الذين نحبه ونوده وندافع عنه، ونذكر ما له من الفضائل والشمائل، ونذب عنه مما نسب إليه من الأقوال البائرة، والأفعال الجائرة، وهكذا ابنه الحسن الحسين، وكل آل البيت الصالحين.

(لَيْسَ لِابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ) له حقوق كثيرة أباحها الله عَزَّوَجَلَّ، كل والبس، واشرب، وتصدق، من غير إسراف ولا مخيلة.
(بَيْتٌ يَسْكُنُهُ) ومن أسباب السعادة: البيت الواسع.
(وَتَوْبٌ يُؤَارِي عَوْرَتَهُ) يوارى سواته.
(وَجِلْفُ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ) أي مما يُقيم به صلبه.

٤٨٢ - وعن عبد الله بن الشَّخِيرِ - بكسر الشين والحاء المعجمتين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿الْهَنُكُ الشَّكَاوُ﴾ [سورة التكاثر: ١] قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ؟ أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ وما عدا ذلك فهو مفارقة». رواه مسلم^(١).

الشرح:

لعله أتى النبي ﷺ في غير صلاة، إذ أن الكلام في الصلاة يبطلها، وكان النبي ﷺ يتعبد بقراءة القرآن وسماعه.

(١) حديث رقم: (٢٩٥٨).

(وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ﴾) سورة التكاثر معلومة، سميت بالتكاثر؛ لما ذكر فيها، ﴿الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾ [سورة التكاثر: ١-٢]، التكاثر في الأموال، والتكاثر في الأولاد، والتكاثر في الضيعات، ونحو ذلك.

(يَقُولُ ابْنُ آدَمَ) أي: جنس الإنسان متبجحاً: (مَالِي، مَالِي) أي: هذا مالي، وهذا حقي، وهذا شأني.

(وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْتَ؟) تأكله ويذهب إلى حيث تلقى القاذورات.

(أَوْ لَيْسَتْ فَأَبْلَيْتَ) بعد أيام يهتري، ويصير مقطعا ممزقا.

(أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ) حيث تجد ذلك أمامك، وسيأتي حديث: «أَيْكُم يَحِبُّ مَالٍ وَارِثُهُ أَكْثَرُ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: لا أينا، قال: «فَمَالُهُ مَا قَدَمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا آخَرَ».

وفي هذا الحديث فضل الصدقة التي يغفل عنها الكثير، والنبى ﷺ يقول: «كُلُّ امْرِئٍ تَحْتَ ظِلِّ صَدَقَتِهِ».

وفي هذا الحديث حب ابن آدم للمال، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [سورة الفجر: ٢٠]، حب عظيم، ربما يقتل أحدهم أخاه، بل ربما قتل ولده أو الولد قتل أباه من أجل المال، نعوذ بالله من فتنته، في مسلم من حديث عبد الرحمن بن عوف: قال النبي ﷺ: «إِذَا فَتَحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيْ قَوْمُ أَنْتُمْ؟» قالوا: نكون كما كنا يا رسول الله، قال: «بَلْ تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسِدُونَ، ثُمَّ تَتَقَاطِعُونَ، ثُمَّ تَتَدَابِرُونَ، ثُمَّ تَعْمَدُونَ إِلَى رِقَابِ الْمُهَاجِرِينَ فَتَضَعُوهَا عَلَى بَعْضٍ».

يفرق بين الأخوة حب المال، وكثير من الناس يستخدم المال على أنه نعمة من الله، وكثير من الناس ييخل بما أوجب الله عليه، ويكون المال سبب لعذابه وتعاسته، فلا يأكل منه كما ينبغي، ولا يؤكل أهله كما ينبغي، وإذا مات عُذِبَ عليه ونُعم به

الورثة، بل بعضهم من حبه للمال يُفسد نفسه أيضا عند الوصية، يتلاعب به: هذا فلان، وهذا لفلان، ويترك الحقوق.

٤٨٣ - وعن عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ، فَقَالَ: «انْظُرْ مَاذَا تَقُولُ» قَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ: «إِنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدَّ لِلْفَقْرِ تَجَفَّافًا، فَإِنَّ الْفَقْرَ أَسْرَعُ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إِلَى مُتْنَهَاءِ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن^(١).

(التجفاف) بكسر التاء المثناة فوق وإسكان الجيم وبالفاء المكررة: وَهُوَ شَيْءٌ يُلْبَسُهُ الْفَرَسُ، لِيَتَّقَى بِهِ الْأَذَى، وَقَدْ يُلْبَسُهُ الْإِنْسَانُ.

الشرح:

لما قال هذا الرجل يحب النبي ﷺ قال له النبي ﷺ: (انْظُرْ مَاذَا تَقُولُ؟)؛ لأنه لا بد من دليل يدل على صدق المحبة. وفيه الحلف بدون استحلاف، وفيه تأكيد ما يتكلم به باليمين، وفيه فضل الحب في الله، وفيه تكرار الكلام ثلاثا.

(١) حديث رقم: (٢٣٥٠)، في سننه أبو الوازع الراسبي، جابر بن عمرو، منكر الحديث، فهو ضعيف جداً، ولفقرة الأولى من الحديث شاهد من حديث أنس، رواه البزار كما في (كشف الأستار)، وفي سننه بكر بن سليم، ضعيف، الضعيف ما يشهد للضعيف جداً أبداً. ولفقرة الثانية شاهد من حديث أبي سعيد رواه أحمد، وفيه انقطاع بين عمرو بن الحارث المصري وأبي سعيد، وقال البيهقي في (الشعب): مرسل. ثلاث علل، لا يكون له شاهد.

وللحديث كله شاهد من حديث أبي ذر، رواه الحاكم وقال: صحيح، قال: الألباني في (الصحيحة): إنما هو صحيح فقط، وقال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (تعليقه على المستدرك): قلت: عبد الله بن أبي طلحة لم يخرج له البخاري، وقد أورد الألباني حديث ابن مغفل في (الضعيفة)، وكذا في (ضعيف الترمذي)، ثم تراجع عنه وصححه. قاله المحقق. والذي يظهر أن الحديث ضعيف.

(فَإِنَّ الْفَقْرَ أَسْرَعُ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إِلَى مُتَتَّهَاءٍ) قد تجد كثيرا ممن يحب النبي ﷺ على سعة في الرزق، منهم عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد ذلك.

٤٨٤ - وعن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَا ذُبَّانٍ جَائِعَانِ أُزْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»**. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

وقد شرحه ابن رجب في رسالة مستقلة، وكعب بن مالك هو الذي تخلف في غزوة تبوك كما تقدم، وعفا الله عنه.

قال: **(مَا ذُبَّانٍ جَائِعَانِ)** الذئب معروف، حيوان مفترس. **(أُزْسِلَا فِي غَنَمٍ)** تلعب به يمينا ويسارا، والذئب طبيعته أنه لا يكتفي بقتل غنمة وأكلها، بل يفسد الغنم؛ لشراسته، فيبطش هذه، ربما أخذ منها الإلية، ويبطش الأخرى ربما أخذ من رأسها، والثالثة ربما بقر بطنها، وهكذا، فتصبح الغنم كلها على حال سيء.

(بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ) يعني أن هذان الذئبان فسادهما لهذا الغنم أهون من فساد دين المرء بسبب أمرين:

الأمر الأول: الحرص على المال، إذ يؤدي به إلى التنازلات، ويؤدي به إلى الانحراف، إلا من رحم ربي.

(وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ) بحيث يترفع على الناس؛ لما وهبه الله من العلم والخير، والواجب أن يتواضع، **«من تواضع لله رفعه الله»**.

(١) حديث رقم: (٢٣٧٦)، وهو في (الصحيح المسند) لشيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذا الحديث فيه دعوة إلى الإخلاص، وفيه ضرب الأمثال، وفيه بيان لشدة ما يؤدي إلى فساد المرء في علمه ودينه، وفيه غير ذلك مما سطر في تلك الرسالة.

٤٨٥ - وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً. فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

قوله: (نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) فيه ما عليه الرسول ﷺ من الصفات البشرية، إذ كان ينام، ويأكل ويشرب، ويخرج ويدخل.
وفي هذا رد على من وصفه بمراتب الألوهية.
(عَلَى حَصِيرٍ): سعف النخل، يصنع منه من البسط يسمى حصيرا.
(فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ): لخشونته، ولما فيه من التعوجات، والآن كثير من الناس ما يبات إلا على الفراش السوبر، والفراش الوافرة، ونشكو من آلام الزهور، أحدنا يقول: ظهري ظهري، وإذا عدنا إلى السبب ربما تلك الفراش التي تؤدي إلى تقوس الظهر وتعوجه، وأولئك كان أحدهم ينام على حصير.
رأيت حكمة ما أجملها والله! قالوا: الفقير يمشي كثيرا من أجل أن يحصل على لقمة العيش، والغني يمشي كثيرا من أجل أن يؤدي إلى نحافة جسمه، الدنيا متعبة، نسأل الله أن يعافينا من شرها.

(١) حديث رقم: (٢٣٧٧).

وكذلك عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل على النبي ﷺ وقد أثر الحصر في جنبه، وهو أكرم مخلوق، فوالله لو كانت الدنيا هي المعيار لكان النبي ﷺ على فرش الحرير والديباج والإستبرق، لكن هذه لهم في الدنيا وللمسلمين في الآخرة. **(قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً)** يعني شيء كالفراش، لينا، إذا نزلت فرشناه.

(فَقَالَ: مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟) يعني: اتركوني من هذه الأمور التي تذهب.

(مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتِظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) يعني هل الراكب يحتاج إلى فرش وإلى وطاء وإلى غير ذلك؟ ما يحتاج، بل إن ذلك سيؤدي إلى تأخيره ويؤدي إلى قلقه؛ لأنه يحتاج يفرش، ثم يجمع، ثم يركب، لكن هذا مستعجل، وهذا دليل على أن الدنيا عمرها قليل، وأيامها زائلة، فما أحد يبقى عليها، لو كانت لغيرنا ما وصلت إلينا، وأعلى من ذلك ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا قَانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦].

وانظر إلى هذا الوصف المزهد في الدنيا **(إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتِظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ)** ما قال حتى: نام، استظل، وراكب، ليس بمستوطن، المستوطن قد يأتي إلى الشجرة ويجلس تحتها نصف نهار؛ لأنه قريب من بيته، يتبرد ونحو ذلك، أما هذا راكب مستعجل، ربما يجلس قليلا ريثما يشرب من مائها، أو يأكل شيئا مما معه، ثم يسافر.

وأيضا قوله: (ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) دليل على أن الإنسان ليس له من الدنيا إلا ما سبقه إلى الآخرة من الصدقات والنذور ونحوها، أما الباقي سيتركه، سيتركه الله أعلم لأناس ربما ما يقولون: عليه رحمة الله، لا سيما في هذا الزمان الذي قل فيه المعروف، تجد أحدهم يسكن في البيت الذي بناه له أبوه، ويركب السيارة التي اشتراها أبوه، ومع ذلك يقول: الله لا رحمه، ومثل هذا الكلام القبيح.

فمثل هؤلاء إذا كان الحال هكذا لو أن الإنسان يترك لهم ما يقتاتونه ويعفهم عن الناس ويبني له إلى الآخرة.

٤٨٦ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ». رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح^(١).

الشرح:

هذا الحديث يستدل به على تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر، وهذه مسألة قد أُلِفَ فيها قديما وحديثا، فتجد أن بعضهم نصر القول بتفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر، وبعضهم ذهب إلى نصرة الفقير الصابر على الغني الشاكر. أما ابن القيم ذهب إلى تفصيل آخر أنه لا فضل لهذا ولا لهذا إلا بالتقوى، وهذا هو الصحيح، لكن إن أتينا إلى وجود التقوى فيهم سواء من حيث التقوى، لكن هذا غني شاكر، شارك في أوجه الخير، بنى المساجد، وأجرى الطرقات، وطبع الكتب، وكفل الأيتام، وأنفق في أوجه الخير، هذا أرفع بهذه الأعمال. لأن الغني الشاكر سيشارك الفقير في جميع العبادات المشتركة، وهي مشتركة، الصيام، والصلاة، والحج، وقراءة القرآن، وغير ذلك، ويزيد عليه في أعمال البر، والدليل على ذلك: «سبقنا أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم»، ثم آخر الأمر قال لهم النبي ﷺ: «ذلك فضل الله» مقرا لهم على قولهم. وأما هذا الحديث فمعناه: أن الفقراء قد يدخلون الجنة فقراء المسلمين، والأغنياء، قد يبقون في أرض المحشر للحساب على أموال أنفقوها في وجهها أو في غير وجهها، ثم بعد ذلك يكون شأنهم إلى حيث شاء الله من العلا، على قدر نفقاتهم وبذلهم في الخير.

(١) حديث رقم: (٢٣٥٣).

٤٨٧ - وعن ابن عباس وعِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قَالَ: «**اطْلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطْلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**». متفقٌ عَلَيْهِ من رواية ابن عباس، ورواه البخاري أيضًا من رواية عِمْرَانِ بْنِ الْحُصَيْنِ ^(١).

الشرح:

(اطْلَعْتُ) إما أن يكون في ليلة الإسراء، أو أن يكون في يوم الكسوف، حيث قرب الله له الجنة والنار.

(فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ) فقراء المسلمين، كثير من الأغنياء ربما بعضهم على استكبار وكفر وعناد.

(وَاطْلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ) والنساء هن أكثر أهل النار وأكثر أهل الجنة، وقد جاء مفسرا: يا رسول الله لماذا أو كذا؟ قال: «**بكفرهن**»، قالوا: يا رسول الله يكفرن بالله؟ قال: «**يكفرن العشير ويكفرن الإحسان**».

فإذا كان على هذا سيكون دخولهن النار إن أراد الله لهن ذلك ابتداء، ثم مآل المسلمة إلى الجنة.

٤٨٨ - وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قَالَ: «**قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةٌ مَن دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجِدِّ مُحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ**». متفقٌ عَلَيْهِ ^(٢).
و(الجدُّ): الحظُّ والغنى. وقد سبق بيان هذا الحديث في باب فَضْلِ الضَّعْفَةِ.

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤١) عن عمران بن حصين، وأخرجه مسلم (٢٧٣٧) عن ابن عباس، ورواه البخاري عقيب (٦٤٤٩) عن ابن عباس معلقًا.

(٢) انظر الحديث (٢٥٨).

فيه فضل ضعفة المسلمين، ومساكين المسلمين.
وفيه أن صاحب السعة قد يحبس، ثم يكون ماله إن كان من أهل الإسلام إلى الجنة، فيكرم الكرامات العظيمة.

(غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ) «يتقادعون فيها تقادع الفراش».

٤٨٩ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قَالَ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ». متفقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

أصدق كلمة قالها شاعر، وهذه شهادة من النبي ﷺ للبيد، الذي عُمر في الإسلام وعاش في الجاهلية، وهو القائل:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدره أتقنعُ
(أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ) وهذا معنى لا إله إلا الله، فهذه الكلمة تضمنت معنى لا إله إلا الله، وبلا شك ولا ريب أن كلمة لا إله إلا الله وما في معناها أفضل الذكر، كما قال النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».



(١) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦).

٥٦ - باب فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكول والمشروب والملبوس وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝﴾ [سورة مريم: ٥٩-٦٠].

وقال تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُورُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝﴾ وقال الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُقْلَبُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۝﴾ [سورة القصص: ٧٩-٨٠].

وقال تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [سورة التكاثر: ٨].
وقال تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [سورة الإسراء: ١٨].
والآيات في الباب كثيرة معلومة.

الشرح:

إذا توسع الإنسان في الحلال لا حرج عليه، إنما المذموم التوسع في الحرام.
﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾: خلف من بعد الصدر الأول، خلف، وهذا على الذم عند التخفيف، أضاعوا الصلاة، من شأنهم أنهم أضاعوا الصلاة، إما بالكلية، أو أضاعوها عن أوقاتها، وأضاعوا حدودها وأركانها.

﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾: الملذات من الزنا والفجور والخمر ونحو ذلك.

﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾: عذاب شديد.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾) إلا هذا الصنف، من تاب إلى الله مما كسبته يداه، وآمن التزم الإيمان ظاهرا وباطنا، وعمل صالح ومات عليه، الأعمال بالخواتيم.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾) فأولئك يدخلون الجنة يوم القيامة، ولا يظلمون شيئا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: ٤٦].

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾) أي قارون.

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾) يتمنونها ويرغبون فيها.

﴿يَلَيَّتْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونٌ﴾) من الأموال الكثيرة.

﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾) حكموا عليه بالحظ والنصيب بسبب أمواله، لكنه كان من الكافرين، ما تنفعه هذه الأموال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمُ﴾) أصحاب العلوم الذين يعملون بها هم الذين يميزون دائما.

﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾) ثواب الله على الأعمال الصالحة.

﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾) أما الذي ما عنده إيمان عمله مردود، وصاحب الأعمال السيئة لا أجر له على سيئاته.

﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾) والنعيم كلمة عامة، تشمل النعيم الحسي والمعنوي.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾): الدنيا، ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾) من الرزق، ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾) ونمنع من نريد معناها.

(﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾) هذا إذا كان من الكافرين، أما إذا كان من المؤمنين فالمؤمن يرجى له الخير، يرزقه الله في الدنيا على طاعته، ويدخر له حسنته إلى يوم القيامة.

٤٩٠ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزٍ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ. متفقٌ عَلَيْهِ^(١).
وفي رواية: مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْذُ قَدَمِ الْمَدِينَةِ مِنْ طَعَامِ الْبُرِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تَبَاعًا حَتَّى قُبِضَ.

الشرح:

وهذا دليل على زهد النبي ﷺ وزهد أزواجه، وقلة ذات اليد في زمنهم، فنحن الآن كثير منا لا يأكل الشعير، لا يأكلون الشعير، وإنما يأكلون البر وما في بابه.
قوله: (يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ) فيه أنهم ربما شبعوا أحياناً، لكن في أغلب الأوقات كانوا على العدم.

٤٩١ - وعن عروة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: وَاللَّهِ، يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا نَنْظُرُ إِلَى الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ: ثَلَاثَةُ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ. قُلْتُ: يَا خَالَةَ، فَمَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قالت: الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ هُمْ مَنَائِحَ، وَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْبَانِهَا فَيَسْقِينَا. متفقٌ عَلَيْهِ^(٢).

الشرح:

وهذا دليل على زهد النبي ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

أما عروة بن الزبير فهو ابن العوام الصابر المحتسب.
(أَنَّهُ كَانَتْ تَقُولُ: وَاللَّهِ، يَا ابْنَ أُخْتِي) هو ابن أسماء بنت أبي بكر، وابن الزبير بن العوام.

(إِنْ كُنَّا نَنْظُرُ إِلَى الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ: ثَلَاثَةُ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ) هلال مبدأ الشهر الأول، هلال خاتمة الشهر الأول، هلال مبدأ الشهر الثاني.

(وَمَا أَوْقَدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارًا؟) لقلعة ذات اليد، ولقلعة الأطعمة، لم يكن عندهم لحوم، وعندهم مدخرات.

(قُلْتُ: يَا خَالَتُهُ، فَمَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟) ماذا تأكلون؟
(قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ) يأكلون التمر والماء، وهذا قد يُتعب الجسم، صباح مساء، ومع ذلك جعل الله لهم فيه بركة.

(إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ) يهدون إليه، ويكرمونه؛ لأن النبي ﷺ كان لا يقبل الصدقة، ولا تجوز له الصدقة.

وفي الحديث حسن الجوار، وأن الإنسان يتفقد جاره للتوسعة عليه وإطعامه.

(وكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ) المنائح: شيء من الغنم والبقر التي تحلب.

(وَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْبَنَاتِ فَيَسْقِيْنَا) فيشرب ويسقي نساءه.

٤٩٢ - وعن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَضْلِيَّةٌ، فَدَعَا فَا بَى أَنْ يَأْكُلَ، وَقَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ. رواه البخاري (١).

(مَضْلِيَّةٌ) بفتح الميم: أي مَشْوِيَّةٌ.

الشرح:

(١) حديث رقم: (٥٤١٤).

الآن ما عادهم حول المشوي، الآن يأكلون المفطح وما في بابه، ربما تجد أحدهم يأخذ الجمل لا سيما الصغيرة ويطبخه في قدر واحد، ثم يأتي به للضيوف وهو بارك على هيئته، لم يقطع منه إلا رأسه، وكثير منهم طبيعة على أن المفطح هذا لاثنين أو ثلاثة إذا كثروا، عبارة عن كبش كامل، ينزع منه الجلد، ثم يطبخ على حاله، بعد أن يخرج منه الكرش، فتجد إذا هناك ستة ضيوف يكون هناك ذبيحتان، سعة وتوسع، والنبي ﷺ خرج ولم يأكل من ذلك، من خبز الشعير.

(أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَّضْلِيَّةٌ): مشوية، قد وسع لهم.

(فَدَعَوْهُ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ) كانوا يحبون التأسي من النبي ﷺ في كثير من شأنه، وإلا لو أكل ليس بحرام عليه إذا كانت حلالا.

٤٩٣ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ، وَمَا أَكَلَ خُبْزًا مَرْقَّقًا حَتَّى مَاتَ. رواه البخاري^(١).
وفي رواية لَهُ: وَلَا رَأَى شَاةً سَمِيطًا بَعَيْنِهِ قَطُّ.

الشرح:

يعني كان يأكل فقط الشعير، وما في بابه من اللبن، أو يأكل الأسودين: التمر والماء، وأما مثل هذه الأمور ومثل هذه السفر إنما اتخذها الناس لما كثر طعامهم، وإلا في زمنه ما كانت هناك سفر، كما في حديث جابر: جاءه ثلاثة أقراص، فأعطى جابر واحدا، وله الثاني، وقسم الثالث بينهما، والله المستعان.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ فِي فَتْحِ الْبَارِي (٢٨٠ / ١١): قَالَ بَنُ بَطَّالٍ: تَرَكُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْأَكْلَ عَلَى الْخِوَانِ وَأَكَلَ الْمُرَقَّقَ إِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ طَبِيبَاتِ الدُّنْيَا اخْتِيَارًا لَطِيبَاتِ الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالْمَالِ إِنَّمَا يُرْغَبُ فِيهِ لِيُسْتَعَانَ بِهِ عَلَى الْآخِرَةِ فَلَمْ يَحْتَجِ النَّبِيُّ

(١) حديث رقم: (٥٤٢١).

ﷺ إِلَى الْمَالِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْخَبَرَ لَا يَدُلُّ عَلَى تَفْضِيلِ الْفَقْرِ عَلَى الْغِنَى بَلْ يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الْقَنَاعَةِ وَالْكَفَافِ وَعَدَمِ التَّبَسُّطِ فِي مَلَاذِ الدُّنْيَا. اهـ

٤٩٤ - وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقْلِ مَا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنُهُ. رواه مسلم ^(١).
«الدَّقْلُ»: تَمَرٌ رَدِيءٌ.

الشرح:

وهذا دليل على ضيق حالة النبي ﷺ.

٤٩٥ - وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّقِيَّ مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ كَانَ لَكُمْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنَاخِلُ؟ قَالَ: مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنْخُلًا مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ الشَّعِيرَ غَيْرَ مُنْخُولٍ؟ قَالَ: كُنَّا نَطْحَنُهُ وَنَنْفُخُهُ، فَيَطِيرُ مَا طَارَ، وَمَا بَقِيَ ثَرِينَاهُ. رواه البخاري ^(٢).

قَوْلُهُ: (النَّقِيَّ) هُوَ بَفَتْحِ النُّونِ وَكسْرِ الْقَافِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ: وَهُوَ الْخُبْزُ الْحَوَّارِيُّ، وَهُوَ: الدَّرْمَكُ.
قَوْلُهُ: (ثَرِينَاهُ) هُوَ بَاءٌ مَثْلَةٌ، ثُمَّ رَاءٌ مُشَدَّدَةٌ، ثُمَّ يَاءٌ مُثْنَاةٌ مِنْ تَحْتِ ثَمَّ نُونٍ، أَيُّ: بَلَلْنَاهُ وَعَجَّنَاهُ.

الشرح:

(الْخُبْزُ الْحَوَّارِيُّ، وَهُوَ: الدَّرْمَكُ) نوع من الخبز، ربما لا نعرفه الآن، أو أنه يقصد الخبز الذي يخبز الآن بهذا الدقيق الأبيض، أو هذا الدقيق المطحون النظيف.

(١) حديث رقم: (انظر الحديث (٤٧٢)).

(٢) حديث رقم: (٥٤١٣).

قوله: (مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّقِيَّ) أي لقلة ذات اليد.
(مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى) ثم وسع على المسلمين بعد ذلك.

(فَقِيلَ لَهُ: هَلْ كَانَ لَكُمْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنَاحِلٌ؟) المنخل يحتاجه الرجل؛ لتمييز رديء الطعام من حسنه، ولكن حال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دُونَ، مَا كَانَ عَنْدهم طعام كثير بحيث يميزون الرديء من الحسن، غاية ما فيه أَنْ يجدوا بعض الطعام فيأكلونه على أي حال، يخرجون الشيء الظاهر ثم يأكلون ما غبر.
(كُنَّا نَطْحَنُهُ) يعني بما فيه، وقد تكلم العلماء هنا على مسألة الدود الذي في الحبوب، أو الدود الذي في التمر، ما حكمه؟ مثل هذا يغض الطرف عنه ويؤكل مع هذه الأشياء.

قد يقول قائل: كيف نأكل الدود؟ للقلة قد تضطر إلى أكله، أو إلى إلقاء الحبوب، فيؤدي إلى جوعك، فمثل هذه الأيام أحيانا نجد ما يسمى بالقاعة، أو هذه الحشرات البنية، توجد بين الدقيق، الغني ربما أخذ الكيس وألقاه، والفقير ربما أخذه وطحنه، ميز ما ميز، ثم يأكله، ويراه طعاما نقيا مفيدا.
(وَمَا بَقِيَ ثَرِينَا): يأكلونه ويعجنونه.

٤٩٦ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأُخْرِجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قَوْمًا» فَقَامَا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلَانُ؟» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا الْمَاءَ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِيهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدُ الْيَوْمِ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، فَاذْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ، فَقَالَ: كُلُوا، وَأَخَذَ الْمُدِّيَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ» فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرَبُوا.

فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمُ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ». رواه مسلم^(١).

قَوْلُهَا: (يَسْتَعْذِبُ) أَيُّ: يَطْلُبُ الْمَاءَ الْعَذْبَ، وَهُوَ الطَّيِّبُ.
(وَالْعِذْقُ) بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَإِسْكَانِ الذَّالِ الْمَعْجَمَةُ: وَهُوَ الْكِبَاسَةُ، وَهِيَ الْغُصْنُ.
(وَالْمُدِّيَّةُ)، بِضَمِّ الْمِيمِ وَكسرها: هِيَ السَّكِينُ. وَ(الْحُلُوبُ): ذَاتُ اللَّبَنِ.
وَالسُّؤَالُ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ سُؤَالُ تَعْدِيدِ النَّعَمِ لَا سُؤَالُ تَوْبِيخٍ وَتَعْذِيبٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَهَذَا الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي أَتَوْهُ هُوَ، أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيَّهَانِ، كَذَا جَاءَ مُبَيَّنًا فِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ.

الشرح:

هذا حديث عظيم، فيه ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من ضيق الحال.

(١) حديث رقم: (٢٠٣٨).

(خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ) الذي يظهر أنه يوم، وقوله (ليلة) غلط من الراوي، ومما يدل على أنه يوم أن ابن التيهان ليس في بيته، لو كان في الليل لكان في بيته، وشأن الليل أن الإنسان يقري بما معه، حتى يصبح الصباح، لكن شأن النهار أن الإنسان يضيف.

(فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) كلاهما قد خرج، وهما أفضل الأمة بعد النبي

ﷺ.

(فَقَالَ: مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟) لعلها سيعت قيلولة، أو ساعة يبقى الناس فيها للحر أو نحوه.

(قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ) يصدقانه؛ لضيق الحال، ولأنهما كانا على صدق وأمانة.

(قَالَ: وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا) حلف رسول الله ﷺ لتأكيد الأمر، وهو غير متهم بأبي هو وأمي، وانظر إلى هذا الحال الذي لحقه حتى خرج من بيته، لو كان في بيته شيء لأكل منه، ولو كان في بيوت نسائه لذهب إليهن، لكن خرج إلى بعض أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكانوا يكرمونه.

(فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ؛) لأن الأنصار كانوا أهل زراعة، وأهل غنم، وأهل بلد، حالهم أحسن من المهاجرين بكثير، أما المهاجرون غاية ما فيه أن يكون بعضهم قد أخذ بعض الزراعة من بعض الأنصار للقيام عليها، وبعضهم يدخل السوق تعلمون الأسواق ما فيها، ما عساه يبيع وما عساه يشتري؟ إلا القلة القليلة الذين أغناهم الله عزَّوَجَلَّ.

(فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا) أولاً: الرسول ﷺ بمنزلة الوالد، الأمر الثاني: عادة العرب أن المرأة تكرم الضيف مع عدم الخلطة وعدم الخلوة، ونحو ذلك.

(ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا الْمَاءُ) الذي يظهر أن النساء في عهدهم كن يلزمن البيوت، والرجل هو الذي يقوم بالشأن الخارجي للبيت، من المجيء بالماء والحطب، ونحو ذلك، حتى في عهدنا القديم، حتى أن من كلام العامة: ما عليك إلا تلحي، والحطب والماء عليّ، لأن الإنسان يخرج لجلب الماء وجلب الحطب، والمرأة في البيت تصلح اللحوح والطعام ونحو ذلك.

لا سيما في مثل المدينة، قد يؤدي خروج المرأة إلى فتنها؛ لكثرة الخلطة، أما في البادية قد تذهب المرأة إلى جانب من جبل، أو جانب من مزرعة، فتقطع من الحطب، وتأخذ من العلف، وتستعذب الماء، ونحو ذلك، فلا ضرر في ذلك.

(إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ) وهو أبو الهيثم بن التيهان، كما تقدم.

(فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِيهِ) وهذا مما يدل على أنه بالنهار.

(ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدُ الْيَوْمِ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي) وفعلا، ضيفه رسول الله صل الله عليه وسلم خير البرية وأزكى البشرية، ثم يليه أبو بكر أفضل الناس بعد رسول الله بعد الأنبياء والمرسلين، ثم يليه عمر ثالث الأمة فضلا.

(فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ) يعني عذق من الشجرة، أو أنه قد قطعه وعلقه في البيت.

(فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ) التمر: هو اليانع اليابس منه، والرطب: هو شبيه الناضج الذي ما زال قريبا من البسر، والبسر: هو الذي لم يينع بعد، فتجد في العذق جميع الأنواع الثلاثة.

(فَقَالَ: كُلُوا) قدم لهم هذا الطعام كالتحفة، وبهذا تعلم أن الضيف إذا دخل البيت

لا بأس أن يقدم له شيء من العصير، أو شيء من الحلوى، أو شيء من التمر، حتى يجهز الطعام؛ لأنه قد يصل جائعا، فإذا انتظر الطعام لاسيما إذا كان الإعداد سييئاً ربما ما يأتي الطعام إلا وقد جاع، فهذا أكرمهم بهذه التحفة.

وحين يدخل المؤمنون الجنة يأكلون زيادة كبد النون قبل أن يأكلوا من ثور الجنة، وهذا دليل أيضا على هذه المسألة، أنه إذا دخل الضيف وكان الطعام لم يعد أنه يقدم له شيء من الشراب، من الماء، مما يأكل، ثم بعد ذلك يؤتى بالطعام.

(وَأَخَذَ الْمُدَيَّةُ) أي: الشفرة أو السكين أمامهم.

(إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ) فيه التكلف للضيف، لكن تكلف ليس بالمفرط الذي يؤدي إلى الإجحاف بالمستضيف، لكن إن كان له غنمة ذبح منها، إن كان له قدرة أن يشتري شيئا من اللحم أو شيئا من الطعام الطيب فعل.

(إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ)؛ لأن الحلوب نفعتها متعدي، الحلوب يشرب منها الطفل، تشرب منها المرأة، يشرب منها صاحبها، بينما غير الحلوب تؤكل، ولذلك كان في الصدقات لا يؤخذ التيس، إلا في حالة واحدة: إذا كان جميع مال المتصدق تيس، وإلا إنما يؤخذ الإناث؛ لأن الأنثى يستفيدها الفقير، أما التيس ليس له سبيل إلا الذبح.

(فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعَذْقِ وَشَرِبُوا) وأيم الله أنها طعمة طيبة لخير الناس، كيف سيفرح بهذه الضيافة؟ لا ينساها أبدا.

(لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وكما قال النووي: سؤال تعدد النعم، سؤال إظهار نعمة الله عَزَّجَلَّ عليهم، وإنما المحاسبة تكون في شأن غير الشاكر.

بهذا تعلم أيها الأخ أننا في خير عظيم، مهما اشتد علينا الحال ما قد وصلنا إلى هذا الحال، مهما اشتد علينا الحال، سواء لما كنا في دماج أو في غير دماج، مازال طلاب العلم في خير عظيم، وشأنهم من ناحية الملبس والمشرب والمطعم أحسن بكثير من شأن المتقدمين، فما من دار حديث الآن إلا وفيه مطبخ، وربما مخبز، وتجد أن كثيرا من الطلاب هذا معه ثوبان، وذاك ثلاثة، وذاك أربعة، وبعضهم في خير، والعمائم موجودة، والنعال موجودة، والفرش موجودة.

بينما الصحابة **رَضُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ** سيأتي معنا قال: خرجنا ليس علينا عمام، ولا قلانس، ولا قمص، ولا نعال، بعضهم، شأنهم كان دون، والمدينة حارة الحر وباردة البرد، المدينة في الصيف حرها شديد، والله ربما لا تستطيع أن تضع رجلك على الحجر، تلهبه، وفي الشتاء بردها شديد، علي بن أبي طالب يقول: تشقق ظهري من كثرة الغسل، ومع ذلك كان هذا حالهم، أصحاب الصفة.

أما الآن نحن في الصيف عندنا المكيفات والمراوح، والماء البارد المثلج، والطعام الطيب، وعندنا في الشتاء الملابس، ونستطيع أن نغلق الأبواب والنوافذ، وإذا بالحر يأتي، فالأمر على خير، وحسن حال، لا يحتاج منا إلا إلى مزيد شكر الله عزَّ وجلَّ. وانظر إلى رسول الله ﷺ، من أكلة رأى فضل الله عليه، ونحن ربما من أكالات ما نستحضر مثل هذا الشكر، وهذا الذكر الخير العظيم.

٤٩٧ - وعن خالد بن عُمَيْرِ الْعَدَوِيِّ، قَالَ: خَطَبَنَا عُثْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ، وَكَانَ أَمِيرًا عَلَى الْبَصْرَةِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنْتَ بِضُرْمٍ، وَوَلَّتْ حَدَاءً، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ يَتَصَابُهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُسْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا، فَانْتَفِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَاللَّهُ لَتُمْلَأَنَّ، أَفَعَجِبْتُمْ؟ ! وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مِصَارِيحِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَطَيْظٍ مِنَ الزَّحَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرَحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا، وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرِ مِنَ الْأَمْصَارِ، وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا، وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا. رواه مسلم ^(١).

(١) حديث رقم: (٢٩٦٧).

قوله: (أَذَنْتُ) هُوَ بِمَدِّ الألف، أي: أَعْلَمْتُ.
 وقوله: (بِضْرَم) هُوَ بضم الصاد، أي: بِانْقِطَاعِهَا وَفَنَائِهَا.
 وقوله: (وَوَلَّتْ حَذَاءً) هُوَ بِحَاءٍ مَهْمَلَةٌ مَفْتُوحَةٌ، ثُمَّ ذَالٌ مَعْجَمَةٌ مُشَدَّدَةٌ، ثُمَّ أَلْفٌ مَمْدُودَةٌ، أي: سَرِيعَةٌ.
 وَ(الصُّبَابَةُ) بضم الصاد المَهْمَلَةُ وهي: البَقِيَّةُ الْيَسِيرَةُ.
 وقوله: (يَتَصَابَهَا) هُوَ بِتَشْدِيدِ الباء قبل الهاء، أي: يَجْمَعُهَا.
 وَ(الْكُظَيْظُ): الكثير الممتلئ.
 وقوله: (فَرِحَتْ) هُوَ بِفَتْحِ القاف وكسر الراء، أي: صَارَتْ فِيهَا قُرُوحٌ.

الشرح:

وهذا حديث عظيم، خطبة من أمير، وكان صحابيا قد ناله ما ناله من التعب والنصب مع رسول الله صل الله عليه وسلم.
 (البَصْرَةُ) من العراق.
 (فَحَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ) افتتاح الخطب بالحمد والثناء.
 (ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ) بوب عليه البخاري: قول الخطيب أما بعد، واختلف في أول من قالها، والذي يهمننا أن رسول الله ﷺ قالها.
 (فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَذَنْتَ بِضْرَمٍ) أي أنه لم يبق منها إلا أيام قلائل، وإنما لطول أمل الناس لا يستحضرون ذلك، وإلا قد أخبر النبي ﷺ أن هذه الأمة وقتها من العصر إلى المغرب، فهو أقل الأوقات.
 (وَوَلَّتْ حَذَاءً) أي: سريعة، مسرعة، انظروا قبل أيام ونحن صغار السن، نلعب مع من يلعب، وإذا بنا الآن في طور الكهولة، وبعضنا في طور الشيخوخة، والله أعلم كم بقي لنا من الأيام والليالي.

(وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كُصْبَابَةٌ الْإِنَاءِ يَتَصَابُهَا صَاحِبُهَا) وما عسى هذه الصبابة؟ مثلاً هذه القنينة لو شُربت وما وُجد إلا في أسفلها بعض القطرات ما عسى هذه الصبابة؟ إن حركتها ربما لا تصل إلى فيك، تنتهي، وكانت آيتهم من الفخار، ربما بعض الماء إذا حُرِّك في الإناء أخذه اليابس، فصبابة قليلة.

(وَإِنَّكُمْ مُتَّقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا) وهي الآخرة، دار القرار، إن كان من أهل الجنة قراره في الجنة، وإن كان من أهل النار قراره في النار، نسأل الله السلامة. (فَانْتَقِلُوا بِخَيْرٍ مَا بِحَضَرَتِكُمْ) وهو العمل الصالح.

(فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا) والذي ذكر لهم ذلك هو رسول الله ﷺ. (أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ سَفِيرٍ جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا) سبعين عاماً كما في حديث أبي هريرة.

(وَاللَّهُ لَتُمْلَأَنَّ) حين يضع الله قدمه عليها ويقول: ﴿هَلِ أَمْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [سورة ق: ٣٠]، فيضع قدمه عليها حتى تقول: قَطِ قَطٍ، أي: يكفي يكفي.

سبعين خريفاً وهو يهوي هويًا، كم ستكون سرعته؟ كم ستكون تكون سرعته في الساعة؟ الله أعلم كم مساحة هذه النار، نسأل الله السلامة منها، ولذلك كبرت وكبر أصحابها، ربما تجد ضرس الواحد مثل جبل أحد، وما بين عاتقه وكتفه مسيرة ثلاثة أيام؛ حتى يشتد عذابه، نسأل الله السلامة.

(أَفَعَجِبْتُمْ؟) أي من هذا الكلام.

(وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيحِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا) يعني مصاريع الأبواب، هذا في باب واحد، كم جميع الأبواب؟ ومع ذلك يأتي عليها يوم وهو كظيظ من الزحام؛ لكثرة من يدخلها من المؤمنين، وأكثرهم من أمه محمد ﷺ، كما قال النبي ﷺ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعُونَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا»، وقال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عَشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ بَقِيَةِ الْأُمَمِ».

(وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) لماذا لم يقل: سادس سبعة أو سابع ثمانية؟ لأنهم من جنس واحد، بينما لو كان بخلافهم؛ لقال: سابع ثمانية، وسادس سبعة، ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [سورة الكهف: ٢٢]، ما قال: وسابعهم كلبهم؛ لأن الكلب من غير جنسهم، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَائِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آذَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا آكْرَهُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [سورة المجادلة: ٧]، فهذا من باب الفائدة.

(مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ) كانوا يأكلون أوراق الشجر؛ لقلّة ذات اليد، وأوراق الشجر تعلمون أنما تأكلها الحيوان البهيم، لكن لقلّة ذات اليد كثرت مآكلهم من ذلك، وقد يأكل الإنسان أوراق الشجر، لكن في النادر، وهناك طائفة موجودة في الهند، وموجودة في كثير من البلدان الآن، تدعو إلى الاكتفاء بالطعام النباتي، ويزعمون أن الطعام الحيواني فيه شدة، وفيه انتهاك لحقوق الحيوان. وأصحاب القات من البطرة أكلوا القات، وأوراق الشجر.

إنما القات حشيش أخضرٌ ليس يحتاج إليه البشرُ
فإذا ما أكلته أمةٌ فاعذروهم إنما هم بقرُ
لكن الصحيح أن البقر لا تأكل القات، الذي يأكل القاتل الغنم، أما البقر وغير ذلك من الحيوان لا يأكله.

(حَتَّى قَرَحَتْ أَشْدَاقُنَا) من كثرة الورق الذي يأكلونه، بعضه طري، وبعضه ربما يابس، وبعضه شديد.

(فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ) لما ذكر ما لحقهم من الضرر في أكلهم ذكر ما لحقهم من الضرر في لباسهم، يعني لم تكن القلة في الطعام فقط، وإنما أيضا في اللباس، سعد بن مالك من العشرة المبشرين بالجنة، سعد بن أبي وقاص،

وما له رداء يضعه على ظهره، يضعه على عاتقه، إنما معهم بردة واحدة شقوها نصفين؛ ليغطوا أسفلهم، وهو مكان العورة، وأما أعلامهم فظاهر.

(فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ) أي: منطقة من المناطق.

(وَأَنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا) وهذا هو المرض العظيم الذي نسأل الله أن يعافينا منه، لا سيما طلاب العلم، أن يتعاضم في نفسه لما منحه الله عزَّجَلَّ من العلم، ولما يقوم به من بعض العمل، ولكن على الإنسان أن يستعيز بالله أن يكون في نفسه عظيماً وهو عند الله صغيراً، ما يدري الإنسان أنه يرى أنه عظيم عند الله وهو صغير، بسبب عدم إخلاصه، بسبب مرأته، بسبب عجه، بسبب حبوط عمله، لسبب أو لآخر، نسأل الله السلامة والعافية.

٤٩٨ - وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخْرَجَتْ لَنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كِسَاءً وَلِإِزَارًا غَلِيظًا، قَالَتْ: قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَيْنِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

لما جاءتنا بعض القمص العمانية كثير من الأخوة أبوا أن يلبسوها؛ لغلاظتها وشدتها، يقول: هذه تسبب حرارة، النبي ﷺ انظروا بين ثوبين غليظين، والله أعلم كم كان الحجم، ربما بعضه من الصوف، ليس كحال الإنسان الآن، ربما يلبس اللباس الرقيق، والله المستعان.

فشأننا في الناحية الدنيوية لا يقاربه شأنهم، وشأننا في الناحية الدينية ضعيف بالنسبة إليهم، هذا هو الواقع، فقناهم في الدنيا وفاقونا في شأن الآخرة، وما لنا والله إلا

(١) أخرجه البخاري (٥٨١٨)، ومسلم (٢٠٨٠) عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وليس عن أبيه.

أن نتوسل إلى الله بحبنا لهم، وإلا فالواقع أننا ضعفاء، لكن نحبههم ونحب ما كانوا عليه، ونحب ونتمنى أن نكون مثلهم، لكن العجز حاصل.

فتشبهوا أن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

كان كثير من الناس إذا وصلوا دماغ يرجع ويقول: هؤلاء يذكروننا بزمن الصحابة، كيف إذا رأى زمن الصحابة واستحضره؟ يا أخي زمن الصحابة ما هناك بيوت مبنية بالأبلكش، بيوت مرتفعة السقف، نوافذ من حديد، أبواب على غلقات، حمامات وأكناف داخل البيوت، كن النساء يخرجن بالليل، الوحدة تمسك نفسها إلى الليل، ثم تخرج إلى المناصب لتقضي حاجتها؛ لقلة ذات اليد، ما في بطنها شيء، ولعدم التوسع في البيوت.

وهكذا في الفرش والسرر، وهكذا في المطابخ، فشأننا غير في باب الدنيا، ومع ذلك الناس يتعجبون: كيف تعيشون؟ فكيف إذا رأى زمن الصحابة؟ الذين تهيّبهم فارس والروم، تهيّبهم وخافوهم، وذعرو منهم، هرقل وهو في قوته مثل أن تقول: الدولة العظمى في العالم اليوم، ويقول: والله لو يخلص إلي لغسلت قدميه، وإن كان ما تقول حقاً سيملك موضع قدمي هاتين.

وفعلاً هابوهم ليس لكثرة عددهم، ولا لكثرة عددهم، ولا لعظيم أجسامهم، وإنما هابوهم لما في قلوبهم من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ولما بادروا إليه بأجسامهم من العمل الصالح، فقدف الله عَزَّوَجَلَّ الرعب في قلوب أعدائهم، وحين ضعف إيماننا وتعلقنا بالدنيا تغير الحال، وقذف في قلوب المسلمين الوهن والضعف، إلا العدد اليسير، وهذا مصداق ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي أمامة: أن النبي ﷺ لما رأى المحرّاث قد علّق قال: «**ما دخل بيت قوم إلا ذل**»، لحقه الذل، كناية عن تعلقهم بالدنيا.

ونحن الآن تعلق الناس بالدنيا، فتسلط عليهم اليهود والنصارى، وساموهم سوء العذاب، إلا ما رحم ربي من طائفة قليلة، إن تركوهم يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ مع العلم والعمل هم في خير، مع أنهم يمكرون بهم مكرا كبارا، في ليلهم ونهارهم، وفي سرهم وجهارهم، وهم يمكرون بهذه الطائفة من الناس الذين يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ على طريقة السلف أصحاب الحديث.

٤٩٩ - وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنِّي لَأَوَّلُ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَقَدْ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْحُبْلَةِ، وَهَذَا السَّمُرُ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ مَا لَهُ خَلْطٌ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).
(الحُبْلَةُ) بضم الحاء المهملة وإسكان الباء الموحدة: وَهِيَ وَالسَّمُرُ، نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ مِنْ شَجَرِ الْبَادِيَةِ.

الشرح:

انظر إلى سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة يقول:
(إِنِّي لَأَوَّلُ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وهذا من شمائله وفضائله، «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها».
(وَلَقَدْ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) جيوش تغزو الكفار، وتغنم، وتسبي، وتنتصر.
(مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْحُبْلَةِ وَهَذَا السَّمُرُ) هذا إذا وجدوا شعبا فيه سمر، وإلا ربما ما وجدوا هذا الطعام.

(حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ مَا لَهُ خَلْطٌ) كله بعر، كانوا يضعون ما يخرج منهم مثل البعر؛ لأنه عبارة عن شجرة، يأكلونها وتخرج شجرة، ما هناك خلط من الدقيق، أو خلط من الخبز، أو خلط من التمر، الآن كثير من البقر وكثير من

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٣)، ومسلم (٢٩٦٦).

الجمال حالها أحسن من هذا الحال، تجدهم يؤكلون الجمال الوزف، ويؤكلونها كذلك بعض التمر، ويؤكلون بعض البقر ونحوها الخبز، وهم **رَضُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ** يسافرون الليالي والأيام ما لهم إلا ورق الشجر، نسأل الله السلامة والعافية، ونصرهم الله، وأعزهم الله، وأعلى شأنهم.

٥٠٠ - وعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**». متفق عليه^(١).
قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ وَالْعَرَبِ: مَعْنَى «**قُوتًا**» أَي: مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ.

الشرح:

لأن الطعام إذا كثر أدى إلى البطنة، والبطنة تذهب الفطنة، والله المستعان، فهذا هو حالهم **رَضُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ**، كانوا يرضون بالقليل من هذه الدنيا، لكنهم كانوا لا يرضون بالقليل في باب الدين، في باب العمل الصالح، فأكرمهم الله **عَزَّجَلَّ**، وأعلى شأنهم. ونحن والله المستعان رضيينا بالقليل في باب الدين ولم نبحث عن الكثير في باب الإيمان والعمل الصالح، فحالنا بعكسهم، فالله الله أن نسارع في إصلاح أنفسنا، والله المستعان، بقدر الإمكان، ما نقول: جوع نفسك، ما نقول: جوع أبناءك، لكن نقول: ارض بما قسم الله لك من هذا الخير الذي أنت فيه، واسأل الله من فضله، ليس بحرام أن تسأل الله **عَزَّجَلَّ** من فضله، أن يوسع لك في مطعمك، في ملبسك، في مشربك، في منكحك، في مركبك، في غير ذلك من الأمور، لكن عليك أن يكون همك الأكبر أن يوسع الله عليك في دينك.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).

مثلاً أحدنا من يوم بلغ وهو ما يشهد الجماعة ربما، وبعضهم ربما يشهد الجماعة دائماً متأخر، وبعضهم ربما ينام الليل من بعد العشاء إلى الفجر، ما يصلي ليل، ولا يعرف قيام ليل، وهكذا، ما يجد تأثراً، ما يجد حسرة، لا يا أخي.

ينبغي لنا أن نكون في جانب الدين حريصين، إذا تخلفت اليوم عن تكبيرة الإحرام غدا أحرص أني ما أتخلف عن تكبيرة الإحرام، إذا ما صليت الليلة قبل الفجر غدا أحرص على أني أصلي قبل الفجر، وأعمل لي المنبه حتى يوقظني، ما قرأت شيئاً اليوم من القرآن غدا أحرص على أني أقرأ من القرآن، غبت اليوم عن الدرس، غدا أحرص على أني لا أغيب.

هكذا لتكن حياتنا، لننعش أنفسنا بطاعة الله، لننعش أنفسنا بالعلم والعمل، أما أن نرضى بما نحن عليه طول السنين والله هذا شيء فيه ما فيه.

بعضهم ما يصلي النوافل، طول السنين هو على هذه الدقة، ما يحضر الصلاة إلا في آخرها، طول السنين، الجمعة ما يأتي إلا بعد أن يطلع الخطيب، طول السنين، يا أخي ما هكذا أمرنا، عثمان بن عفان تخلف مرة أنكر عليه عمر بن الخطاب من فوق المنبر، وبعضهم والله جيران المسجد دائماً طول الأيام والخطب والشهور وهو يدخل بعد الناس، وربما يخرج أول الناس، ما يصلي النافذة، الله المستعان.

فينبغي لنا أن نجتهد مع أنفسنا، وأن نجتهد مع غيرنا، نسأل الله عزَّوَجَلَّ أن يصلح الحال والمآل.

٥٠١ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَانِي، وَعَرَفَ مَا فِي وَجْهِي وَمَا فِي نَفْسِي، ثُمَّ قَالَ: «أَبَا هُرٍّ»، قُلْتُ: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ»، وَمَضَى فَاتَّبَعْتُهُ.

فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟»
قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ - أَوْ فُلَانَةٌ - قَالَ: «أَبَا هَرَّةٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ
إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي» قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ عَلَى أَهْلِ وَلَا
مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ، وَكَانَ إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ
هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، وَأَصَابَ مِنْهَا، وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا، فَسَأَلَنِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي
أَهْلِ الصُّفَّةِ! كُنْتُ أَحَقُّ أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، فَإِذَا جَاءُوا وَأَمَرَنِي
فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ؟ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدًّا.

فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْهُمْ، فَأَقْبَلُوا وَاسْتَأْذَنُوا، فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ، قَالَ: «يَا أَبَاهُ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «خُذْ فَأَعْطِهِم»، قَالَ: فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرِبُ حَتَّى يَرَوِيَ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرِبُ حَتَّى يَرَوِيَ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ حَتَّى أَنْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوَى الْقَوْمُ كُلَّهُمْ.

فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ فَنَبَسَمَ، فَقَالَ: «أَبَا هِرُّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «بَقِيْتُ أَنَا وَأَنْتَ» قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَقْعُدْ فَاشْرَبْ» فَقَعَدْتُ فَشَرَبْتُ، فَقَالَ «اشْرَبْ» فَشَرَبْتُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: «اشْرَبْ» حَتَّى قُلْتُ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ

بِالْحَقِّ لَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا! قَالَ: «فَارِنِي» فَأَعْطِيَهُ الْقَدَحَ، فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى، وَسَمَّى وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ. رواه البخاري (١).

الشرح:

وهذا حديث عظيم، فيه بيان للحال الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من القلة، لا سيما قلة ذات اليد، وقلة العيش.

قوله: (وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) الحلف بغير استحلاف.

قوله: (إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ)؛ لشدته، وقد جاء في الحديث: «وأعوذ بك من الجوع، فإنه بشس الضجيع».

(وَأِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ) حتى يخففه، وإلا فإن الجوع حاصل، لكن تذهب حرارته، ويبحث الإنسان عن أي حل لإذهاب ما نزل به.

(وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمْ) أي طريق الصحابة رَضِوانَ اللَّهِ عَلَيْهِمُ.

(الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ) يتقصد لو دعاه أحدهم للطعام عنده.

(فَمَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَيْتِي)؛ لعلمه بما في وجهه وما في نفسه، أطلعته الله على ذلك، وهذا من دلائل نبوة النبي ﷺ.

وأیضا قد يكون من باب الفراسة.

(فَدَخَلَ فَاِسْتَأْذَنَ) أي في بيته، الله عزَّجَلَّ يقول: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى

تَسْتَأْذِنُوا﴾ [سورة النور: ٢٧].

(فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ)؛ إناء.

(فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟) لأن النبي ﷺ كان يسأل، فإن كانت صدقة لم يجز له

أن يتناول منه، وإن كان هدية قبل.

(قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فَلَانٌ أَوْ فُلَانَةٌ) شك من الراوي.

(الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي) فيه رحمة النبي صل الله عليه وسلم، وعناية النبي ﷺ بأهل الصفة، وكانوا قوما قليلو الأزواج، قليلو المتاع، يحصل لهم الضرر. **(وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضيَافُ الْإِسْلَامِ)** أي: من نزل إلى المدينة ولم يكن له ثمة بيت نزل في المسجد.

(لَا يَأْوُونَ عَلَى أَهْلِ وَلَا مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ) يعني ليس لهم أهل فينزلون في بيوتهم، ولا مال فيستأجرون أو يطعمون أنفسهم، ولا على أحد؛ لقلة ذات يد الجميع، وأيضا لعدم معرفة الناس بهم.

(وَكَانَ إِذَا آتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ)؛ لحرصه عليهم، ومثل هذا الحال الآن طلاب العلم في المساجد، يعتبرون أهل صفه، فيعتنى بهم، ويحسن إليهم؛ لأنهم لا يأوون على أهل ولا مال، ولا على أحد، أنت في البيت إذا لم يعجبك الطعام ربما أتيت بغيره، وإذا جعت من الليل قمت وتلمست بعض شيء، وأما هؤلاء إن جاع ما معه إلا أن ينتظر حتى يكون شأنه مع الناس، وإن لم يعجبه الطعام ربما فاته قسطه من الطعام، فيلحقه النقص والضرر، والله المستعان.

(وَإِذَا آتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، وَأَصَابَ مِنْهَا)؛ لأنها مباحة له، كان يقبل الهدية ويشب عليها.

(فَسَاءَ نِي ذَلِكَ) يعني؛ لشدة الجوع الذي نزل به، يخشى أن هذا الطعام وهذا الشراب لا يكفيهم، وما عساه يبقى له؟ وإلا فإن الصحابة كان يحب بعضهم بعضا. **(وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ!)** قدح، ربما في ثمانين في أربعين في خمسين في أقل في أكثر.

(كُنْتُ أَحَقُّ أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا) كل هذا جاء في نفسه، لم يتلفظ به.

(فَإِذَا جَاءُوا وَأَمَرَنِي فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ) وهذا أمر آخر، إذا جاؤوا كنت أنا أعطيهم ما سأحصل إلا ما فضل منهم، وربما لا يفضل شيء.

(وَمَا عَسَى أَنْ يُلْغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ؟) لكن الله الحكمة، إذ يبارك في كثير من شأن النبي ﷺ.

(وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) وهذا دليل على وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)** [سورة الأنفال: ٢٤]، وطواعية الله ورسوله أرفق بنا.

(فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ) والنبي ﷺ يقول: **«لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت»**. **(فَأَقْبَلُوا وَاسْتَأْذَنُوا، فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ)** فيه التأدب حال دخول المجلس، وفيه حسن الانتظار، وفيه عدم المبادرة حتى يؤدي إلى القلق. **(فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوِيَ)** يعني يعطي كل واحد فيشرب، حتى شربوا جميعا، وفضل منه فضله، فشرب أبو هريرة، ثم شرب النبي ﷺ. **لحديث: «ساقى القوم آخرهم شربا»**.

وقد جعل الله بركة في هذا اللبن، حتى روي أبو هريرة، وقال: لا أجد له مسلكا، وهذا دليل على جواز الشبع بالحلال، إنما المذموم إذا كان الشبع من حرام، ومع ذلك جاء في المثل: البطنة تذهب الفطنة، وربما أدى إلى السمن، لا سيما مع قلة الحركة والمشي.

وهناك حديث يضعفه شيخنا مقبل وجمع من أهل العلم ويحسنه بعضهم: **«بحسب امرئ لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد: فثلث طعامه، وثلث لشربه، وثلث لنفسه»**، ولأخيه الشيخ أبي عمرو الحنجوري حفظه الله رسالة في ثبوته، ذكر له شواهد، كثيرها منقطعات، وربما مرسلات، ونحو ذلك، لكن هو في الباب.

وفيه جواز الشرب من إناء واحد لأكثر من واحد، مع أن الأفضل لا سيما في القربة أن يبينها من فيه؛ لأنها قد تتأذى وتتأثر الرائحة.

وفيه التسمية عند الشراب والأكل، وفي الحمد عند الانتهاء من الطعام.

٥٠٢ - وعن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لِأَخْرُ فِيمَا بَيْنَ مَنَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَغْشِيًا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الْجَائِي، فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي، وَيَرَى أَنِّي مَجْنُونٌ وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ، مَا بِي إِلَّا الْجُوعُ. رواه البخاري^(١).

الشرح:

وهذا حال شديد، يلحقه الضعف والجوع، والنصب والتعب، حتى يظن الظان أنه مجنون، وهو إنما سقط من الجوع؛ لأن الإنسان إذا قل فيه السكر ربما لا تقاوم رجلاه جسمه، تثقل، وغالبا الجوع يلحق صاحبه هبوط.

٥٠٣ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: تُوِّفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِي فِي ثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِير. متفق عليه^(٢).

الشرح:

فيه جواز الرهن في الحضر.

وفيه قلة ما كان عليه النبي ﷺ.

وفيه جواز المعامل مع الكفار.

(١) حديث رقم: (٧٣٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣).

وفيه جواز بيع السلاح والدروع من الكفار، إذ جاز رهن ذلك منه، وإن كانوا حربيين، فإن اليهود كانوا حربيين، إلا إذا علم أن هذا السلاح بعينه سيستعين به الكافر على قتل المسلمين فهنا لا يجوز إعانة الكفار بحال.

وجاء في بعض الروايات عن ابن عباس: في عشرين صاعاً من شعير، ولكن ما في الصحيح مقدم.

وفيه أن طعامهم كان الشعير، وهو من قليل أزوادهم، وكان من أحسنه، ونحن الآن نراه من رديء الأزواد ربما؛ لتنوع الأطعمة، حتى الصحابة لما جاءت سامراء الشام زهد الناس في الشعير، وجعلوا يأكلون من الحنطة والسمراء، وما في بابها.

٥٠٤ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَهَنَ النَّبِيُّ ﷺ ذِرْعَهُ بِشَعِيرٍ، وَمَشَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِخُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةٍ سَنَخَةٍ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَا أَصْبَحَ لَالٍ مُحَمَّدٍ صَاعٌ وَلَا أُمْسَى» وَإِنَّهُمْ لَتِسْعَةُ آيَاتٍ. رواه البخاري^(١).
(الإِهَالَةُ) بكسر الهمزة: الشَّحْمُ الذَّاثِبُ.
(السَّنَخَةُ) بالنون والخاء المعجمة: وَهِيَ الْمُتَغَيَّرَةُ.

الشرح:

وهذا لا يأكله إلا إنسان محتاج، وإلا المستغني قد لا يأكل مثل هذا الأكل. فيه جواز الرهن في الحضر.

فيه تواضع النبي ﷺ، وضيق حال النبي ﷺ.

فيه جواز أكل الدهون المذابة من الذبائح، أما إن كان من ميتة فلا يجوز.

وفيه جواز الأخبار عن الحال لا على سبيل التسخط؛ لأنه ﷺ قال: (مَا أَصْبَحَ

لَالٍ مُحَمَّدٍ صَاعٌ وَلَا أُمْسَى)؛ لقلة ذات اليد.

(١) حديث رقم: (٢٥٠٨).

(وَأَنَّهُمْ لَتَسْعَةُ آيَاتٍ) أي تسع زوجات، أرسل إلى واحدة تلو الأخرى لإطعام ضيف النبي ﷺ فلم يجد عندهن شيئا.

٥٥ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رَدَاءٌ، إِمَّا إِزَارٌ وَإِمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رَبَطُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الْكَعْبَيْنِ فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةً أَنْ تُرَى عَوْرَتُهُ. رواه البخاري^(١).

الشرح:

وهذا دليل على ضيق حالهم في الكساء، والأردية والألبسة، وإذا وجد لأحدهم حلة ربما تكون واحدة، إذا اغتسل أو غسلها يحتاج أن ينتظر إلى نشوفها.

أما نحن بحمد الله وسع الله علينا، نسأل الله أن يرزقنا حمد النعم، ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٧]، أقل واحد ربما معه ثوب، حاله حسن، والأكثر معه ثوبان، ثلاثة، أربعة.

فمثل هذا الحال الذي كانوا عليه يجعلنا نعلم أن الدنيا هينة، وأنها لو كان لها شأن لكانوا أكثر الناس حصولا عليها.

وفيه أن الواجب تغطية العورة، فإنهم كانوا يحرصون على تغطيتها قبل غيرها. وفيه عمل الأسباب؛ حتى لا تبدو العورة، والعورة عورتان: مغلظة، وهي القبل والدبر، ومخففة وهي الفخذ، كما جاء في الحديث: «**غَطِّ فَخْذَكَ؛ فَإِنَّ الْفَخْذَ عَوْرَةٌ**».

٥٦ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهُ لَيْفٌ. رواه البخاري^(٢).

الشرح:

يعني جلد، جلد حشوه ليف، شيء من القطن ونحو ذلك.

(١) حديث رقم: (انظر الحديث (٤٦٨)).

(٢) حديث رقم: (٦٤٥٦).

٥٠٧ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَذْبَرَ الْأَنْصَارِيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَخَا الْأَنْصَارِ، كَيْفَ أَخِي سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟» فَقَالَ صَالِحٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ؟» فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ، وَنَحْنُ بَضْعَةُ عَشَرَ، مَا عَلَيْنَا نِعَالَ، وَلَا خِفَافٌ، وَلَا قَلَانِسُ، وَلَا قُمُصٌ، نَمْشِي فِي تِلْكَ السَّبَاحِ، حَتَّى جِئْنَاهُ، فَاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ مِنْ حَوْلِهِ حَتَّى دَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ مَعَهُ. رواه مسلم^(١).

الشرح:

فيه السؤال عن الغائب، والسؤال عن حال المريض.
وفي فضيلة لسعد بن عبادَةَ إِذْ سَأَلَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ.
وفيه التبشير، من قوله: (صالح).
وفيه فضل عيادة المريض، من قوله: (مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ؟).
وفيه أن العيادة ليست على الوجوب وإنما على الاستحباب.
وفي مرافقة الفاضل، وإضافة الأمر إليه، قام، وخرج، ودخل، ونحو ذلك.
وفيه ضيق الحال، من قوله: (مَا عَلَيْنَا نِعَالَ، وَلَا خِفَافٌ)، والفرق بينهما: أن الخفاف ما غطت الكعبين، والنعال ما كان في أسفل القدم.
(وَلَا قَلَانِسُ): ما يوضع على الرأس، (وَلَا قُمُصٌ) معروف.
(نَمْشِي فِي تِلْكَ السَّبَاحِ) يعني أرض كثيرة الحجارة، كثيرة الشوك.
(حَتَّى جِئْنَاهُ) جئنا سعد بن عبادَةَ.
(فَاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ) وفيه إكرام الضيف، وأنه يقدم في المجلس.

(١) حديث رقم: (٩٢٥).

٥٠٨ - وعن عِمْرَانِ بْنِ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» قَالَ عِمْرَانُ: فَمَا أَذْرِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، «ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيُخَوَّنُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذَرُونَ وَلَا يُؤْفَوْنَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ». متفقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

ساق الحديث؛ لبيان أن الخيرية في القرون المفضلة الذين كان حالهم على قلة ذات اليد، ثم يخلف قوم يكثر أكلهم، تكثر مخالفاتهم، فيلحقهم الضرر. والأكل وحده ليس بشيء، لكن لما يلحق الإنسان من التفريط في الواجبات، وربما الأكل من حلال أو حرام.

قوله: (ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ) فيه دليل من دلائل نبوة النبي ﷺ.

والحديث دليل على فضل السلف الكرام، وبهذا تعلم أن الذي يقول: هم رجال ونحن رجال كلامه غير صواب؛ لأنه يريد بهذا أن يجعل نفسه وأن يجعلهم معه في مكان واحد، ومنزلة واحدة، هذا ليس بصواب، هم علماء، هم حكماء، هم أجلة، هم عاملون، مستجيون، مستقيمون، مبادرون إلى الخيرات، زاهدون في هذه الدنيا.

(قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ) يعني قبل أن يقع إنكار من المدعى عليه وذاك يجري: أنا أشهد أنا أشهد، هذا مذموم، الشهادة شأنها عظيم، لا تمتن إلى هذا المستوى، لا تشهد إلا إذا طلبت منك الشهادة.

وأما حديث: «أفضل الشهداء عند الله الذي يعطيها قبل أن يسألها»، فهي في الرجل الذي يخشى أن يضيع الحق، أما إذا كان الإنسان مقرا لا يحتاج إلى الشهادة، تضارب اثنان، جاء أحدهما قيل له: ضربته؟ قال: نعم ضربته، أو اختلف من أجل مال قيل له:

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

هذا يدعي أن عندك له ألف ريال قال: نعم عندي، هذا ما يحتاج إلى شهادة، لكن إذا قال: ما عندي، عند ذلك نقول: البينة على المدعي واليمين على المنكر.

فذلك الحديث الذي «خير الشهداء عند الله الرجل الذي يبذل الشهادة»؛ خوفا من ضياع الحق.

(وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ) وهذه صفه ذميمة في آخر الزمان، تجد عند كثير من الناس خيانة، في البيع والشراء، خيانة في الدعوة، خيانة في المجالس، خيانات، نسأل الله السلامة والعافية.

إذا كان حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: وما كنت اليوم أبايع إلا فلانا وفلانا، أي: لقلّة الأمانة، كيف بنا في هذا الزمان الذي قد بعد العهد من زمن النبي ﷺ؟

بل أن الخائن صار مؤمّنا، كما قال النبي ﷺ: **«إن بين يدي الساعة أيام يؤمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين»**، وما أعظم الخيانات في البيع والشراء الآن، في الملابس، في الآلات، في السيارات، في المفروشات، في مواد البناء، في الكهرباءيات، إلا ما رحم ربي.

تشتري الشال على أنه أصلي، وإذا به بعد يومين بعد غسلتين يصير محببا، تأخذ الثوب على أن له شأن، بثمان، بعد أن يغسل وإذا به صار شأنه على الرديء، تأخذ الآلة الكهربائية على أنها أصلية، وإذا بها من تقليد التقليد، كان في الزمن الماضي يقولون: هذا تايوان، أي: صناعة تايوانية، الآن أصبح الناس يجدون صناعات أدنى من التايوان، والناس مساكين، يُخدعون، يُخانون، والله المستعان.

(وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ) وما أكثر هذا في هذا الزمان! نذور، إذا حملت امرأته ينذر، تأخر الحمل نذر، إذا سافر ووقع عليه شيء نذر، إذا كذا نذر، وبعد ذلك يدور حلول،

﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ نَذَرُوا وَيَخْلَفُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [سورة الإنسان: ٧].

ومع ذلك الذي يعجز كفارة يمين، مع أن ابن الزبير كان يشدد في مسألة الفتوى في هذا الباب.

(وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ) المذموم إذا ظهر السمن لقلة الطاعات، لقلة البركات، لقلة الاستجابة، وأما إذا كان السمن يظهر بسبب أن الإنسان أكل طعاما هنيا وما زال قائما بأمر الله من الصلاة والحج والصيام فلا حرج، وإنما المذموم ما إذا كان على التكثر، وعلى طلب التسمن.

٥٠٩ - وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمَسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تَلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

(يَا ابْنَ آدَمَ) من العام الذي يراد به الخصوص.
(إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ) الزائد (خَيْرٌ لَكَ)، الزائد في المطعم والمأكول والمال.
(وَأَنْ تُمَسِكَهُ شَرٌّ لَكَ)؛ لأنك تحاسب عليه يوم القيامة.
(وَلَا تَلَامُ عَلَى كَفَافٍ) لا تلام على قلة.
(وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ): الأبناء، الزوجة، الأم، الأب، أمك، وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك.

(١) حديث رقم: (٢٣٤٣)، والحديث رواه مسلم.

٥١٠ - وعن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُحْصَنِ الْأَنْصَارِيِّ الْخَطَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن^(١).

(سِرِّهِ): بكسر السين المهملة: أي نفسه، وقيل: قومه.

الشرح:

(مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ) يا أهل الإسلام، (آمِنًا فِي سِرِّهِ) لا يخاف؛ لحصول الأمان.

(مُعَافًى فِي جَسَدِهِ): ليس به سقم.

(عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ) يأكل ويشرب، لا يحتاج إلى الغير.

(فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا) وحصلها، وحال الناس كلهم على هذا، منهم من حيزت له الدنيا بالمال، ولكن ما عنده شيء، ما عنده صحة، ومنهم من عنده صحة وعنده مال وما عنده أمان، ومنهم من عنده أمان وما عنده عافية، ومنهم من عنده أمان وعافية وما عنده قوت.

فالشاهد أن من تحصل هذه الأمور الأمان والعافية والرزق ولو كفافا فهو في خير، الكثير أو القليل في آخر أمره إلى أن يكون في القبر، ويقف بين يدي الله عز وجل كما خلقه الله.

هذا حديث عظيم، في فضيلة الأمان والعافية والرزق.

(١) حديث رقم: (٢٣٤٦).

٥١١ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ». رواه مسلم^(١).

الشرح:

(قَدْ أَفْلَحَ) في الدنيا والآخرة.

(مَنْ أَسْلَمَ) لأن الإسلام هو أصل الفلاح، ينال صاحبه الجنة، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١]، ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠].

وفي هذا الحديث فضيلة الإسلام، والله أننا في أعظم نعمة ولو كنا كيف كنا ونحن على الإسلام، لأن ما لم يكن مسلماً أين سيكون؟ وإن كثرت أمواله، وكثر متابعوه، وكثر الذين يفرحون به.

هذه الأيام مات مردونا ذاك الذي قد شغل العالم: سجل هدف، نزل هدف، والناس يفرحون ويتفرجون، ويشنون، ويذكرون، وكم من إنسان سمي نفسه مردونا! وراح على كفره، أين يذهب؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [سورة البينة: ٦].

فيا أخي المسلم لا تغتر بمنظر ولا مخبر ما لم يكن صاحبه من أهل الإسلام، يا أخي إذا كان عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب وأبو لهب وأبو طالب في النار بسبب كفرهم فكيف بغيرهم؟ عبد الله وآمنة أبوي النبي ﷺ، أبو طالب ناصر النبي ﷺ، أبو لهب عم النبي ﷺ، ومع ذلك في النار؛ بسبب كفرهم.

فهكذا لا تفرح للكافر أو بالكافر، على أي حال كان، وافرح للمسلم على أي حال كان، حتى وإن كان عنده معاصي، مات مسلماً يرجي له الخير، مآله إلى الجنة،

(١) حديث رقم: (١٠٥٤).

إن صلى عليه أربعون شفّعوا له شُفّعوا فيه، من دعا للمسلمين شمله الدعاء، يوم القيامة الشفاعات يناله منها، فما دام المرء مسلماً فهو على خير.

قال رجل: يا رسول الله، إني مسلم، قال: **«إِنْ قُلْتَ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ»**، كل الفلاح في الإسلام، دين الله، الذي قال عنه: **«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»** [سورة آل عمران: ١٩].

ومع ذلك تلقى الآن من الليبراليين والعلمانيين والحدائثيين ومن إليهم من الزنادقة الملحدين يطعنون في الإسلام، تُركي الحمّد الذي هو سعودي الأصلية أمريكي الجنسية اليوم يغرد ويمدح آراء فُلْتِير، ووارسو، ومن في طريقهم من أصحاب الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية، ممن دعوا إلى العلمانية، وفصل الدين عن الدولة، ويذم في الإسلام على أنه لا يستقيم دين ودولة، ولا تستقيم دولة ودين.

قاتل الله الهوى، وهل استقام شأن العرب ومن إليهم إلا حين حكموا بالإسلام وحكموا بالإيمان وحكموا بالقرآن وحكموا بسنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

ألا فليخسأ هؤلاء الذين باعوا أنفسهم بعرض من الدنيا، إما من أجل منصب، أو من أجل جاه، أو من أجل هوى؛ لأن بعضهم يقول: ما معي شيء، صح ما معك شيء، لكن هواءك جرك إلى هذا، البدع جرتك إلى هذا، الزهد في الإسلام جرك إلى هذا، محبة الكافرين جرتك إلى هذا، وإلا فوالله أن الإسلام دين قويم، وصراط مستقيم.

لكن ماذا تقول لقوم صمت آذانهم وعميت أعينهم وطبع على قلوبهم؟ **«أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»** [سورة الأعراف: ١٧٩]، نحمد الله الذي جعلنا مسلمين مؤمنين، عباد الله، انظر إلى لبيد:

الحمد لله إن لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

يقولون: لم يأت بعد إسلامه إلا بهذا البيت الشعري، مع أنه من أصحاب المعلقة، ولكنه بيت بين فيه عظم الإسلام، وفعلا لو مات قبل الإسلام أنه مع أولئك، لا سيما ممن أقيمت عليهم الحجة الرسالية، ولم يعامل معاملة أهل الفترة، حتى ولو عومل معاملة أهل الفترة الله أعلم يوفق للإجابة أم يركس ويلقى في نار جهنم.

كان ﷺ يأتي الرجل يعطي الرجل الغنم بين الجبلين، فيتبعون رسول الله ﷺ من أجل ما يعطيه، فما يبات أحدهم إلا والإسلام أحب إليه.

فهذا خبر النبي ﷺ: **(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ)** وخبره صدق وحق، وليس الفلاح مقيد بيوم أو شهر أو سنة، أو دار، بل إن الفلاح مطلق، فهو فلاح في الأقوال، وفلاح في الأفعال، وفلاح في الاعتقادات، فلاح في الدنيا، وفلاح في القبر، وفلاح في الآخرة.

فإن انضاف إلى ذلك **(وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا)** يأكل ويشرب ما يحتاج إلى أن يتدين، **(وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ)** هذا حيزت له الدنيا، ينام منشرح الصدر، ويقوم منشرح الصدر.

الآن الذي قهرنا التطلع إلى التكثر، **﴿أَلْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ﴾** [سورة التكاثر: ١]، هذا هو الذي قهر الناس، وإلا لو كان الإنسان قانعا بما آتاه الله والله ما التفت إلى غيره، **﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** [سورة طه: ١٣١].

٥١٢ - وعن أبي محمد فضالة بن عبيد الأنصاري رَوَى اللَّهُ عَنْهُ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«طُوبَىٰ لِمَنْ هَدِيَ لِلْإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنِعَ»**. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

(١) حديث رقم: (٢٣٤٩)، يشهد له ما قبله من الحديث، في سننه حميد بن هاني الخولاني، قال أبو حاتم: صالح.

(طُوبَى) قيل: شجرة في الجنة، وقيل: المراد بها: حياة طيبة، وأما الحديث الذي: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» ليس فيه أن اسمها طوبى، ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَقَابٍ﴾ [سورة الرعد: ٢٩]، لعلها الجنة، يعيشون فيها حياة طيبة.

(لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلَامِ): وَفَّقَ لَأَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِسْلَامِ.

(وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا) لا كثيرا يطغيه، ولا قليلا يشغله.

(وَقِنِعَ) بما أتاه الله؛ لأن الواقع أن الفقر متعب، هذا هو الصحيح، مهما دعونا إلى الزهد في الدنيا ليس معناه أننا ندعو إلى الفقر، من استطاع أن يخرج من الفقر خرج، النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذك من الفقر»، وقرن الدعاء والاستعاذة من الفقر بالاستعاذة من الكفر والقبر: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر»؛ لشدة الفقر، ربما جعلك تحدث فتكذب، وتعد فتخلف، نسأل الله السلامة والعافية. حتى الناس إذا رأوا الفقير زهدوا فيه، زهدوا في علمه، زهدوا في زواجه، زهدوا في جميع شأنه.

مرة من المرات كنت في سيارة، وأتحدث، وأعجبهم حديثي، التفت بعضهم وقال: من أين أنت؟ قلت: من اليمن؟ فتغيرت وجوههم، خلاص عندهم اليمني مسكين فقير، وأخ ذهب إلى مسجد يدرس، وكان صوته حسن بالقرآن، فاجتمع عليه مجموعة يلقنهم، بعد أيام تصاحبوا معه، قالوا: من أين أنت يا أستاذ؟ قال: من اليمن، قال: اليوم الثاني ما بقي عندي أحد، ترك المسجد وذهب، ضاق صدره.

فالشاهد أن الفقر متعب، وفي الأبيات المشهورة:

رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا	إِلَى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبٌ
وَمَنْ لَا عِنْدَهُ ذَهَبٌ	فَعَنَهُ النَّاسُ قَدْ ذَهَبُوا
يَمْشِي الْفَقِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضَدَّهُ	وَالنَّاسُ تَغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابَهَا

حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة خضعت لديه وحركت أذناها
وإذا رأت يوما فقيرا عابرا نبحت عليه وكشّرت أنيابها
وهذا واقع، هذا ما هو قول شعري عادي، يخرج غني هنا عند الكلب الذي في
الشارع، وثوبه حسن، ومنظره حسن، يبصص له ويمشي، وإذا خرج فقير ناوله،
يجري وراءه، ويؤذيه، الله المستعان.

ومع ذلك الإنسان يرضى بما قدر الله له وقسم، أما ذاك الذي وصف الفقر:
قيل للفقر: أين أنت مقيم؟ قال: في عمائم الفقهاء
إن بيني وبينهم لإخاء وحرام علي ترك الأخاء
بئس المحافظة على الأخوة، ما وجد إلا عمائم الفقهاء يؤاخيهم؟ يذهب عند
غيرهم، هذه من الآيات التي يقولها الناس، وإلا والله أننا في خير، ما أغنانا الله به من
العلم والحكمة والقرآن والسنة هو الخير العظيم.
وبعضهم مسكين، كان فقيرا، صحيح، قلنا له: يا فلان كيف أنت؟ قال: والله
حالي مثل واحد يمشي على حمار أعرج، تارة يبرك وتارة يبرك، أما أنا قال: وصل
الحمار إلى عندي وبرك، ما عاد قام، فالحمد لله.
وذلك الأثر المأثور عن علي لا يصح أظن: لو كان الفقر رجلا لقتلته.

فالشاهد أن الإنسان إذا رزقه الله رزقا حلالا طيبا لا يشغله عن طاعة الله، ولو فيه
سعة لا يضر، المشكلة أنك تباع الخير الكثير بالشيء الحقير، وفقك الله لطلب العلم
ترك طلب العلم من أجل الدنيا، أو جعلك الله عزَّجَلَّ خطيئا مبرزا مدرسا وترك ذلك
وتذهب تتكثر في الدنيا، أما إذا احتجت إلى العمل للحاجة بقدرها فلا حرج، وإن
كنت من المتفرغين للدنيا ما نحرمت ما أحل الله.

٥١٣ - وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِيَ الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا، وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عِشَاءً، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح^(١).

الشرح:

قوله: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِيَ الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا) أي: لا عشاء له، (وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عِشَاءً)؛ لقلة ذات اليد، ولكنهم كانوا على صبر. (وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ) إذا وُجد (خُبْزَ الشَّعِيرِ).

٥١٤ - وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى بِالنَّاسِ، يَخْرُجُ رَجُلًا مِنْ قَامَتِهِمْ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الْخِصَاصَةِ - وَهُمْ أَصْحَابُ الصُّفَّةِ - حَتَّى يَقُولَ الْأَعْرَابُ: هَؤُلَاءِ بَجَانِينُ، فَإِذَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْصَرَفَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، لَأَخْبَيْتُمْ أَنْ تَزْدَادُوا فَاقَةً وَحَاجَةً». رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح^(٢).

(الْخِصَاصَةُ): الْفَاقَةُ وَالْجُوعُ الشَّدِيدُ.

الشرح:

وهذا فيه بيان لما كان عليه المتقدمون من ضيق الحال، ومع ذلك لو يعلمون ما لهم من الأجر والمثوبة ما بالوا بهذا الحال الذي هم فيه؛ لأن الإنسان يهمله الأجر عند الله.

(١) حديث رقم: (٢٣٦٠).

(٢) حديث رقم: (٢٣٦٨).

٥١٥ - وعن أبي كريمة المقدام بن معد يكرِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتٌ يَقْمَنَ صَلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ لَا حَالَةَ فَنُلْتُ لِبَطْنِهِ، وَنُلْتُ لِشَرَابِهِ، وَنُلْتُ لِنَفْسِهِ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن^(١).

(أَكْلَاتٌ) أَي: لُقْمٌ.

الشرح:

وهذا الحديث جعله بعضهم أصل في الطب؛ لأن المعدة عندهم بيت الداء، ولأن الحماية أحسن من الدواء، وقد ذكر لنا بعض الأطباء: أن بعض الأمراض أحيانا تزيد بسبب زيادة الوزن، فإن نقص الوزن ذهب المرض، لا سيما كثرة الكلسترول، كثرة الدهون الثلاثية، السكر، ونحو ذلك، مثل هذه الأمراض ربما تداوى بالمشي والرياضة.

لكن المشكلة إذا مرض الإنسان يكسل ويضعف، وإلا لو أخذ له قسطا من الرياضة نصف ساعة في اليوم يحرق بها الدهون لربما استطاع أن يأكل بعض السكريات، ويأكل الحلوى، ويشرب العصير؛ لأنه يحرقها.

انظروا إلى آبائنا لما كانوا أصحاب عمل في المزارع كان ربما يشرب القارورة العسل بيده، أو السمن، ويأكل الودك، ولا يضره، والآن لما جلسنا في البيوت: العسل يؤدي إلى رفع السكر، السمن والودك يؤدي إلى رفع الدهون، ويؤدي إلى أضرار كثيرة، كثير من الناس أصيبوا بتصلب الشرايين، تسدد الأوردة، كل هذا سببه بعد

(١) حديث رقم: (٢٣٨٠)، أعله أبو حاتم، وتبعه المزي، وابن العراقي، وهكذا شيخنا مقبل، على أن الحديث لا يثبت، من طريق يحيى بن جابر الطائي، عن المقدام بن معد يكرِب، ولم يسمع منه، وذهب بعضهم إلى تحسين الحديث كما سمعت.

تقدير الله عَزَّجَلَّ عدم الرياضة، سببه الإكثار من الأكل الذي يؤدي إلى إفساد البطن، ويؤدي إلى إفساد الجسم، والله المستعان.

(يقول: مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ) الأوعية كثيرة، منها الأكياس الكبيرة، لكن البطن وعاء للإنسان يؤدي إلى ضرره، لا سيما في هذه الأزمنة المتأخرة كثر السكر، حتى يقولون: في السعودية من كل أربعة واحد مريض بالسكر.

وطبيعة هذا المرض: أنه يتراكم في الكبد حتى يمتلئ، يصبح الكبد ممتلئاً بالسكر، ووظيفة الكبد أنه يمتص السكر الزائد عن الجسم، فإذا ما امتلأ الكبد وفي نفس الوقت يضعف البنكرياس عن ضخ الأنسولين فيؤدي هذا الأمر إلى مرض.

ومثل هذا المرض إن لم يوفق الإنسان بالتعامل معه ويجعل الله عَزَّجَلَّ فيه السلامة ترتبط به أمراض كثيرة، يلحقه الفشل الكلوي، يلحقه تصلب الشرايين. يلحقه ربما أمراض كثيرة، يؤدي إلى الضغط، يؤدي إلى هبوط الضغط، نسأل الله العافية، تجد الإنسان ربما تساقطت أسنانه، يلحقه الضعف في البصر، أمور كثيرة.

بينما لو حافظ على نفسه بطعام قليل في البطن، لا سيما إذا اعتمد على المأكولات النباتية، أو اللحوم البيضاء، يقولون: اللحوم البيضاء والأكلات النباتية، لأن الأكلات النباتية ما تؤدي إلى زيادة السكر في الجسم، حتى وإن وقع من بعضها كالحبوب، وهكذا الموز، وهكذا العنب، والتمر، لكن يكون أخف من هذا السكر الأبيض الذي يُتناول مع الشاي، ويتناول مع الحلويات.

أخبرنا: أن هذا السكر ربما بعد أيام سيضاف فيه تحذير كما يحذرون في الدخان: الدخان سبب لأمراض القلب والشرايين والسرطان، وسيوضع هذا التحذير أو بنحوه على السكر الأبيض؛ لأنه سكر قد كُثِّرَ، وذهب ما فيه من الفائدة، ولم يبق فيه إلا الحلاوة التي يطعمها الناس.

مع أن الإنسان لا بد له من سكر، نحن الآن إذا قلنا: السكر السكر، الزيادة، لو هبط فيك السكر أضر عليك من الارتفاع؛ لأن مريض السكر إن كان السكر مرتفعاً يمكن أن يسعف، وربما من هنا إلى المكلا حتى، ما لم يكن عنده ضغط، وربما وضعوا له بعض العلاجات، أما إذا حصل هبوط ولم يكن عنده ما يرفع الهبوط ربما يؤدي إلى الموت، يؤدي التلف.

وقبل أيام لما زارنا الشيخ أبو عمار كان معهم مريضاً بالسكر، فجأة كأنما أغمي عليه، لا حركه، ولا حتى يستطيع يرفع يده، لا يستطيعون عند ذلك أن يرفعوا له السكر إلا بمغذيات الجلوكوز، أما لو كان ما زال يتحرك فالأطباء ينصحون أنك تبادر إلى ملعقتين من السكر الأبيض مع الماء، ثم تناوله مباشرة.

لأنه حتى لو أكل تمرًا يحتاج إلى وقت لهضمه، إذا أكل بعض الأطعمة التي فيها سكريات كالتمر والعنب يحتاج إلى وقت، حتى العصير يذكر الأطباء: أن السكر المخلوط بالماء أسرع وصولاً إلى الدم من العصير، فلذلك إذا نقص السكر إلى هذا المستوى بادر إلى إسعاف المريض بالسكر مباشرة.

وعلاوة ذلك: أن مريض السكر لا يستطيع يرفع يده، أو يقوم، خلاص إذا قد هبط السكر من الجسم ربما رفع اليد هكذا أثقل من جبل، ما يستطيع، وإذا جلس لا يستطيع؛ لأنه يسبب له الانهيار، فلذلك يبادر.

أذكر لما عملت عملية اللوز هداهم الله بعض الدكاترة جهال، دكاترة جهال، أنا قد قلت له: عندي سكر، المفروض أنه يعمل احتياط، عند العملية يكون في يدك هذه المغذية الجلوكوز؛ لأن صاحب العملية يحتاج أن يصوم، يحتاج أن يصوم من الليل، أقل حالة ثمان ساعات، هذه الثمان ساعات، إن لم يكن عندك سكر سيؤدي إلى هبوط، فإذا دخلت العملية مع المخدر يزيد الهبوط، ولكن إذا وضع لك مغذية

الجلوكوز؛ لأن المؤثر في مرض السكر هو الجلوكوز، ليس كل السكريات، هناك سكريات فركتوز وأسماء أخرى، لكن الجلوكوز هو المؤثر في السكر، في المرض.

فعند ذلك خرجت من غرفة العمليات وأنا هلكان، وهم يروني أنني أرتجف ويظنون أنني بردان، صح صاحب العملية يناله شيء من البرودة في الجسم بسبب المخدر، لكن ذاك الحال ليس حال برودة، يضعون لي البطانية بعد البطانية، وأنا في حالة من الرجفة، وأريد أن أتكلم لم أستطع أن أتكلم بسبب اللوز، عاد العملية فيها طرية، فجعلت أحاول أتكلم ما أستطيع، وأشعر أنني أتكلم وأنا ما أتكلم.

وفي آخر المطاف كأن الآخر الذي معي فهم فجعل يصيح: سكر سكر، فعند ذلك جاءوني بالمغذية، مباشرة ارتفع، تكون تنتفض هكذا، فإذا ما شربت السكر أو تناولت السكر بسرعه يزول ذلك.

مرة من المرات خرجت من البيت في مكة لأصلي في الحرم، وقدر الله لو أنا أكلت لي تمرا أو شربت شيئاً، ثم بينما أنا أمشي بالسيارة لقيت أخا طالب علم، ركب، وكنت أمشي، دخلت النفقات وأنا أشعر أنني أسوق السيارة بشدة، عرفت أن الهبوط ربما دون السبعين دون الستين، ربما إذا هبط إلى الأربعين إلى أكثر خلاص تموت، وتروح السيارة؛ لأنك ما تستطيع تفعل شيئاً.

المهم جاهدت نفسي حتى وصلت إلى الحرم، قدر الله ما في جيبتي حتى ريال واحد، وإلا الريال يمكن تشتريه به واحد عصير وتشرب، والأخ الذي معي عجمي، ألمح له، ما فهمني، قلت: يا أخي أنا إذا نقص السكر أحتاج إلى عصير، واستحيت أن أقول: أعطني ريال أو أعطني خمسة ريال سلف، السكر هذا كذا، أتكلم معه وهو يتكلم معي، المهم جر جرت نفسي إلى الحرم، ما انتهيت من صلاة الفجر إلا وأنا أكاد أسقط في الشارع، أدعو الله: يا الله يا الله؛ حتى لا يقع لي ضرر أكثر؛ لأنه يؤدي المباشر حتى النسيان، يقع نسيان، وعدم تذكر، يفسد في خلايا الدماء الهبوط.

سبحان الله خرجت ذاك اليوم وإذا بهم يوزعون تمرًا في صرح الحرم، فأخذت لي ثلاث حبات معهم؛ لأنه اشترط: ألا يزيد على الثلاث الحبات، أكلتها وإلى السيارة، مباشرة إلى السوبر ماركت أخذ اثنين عصير ما أدري ثلاثة، وأشربها. والله المستعان التفریط حاصل، وإلا ينبغي أن يقول الدكتور: تحمل معك هذا النعنع، أو هذا الشوكولاتة أبو بكرة، أو شيء من الأشياء، خليها في الجيب، وإذا كنت مستقرا في البيت خلي لك تمر، بحيث إذا حصل الشيء تبادر نفسك مباشرة بالتناول، والله المستعان.

الذي جرنّا إلى هذا هو الكلام على حديث **(فَتُلْثُ لِبَاسَهُ، وَتُلْثُ لِسَرَابِهِ، وَتُلْثُ لِنَفْسِهِ)**، وأسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد والعون.

٥١٦ - وعن أبي أُمّة إياس بن ثعلبة الأنصاري الحارثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذَكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا عِنْدَهُ الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلَا تَسْمَعُونَ؟ أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ الْبَدَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ، إِنَّ الْبَدَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ**» يَعْنِي: التَّقَحُّلُ. رواه أبو داود (١).
(الْبَدَاذَةُ) - بالباء الموحدة والذالين المعجمتين - وَهِيَ رَثَائَةُ الْهَيْئَةِ وَتَرَكُّ فَاحِرِ اللَّبَاسِ.
وَأَمَّا (التَّقَحُّلُ) فَبِالْقَافِ وَالْحَاءِ: قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ: الْمُتَقَحِّلُ هُوَ الرَّجُلُ الْيَابِسُ الْجِلْدِ مِنْ خُسُونَةِ الْعَيْشِ وَتَرَكِّ التَّرَفِّهِ.

الشرح:

ومع ذلك لا يحرم الإنسان على نفسه ما أحل الله، ويلبس ما يسره الله من الثياب، «**أَلَا تَحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ**»، لكن لا يتكلف أنه ينعم نفسه ما كأنه سيموت.

البذاذة من الإيمان، والكبر والخيلاء من النفاق.

٥١٧ - وعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَ عَلَيْنَا أبا عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَتَلَقَّى عِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَزَوَدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً، فَقِيلَ: كَيْفَ كُنتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ: نَمْصُهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ، ثُمَّ نَشْرِبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ، فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ، وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعَصِينَا الْحَبْطَ، ثُمَّ نَبْلُهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ. قَالَ: وَأَنْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَرَفَعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكَيْثِيبِ الضَّخْمِ، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرُ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ، ثُمَّ قَالَ: لَا، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ اضْطُرَرْتُمْ فَكُلُوا، فَأَقْمَنَّا عَلَيْهِ شَهْرًا، وَنَحْنُ ثَلَاثُمِئَةٍ حَتَّى سَمِنَّا، وَلَقَدْ رَأَيْنَا نَعْتَرَفُ مِنْ وَقْبٍ عَيْنِهِ بِالْقِلَالِ الدُّهْنُ وَتَقَطَّعَ مِنْهُ الْفِدْرُ كَالثَّوْرِ أَوْ كَقَدْرِ الثَّوْرِ، وَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَأَفْعَدَهُمْ فِي وَقْبٍ عَيْنِهِ، وَأَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَأَقَامَهَا، ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا، وَتَزَوَدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَاتِقٍ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعَمُونَا؟» فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ. رواه مسلم ^(١).

(الْجِرَابُ): وَِعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ بِكَسْرِ الْجِيمِ وَفَتْحِهَا وَالْكَسْرِ أَفْصَحُ.
قَوْلُهُ: (نَمْصُهَا) بَفَتْحِ الْمِيمِ، وَ(الْحَبْطُ): وَرَقُ شَجَرٍ مَعْرُوفٍ تَأْكُلُهُ الْإِبِلُ.
وَ(الْكَيْثِيبُ): التَّلُّ مِنَ الرَّمْلِ، وَ (الْوَقْبُ): بَفَتْحِ الْوَاوِ وَإِسْكَانِ الْقَافِ وَبَعْدَهَا بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ وَهُوَ نُقْرَةُ الْعَيْنِ، وَ(الْقِلَالُ): الْجِرَارُ، وَ(الْفِدْرُ) بِكَسْرِ الْفَاءِ وَفَتْحِ الدَّالِ: الْقِطْعُ.
(رَحَلَ الْبَعِيرَ) بِتَخْفِيفِ الْحَاءِ: أَيُّ جَعَلَ عَلَيْهِ الرَّحْلَ.
(الْوَشَاتِقُ) بِالشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَالْقَافِ: اللَّحْمُ الَّذِي اقْتُطِعَ لِيُقَدَّدَ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) حديث رقم: (١٩٣٥)، والحديث متفق عليه.

الشرح:

هذا حديث عظيم، يعتبر من دلائل نبوة النبي صل الله عليه وسلم، حيث أكرم أصحابه بأن تكفيهم الحبة من التمر طول اليوم، وهكذا يسر الله عز وجل لهم هذا الحيوان العظيم، وهو العنبر.

قوله: (بَعَثَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) وهذه تسمى سرية.

(وَأَمَرَ عَلَيْنَا أبا عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وهو عامر بن الجراح، أحد العشرة المبشرين بالجنة.

(تَتَلَقَى عِيرًا لِقَرْيَشٍ) وذلك قبل غزوة.

(وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمَرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ) فيه ضيق حال المسلمين في بداية الأمر.
(فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً) فيه عناية الأمير برعيته، وفيه تزهّد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفيه بركة التمر.

(نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ) أي: تبقى في فم أحدهم طول اليوم يمصّها، وتذهب عنه بعض الجوع، يجعل الله فيها بركة.

(الْخَبَطُ) أي الشجر، (ثُمَّ نَبَلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ)؛ لقلة ذات اليد.

(وَأَنْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ) يبحثون عن رزق وقوت.

(فَأَتَيْنَاهُ إِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرُ) وهو أكبر حيوان، حيوان العنبر الذي هو سمك العنبر هو أكبر حيوان، وأطول حيوان، وأثقل حيوان، ربما فيه الأطنان من اللحم، ويوجد فيه كذلك مادة العنبر التي هي غالية الثمن.

(فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ؛ لظنه، وإلا فإن النبي ﷺ قد قال في البحر: «هو الطهور

ماؤه، الحل ميتته».

(وَقَدْ اضْطُرَرْتُمْ) أي ترخص بالاضطرار، لا يعلم أنها حلال.

وفيه أن المضطر يجوز له أن يأكل الميتة؛ لاجتهاد أبي عبيدة، وعدم إنكار النبي ﷺ عليه.

(فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا) يأكلون، وفيه أن المضطر أيضا يأكل حتى يشبع، ليس كما يقول بعضهم: يأكل قليلا فقط ليقيم صلبه، إذا خشي أنه يتضرر أكثر له أن يأكل حتى يشبع.

(وَنَحْنُ ثَلَاثُمِئَةٍ حَتَّى سَمِنَّا،) بركة ذلك الطعام.
(وَلَقَدْ رَأَيْتَنَا نَغْتَرِفُ مِنْ وَقْبٍ عَيْنِهِ بِالْقِلَالِ الدُّهْنِ)؛ لكثرتة، وفعلا السمك مليء بالدهون، ومليء باللحوم.

وسبحان الله كأنه في ذلك الزمان كان مثل هذا الصيد غير معروف، إنما الآن مع تطور الآلات ربما يجدون مثل هذه الأشياء، وإلا في ذلك الزمان الأمر دون، وإذا وجد مثل هذا إلا ميتة، وإلا ما يستطيعون أن يصيدوه، كيف يفعلون به؟
(وَنَقْطَعُ مِنْهُ الْفِدَرَ كَالثَّوْرِ أَوْ كَقَدْرِ الثَّوْرِ) يقطعونه، ثم يتقسمونه ويأكلونه.

(وَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقْبٍ عَيْنِهِ) يعني على سبيل التفكه والتعجب من عظيم قدرة الله.

(وَأَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَأَقَامَهَا ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا) وما زال ذلك العظم أطول من البعير.

(وَتَزَوَّدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَاتِقٍ) أي إلى المدينة.
(فَارْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ) إذا ثبت أن النبي ﷺ أكل الأرنب، وأكل الدجاج، وأكل السمك، ولحم الحبارى جاء في حديث ضعيف أخرجه أبو داود، وهكذا الخيل نحروه وأكلوا في غزوه مع النبي ﷺ، والظن أنه يأكل معهم، وأما البقر والغنم والإبل فهذا كثير.

٥١٨ - وعن أسماء بنت يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كَانَ كُمْ قَمِيصِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الرُّضْغِ. رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن^(١).
(الرُّضْغُ) بالصاد والرُّضْغُ بالسینِ أَيْضًا: هُوَ الْمَفْصَلُ بَيْنَ الْكَفِّ وَالسَّاعِدِ.

الشرح:

فيه أن النبي ﷺ كان في حال قلة.

٥١٩ - وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّا كُنَّا يَوْمَ الْحَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضْتُ كُدْيَةً شَدِيدَةً، فَجَاؤُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضْتُ فِي الْحَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ» ثُمَّ قَامَ، وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَعْوَلَ، فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيرًا أَهْيَلٌ أَوْ أَهْيَمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، انْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لَا مَرَاتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقُ، فَذَبَحْتُ الْعَنَاقَ وَطَحَنْتُ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ.

ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ، وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَائِي قَدْ كَادَتْ تَنْضِجُ، فَقُلْتُ: طُعِمْتُ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ؟» فَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قُلْ لَهَا: لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ، وَلَا الْخَبْزَ مِنَ التَّنُورِ حَتَّى آتِي» فَقَالَ: «قَوْمُوا»، فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهَا فَقُلْتُ: وَيْحَكَ قَدْ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَمِنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلْتُكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: «ادْخُلُوا وَلَا تَضَاعَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخَبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُحْمَرُّ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرَّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ وَيَعْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ مِنْهُ، فَقَالَ: «كُلِي هَذَا وَاهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ جَمَاعَةٌ». متفق عليه^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٢٧)، والترمذي (١٧٦٥)، قال المحقق: الحديث ضعيف، رواه أبو داود

والترمذي من طريق شهر بن حوشب عن أسماء، وشهر ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩).

وفي رواية قَالَ جابر: لَمَّا حَفَرَ الْحَنْدُقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا، فَأُنْكَفَأْتُ إِلَى أَمْرَاتِي، فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَأَخْرَجْتُ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بِهِمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، فَفَرَعْتُ إِلَى فَرَاعِي، وَقَطَعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: لَا تَقْصَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَبَحْنَا بِهِمَةَ لَنَا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَقَرْ مَعَكَ، فَصَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَهْلَ الْحَنْدُقِ: إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيِّهَا بِكُمْ».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُنْزِلَنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَحْبِزَنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ» فَجِئْتُ، وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ، حَتَّى جِئْتُ أَمْرَاتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ! فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتَ. فَأَخْرَجْتُ عَجِينًا، فَبَسَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «ادْعِي حَازِبَةً فَلْتَحْبِزْ مَعَكَ، وَافْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ، وَلَا تُنْزِلُوهَا» وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أَكُلُوا حَتَّى تَرْكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنْ بُرْمَتَنَا لَتَغِطَّ كَمَا هِيَ، وَإِنْ عَجِينَنَا لَيَحْبِزُ كَمَا هُوَ. قَوْلُهُ: (عَرَضْتُ كُذْيَةً) بِضَمِّ الْكَافِ وَإِسْكَانِ الدَّالِ وَبِالْيَاءِ الْمُثَنَاءِ تَحْتَ، وَهِيَ قِطْعَةٌ غَلِيظَةٌ صُلْبَةٌ مِنَ الْأَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهَا الْفَأْسُ.

وَ(الْكُثِيبُ) أَصْلُهُ ثَلُ الرَّمْلِ، وَالْمُرَادُ هُنَا: صَارَتْ ثُرَابًا نَاعِمًا، وَهُوَ مَعْنَى (أَهْيَلْ). وَ(الْأَثَافِي): الْأَحْجَارُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْقِدْرُ^(١).

وَ(تَضَاعَطُوا): تَرَاخَوْا، وَ(الْمَجَاعَةُ): الْجُوعُ، وَهُوَ بَفَتْحِ الْمِيمِ، وَ(الْحَمَصُ): بَفَتْحِ الْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ وَالْمِيمِ: الْجُوعُ، وَ(انْكَفَأْتُ): انْقَلَبْتُ وَرَجَعْتُ، وَ(الْبُهِيمَةُ) بِضَمِّ الْبَاءِ، تَصْغِيرُ بِهِمَةٍ وَهِيَ، الْعَنَاقُ، بَفَتْحِ الْعَيْنِ، وَ(الدَّاجِنُ): هِيَ الَّتِي أَلْفَتِ الْبَيْتَ: وَ (السُّورُ) الطَّعَامُ الَّذِي يُدْعَى النَّاسُ إِلَيْهِ؛ وَهُوَ بِالْفَارِسِيَّةِ، وَ(حَيِّهَا) أَيُّ: تَعَالَوْا.

(١) ولذلك يقولون: ثلاثة الأثافي: الحجرة التي تكون من الخلف.

وَقَوْلُهَا: (بِكَ وَبِكَ) أَي: خَاصَمْتُهُ وَسَبَّيْتُ، لِأَنَّهَا اعْتَقَدَتْ أَنَّ الَّذِي عِنْدَهَا لَا يَكْفِيهِمْ، فَاسْتَحْيَتْ وَخَفِيَ عَلَيْهَا مَا أَكْرَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ الظَّاهِرَةِ وَالآيَةِ الْبَاهِرَةِ.

(بَسَقَ) أَي: بَصَقَ؛ وَيُقَالُ أَيْضًا: بَزَقَ، ثَلَاثُ لُغَاتٍ.

و(عَمَدَ) بَفَتْحِ الْمِيمِ، أَي: قَصَدَ.

و(أَقْدَحِي) أَي: اغْرِفِي؛ وَالْمِقْدَحَةُ: الْمَغْرَفَةُ^(١).

و(تَغِطُّ) أَي: لِيُغْلِيَانَهَا صَوْتُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح

ساق المصنف الحديث؛ لبيان ضيق حال النبي ﷺ ومن إليه، فانظر كيف كانوا في حرب مع الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، ويحفرون الخندق؛ ليتقوا بطشهم ومكرهم.

ومع ذلك فيه بركة النبي ﷺ، حيث عجزوا عن كسر الحجرة الكبيرة، فنزل النبي ﷺ وضربها حتى صارت كثيباً أهيل، أي: كالتراب الرقيق؛ لما جعله الله عزَّجَلَّ من البركة، وإلا مثل الحجار ربما لو ضربتها حتى بالدناميت تتفتت على شكل حجار، لكن هذه جعلها الله كالرمل.

وفيه محبة الصحابة للنبي ﷺ، والبذل من أجله، حيث رجع جابر بن عبد الله إلى زوجته سألها: هل عندك من شيء؟ قالت: نعم، يعني صاع شعير وشاة صغيرة، ومع ذلك طابت أنفسهم أن يذبحونها من أجل إكرام النبي ﷺ.

(١) التي نسميها الآن: ملعقة.

وفيه دليل من دلائل نبوة النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ دعا جميع الناس الذين كانوا معه، وكانوا ألف، وفي بعض الروايات ألف وخمسمائة، فأكلوا حتى شبعوا، وفضل فضلة من الطعام، من الخبز، من اللحم، وهذه بركة عظيمة.

وفيه أن الإنسان إذا دعا رئيس القوم لرئيس القوم أن يدعو من شاء معه، فإن النبي ﷺ لما دعاه رجل إلى مرق قال: «**وهذه معي**» أي: لعائشة، فرفض، فقال النبي ﷺ: «**وأنا لا**»، ثم عاد في الثالثة فقال: «**وهذه معي؟**» قال: وهذه معك.

وهكذا جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعا النبي ﷺ كما ترى في نفرين أو ثلاثة، فقام النبي ﷺ ومن معه، بأمر النبي ﷺ، ولعلمه ﷺ أن الطعام سيكون؛ لما سيجعل الله فيه من البركة.

أما إذا كان مثلاً الرجل قد عُرف أن له أتباعاً يمشون معه فإذا تخرجت لعدم القدرة على إطعامهم لك أن تعتذر، أو لك أن تحدد مقدار الطعام، فإن حب أن يأتي أتى، وإن أحب أن يبقى بقي.

٥٢٠ - وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لَأُمِّ سُلَيْمٍ: قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ضَعِيفًا أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخَذَتْ خِمَارًا لَهَا، فَلَقَّتِ الْخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ نَوْبِي وَرَدَّتْنِي بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أَرْسَلْتَنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَهَبْتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ، وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ؟**» فقلت: نَعَمْ، فَقَالَ: «**الطَّعَامُ؟**» فقلت: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قُومُوا**» فَانْطَلَقُوا وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أُمِّ سُلَيْمٍ، قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نَطْعِمُهُمْ، فَقَالَتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَلْ مَيَّ مَا عِنْدَكَ يَا أُمِّ سُلَيْمٍ**»، فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ

رسول الله ﷺ فُتِّ، وَعَصَرَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سُلَيْمٍ عُمَّةً فَأَدَمَتْهُ، ثُمَّ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «**أَفْذَنْ لِعَشْرَةٍ**» فَأَذَنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «**أَفْذَنْ لِعَشْرَةٍ**» فَأَذَنَ لَهُمْ حَتَّى أَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ رَجُلًا أَوْ ثَمَانُونَ. متفقٌ عليه^(١).

وفي رواية: فَمَا زَالَ يَدْخُلُ عَشْرَةً، وَيَخْرُجُ عَشْرَةً حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ، فَأَكَلَ حَتَّى شَبِعَ، ثُمَّ هَيَّأَهَا فَإِذَا هِيَ مِثْلُهَا حِينَ أَكَلُوا مِنْهَا.

وفي رواية: فَأَكَلُوا عَشْرَةَ عَشْرَةً، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ بِثَمَانِينَ رَجُلًا، ثُمَّ أَكَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَهْلَ الْبَيْتِ، وَتَرَكَوا سُورًا.

وفي رواية: ثُمَّ أَفْضَلُوا مَا بَلَّغُوا جِرائَهُمْ.

وفي رواية عن أنس، قَالَ: جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ، وَقَدْ عَصَبَ بَطْنُهُ بِعَصَابَةٍ، فَقُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لِمَ عَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَطْنُهُ؟ فَقَالُوا: مِنَ الْجُوعِ، فَذَهَبْتُ إِلَى أَبِي طَلْحَةَ، وَهُوَ رَوْحٌ أُمُّ سُلَيْمٍ بِنْتُ مِلْحَانَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، قَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَصَبَ بَطْنُهُ بِعَصَابَةٍ، فَسَأَلْتُ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَقَالُوا: مِنَ الْجُوعِ، فَدَخَلَ أَبُو طَلْحَةَ عَلَى أُمِّي، فَقَالَ: هَلْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، عِنْدِي كِسْرٌ مِنْ خُبْزٍ وَتَمْرَاتٍ، فَإِنْ جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَدَهُ أَشْبَعْنَاهُ، وَإِنْ جَاءَ آخَرُ مَعَهُ قَلَّ عَنْهُمْ، وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان حال النبي ﷺ مع الدنيا، حتى أنه ربما لم يجد الطعام الذي يملأ به بطنه، ومع ذلك يكرمه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٨٨)، ومسلم (٢٠٤٠).

قال: (سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ضَعِيفًا أَعْرَفُ فِيهِ الْجُوعَ)؛ لأن الإنسان إذا جاع ضعف صوته، وأنهكت قواه.

(فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ) وفيه مواتية المرأة لزوجها، والمصارعة إلى البذل والعطاء.

(فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ) وكان أطيّب طعامهم.
(ثُمَّ أَخَذَتْ حِمَارًا لَهَا) أي: شيء مما يوضع على الرأس، ويغطي به الوجه، ونحو ذلك.

(فَلَقَّتِ الْخُبْزَ بِعِصْبِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ ثَوْبِي)؛ حتى لا يتناثر، أو حتى لا يرى؛ لضيق حال الناس.

(ثُمَّ أَرْسَلْتَنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) في تلك الهدية المتواضعة.
(وَمَعَهُ النَّاسُ) من أهل الصفة غيرهم.
(أَرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ)؛ لأنه الرسالة من أم سليم وأبو طلحة شيء واحد.

(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُومُوا) أي لأصحابه، يرجو بركة ذلك الطعام.
(فَانْطَلَقُوا وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ) فيه أن بعض الأبناء عندهم نباهة، بعض الأولاد عندهم نباهة، وبعض الأبناء ضعيف النباهة، فانظر إلى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يمشي مع النبي ﷺ، بل انطلق يسبق إلى أبي طلحة؛ ليخبره الخبر؛ حتى يستعد.

فلذلك ينبغي أن يعود الأبناء إذا جاء الضيف أن يبدأ مثلاً يسبق، ويستأذن، وينظر الحال، لكن أحياناً ربما يأتي لك بمن معه إلى باب البيت، ربما تكون غير مستعد لاستقبالهم، أو ربما البيت لا يتسع لدخولهم، أو ربما الأمر لا يحتاج إلى ذلك، ربما

يكون أناس لهم أغراض، فلذلك ينبغي للأبناء أن يكون عندهم نباهة لمثل هذه الأمور.

(فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نَطْعُمُهُمْ؟) فيه مشاورة الزوج مع زوجته.

(فَقَالَتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) دليل على فقهها، وكانت امرأة فقيهة.

(فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ) فيه استقبال الضعيف، والترحيب به، والبشاشة، والانبساط، فإن ذلك يزيده فرحاً وسروراً وبهجة، أما إذا شعر أنه ضيق على أخيه ربما خرج حزيناً مهموماً.

(هَلُمِّي مَا عِنْدَكَ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ) أي: هاتي ما عندك من الطعام.
(فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ) اليسير.

(فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَفُتَّ) أي: ليكون مثل الفتة، أو نحو ذلك.

(وَعَصَرَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ) يعني شيء من السمن، فأصبح كالإدام.
(ثُمَّ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ) من الدعاء، والتبريك، ونحو ذلك، وهذا من دلائل نبوة النبي ﷺ.

(وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ رَجُلًا أَوْ ثَمَانُونَ) هذا يدل على أن البركة من الله، إن شاء أن يبارك في القليل كفى، وإن شاء أن ينزع البركة الكثير لا يكفي، ربما تجد الإنسان من الأغنياء ما عنده شيء، تذهب البركة من بين يديه، وربما تجد الرجل من الفقراء، وبارك الله عزَّ وجلَّ في القليل.

وفي الحديث الآخر فيه ما كان عليه النبي ﷺ من ربط بطنه من الأحوال البشرية؛ لأنه ﷺ بشر، يعطش ويجوع، وربما أصابه البرد، وربما أصابه الحر، إلى غير ذلك.

وفيه العمل بالقرائن، إذ أنهم عرفوا أن النبي ﷺ جائع من ربط البطن.

وفيه جواز قول الرجل لزوج أمه: يا أبتاه، هذه فائدة، لأنه في منزلة الأب.

فبادر أبو طلحة لإكرام رسول الله ﷺ، وهي والله أعظم كرامة أن يكون ضيف المسلم مثل رسول الله ﷺ.

الشاهد أن هذه الأحاديث التي قرأناها في عدة مجالس كلها تدل على أهمية الزهد في الدنيا، وأن الدنيا لو كانت مكرمة بحد ذاتها لنالها رسول الله ﷺ، وأصحاب النبي ﷺ، وأنت ترى ما كان عليه النبي ﷺ وما كان عليه أصحاب النبي ﷺ من القلة، حتى أن بعضهم يهتم الضيف، يهتم إطعام الاثنين والثلاثة.

ونحن والله الآن في خير عظيم، الفقير ربما يستطيع يطعم عشرات، حتى وإن تعذر الشيء للقلة يستطيع أن يأتي بالطعام الخفيف بثمان زهيد، فإذا اكتفى بالرزق مع الإدام، أو بالرزق مع الشطة وما في بابها، خير عظيم، وإذا أتى بشيء من الخبز مع الفول أو الفاصولياء، شيء عظيم، ربما يشبع أمه.

لكن في ذلك الزمان الله أعلم كأن هذه البقوليات كانت قليلة؛ لأن أصلاً الزراعات هذه كانت في الشام، كانت عند فارس، عند الروم، عند مصر، عند هؤلاء، وأيضا في اليمن كانت هناك زراعات، أما غالب الجزيرة ربما كانوا يقتاتون على الصيد، والزراعة قليلة؛ لأن البلدان تختلف، وأيضا كانوا مهاجرين، كانوا كثرة نزلوا إلى منطقة.

انظروا الآن مدينة الغيظة كم يعاني الناس من البحث عن البيوت، وعن المساكن، وعن غير ذلك؛ بسبب النزوح الذي حصل إليها، في ذلك الزمن لم يكن للمسلمين بلد يطؤونه إلا المدينة، فيأتي هذا من مكة، ويأتي هذا من غفار، ويأتي هذا من دوس، ويأتي هذا من بجيلة، ويأتي هذا من حضرموت، الناس يتوافدون إلى المدينة، فيكثرون.

وأغلب زراعة المدينة النخل، لم يكن عندها الزراعات الكثيرة، انظر إلى أكثر الخبز الذي كان عندهم الشعير، ما كان عندهم الحنطة، وما كان عندهم كذلك هذه

البقوليات، ولا هناك مصدر للصيد، إلا من كان على البحر، وإلا ربما إذا أخذ سمكة تفسد عليه، وإذا صاد يصيد الشيء يسير.

أما الآن بفضل الله عَزَّوَجَلَّ تسرت سبل النقل، وسبل الحفظ، فعلينا أن نحمد الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تشغلنا هذه المطاعم وهذه الملابس وهذه المساكن عن توحيد الله، وعن متابعة رسول الله ﷺ، وعن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وطاعة رسوله ﷺ.

ما حرمها الله علينا، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢]، لكن الإشكال أن كثيرا من الناس يشغل بالدنيا على الآخرة، يشغل بملبسه عن طاعة الله، يشغل بزوجه عن طاعة الله، يشغل بولده عن طاعة الله، يشغل بمأكله ومشربه عن طاعة الله، ما هكذا يا أخي، الله عَزَّوَجَلَّ خلق كل هذه الأشياء؛ لتستعين بها على طاعة الله، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: ٦٥]، فالله عَزَّوَجَلَّ سخر لنا كل ما في الأرض؛ لنوحده، ونقر له بما هو له، في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وإن نلتزم شرعه.

ولذلك لما كان الآخرة دار جزاء كان أهل الإيمان فيها على أكمل الوجوه مطعما ومشربا، ومأكلا وملبسا، ومنكحا، ومسكنا، إلى غير ذلك.

فالله الله عباد الله في طاعة الله، وعدم التأثير بهذه الزخارف الدنيوية، التي لو كانت خيرا لكانت لرسولنا ﷺ مكرمه، ولكانت لأصحابه مكرمة، لكن الواقع أن الله أكرمهم بالإيمان، وأكرمهم بالإحسان، وأكرمهم بالعلم والعمل، ﴿يَلٰكُ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: ١٣٤] من الخير، لها ما كسبت والله من الخير والرفعة، ونسأل الله أن يغفر لنا ولوالدينا والمؤمنين.



٥٧ - باب القناعة والعفاف والاقتصاد في المعيشة والإنفاق وذم السؤال من غير

ضرورة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [سورة هود: ٦].
 وقال تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا
 فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا
 يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣].
 وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾
 [سورة الفرقان: ٦٧].
 وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ
 أَنْ يُطْعَمُوا﴾ [سورة الذاريات: ٥٦-٥٧].

الشرح:

(القناعة) عما في أيدي الناس، «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه».

(والعفاف) «ومن يستعفف يعفه الله»، «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»، وليست فقط عفة المأكل، عفة النفس، عفة السمع، عفة البصر، عفة المطعم والمشرب، عن كل ما يؤدي إلى غير ذلك.

(والاقتصاد في المعيشة) بغير سرف، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤١].

(وذم السؤال من غير ضرورة) كثير من الناس يكسبون الآن من المسألة، بل يلحفون في المسألة، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣].

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، فعليك أن تعتمد على الله عزَّجَلَّ في جلب رزقك، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: ٥٨]، وفعل الأمور التي تؤدي إلى الرزق الحسن.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، الآية، فقراء، وأحصوه عن العمل، ومنعوا منه، إما للجهد أو لغيره.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾، للتكسب والتجارة، ونحو ذلك.
﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾؛ يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء؛ لعفتهم، وعدم تطلعهم لما في أيدي الناس.

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾، أي: بعلاماتهم.
﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾، إن احتاجوا وسألوا لا يشددون في المسألة، يكون عندهم حياة.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾، وسط، العدل الخيار، ينفق، لكن لم يسرف فيجاوز، ولم يقر فيضييق؛ لأن الناس ثلاثة أصناف في باب الإنفاق: بخيل، مذموم، مسرف، مذموم، بين ذلك هذا هو الممدوح، والنبي ﷺ يقول: «كل واشرب، والبس وتصدق، من غير إسراف ولا مخيلة».

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾...، فما عليك إلا أن تتفرغ لعبادة الله، مع فعل الأسباب الشرعية للرزق، وأبشر من الله عزَّجَلَّ بالسعة والخير.

وَأَمَّا الأحاديث، فتقدم معظمها في البابين السابقين، وما لم يتقدم:
٥٢١ - عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ». متفقٌ عَلَيْهِ^(١).
(الْعَرَضُ) بفتح العين والراء: هُوَ الْمَالُ.

الشرح:

يقول: ليس الغنى الممدوح الحقيقي عن كثرة المال، كم من إنسان المال بين يديه وهو فقير! يصبح عبدا للمال، لا ينفقه في وجهه، بل ولا يتمتع به، ربما كان بخيلا على ولده، وبخيلا على زوجته، وبخيلا على ضيفه، وربما منع منه السائل والمحروم، وربما منع حق المال من الزكوات المفروضات.
ولكن الغنى الحقيقي غنى النفس، القليل يكفيها، والكثير لا يطغيها.

٥٢٢ - وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزَقَ كَفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ». رواه مسلم^(٢).

الشرح:

(قد) تفيد التحقيق.
(أفْلَحَ) وفاز وحصل على المطلوب، وسلم من المرهوب.
(مَنْ أَسْلَمَ): دخل في الإسلام؛ لأن به الفوز في الدنيا والآخرة.
(وَرَزَقَ كَفَافًا) رزق قليلا يكفيه، لا يحتاج أن يسأل غيره، فيكفيه، ويكفي ذريته، ويكفي ضيفه.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٢) انظر الحديث (٥١١).

(وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ) ليس عنده تطلع، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة طه: ١٣١]، وما أشد التطلع إلى أموال الغير! يصاب الإنسان بضيقه صدر، لا هو ممن حصل ذلك المال، ولا هو ممن ارتاح، بينما الذي لا يتطلع يرتاح، قد رضي بما قسم الله له وقدر.

فالقناعة كنز لا يفنى في جميع الأبواب، القناعة بالسنة كنز، والقناعة بالإسلام كنز، والقناعة بما معك من المال، وبما أنت عليه من الحال كنز عظيم.

٥٢٣ - وعن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَصِرٌ حُلُوٌّ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافٍ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» قَالَ حَكِيمُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أَفَارِقَ الدُّنْيَا.

فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو حَكِيمًا لِيُعْطِيَهُ الْعَطَاءَ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَشْهَدُكُمْ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرَضُ عَلَيْهِ حَقُّهُ الَّذِي قَسَمَهُ اللَّهُ لَهُ فِي هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ. فَلَمْ يَرْزَأُ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى تُوَفِّي. متفقٌ عَلَيْهِ. (١)

(يَرْزَأُ) بَرَاءٌ ثُمَّ زَايٍ ثُمَّ هَمْزَةٌ؛ أَيُّ: لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا، وَأَصْلُ الرُّزْءِ: النُّقْصَانُ، أَيُّ: لَمْ يَنْقُصْ أَحَدًا شَيْئًا بِالْأَخْذِ مِنْهُ.

وَ(إِشْرَافُ النَّفْسِ): تَطَلُّعُهَا وَطَمَعُهَا بِالشَّيْءِ.

وَ(سَخَاوَةُ النَّفْسِ): هِيَ عَدَمُ الْإِشْرَافِ إِلَى الشَّيْءِ، وَالطَّمَعُ فِيهِ، وَالْمُبَالَغَةُ بِهِ وَالشَّرَّه.

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).

(سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي) لكرمه صل الله عليه وسلم لم يكن يرد أحدا.
(ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي) وكان حديث عهد بالإسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
وهو من أقارب خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن حكماء العرب، ومن الباذلين للمعروف في
جاهليته وإسلامه.

انظر إلى حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول له النبي ﷺ: (إِنَّ هَذَا الْمَالَ) الذي
رزقكم الله إياه (خَضِرٌ حُلُوٌّ) يعني: كل الناس يتمنونه، ويصبون إليه، ويطمعون فيه.
(فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ) على أنه رزق من الله، بدون حرص، بدون
بخل، بدون إحصاء، بدون إيكاء.

(وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ) ووالله أن هذا أمر واقع، المال الذي
تستشرف له حتى وإن حصلت عليه ما فيه بركة، والمال الذي يأتيك بدون استشراف
وإن كان قليلا تجد بركته؛ لأن إشراف النفس يذهب البركة، فعلى الإنسان أن يكون
قانعاً راضياً.

(وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ) المال موجود، لكن كالذي يأكل ولا يشبع.
(وَالْيَدُ الْعُلْيَا) المنفقة (خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) السائلة، وأين كان حكيم من هذه
الوصية؟ كان في المحل الأعلى، فمن ورعه ترك الذي هو له، ترك الشيء الذي هو له
من الفيء، والغنيمة، والحقوق، حتى أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُشْهَدُ عَلَيْهِ النَّاسُ: أشهدكم
عليه ما يأخذ حقه.

٥٢٤ - وعن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَتَقَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَتَقَبَّتْ قَدَمِي، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، فَكُنَّا نَلْفُ عَلَى أَرْجُلِنَا الْخِرْقَ، فَسُمِّيتْ غَزْوَةُ ذَاتِ الرَّقَاعِ لِمَا كُنَّا نَعْصِبُ عَلَى أَرْجُلِنَا مِنَ الْخِرْقِ، قَالَ أَبُو بَرْدَةَ: فَحَدَّثْتُ أَبُو مُوسَى بِهَذَا الْحَدِيثِ، ثُمَّ كَرِهَ ذَلِكَ، وَقَالَ: مَا كُنْتُ أَصْنَعُ بِأَنْ أَذْكُرَهُ! قَالَ: كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ أَفْشَاهُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

الشرح:

أبو موسى رضي الله الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو عبد الله بن قيس .
هذا الحديث ساقه المصنف؛ لبيان ما نزل بالصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من القلة، وما كانوا عليه من ضيق الحال، ومع ذلك نصرُوا دين الله .
(خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ) هم عدد كثير، لكن هؤلاء الستة يعتقدون بعيرا، تصور لو أن كل واحد يمشي بالبعير اثنين كيلو أو قريبا من ذلك ما يأتي عليه الركوب الثاني إلا بعد اثني عشر كيلو متر وهو يمشي .
(فَتَقَبَّتْ أَقْدَامُنَا) من أسفلها لعدم وجود النعال (وَتَقَبَّتْ قَدَمِي) لذلك الأمر .
(وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي) ويا لله ما أشد وجع الأظافر إذا سقطت، هذا إذا كنت في بيتك، رأيتم قبل أشهر لما آلمني الظفر كنت أصلي أحيانا جالسا، وأحيانا ألم شديد ربما ما يأتيني نوم، ونحن في مدينة، ونذهب إلى الأطباء، ونستخدم المهدئات، أما هؤلاء في سفر، تساقطت أظافرهم .
والرجل إذا كان فيها جرح سبحان الله كل نكبة تقع فيها، في المكان الذي يؤلمك .
(فَكُنَّا نَلْفُ عَلَى أَرْجُلِنَا الْخِرْقَ) وما معهم خرق، هم يمشون في صحاري، غاية ما فيه الإنسان إذا معه إزار رداء، وبعض شيء .

(١) أخرجه البخاري (٤١٢٨)، ومسلم (١٨١٦) .

(فَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا الْحَدِيثِ ثُمَّ كَرِهَ ذَلِكَ) كان يحب أن يبقى هذا العمل مكتوما حتى يوافي به الله، ومع ذلك التحديث ببعض نعم الله عزَّوَجَلَّ لا على سبيل التبجح وإنما على سبيل الموعظة والإخبار لا حرج منه.

٥٢٥ - وعن عمرو بن تغلب - بفتح التاء المشناة فوق وإسكان الغين المعجمة وكسر اللام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِمَالٍ أَوْ سَبِيٍّ فَقَسَّمَهُ، فَأَعْطَى رِجَالًا، وَتَرَكَ رِجَالًا، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ أَتْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدْعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنِّي إِنَّمَا أُعْطِي أَقْوَامًا لَمَّا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكُلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْحَيْرِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ».

قَالَ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ: فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ إِلَيَّ بِكَلِمَةٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَمَرُ النَّعَمِ. رواه البخاري^(١).

(الهلَعُ): هُوَ أَشَدُّ الْجَزَعِ، وَقِيلَ: الضَّجَرُ.

الشرح:

(أَتَى بِمَالٍ أَوْ سَبِيٍّ فَقَسَّمَهُ) لأن النبي ﷺ كان يقسم الأموال على مستحقيها، السبي: من العبيد، إماء أو عبيد.

(فَأَعْطَى رِجَالًا، وَتَرَكَ رِجَالًا)؛ لأن المال لم يكن كافيا للجميع، وهذا حال الناس قديما وحديثا في باب الدعوة، أن كثيرا من المال قد لا يكفي الجميع، لكن بالمؤثرة وبالتجاوز، يعطى المحتاج.

(فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا) قد يقع في نفس المسلم، لكن اجعل عتبك بما لا انتقاد فيه، ولا سوء ظن، انظر الأنصار عتبوا على النبي ﷺ إذ لم يعطيهم، لكن ما طعنوا

(١) حديث رقم: (٩٢٣).

فيه، بخلاف ذو الخويصرة قال: اعدل يا محمد، والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله، هذا هو الشيء السيء.

(فَحَمَدَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَى عَلَيْهِ) إزالة لما وقع في الصدور، وهذا من حكمة النبي ﷺ؛ لأن بقاء الناس يخوضون في أمر دون علاج يؤدي إلى التنافر والتهاجر، والتقاطع والتدابير، ويتخذ الشيطان هذا الباب سبيلا لإفساد القلوب على بعضها، وسلامة قلوب المستقيمين أحسن من الدنيا بما فيها، والله لأن ننام بدون لحف أحسن من أن نلتحف جميعا مع تنافر القلوب، والشيطان حريص.

انظروا قبل أيام لما جاءت البطانيات القليلات أكثر الطلاب مرتاح، ولا قال: أريد بطانية، ولا أريد لحافا، صابر على ما رزقه الله، أمره طيب، فلما جاءت تلك البطانيات وإذا بالشيطان يوغر صدره، كأنه ما سيستقيم له حال إلا بالبطانية.

فالشاهد أن الشيطان حريص، فانظر النبي ﷺ وهو أعدل البشرية قسم ومع ذلك وقع في أنفسهم، لكن مع ذلك بادر إلى العلاج.

(أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدْعُ الرَّجُلَ) وهذا في كثير من الأمور، إلا إذا كان المجتمع كله يحتاج إلى تألف هذه حالة ثانية، وإلا الأصل أن الإنسان قد يعطي من حبه أدنى من حب الآخر.

(وَلَكِنِّي إِنَّمَا أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ) ربما الشيطان يدخل عليهم.

(وَأَكُلْ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ): غنى النفس ومحبة الخير.

(فَوَاللَّهِ مَا أَحِبُّ أَنْ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ) يعني هذه الكلمة تدل على تزكية له من رسول الله ﷺ، وأن النبي ﷺ يحبه، وإنما ترك إعطائه للمقصد الأول.

٥٢٦ - وعن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ». متفقٌ عَلَيْهِ ^(١)، وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم أخصر.

الشرح:

تقدم معناه، اليد العليا: المنفقة، خير من اليد السفلى: السائلة.
(وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ) أهلك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك.
(وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى) لأنه ما تذهب تتصدق وأهلك يحتاجون إلى صدقتك، إذا كان أهلك بحاجة إلى هذا الطعام ما تذهب تتصدق به، ابدأ بمن تعول.
(وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفُ اللَّهُ) يستغف عفا في أيدي الناس يعفه الله، يرزقه الله العفة والرضا.

(وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ) وقد يغنيه حقيقة، قد يغنيه غنى قلب، وقد يغنيه غنى حقيقي حسي، يفتح الله عليه بسبب إقباله.

٥٢٧ - وعن أبي عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُلْجِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ، فَوَاللَّهِ لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا لَهُ كَارُهُ فَيُبَارِكَ لَهُ فِيهَا أُعْطِيَتْهُ». رواه مسلم ^(٢).

الشرح:

يعني: إذا سألت سل، إن أعطيت شيئاً خذ، ما أعطيت شيئاً امض؛ لأن الإلحاف يؤدي إلى نزع البركة؛ لأنه إخراج، «ولا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه».
 وفيه أن الإنسان قد يبذل وهو كاره، ما يحب النفقة، لكن يحرص.

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤).

(٢) حديث رقم: (١٠٣٨).

قال النووي في "شرح على مسلم" (١٢٧/٧): مَقْصُودُ الْبَابِ وَأَحَادِيثُهُ: النَّهْيُ عَنِ السُّؤَالِ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ تَكُنْ ضَرُورَةً، وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي مَسْأَلَةِ الْقَادِرِ عَلَى الْكَسْبِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَصَحُّهُمَا: أَنَّهَا حَرَامٌ؛ لِظَاهِرِ الْأَحَادِيثِ، وَالثَّانِي: حَلَالٌ مَعَ الْكَرَاهَةِ بِثَلَاثِ شُرُوطٍ: أَنْ لَا يُذِلَّ نَفْسَهُ، وَلَا يُلَحَّ فِي السُّؤَالِ، وَلَا يُؤْذِي الْمَسْئُولَ، فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ هَذِهِ الشُّرُوطِ فَهِيَ حَرَامٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

٥٢٨ - وعن أبي عبد الرحمن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ**»، وَكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بَبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ**» فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا، وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ فَعَلَامَ تُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «**عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَاةَ الْخَمْسَ وَتُطِيعُوا اللَّهَ**»، وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيفَةً: «**وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**»، فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلِيَاكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ. رواه مسلم^(١).

الشرح:

هذا حديث عظيم، فيه اختصاص بعض الصحابة ببيعة خاصة.

وفيه بيعة النبي ﷺ، وأخذ العهد والميثاق على بعض الأمور؛ لأهميتها.

(فَعَلَامَ تُبَايِعُكَ؟ قَالَ: عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ): توحدوه، على التوحيد، وهو أهم ما يبايع عليه.

(وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا): الحذر من الشرك والتنديد، وهو أسوأ الأعمال المحبطة لحال الإنسان، دنياه وأخراه.

(وَالصَّلَاةَ الْخَمْسَ): لأهميتها.

(١) حديث رقم: (١٠٤٣).

(وَتُطِيعُوا اللَّهَ) في جميع أمركم بقدر الاستطاعة.
(وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا) فكان هؤلاء لا يسألون مطلقاً، أخذوا بالعموم، وإن كان الحديث ظاهره: لا تسألوا الناس شيئاً مما تستغنون عنه، لكن أخذوا بالعموم، وهذا فيه مبادرة الصحابة **رَضُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ**.

٥٢٩ - وعن ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ لَحْمٍ». متفقٌ عَلَيْهِ^(١).
(الْمُزْعَةُ) بضم الميم وإسكان الزاي وبالعين المهملة: القِطْعَةُ.

الشرح:

وهذا دليل فيه ترهيب لمن يسأل الناس بدون حاجة.
(لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ) تجره إلى الضرر.
(حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى) يوم القيامة.
(وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ لَحْمٍ) وسبحان الله لما كان وجهه يتغير ويذهب حياؤه وتذهب مروءته لكثرة المسألة يأتي يوم القيامة وليس فيه مزعة لحم، فعلى الذين يسألون الناس لغير حاجة أن يحافظوا على وجوههم، وأن يحافظوا على بهائهم، قبل أن يُفضحوا يوم تقوم الأشهاد، نسأل الله السلامة والعافية.

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

٥٣٠ - وعنه ^(١): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمُسْأَلَةِ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُتَّقَةُ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ». متفقٌ عَلَيْهِ ^(٢).

الشرح:

أي يرغب في الإنفاق، ويحذر من المسألة، على المنبر، ويأمر بالعفة، ويأمر بالصدقة.

٥٣١ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكْثُرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لْيَسْتَكْثِرْ». رواه مسلم ^(٣).

الشرح:

وهذا على الوعيد في سؤال الناس بغير وجه حق.

(مَنْ سَأَلَ النَّاسَ) أموالهم، أي: التي لا حق له فيها.

(تَكْثُرًا) أي: لزيادة ماله.

(فإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا) وإن كان صورته المال، لكنه في الواقع سيكون جمرا.

(فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لْيَسْتَكْثِرْ) يرحم نفسه، كما يحب، وهذا ليس على الإباحة، ولكن

على التهديد، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩].

(١) أي ابن عمر.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣).

(٣) حديث رقم: (١٠٤١).

٥٣٢ - وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ كَدٌّ يَكْدُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا أَوْ فِي أَمْرٍ لَا بُدَّ مِنْهُ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح^(١).
(الكند): الخدش ونحوه.

الشرح:

يعني: إن المسألة خدوش في الوجه.
(إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا) فالسلطان يجوز أن تسأله؛ لأن لك حق في بيت مال المسلمين، ولك حق عليه.
(أَوْ فِي أَمْرٍ لَا بُدَّ مِنْهُ) قد اضطررت إليه.

٥٣٣ - وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدِّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ، فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ». رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن^(٢).
(يُوشِكُ) بكسر الشين: أي يُسرِعُ.

الشرح:

والمعنى صحيح، (مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ) مجرب والله مجرب، أنك إذا أصابتك حاجة وأنزلتها بالناس تبقى تنتظر الفرج ما بش فرج، وإن كنت تظن أن فرجهم قريب، وإذا أنزلتها بالله يوشك أن يأتيك بفرج من حيث لا تحتسب.

(١) حديث رقم: (٦٨١)، وهو في (الصحيح المسند).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٣٢٦)، الحديث ضعيف، من طريق سيار، وهو أبو حمزة الكوفي، كما رجحه أحمد والدارقطني في (العلل)، وسيار أبو حمزة مجهول، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

ما بين غمضة عين وانتباتها يحول الله من حال إلى حال

فعلينا أن نصدق مع الله عَزَّوَجَلَّ في طلب رزقه، وفي انتظار فرجه، هو الذي يعطى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مهما أعطاك، ويكرمك فوقه، أما العبد إذا أعطاك اليوم شيئاً غداً يستكثره، وربما من عليك به، وربما بخل به، هكذا طبيعة الإنسان.

فعلي الإنسان أن ينزل حاجته بالله، يذكرون: أن سالم بن عبد الله وجدته بعض الأمراء وهو يطوف بالكعبة: لك حاجة يا سالم؟ قال: ما كنت لأسألك وأنا بجانب بيته، ثم لما خرج قال له: لك حاجة يا سالم؟ قال: من شأن الدنيا أو من شأن الآخرة؟ قال: من شأن الدنيا، أما الآخرة لا قدرة لي فيها، قال: أما الدنيا لم نسألها ممن هو يملكها، والآخرة سنسألها من الله، أو بمعنى هذا.

الشاهد أن الإنسان ينزل حاجته بالله، حتى وإن كنت ترجوا من أحدهم سلفة أو هبة أو صدقة أو عطية أو شيئاً من ذلك يكون تعلقك بالله، هو الذي يسخر لك، أما أن تعلق نفسك بالشخص هذا قد يكون من أسباب تأخر الرزق، واستبطاء الرزق، فلا أعظم من حسن الثقة بالله.

٥٣٤ - وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَاتَّكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» فَقُلْتُ: أَنَا، فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا. رواه أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ^(١).

الشرح:

(مَنْ تَكَفَّلَ لِي) أي: من يضمن لي نفسه؟
(أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا) قلَّ أو كثر، (وَاتَّكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ) ولا سواء، كفالة بالسعادة على شيء فاني، فبادر ثوبان بن بجدد خادم النبي ﷺ، فكان لا يسأل الناس شيئاً.

(١) حديث رقم: (١٦٤٣).

٥٣٥ - وعن أَبِي بَشِيرٍ قَبِيصَةَ بْنِ الْمَخَارِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالََةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «أَقِمَّ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا»، ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحْمَلُ حَمَالََةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمَسِّكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَنَحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَى مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ، أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُخْتُ، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُخْتًا». رواه مسلم ^(١).

(الْحَمَالََةُ) بفتح الحاء: أَنْ يَقَعَ قِتَالٌ وَنَحْوُهُ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، فَيُصْلِحُ إِنْسَانٌ بَيْنَهُمْ عَلَى مَالٍ يَتَحَمَّلُهُ وَيَلْتَزِمُهُ عَلَى نَفْسِهِ.

وَالْجَائِحَةُ الْآفَةُ تُصِيبُ مَالَ الْإِنْسَانِ.

وَالْقَوَامُ بِكسر القاف وفتحها: هُوَ مَا يَقُومُ بِهِ أَمْرُ الْإِنْسَانِ مِنْ مَالٍ وَنَحْوِهِ.

وَالسِّدَادُ بِكسر السين: مَا يَسُدُّ حَاجَةَ الْمُعْزِرِ وَيَكْفِيهِ.

وَالْفَاقَةُ: الْفَقْرُ، وَالْحِجَى: الْعَقْلُ.

الشرح:

قوله: (تَحَمَّلْتُ حَمَالََةً) أي أنه تحمل أموالاً في الإصلاح بين الناس من الديات ونحوها.

(فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا)؛ لأن النبي ﷺ كان سلطانهم، وصاحب بيت مالهم، وسؤاله من هذا الباب.

(١) حديث رقم: (١٠٤٤).

(فَقَالَ: أَقِمَّ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ)؛ لأن النبي ﷺ كانت تأتیه الزكوات، والغارم يصح أن يُعطى من الزكاة.

(ثُمَّ قَالَ: يَا قَبِيصَةُ) فيه وعظ الإنسان الذي في أمر من الأمور أن يتحرز، قد يكون يجوز له هذا الفعل، لكن تعظه من أجل أن يتحرز من التوسع.

(إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً) أي: ثلاثة أصناف، ليس ثلاثة رجال.

(رَجُلٌ تَحْمِلُ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا) فقط، لا يزيد، تحمل عشرة مليون يسأل عشرة مليون، ما يذهب يسأل بالعشرة المليون مائة مليون كما هو حال كثير من الناس.

(وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاَحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ) يعني حتى يستعيد نفسه، إن كانت الجائحة أخذت بيته يبنى له بيتا، أخذت سيارته أو استطاع أن يقيم بنفسه بعد ذلك يشتغل يتوقف.

(وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ): نزلت به حاجة شديدة.

(حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَى) سبحان الله! في السرقة يكفي شاهدان، في إثبات المال يكفي شاهدان، في كثير من الأمور يكفي شاهدان، وهنا ثلاثة، وأيضا يشترط فيهم أن يكونوا من ذوي العقول؛ حتى لا ينطلي عليهم التليس.

(فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتُ) والنبي ﷺ يقول: «أَيُّمَا لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سَحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ».

٥٣٦ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمَسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرْدُهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمَسْكِينَ: الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ». متفقٌ عَلَيْهِ^(١).

الشرح:

وإن كان هذا مسكين، إلا أنه ليس مثل هذا المسكين، يعني: المسكين الذي يسأل مسكين، لكن ليس مثل هذا المسكين الذي تعفف عما في أيدي الناس، وزد على ذلك: ما عنده شيء، لا لقمة ولا عنده لقمتان، وزد على ذلك أنه لا يتفطن له.



(١) انظر الحديث (٢٦٤)

الفهرس

- ٢٧ - باب تعظيم حرمت المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم
ورحمتهم ٣
- ٢٨ - باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة ٣٧
- ٢٩ - باب قضاء حوائج المسلمين ٤٤
- ٣٠ - باب الشفاعة ٥١
- ٣١ - باب الإصلاح بَيْنَ الناس ٥٥
- ٣٢ - باب فضل ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين ٦٨
- ٣٣ - باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين والمنكسرين
والإحسان إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم وخفض الجناح لهم ٨٥
- ٣٤ - باب الوصية بالنساء ١٠٠
- ٣٥ - باب حق الزوج عَلَى المرأة ١١٤
- ٣٦ - باب النفقة عَلَى العيال ١٢٦
- ٣٧ - باب الإنفاق مِمَّا يَحِبُّ ومن الجيّد ١٣٣
- ٣٨ - باب وجوب أمره أهله وأولاده المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله
تعالى ونهيهم عن المخالفة وتأديبهم ومنعهم من ارتكاب مَنْهِيٍّ عَنْهُ ١٣٨
- ٣٩ - باب حق الجار والوصية بِهِ ١٤٦

- ٤٠ - باب بر الوالدين وصلة الأرحام..... ١٥٧
- ٤١ - باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم ١٩٥
- ٤٢ - باب فضل بر أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة وسائر من يندب إكرامه ٢٠٨
- ٤٣ - باب إكرام أهل بيت رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وبيان فضلهم..... ٢١٥
- ٤٤ - باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم عَلَى غيرهم ورفع مجالسهم وإظهار مرتبتهم ٢٢٣
- ٤٥ - باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهُم ومحبتهُم وطلب زيارتهُم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة ٢٤٠
- ٤٦ - باب فضل الحب في الله والحث عَلَيْهِ وإعلام الرجل من يحبه، أَنه يحبه، وماذا يقول لَهُ إِذَا أَعْلَمَهُ ٢٦٠
- ٤٧ - باب علامات حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى للعبد والحث عَلَى التخلق بِهَا والسعي في تحصيلها..... ٢٧٦
- ٤٨ - باب التحذير من إيذاء الصالحين والضعفة والمساكين..... ٢٨٥
- ٤٩ - باب إجراء أحكام الناس عَلَى الظاهر وسرائرهم إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .. ٢٨٨
- ٥٠ - باب الخوف ٢٩٦
- ٥١ - باب الرجاء ٣٢٦

- ٥٢ - باب فضل الرجاء ٣٧١
- ٥٣ - باب الجمع بين الخوف والرجاء ٣٧٨
- ٥٤ - باب فضل البكاء من خشية الله تعالى وشوقاً إليه ٣٨١
- ٥٥ - باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر . ٣٩٢
- ٥٦ - باب فضل الجوع وخشونة العيش والاعتصار على القليل من المأكول والمشروب والملبوس وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات ٤٣٣
- ٥٧ - باب القناعة والعفاف والاقتصاد في المعيشة والإنفاق ودم السؤال من غير ضرورة ٤٨٩
- الفهرس ٥٠٦